S A L A H   S A L A H

رواية
NOVEL

صلاح صلاح

تحت سماء الكلاب



تحت سماء الكلاب

تحت سماء الكلاب / رواية عربيّة
صلاح صلاح / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف :
سعد داوود / العراق
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-781-7

NOVEL

صلاح صلاح

تحت سماء الكلاب

برج بابلي

ا ل م وت . موت . . موت . . الأغنيات . . أغنيات . . جوع . . جوع . حكي مصنوع من حصى وافتراءات ، ثم وجوه مصنوعة من خطايا وبغايا لأيام متورمة مثل كيس القواد .

هذا الصباح ابتسمت في زاخو بعدما أحسست طيلة الأيام الماضية بطعم الانغلاق المر واللاذع . حاولت في البدء أن أعرف سر هذا الأستكناه والرغبة في الابتسام ، هل هو بسبب خبر أو نبأ عاجل من التي تعودنا عليها طيلة أعوام القسوة ؟

لم أعرف في واقع الحال هذا السر . طيلة الرحلة العميقة والطويلة بين الجبال ، من سهل أربيل والى الآن ، مرورا بعنف اللذة التائهة في شوارع أربيل ، ثم شقلاوة ، وبعد ذلك دهوك وحتى المستقر الآتي في مدن العقارب واللسعات المميتة .

في زاخو ، المدينة التي تنزعها صبغات اللون واللكنة والطبائع المغادرة للسلطة وصولاً إلى الطبع الحالي . مدينة الأشياء العابرة . هكذا فكرت ، ربما وأنا أستنطق أجساد العصافير المنهوشة والعائمة في هواء بلا لون أو

طعم غير طعم المرارة الملاحق لفمي ، من سهل أربيل وحتى هذا المكان .

ربما كانت رواية هرمان هيسة (دميان) على سبيل التذكر هي السر ، حيث يجول هيسة في نذر الحرب . لكن لا حرب هنا غير حرب البغايا واللصوص والسماسرة وأعضاء الأحزاب التناسلية .

موت . . موت . هنا يمكن لي التوقف مستعيدا تلك الحاسة المشتركة للبشر والمتعلقة بتذوق نكهة الموت المتبرعم على الأحجار والأشجار والعصافير ، من سهل أربيل وحتى انحناءات الفيش خابور في زاخو ، شكل الموت والإحباط إذن هو السر . حينما فكر دميان بهجر المرأة ، فإن ذلك كان اتجاها للضياع وللاشيء . ما هي المقاربات إذن ؟ ماهو طعم الموت والقسوة عند حدود طريبيل وانت مغادرٌ المتاهة لتفاجأ بشكل السماء الداكن الزرقة في الجانب الأردني . السماء هي المساحة الساقطة من الجيوب المثقوبة بالألم . مابين طريبيل والرويشد مساحة ضائعة وقصيرة للحلم . هناك زرقة عميقة للسلام وهنا صبغة قاتمة للقسوة والخوف والأحلام الفاترة والمؤجلة .

في مشهد ٣١ آب عام ١٩٩٦ ضاعت اختيارات الحزن العادي لمحمود درويش ومجموعة من أصدقائنا . ضممت حجرا محاولا تزويقه بالحب ، لكن الموت كان قد أنشب . هكذا مات رياض إبراهيم على مسلة الزمن ، فتهنا في تلك الأيام أكثر من المتاهات السابقة . بعض الأصدقاء كانوا يحاولون إيجاد ثغور لسنونوات ، أعشاش للحب المغادر على خيانة ١٣ آب ، لكن السنونوات كانت تغادر الربيع المفترض أن تعيشه بيننا . آخرون من الأصدقاء قبلوا الموت بسكون ، التفوا ببطانيات ممزقة ثم حملتهم العسس الليلية بحماية بيشمركة مسعود بارزاني . أين ذهبتم بهم أيها الموغلون بدم الأصدقاء ؟ لكنهم لايجيبون ، بل يبتسمون ويضحكون للمدى الأرعن

الغارق بخياناتهم . مدى أسود حينما يتقدم رجال الأمن الصدامي من أجل القبض على الأصدقاء في اربيل . خيول مطهمة بلوثة الخيانة وسهول غارقة في حزن أسود مأفون بالموت . ها أنا الأن أنسى أو أتناسى محنة سماوات الرويشد وطريبيل ، ذلك أن الموت هنا يوزع مجانا وملفوفا ببطانيات ملونة زودنا بها بيشمركة مسعود . في المحنة الرقطاء المأخوذة صفاتها من صفات الضباع ، تذكرت أشياء بسيطة حسب ، فيما نسيت العديد من هذه الأشياء الأخرى ، على سبيل المثال ، أحسست بطعم الخراء الذي ذكره غارسيا ماركيز في خريف البطريرك ونسيت الأيام التالية حينما يقفز الجنرال على قحابه . المشكلة هنا أن الحدث كان أكبر من التذكر والتبرعم الذي غلف المدينة . في ذلك الصباح ، وقبل خروجي الندي ، تأملت مسرى المياه على أرصفة المدينة ، الكثير من أهالي أربيل جلسوا القرفصاء عند نواصي الشوارع وعلى أرصفة الدروب الصغيرة بانتظار الهاجس . ومثل أي إنسان غير متآلف مع الوعي والمكان ، اجتزت دروب المدينة المنداة . صباح آخر من الورد الضائع العصي على التذكر . كانت رائحة السماء غبية فيما يسرع آخرون نحو متاهات ومخارج العصافير الشاردة والقلقة . توقفت عند مفترق طرق شارع الستيني . في متاهة العصافير تلك كنت أشبه بالهائم أو التائه ، ها أنا التائه الأبدي في دروب الضياعات . كان إحساس الضياع يضرب في مثل عاصفة . كل شوارع أربيل كانت مغلفة بالخراء والبعرور ، قطعان الأبقار كانت تهرول بمعية الناس ، وحدي أنا المتبقي وحيدا مع العصافير ، كانت العصافير مرتبكة هي الأخرى لكنها لم تغادر السماء الطنانة بشبح مجهول . مجموعات من الأكراد تهرول في الشوارع ومجموعات أخرى تجلس القرفصاء على الطريقة الكردية بانتظار القادم المجهول . بالنسبة لي ، بمفردي

بقيت بصحبة ارتباك العصافير ، مررت بعد أن نظرت في عين عصفور شائه صغير سقط دون سابق إنذار ، على بعض الزملاء في إذاعة الملكية الدستورية ، ثم دلفت بعد ذلك إلى مقر الحزب الوطني . في المقر شربنا شاي القلق والتحليل ، بعد ذلك بدأت أصوات قاسية متباعدة في وخزنا مستثيرة فينا عشرة أعوام من الحرب واللاحب . اقترب صوت القذائف أكثر وشعرت أن الزوجة والأطفال بحاجة إلى أن أكون بقربهم . صوت القذائف المتساقطة كان غريباً وأدخلني في نوبة الشعور بالغثيان أو الشعور بالاستسلام ، شعور مركب من اللاوعي والإحساس بالضياع . . انهمرت طلقة مدفع ، فتوزعنا على الأماكن الصلبة من المقر . هممت بالخروج سريعا وفكرت أن أترك رقم هاتف المنزل ، ولم أنتبه إلى شكل الموت المرسوم على الوجوه ، الموت له أشكال مختلفة ، أشكال غريبة ترتسم على وجه الضحية ، نوع من الاستسلام الحذر يسيطر على الجسم في لحظة معينة ثم تموت بعد دقائق أو ساعات . أذكر في الحرب العراقية الإيرانية ، أن أحد الأصدقاء زارني في المخبأ قبل أن يرحل إلى المرصد المتقدم . جلس الصديق هادئا لكن حزينا ، كان حزنه يرسم وجهه وثمة إملاءات للاستسلام تغزو وجهه . لم أنتبه وقتها إلى تلك الملامح الجافة ، الملامح العالقة في الأرض التي سيعود اليها حتما ، كان وجهه وجسده وروحه هائمة ، وكان الاستسلام الغريب لما سيحدث كبيرا على وجهه . بعد أن غادر بساعات سمعت عبر جهاز المخابرة أن قذيفة أصابته في وجهه فلم يبق منه شيء حتى على سبيل الذكرى . في تلك الليلة سرحت كثيراً أتامل وجهه ، أتأمل ابتسامته الخجلة ونظراته إلى التراب وأرض الملجأ ، ثم أغنياته الحزينة . كل شيء كان يوحي بموته ؛ الأرض ، التراب ، الوجه ، الفم ، العينان ، وحتى ذؤابة الشعر المنسرح على جمجمته . للموت دائما

وجه غريبا وموح . بعد أن قضيت أشهرا طويلة في الحرب ، صرت أعرف الأموات أو الذينً كانوا ينتظرون دورهم بحزن شفيف واستسلام الضحية .

في مقر الحزب الوطني انتبهت إلى شكل الموت ، أحدهم كان مبتئساً لأنه لم يكن يريد مزيدا من الرصاص وهو الهارب من الحروب إلى موقع الحرية المفترض ، هذا الوجه تمنطق بسلاحه لكنه كان حزينا وقلقا لأن لا مزيد من الذخيرة في مخزن سلاحه . حينما لا تكون لديك ذخيرة كافية فهذا يعني أنك بانتظار الموت قتلا ولا فرصة للنجاة . هل تشبه العصافير ، لا أدري على وجه التحديد ، لكنك فعلا تكون في وضع مشابه . أنت عرضة للاصطياد والتصويب ، ربما سيتسلى أحدهم في اصطيادك بطلقة واحدة ، وربما سيكون القاتل ساديا جدا فيملأ جسدك بالرصاص ، كل شيء مرهون بكيس عتادك وبنزعتك الذاتية للموت أو اللاموت .

خرجت من مقر الحزب الوطني بعد أن تركت رقم هاتفي ليتصلوا بي عند الضرورة . وكم كنت غبياً . إذ إن الجميع كان يعرف أن الجيش العراقي على وشك دخول المدينة إلا أنا ، لم يكن هذا ذنبي ، إذ لم يخبرني أحد في الجريدة عن الأحداث ، السورانيون لا يقولون شيئا ، مجتمع مغلق ، فلم يحذرني أحد من الكارثة المتربصة بي وببعض الأصدقاء العرب العاملين في الجريدة ، كل السورانيين كانوا يعرفون إلا أن أحداً لم يحذرنا . كم كنا نشبه العصافير الطائشة والمغامرة ، تلك العصافير التي تقترب من الصياد دونما خوف لتسقط دونما وجل في الشباك . قذائف المورتر كانت تتساقط بشكل متقطع للغاية ، لم أسمع غير صدى لقنبلتين أو أقل . ولم أسمع دوي رصاص ، كل شيء لم يكن يوحي بمعركة ، حتى الأكراد لم يكونوا يهتمون بذلك ، حيث جلست الغالبية منهم القرفصاء في الساحات ورؤوس الطرقات بانتظار القادم ، وكأنما هناك فيلم سينمائي على وشك

العرض . أي فيلم مسلٍّ كان يجري تصويره بمعية هؤلاء الناس الذين عرفت فيما بعد أنهم ليسوا إلا أتباع البارتي (الحزب الديمقراطي الكردستاني) بانتظار قدوم الجيش لينهي سيطرة جلال الطالباني على أربيل .

صارت أصوات القنابل المتباعدة أقرب ، قنبلة وقعت في حي سكني قريب نسبيا جعلتني أعجل في العودة إلى المنزل . في تلك اللحظات شعرت بضياع صور الأصدقاء من ذهني ، الذي كان يشبه شبكة واسعة الفتحات ، كل الأشياء تتساقط ، كل الأشياء تضيع دون أن أكون قادرا على التقاطها ، أو حتى البحث عنها في ملامح المعمعة الآتية على حين غرة . سرت في شارع الستيني ، لم أفكر في الاستثناءات المرة ، الاستثناءات من الهروب أو الضياع ، الأصدقاء تتساقط صورهم عجلى من الذهن ، أين يمكن أن يكونوا ، أين يمكن أن يكون إسماعيل شاكر الرفاعي أو رياض إبراهيم ، اين سأهرب في هذه المعمعمة ، كنت أفكر في الذهاب إلى الجريدة لكن لم تكن هناك وسيلة نقل توصلني إليها ، أين يمكن أن أجد الدكتور البصري ، الوحيد الذي يمكنه أن يعلمني متاهة الخروج من هذه المعمعة والاضطراب الذي أغرق فيه . أين مسالك الهروب ، لم أكن اعرف بالخارطة التي يمكن أن أسير عليها ، البوصلة معطلة وقانون الجذب العام معطل هو الآخر ، رياض إبراهيم جاء قبل هذا اليوم بيوم واحد أو يومين ، زارني في جريدة الاتحاد التي يصدرها حزب جلال الطالباني ، جلسنا نتحادث ، شربنا شاياً كردياً معتقا ودخنا تبغاً حاداً بعد أن عملناه على شكل لفافات مضطربة . ها أنا أشعر بالضياع العارم ، الأشياء حولي تتحرك متساقطة ، فيما أنا لا أعرف ماذا أفعل ، شعور بالاستسلام أخذ يهيمن علي . في الليلة الماضية كنت في مقر جريدة الاتحاد حيث أعمل ، بقينا لساعة متأخرة . كان كل شيء يجري بشكل عادي جداً ، لم تكن

هناك أية إشارة لما يحدث الآن ، كان آخر خبر تسلمناه في الجريدة يتعلق بأحداث عالمية ، تم تحرير الخبر ثم سرت متمهلا في الباحة الخارجية . كان هذا المكان سابقا مقراً لمنظمة حزب البعث ، أما اليوم فإنه تابع لإعلام الاتحاد الوطني ، الأشياء تختلف أحيانا لكن المسميات تمارس في بعض الأوقات تأثيرا على الأمكنة . سرت متمهلا في الباحة الخارجية ، كان زميلي يتمعن بشدة في حركة السيارات الفخمة لقادة الاتحاد وهم يتجمعون في مقر الجريدة ، صديقي الصحفي الكردي كان يتأمل دون أن يحدثني عن شيء أو يفسر لي مايجري . الحركة غير طبيعية ، لكن صديقي كان ينظر فقط بالرغم من أني لمحت في عينيه ثمة قلقا خفيا ، لكنه لم يرد أن يحدثني ، شعرت وقتها بلا وعي وبوهم كبير ، هذا الحاضر الملعون والسائر بتمهل يقتلني ، يجعلني أتيه في الأسماء والأمكنة المغلقة لمديريات الأمن العام وهم يسحلوك كأي جيفة نتنة ثم يرمونك في الزنزانة المنفردة لتتعتق . هاأنا اليوم هارب منهم ، لكنهم يقتربون . بالأمس صرح جلال الطالباني بأنه سوف يجعل من مسعود بارزاني ينظر إلى أربيل بالمنظار المكبر فقط . الكل ضحك من قوة الهزء بمسعود بارزاني ، المام جلال كان يتحدث بلغة أسطورية ، لغة تنم على القوة المفرطة بمقاتليه ، القادة الأكراد لا ينظرون إلى العالم بمنظار التحليل أو توازن القوى أو الثوابت ، دائما السياسة الكردية قائمة على قوة التحالف مع الغير ، والمصيبة أنهم يفشلون في كل مرة ، الأكراد البسطاء يصدقون قادتهم بشكل خرافي ، يعتبرونهم بمنزلة الأنبياء فيما القادة يضحكون على ذقونهم وبساطتهم . لم أشاهد مجموعات بشرية في حياتي بمثل الذي أراه اليوم هنا . لا معارضة ولا أسئلة توجه إلى هؤلاء القادة من مثل إلى أين تقودوننا أيها الأغبياء المقدسون .

أحسست بطعم المرارة القاسي وأنا أفكر بهؤلاء الناس ، ثمة إحساس بالثورة على هذا الزيف النتن الذي يغلف الأمكنة والأرواح . كنت أريد أن أقف في منتصف الشارع الستيني وأقول ، هلموا إلي أيها المتعبون ، هلموا إلي أيها الفقراء لأريكم سوءة رؤساءكم الذين يأكلون الكافيار ويخزنون الذهب بديمقراطية عظيمة ، فيما أنتم تبحثون عن لقمة الخبز وقدح اللبن الأربيلي (الماستاو) فلا تجدون .

زميلي كان مسمراً وهو ينظر إلى السيارات الفارهة . ينظر بعمق ودراية ، لكن لم يكن يحدثني عما يجري ، ولم أحاول أن أسأل عن شيء محدد لأنني ببساطة لا أعرف ماذا يدور . للإنسان بشكل عام والكردي بشكل خاص ميزة إخفاء الأسرار . هو لا يقول لك شيئا . لا يحدثك عما يمكن أن يحدث . أخذت أتذكر أبو أسو ، الشخص القيادي في الاتحاد الوطني ، والذي استقبلني وعائلتي بعد وصولنا إلى أربيل . لم يحدثني هو الآخر عن مجريات الأمور ، عما يحدث أسفل الطاولات أو خلف الكواليس .كنا نشرب الشاي وكان هو(يدشلم) ، لكنه لم يتحدث بشيء عن مجريات الحرب الجديدة التي تدور على جبال بعيدة بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية بين جماعة جلال طالباني وجماعة مسعود بارزاني - الحزب الديمقراطي الكردستاني - كانت جماعة جلال قد بدأت الحرب بأن دخلت الأراضي الإيرانية بالتعاون مع المخابرات الإيرانية (الاطلاعات) لتقوم بالالتفاف على جماعة مسعود ، وحدثت معارك قاسية هناك . تحالف جلال مع الايرانيين فيما تحالف مسعود مع الأتراك . وفي ذلك اليوم ، يوم بدأت المعارك ، صرح جلال بتصريحه الكبير والمتشفي بمسعود الذي سوف لا يمنحه فرصة النظر إلى أربيل إلا عبر منظار مكبر . كان جلال محقاً في تصريحه هذا ، إذ أخذت تتدفق على أربيل

أسلحة إيرانية جديدة وكثيرة ، كذلك دخل الإيرانيون إلى مسافات هائلة في العمق العراقي ووصلوا إلى حدود معسكرات اللاجئين الأكراد القادمين من إيران ، والذين بدأوا بقصفهم بشدة بالهاونات والراجمات . المساكين لم يكونوا يعرفون أين الهرب بعد أن باعهم جلال بثمن رخيص جدا . الشيء المهم الذي لاحظته دائما هنا ، أن القادة الأكراد لا يثبتون على ولاء ، وبإمكانك شراؤهم بثمن رخيص جدا ، كأن تمنحهم أسلحة قديمة أو جوارب أو بذلات مرقطة .

كانت السيارات الفخمة للقادة الأكراد الذين يزورون عادل مراد مسؤول الإعلام لحزب جلال ، مثار اهتمام لزميلي الذي كان ينظر إليها بوله غريب . لا أدري لم راودتني فكرة أن لا شيء حقيقياً مما يحدث أمامي ، نعم لا شيء حقيقياً ، السيارات الفخمة ، المكاتب الرائعة . أجهزة الاتصال الاسرائيلي ، كل شيء كان يبدو مجرد كذبة ومن الممكن أن يتهاوى كل شيء في أية لحظة . لم أكن اعرف أن هذا سيحدث فعلا ، كان نوعا ما من النبوءة القاتلة والمرة . لكن أبو أسو لم يحدثني عن شيء عندما زرته في اليوم الذي سبق اجتياح الجيش لأربيل ، بل على العكس كان ينظر بتمعن إلى الأغاني التركية على جهاز الستلايت ويضع قطعة السكر في فمه ثم يشرب الشاي بتمهل ، كان فخورا جدا بالنجاحات التي تحققها قوات جلال على بيشمركة مسعود . مسعود الذي هزم في كل معاركه مع جماعة جلال الطالباني ، هكذا تكلم أبو أسو وطمأنني وهو يوصلني بسيارته البي ام دبليو إلى مقر الجريدة ، حيث قال لي إنه إذا حدث شيء فسوف ينقذني بسرعة . اطمئن كاك صلاح ، الاتحاد الوطني حزب قوي جدا وسوف ينتصر على جماعة مسعود . كانت الأخبار الواردة من جبهات القتال تشي هي الأخرى بقوة جماعة جلال ، حيث أخذ

يحقق انتصارات على الأرض ، أما جماعة مسعود فكانت تتراجع في اندحارات متواصلة . كان الايرانيون يقبعون خلف قوات جلال ويساعدون بالمدفعية الثقيلة وباقي الأسلحة الثقيلة ، لذلك تبعثرت جماعة مسعود وبدأت بالتراجع والانكسار . كانت هناك أعداد هائلة من القتلى من الجانبين ، لكن المحزن هم أولئك اللاجئون من إيران . كنت أشعر بالحزن على مصيرهم ولم أكن اعرف أن القادم سيحولني إلى شبيه بهم .

أشعلت سيجارة وناولت زميلي الصحفي الكردي واحدة . كان طبع آخر خبر يتم الآن ، فيما نحن نتمشى في الباحة الخارجية . امتصصت جرعات مضاعفة من السيجارة ثم رميتها بتوتر بالغ . قال لي زميلي إن علي أن أطمئن لأن لا شيء سوف يتغير ، بعد ذلك تركني وذهب ليتابع عملية المونتاج .

مع برد أربيل اللذيذ والخدر ، تتنامى روح الضياع ، هذا الضياع الممزوج باللذة والابتئاس ، اللذة في الخوف والابتئاس من الإهمال واللاجدوى . كيف يمكن لك أن تضيع ، دعني أقول لك ، حينما تشعر بفقدان الأحبة أو تشعر أنك بعيد جدا عن أصدقائك أو أنك بلا حول ولا قوة ، يتولد الإحساس بالوحدة . أنت تعيش في مجتمع مغلق ، مجتمع متوحد وغارق في وحدة قاسية ومرة . لا يمكنك أن تدخل فيه لتستنبط كينونتك ، ليس هناك شيء استثنائي بالمرة ، الأكراد مجتمع مغلق بشكل كبير جدا ، الأحزاب الكردية تمارس هذه الوحدة وتفرضها على الناس بشكل ديكتاتوري ، لذا ينظر الكردي اليك لكنه غير قادر على الإجابة عن تساؤلاتك . ولهذا السبب أيضا يجلس السوراني إلى الحائط بانتظار حكمة الأحزاب التي تمارس الخديعة عليه بشكل مخيف ومقزز .

في بيروت ١٩٧٩ ، وتحديدا في الشهر السادس ، ازدادت طلعات

الطيـران الاسـرائيلي فـوق بيـروت . انتـشـر المقـاتلون الفلسطينيـون في الفاكهاني ، أشبال الثورة مسكوا خطوط البحر ، أما نحن ففي وسط ليلة ندية مثل تلك التي عشناها في أربيل ، جاء مندوب من الجريدة (نضال الشعب) إلى الشقة التي نعيش فيها ، والواقعة قبالة المدينة الرياضية . قال المندوب إننا يجب أن نحضر حالنا ومن الأفضل لنا أن ننزل إلى الملاجئ ، أنتم ضيـوف ولستم خبـراء في المنطقـة . كنت أنا من العـراق وزميلي من الأردن والآخـر من ألمانيـا . . قلنا إننا لا نريد النزول إلى الملاجئ ، لكن المندوب اصـر على نزولنا ، أنتم ضيـوف والثـورة تريد حـفظ سـلامـة أصدقائها . أقنعنا المندوب ، فنزلنا إلى الملجأ . في طريق النزول إلى الملجأ ذكر لنا المندوب أن من المحتمل أن يبدأ الهجوم الاسرائيلي خلال الساعات القـادمة وربما غدا أو بعـد غـد . من المحتـمل أن يكون الهـجـوم من جهـة السـاحل ، لذا فقـد انتشر أشبـال الثـورة بقـاذفـات الآربي جي على طول السـاحل الرملي الرائع . في الليل ومن الشـرفـة بإمكانك رؤية قـوارب الصيادين وهي تترنح بفوانيسها الزيتية على صفحة الماء . في الملجأ كان يحرسنا أشبال الثورة أيضا ، أسود فلسطينية صغيرة لكنها شرسة جدا في القـتال وفي مصارعة الحيـاة . أحد الاشبال كـان أقصر كـثيـرا من قـاذفة الآربي جي وأطول قليلا من بندقية الكلاشنكوف . في الملجأ كنا ندخن سجائر الونستون والمارلبورو بنهم كبير ، أما الحرب فقد بدأت في الجنوب . كـانت التـقـارير تصلنا باسـتـمـرار وكنا على اطلاع بكل مـايجـري على الأرض . في بيروت لم أكن أشعـر بالضياع ، كانت هناك حالة غريبة من الانتـمـاء ، الانتـمـاء إلى المكان ، الانتـمـاء إلى المجتـمع ، الانتـمـاء لهـؤلاء الأشبال الذين يحملون حياتي على موتهم . الإحساس بالانتماء إحساس عميق يتولد من مجموعة الأشياء المرئية والمتخفية خلف كلمات ، أغان ،

مـواويل . تبـرعـم حـاصل في الروح ، تراه أنت فـيـمـا لا يراه غـيـرك . أي الأشياء تضيع في زحمة التذكر ، حادثة بيروت كانت راسخة جدا ، الملجأ وكلمات مندوب الجريدة ودخان سجائرنا التي كانت تعبئ المكان . في زحمة الاضطراب وفي زحمة انتظار الصهيوني القادم ، يأتي من يطمئن عليك . الإحساس بالانتماء يزداد بالقدر الذي تشعر أنك موضع اهتمام الآخرين ورعايتهم .

انتهت عملية المونتاج واطلعنا على آخر اللمسات ، بعد ذلك غادرنا دون أن ينطق الآخرون بأية إشارة إلى القادم والكامن خلف تلال أربيل . في الطريق ، وفيما نحن في سيارة الجريدة ، أوقفتنا مفارز للتدقيق في هوياتنا . كان الابتئاس كبيرا ومدويا ، ثمة وحشة كبيرة تحيط بنا ، أو تحيط بي من كل الجهات ، العمى كان صفة تلاحقني ، تتلبسني ، برد أربيل اللذيذ والخدر لم يكن ليوقظني من السبات الذي أغرق فيه ، إنه سبات الاطمئنان الموحش ، الاطمئنان المفتعل ، فيما الخوف من المجهول هو الصفة الأكثر إشهارا وعلانية . أصدقائي الأكراد لم يكونوا يتحدثون بأي شيء ، لم يكونوا ينظرون إلى الآتي بنظرة سوداوية مثلما أتحسسه أنا ، ربما كان هذا صفة تلاصق وتلاحق الكردي أينما حل وأينما ارتحل ، المستقبل بالنسبة للكردي هو الحاضر فقط والارتهان إلى قوته التي يتخيلها أسطورية ، حدث هذا حينما تحالف الملا مصطفى البرزاني مع الشاه ، لكنه انهار كونه لم يفكر في المستقبل واحتمالات أن يتحالف الشاه مع الحكومة العراقية ويخسر الملا مصطفى كل شيء ، وهو ماحدث بعد ذلك . قبل ذلك تحالف البارزاني الأب مع السوفيت وأعلن الثورة على النظام الملكي ، لكنه انهار أيضا حينما وقع في فخ الحرب الباردة وضاع في سياسات المحاور الدولية .

ثم تحالف مع الاسرائيليين ، ليجني خيبات أمل كبيرة ومدوية . حاولت في الطريق إلى المنزل ، وفيما كانت السيارة توصل الزملاء إلى بيوتهم ، استنتاج الطبيعة النفسية للكردي ومحاولة تفسير سر الانقياد السهل للقادة ، حتى وإن كانوا على خطأ واضح وفاضح . في الجريدة ، وبعد الانتهاء من التحرير ، كنت أستغل بعض الوقت في الجلوس إلى الزملاء الأكراد ، في محاولة لتلمس الطريقة التي يمارس فيها الكردي تفكيره ، أو حتى أحلامه . لكنني كنت دائما أصل إلى نتيجة واحدة ؛ أن الكردي في داخله إنسان مسحوق ، إنسان يشعر أن القائد خائن لكنه لايثور عليه ، ذلك أن القائد في نظر الكردي نوع من أنواع النبوءة ، هو نبي غير معلن . في داخل الإنسان الكردي شيء زرعته الأحزاب الشوفينية بأنه إنسان من الدرجة الثالثة أو الرابعة من أجل أن تفوز هي بهذا الإنسان ، ومن أجل أن تسخره لغاياتها الخاصة . عديدة كانت محاولاتي في سبر غور هذا الإنسان ، لكني أعترف بأني فشلت ، ذلك أنني إزاء ركام هائل من سنين عديدة من التثقيف والأخطاء المتبادلة من كل الأطراف . في يوم لا أتذكره ، جمعتني الصدفة في نادي المعلمين ببعض الأدباء الكرد ، كان منهم الشاعر والصحفي وآخرون امتهنوا حرفة الصحافة في وقت متأخر . جلسنا سوية لكني كنت أشعر بشمة كره ينبثق بوجهي . كان هناك إسماعيل شاكر الرفاعي الذي وصل قبلي إلى شمال العراق . بعد أنصاف ساعات من الشرب الثقيل بدأت تخرج أوجه الكره نحونا . أحد الادباء اعتبر أن أعظم كارثة حلت بالأكراد هو دخولهم في الإسلام الذي حطم الأكراد ، وكان سبباً في عدم قيام دولة كردستان . أخذتني الدهشة لكن آخرين تعاطفوا مع هذا الشاعر ، لم أصدق برغم الجو الرائع لصيف أربيل أن أهضم ماقاله هذا الشاعر . بقي يكرر أن مأساة الكرد الأولى سببها

الإسلام ، ولم أحاول التعقيب عليه مباشرة ، ذلك أنه يحلق الآن في ذاتيته المفرطة . كنت أعرف على المستوى الشخصي ، أن ماقاله هذا الشاعر ينم على حقيقة يؤمن بها أو يجري التثقيف بها من قبل الأحزاب الكردية ، والهدف منها زرع عدم الانسجام الكردي مع الواقع والحقائق . كانت تجارة رابحة تسوقها الأحزاب لتنطلي على الجميع بمن فيهم المثقفون . المرعب هنا أن أولئك يصدقون هذه الترهات ، لا بل يؤمنون بها . شعرت وقتها أن المكان عبارة عن بؤرة من الحقد لا أعرف متى تتفجر ، وإن كان قد تفجر بعضها . أخذ الآخرون يسألون الشاعر عن طرق معالجة الوضع الكردي أو إعادة تشكيل الأمة الكردية ، وكانت إجابة الشاعر أنه لا بد أن يعود الأكراد إلى ديانتهم الحقيقية من أجل خلق الأمة الكردية . بعد ذلك أخذت تضيع الكلمات وسط تعتعات السكر ، ثم انسل كل واحد باتجاه معين لتغيبه الظلمة الواقفة عند بوابة النادي .

تحدث سائق السيارة التي تقلنا مع إحدى الدوريات التي أوقفتنا ، ثم انطلقنا مرة أخرى . كان مقاتلو الحزب الشيوعي الكردستاني تجمعوا أمام مقرهم القريب من شارع الستيني ، وكان المقاتلون يتجمعون حول نار أوقدوها ، حيث تمنطقوا بكامل أسلحتهم . مشهد آخر يضاف للتيه الذي بدأ يغزو فكري . تذكرت في تلك اللحظة لقائي مع كريم أحمد سكرتير الحزب الشيوعي الكردستاني ، والذي أسميته (العربيد) ، أثناء الحديث معه ، قفز إلى ذهني أن أسأله عن إمكانيات المقاومة فيما إذا تدخل الجيش ، ولم أنتبه وقتها إلى التفاتاته وأشياء أخرى عن لاجدوى المقاومة على سبيل المثال . لم أسجل إجابته وقتها على آلة التسجيل التي كانت موضوعة أمامي ، على اعتبار أن هذا لم يكن إلا سؤالا عارضا وشخصياً جدا . في بعض الأحيان ، حينما ألتقي بشخصية معينة ، وبعد أن أنتهي

من إجراء الحوار الصحفي الرسمي ، أعرج إلى أسئلة خاصة ، أسئلة لم أكن أريدها لتخرج مع اللقاء الصحفي ، وكنت أحب أن أكوّن من هذه الأسئلة إطارا خاصا للشخصية . في واحدة من هذه المماحكات قلت لكريم أحمد ، الأكراد يطالبون بالفدرالية قياسا لعددهم بالنسبة للعرب ، ماذا بخصوص التركمان الذين يشكلون في مناطقكم القومية الثانية ، ألا يستحقون حكما خاصا بهم . وقتها انفعل كريم أحمد ويبدو أن الإرث القومي تفجر مغطيا على البعد الماركسي . تركت انثيالات تلك الأماسي تسيل في الذاكرة وأنا أسير بعد أن نزلت من سيارة الجريدة ، الليل كان يقترب من نهايته ، خلفي كانت نيران بشمركة الحزب الشيوعي الكردستاني تتلألأ . الفجر يزحف وفي أجواء المدينة سكون عظيم . الاستذكارات في تلك الليلة الندية كانت مائعة وفي بعض الأحيان حادة جدا . صور بيروت وهي تحت رحمة الطائرات الاسرائيلية مزقتني وقتها ، لكنها الآن تستعاد بأجواء أخرى . برد ليالي أربيل كان يرمي نداه على الأرصفة ، ثمة بيوت معدودة تستطيع أن تشاهد أضواءها ، أما الغالبية فكانت تنام بانتظار الفجيعة القادمة . مامعنى اللذة ، مامعنى الموت ، مامعنى الابتئاس والإهمال واللاجدوى . أية مقاربات حزينة كانت تتكتل في سماء المدينة ، مقاربات كانت متشابهة من حيث قدوم الوحش ليحطمك ، لكن هذه المقاربة تختلف كلياً عما يجري الآن . أنت هنا لست إلا سحلية مسكينة ، فأرة متواضعة ومستضعفة بين أفاع هائلة الأجساد والأشداق . كل الأفواه تتوسع وتكبر من أجل التهامك أيها الغبي أو ياحمار الأزمنة المعاصرة . قبل يومين من الآن ، وفي ليلة أربيلية ، كنت أرسل النظر فيها باتجاه قلعة أربيل ، شاهدت عشتار تخرج من تلك القلعة الأبدية في نور بهي وغريب . استغربت الأمر وفركت عيني ، لكن عشتار

كانت تطير ، كانت تحلق باتجاه شمش أو رب الآلهة الكبير . لماذا كانت تخرج هكذا بعباءتها وشعرها المضطرب وهي تشبه أمل الجبوري ، لماذا تهرب الآن وكأن أحداً ما قد اغتصب حرها فهاجت وماجت دون وازع ، تريد تحطيم طاولة الآلهة . ثمة أسطورة قديمة تتحدث عن خروج عشتار المرعب لتصفه بأنه دائما ما يقترن بكارثة معينة . كنت فوق سطح الدار فيما الزوجة والأطفال نيام . عشتار كانت تحلق في سماء أربيل لتقول لي إنها مكتئبة من أجلي وحزينة من أجل الآخرين ، ولم أستطع أن أحدثها عن أسباب حزنها . أويت إلى الفراش وأحلامي مثل حقيقتي ، كانت تضطرب وكانت تتألم من الآتي الذي لا أعرفه .

سرت متمهلا في الشارع ، توقفت وأشعلت سيجارة . شعاع النار المتبرعم بعيدا ما زال يضيئ لي بعض جنبات الطريق . بشمركة الحزب لا زالوا متحلقين حول الجمرات والألسنة الواهنة لنار السهرة المرير . من بعيد كانت أصوات حادة تمزق هدوء الليل ، أصوات لم أستطع تمييزها بدقة لكنها أصوات مضطربة قلقة ؛ تشبه الحشرجات . في بعض الأحيان يدخل الصوت في تركيبة الخوف والقلق والابتئاس ، فتتحول لتكون شيئا فقط بلا ملامح وبلا وجوه ، أو حتى بدون أحلام أو وجوه حالمة .

أربيل تغرق في هدوء كبير . تطلعت من سياج السطح لوجه المدينة الساكن ، ثم قبلت زوجتي النائمة . حاولت في فجر تلك اليلة السرمدية أن أجد قمر آب ، لكنني لم أجد في السماء شيئاً ، هناك محاولة لاختفاء كل شيء ، أوقدت روحي على اطمئنان مزيف ثم غرقت في وحشة النوم بانتظار أحلام مريرة .

في زاخو ضاعت المسافات والمساحات والأحلام بالثورة القادمة ، ضاعت كل الأشياء لأنها كانت ضائعة أصلا ، الكل هنا يود الرحيل ،

حتى عصافير آب وغربان الجبال وبومة الأوقات البائسة . مقاهي زاخو تبتلعنا مثل قواد حقير ليتفلنا على جادة الطرق والأرصفة المدماة بنا .

زاخو تعيش على افتثاتنا ، أحلامنا بعراق كبير وقوي ومملوء بنا قد تلاشت كما تتلاشئ الفضيحة ، هل نبكي الوطن أمام جموع الهاربين إلى مفاتيح الجنان . في زاخو يعيش الآن ، قربنا ، أولئك الذين عملوا مع المنظمات الاجنبية وهاهم بانتظار السفر ، اكتشفنا بكثير من الأسى أن كل هذه المنظمات ليست إلا منظمات تجسس . الأكراد الذين يعملون في هذه المنظمات فرحون ، سيهاجرون إلى أمريكا التي قررت سحبهم كي لا تفتضح أسرارهم ، أعداد هائلة من الأكراد ، أعداد غير قابلة للتصور ، هل كل هؤلاء عملاء ؟ ياللعنة الرب ، المؤسف أنهم كذلك . في زاخو المدينة الصغيرة يسير العملاء على وقع السفر ، الجيش قد دخل أربيل تتقدمه بيشمركة مسعود ، ركضوا باتجاه قتل العرب والتركمان ، أعداد كبيرة من التركمان والعرب تم إعدامها في قوش تبه ، سلمهم مسعود كل أبناء المعارضة من أجل أن يفوز بأربيل ، أما جلال الطالباني فقد هرب من قلعة قلاجولان باتجاه الحدود العراقية الإيرانية حيث التقى هناك بعرفاء المخابرات الإيرانية (الاطلاعات) .

أسير في زاخو ، ألتقي الوجوه ، تعرفت بالصدفة على بعض الوجوه ، أحدهم كان زميلا في إعلام الاتحاد الوطني ، كان يرتجف ولا أعرف إن كان من البرد أو أي شيء اخر ، اقترحت عليه أن نشرب شايا ساخنا وقبل الدعوة . في المقهى شربنا الشاي وشعرنا بالدفء المفتقد . استفسرت عن سبب تواجده في زاخو ، فاعترف لي أن زوجته كانت تعمل في منظمة أجنبية ، وكانت في الحقيقة تعد التقارير عن الأكراد الذين يمكن أن يغيروا ديانتهم إلى المسيحية . وهاهو الآن هنا حيث سيتم إجلاؤهم إلى أمريكا .

تذكرت في تلك اللحظة أحد الزملاء من العاملين في الجريدة ، الذي توطدت علاقتي به من خلال العمل والزيارات العائلية المتبادلة . في إحدى الأمسيات الصيفية لأربيل قال لي إنه يبحث عن مخابرات دولية ليعمل معها ، إذ إن هذا العمل طبيعي جداً هنا . أعترف بأني ذهلت ، أصابني الرعب والقشعريرة معا وأنا أستمع إلى مايقوله هذا الزميل . بعد دقائق استفقت من الصدمة ، وحينما جاءت أمه بالشاي . قلت له إن هذا شيء مرعب ، لكنه أجابني بسرعة أنه شيء عادي هنا وأنني لا أعرف بعد طبيعة المجتمع . خذ مثلا الزملاء في الجريدة ، كل واحد منهم مرتبط بجهاز معين ، ضمنهم المسؤولون طبعا . الجميع يعرف أن الجميع له ارتباطات وفي بعض الأحيان يتباهى الناس بهذه الارتباطات ، خاصة إذا كانت مميزة ، مثل الموساد أو المخابرات البريطانية أو الأمريكية أو السويسرية . الذكي وصاحب الحظ هو الذي يرتبط بجهاز يدفع أكثر .

الصدمة لم تزل تطوح بي ، لم أكن أصدق ما أسمع ، لكن هذه كانت الحقيقة المرة للأسف وحسبما قال هذا الزميل . الأحزاب الشوفينية في شمال الوطن أو (المنطقة المحررة) كما يحلو تسميتها ، وهي بالمناسبة تعني في عرف المعارضة العراقية أنها المحررة من سلطة النظام ، أما في فهم الأحزاب الشوفينية فتعني التحرر من العراق . الأحزاب الشوفينية هي التي تدفع الأكراد للعمل مع الأجهزة الدولية تحت مسميات المساعدة أو المعونة . ولهذا السبب حينما اجتاح الجيش العراقي مدينة أربيل ، هرب أعضاء هذه المنظمات إلى خارج العراق ، وعن طريق الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود بارزاني ، الذي حمى أعضاء هذه المنظمات حتى خروجهم من شمال الوطن . إنها سخرية كبيرة ، سخرية تعيش بلا اضطهاد في الزمن والمكان المرين معا .

في زاخو تتداخل الحدود ، تتداخل المسافات ، أحد الذين تعرفت عليهم في مدينة أربيل ، وهو عضو قيادة الإعلام في الاتحاد الوطني ، شاهدته في مدينة زاخو . وللعلاقة القوية التي كانت بيننا ، اعترف أنه الآن بصدد السفر إلى اسرائيل بعد أن وافقت الدولة العبرية على يهوديته الجديدة ، كان سعيداً وقال إنه تحرر الآن من الإسلام إلى الأبد . ضياع كبير ، ضياع فظيع يتسلل من كل الأماكن ليصب في النهاية في موت الأرض . كنت متسمراً وأنا أسمع أحاديث هذا الصديق ، الأذن أخذت تصرخ بأنها لا تريد سماع المزيد . الإحساس بالتقيؤ يطاردني ، كنت أشعر أني أود التقيؤ على كل شيء وفي كل شيء . هل هذه هي المنطقة المحررة ، كنت أقول في نفسي إلى أين أيها الهاربون ، لكني الآن أقول أهربوا أيها القوادون والسماسرة وحملت الأكياس المنتفخة من القوادة . إحملوا كل أكياسكم واهربوا إلى الأمكنة الجديدة ، فقد لوثتم أرض الوطن بخرائكم وقيئكم وأنفاسكم النتنة .

أسير في زاخو ، أسير على الأرض وأتنفس البرودة التي تدخل في العظام دون وازع ودونما إذن . ملابسي لم تكن تقيني من البرد ، ولم تكن لي ملابس شتوية لأحتمي بها . استطعت الحصول على (جاكيت) شتوي من دكان الملابس المستعملة وكان قياسه كبيرا جدا . زوجتي قالت لماذا قياسه كبير ، فقلت لها إن المرحوم كان (راهباً) . كنت ألفّ نفسي بهذا (الجاكيت) وأسير في دروب زاخو الأبدية ، الدروب الملتحمة مع البشر والأرض والطين وسحب الأمطار غير المؤاتية .

في زاخو عدد المقاهي أكثر من عدد البشر ، مدينة قديمة أسست من قبل الآشوريين وطورت من قبل العباسيين ، الأسواق في زاخو ملتوية مثلها مثل المدن العراقية المنسية والغارقة في الزمن والأوحال والمرارة . ميزة زاخو

أنها مدينة صغيرة شاء القدر أن تكون أسواقها وشوارعها صغيرة أيضا بحيث أن الكل لا بد أن يلتقي الكل ، شاء أم أبى . في بغداد كنا نهرب من المقاهي أنا وجمال السوداني ، وكنا نختار دائما مقاهيَ بعيدة عن أعين العسس وكتاب التقارير والوشايات والنكايات .

في ساعات الوجع المرافق للاكتئاب ، تمتلئ هذه المقاهي بنا أو نحن نمتلئ بها ، لكن بغداد مدينة كبيرة ومقاهيها واسعة ، هناك منطقة واحدة أو اثنتان حسب لا بد ان نلتقي فيها غصبا ، وكل لقاء عبارة عن وشاية . في بغداد يمكن أن تمر أيام دون أن يكتب عنك أحد تقريرا ما ، وذلك إذا تجنبت بعض الأماكن مثل الحيدر خانة أو مقهى حسن عجمي أو نادي اتحاد الأدباء ، أو يمكنك الإفلات من أحد الواشين في شوارع المتنبي والسراي بأن تتخفى بين الجموع الشائهة للكتب . في زاخو الوضع مختلف تماما ، فالوشايات في كل مكان ، حيث للديمقراطية البرزانية والطالبانية ميزاتها أيضا . والعملية أكثر سهولة ، فبين مقهانا وغرفة الاعتراف عشرون مترا حسب . في بعض الأحيان تتسع الوشايات لتكون أنت مركزا دوليا لها ، حيث يكتب عنك في يوم واحد عشرة تقارير ، وكل هذا مقابل عشرين ديناراً سويسرياً لا أكثر ولا أقل للتقرير الواحد . هنا يعمل جهاز الباراستن (المخابرات) الكردية على زج أتباع المعارضة في السجن ، حيث تبدأ رحلة طويلة من الألم والتعذيب بالكلاب المتوحشة ، من أجل شراء هذا الشخص . بعد موافقة الشخص على التجسس على جماعته المعارضة العراقية ؛ يطلق سراحه وكل وشاية بمبلغ ٢٠ دينارا .

نرتشف الشاي وننتظر وشاية جديدة وتهمة أكثر تجددا . السماء غائمة للغاية والسحب لا تمطر إلا الألم . حاولت في معمعة الوشايات تلك أن أهرب ، أن أجد مقهى جديدا وبعيدا عن أعين النظارة والعسس ،

مثلما كنا نفعل في بغداد أنا وجمال ، فاكتشفت عن طريق الصدفة مقهى مدفونا في مرتفع فيما واجهته الداخلية مفتوحة على نهر الخابور . حملت أوراقي وذهبت إلى ذلك المقهى ، كانت تراودني ثمة أفكار للكتابة ، لكن الذاكرة المحملة بالأسى ، اضطربت فجأة . في هذا الاضطراب المر تذكرت أنه قد كتبت عني حتى الآن عشرة تقارير . كان الاستدعاء قد جاءني منتصف الليل ، وأنا مع عائلتي في فندق اسطنبول المواجه للجسر العباسي ، قال رجل الباراستن إنني مطلوب للاستدعاء الآن ، قلت للرجل ألا يمكن تأجيل اللقاء إلى الصباح . فقال كلا .

في مركز الباراستن انتظرت ساعات طويلة . كنت أسمع أصوات الكلاب التي تأتي من غرفة في الممر . أخذت أعصابي تتعب بسرعة ، وصرت أشعر بقلق بالغ . فقد سمعت أن الحزب الديمقراطي أخذ يجمع عناصر المعارضة ويزج بهم في معسكر اعتقال جماعي . أحد الهاربين من هذا المعسكر وكان شيوعيا سابقا ، حدثني عن التحقيقات التي تجري في هذا المعسكر من قبل محققين شرسين للغاية . كانت التحقيقات تشمل معرفة الخطوط السرية للمعارضة داخل الوطن وأشياء عديدة أخرى ، من مثل هل كنت في الجيش العراقي ، أين كانت وحدتك السابقة ، أين خدمت في الجيش ، تاريخ هروبك إلى شمال الوطن ، من هم أصدقاؤك داخل العراق . كيف هربت إلى الشمال . من هم أصدقاؤك هنا . إلى أي فصيل تنتمي ، ثم لماذا لا تسافر إلى الخارج ، وغيرها الكثير من الأسئلة .

بقيت أنتظر في الغرفة الخارجية على أمل أن يلتقيني أحد ما . لكن لم ألتق بأي أحد . بقيت في الانتظار خمس ساعات متواصلة ، ثم قالوا لي اذهب الآن . شعرت وأنا أخرج أني عشت مرة أخرى . لكني بالرغم من هذا الشعور بالحياة الجديدة ، إلا أني بدأت أحس أن شيئا ما يحدث

الآن . تكررت هذه الاستدعاءات الليلية خمس مرات متتالية ، وصرت أعرف أنها مقصودة ، والغرض منها تحطيمي نفسياً . كان أحد أعضاء الباراستن كردياً من أصل تركي ، انضم إلى حزب مسعود بعد أن كان من جماعة البككة (جماعة حزب العمال الكردستاني) التركي . هذا الشخص التقيته في السوق ، وقال لي إنهم لا يريدون عربا في زاخو ، وعليك أن تهرب من هنا أو تسافر بأسرع وقت . كانت هذه نصيحة مدوية بالنسبة لي ، لكنني لم أكن أملك مالاً ليساعدني على السفر إلى خارج المنطقة . آخر ما نملك كان سوارا لزوجتي بعناه في شقلاوة لنؤمن لنا ولأطفالنا الغذاء . بالإضافة إلى هذا ، كنا ننتظر موافقة السلطات السورية للدخول إلى سوريا ، لكن الموافقة تأخرت جدا ، ومن الأرجح أنها لن تأتي أبداً ، لم نطفئ هذا الأمل بالرغم من أننا موقنون من عدم إمكانية تحقيقه . فكرت أنا وزوجتي بطريقة أخرى لدخول سورية عن طريق التهريب مثلا ، لكن المشكلة كانت مع الأطفال ، إذ لم أكن قادرا على حملهم جميعا ، أما زوجتي فهي غير قادرة أصلا على حمل أحد الأطفال فيما أحمل أنا الآخر . نوع من القلق والتوجس بدأ يطاردنا . التوجس من عصابات الأحزاب الكردية من أن تسلمنا إلى أجهزة النظام لقاء مبلغ مالي . والقلق من الطريقة التي سوف نستمر فيها على الحياة بعد أن ينفد ما بأيدينا من الأموال . قبل أيام قتل أحد العرب في زاخو وكانت التهمة الموجهة له أنه من أتباع النظام ، كانت هذه حجة الأحزاب الكردية فيما إذا كانت تريد التخلص من أحد ما . كان القتيل المسكين شاهداً على جماعة مسعود البارزاني عندما أرادوا تفجير مكتب المؤتمر الوطني العراقي ، فطاردوه وقتلوه هنا في زاخو ، ثم أشاعوا أنه من أتباع النظام . حالات كثيرة كانت تحصل ، كنا نعيش أشبه ما نكون بغابة ، الحياة فيها تعني الموت كل

لحظة ، وكل دقيقة ، وكل ساعة . هنا لا يمكن التنبؤ بالقتل الذي ينتظرك ، ربما أنت تسير أو أنت تشرب الشاي أو أثناء سيرك مع صديق .

أثناء تواجدي في أربيل ، وقبل هجوم جماعة مسعود والنظام على أربيل ، التقيت بالدكتور البصري ، كان لقاؤنا عاديا جدا ، اقترحت في اللقاء تشكيل حزب أو لجنة لفضح النظام تضم العديد من الشخصيات السياسية المعارضة ، وكان الهدف من تأسيس هذه اللجنة هو تنشيط حركة المعارضة وتفعيلها . قال لي الدكتور إنه ليس معي في تشكيل هذه اللجنة ، فاستغربت منه هذا الكلام ، وهو المعارض الأصيل والمناضل القديم . لم يحر جوابا ، وبعد إلحاحي عليه لمعرفة أسباب اعتراضه ، روى لي حادثة مماثلة حدثت لأحد الذين هربوا من النظام وجاؤوا إلى (المنطقة المحررة) . قال لي الدكتور إن ذلك الشخص اختفى والى الأبد وحتى الآن لم يعرف مصيره . كانت علامات الدهشة واضحة على وجهي . لكنه قال ، لا تندهش ، هل تتصور أنهم سيقبلون وسيتركونك . أشك في ذلك . . لكن من هي الجهة المستفيدة . قلت . فأجابني ، كلهم ، النظام وعناصره الموجودة داخل الأحزاب الكردية ، التي لا تريد معارضة للنظام . فهم لهم علاقتهم بالنظام التي يحرصون عليها ، هم يستفيدون من النظام كمبرر لبقاء المظلة الأمريكية . هناك اتفاقات سرية بين الأحزاب الكردية والنظام ، وهذه الاتفاقات تشمل ، من ضمن ما تشمل ، تبادل المعلومات .

روى لي الدكتور البصري حادثة أخرى عن (البزنس) الذي تمارسه الأحزاب الكردية فقال ، التقى المام جلال بعز الدين المجيد ، واتفق معه على فتح مقر لحركة الخلاص في أربيل ، وافق عز الدين المجيد . وبعد سفر المام جلال ووصوله إلى قلعة جوالان ، اتصل بأحد أتباع النظام السابق ، وهو كردي كان يعمل سابقا مع المجيد في بغداد . وسافر هذا الكردي إلى

عمان لالتقاء المجيد، وطلب منه آلاف الدولارات لفتح المقر. دفع المجيد بسخاء ورجع الكردي إلى أربيل وتقاسم المبلغ مع المام جلال، فتح المكتب وتم تجهيزه بالمقاتلين والأثاث. أصبح هذا الكردي مسؤولا لمكتب الحركة في شمال العراق، كان نشاط المكتب الظاهر هو توزيع المنشورات داخل المحافظات العراقية، وبغداد تحديدا، وكان كل منشور يطبع تصور عملية لصقه على الأعمدة الكهربائية والحيطان في بغداد، ثم تجلب الصور إلى المكتب حيث يأخذها رئيس المكتب إلى عز الدين المجيد ويقبض الأموال التي يتم تقاسمها مع المام جلال. كانت الصور الملتقطة لبيانات الحركة يتم تصويرها ومونتاجها في ستوديو في أربيل وبإشراف (البعض) وكان عز الدين يدفع آلاف الدولارات على اعتبار أن بيانات الحركة تم إلصاقها في شوارع بغداد. لقد ضحكت حتى الموت من هذا (البزنس) وأخذت أتصور أن بيانات الحركات السياسية كافة، يجري توزيعها بالطريقة ذاتها. كان هذا (بزنسا) كبيرا يدر آلاف الدولارات وتتم السيطرة عليه من قبل مافيات كبيرة من رؤساء الأحزاب الكردية. كان (البزنس) في بعض الأحيان يأخذ أشكالا متنوعة من مثل تأسيس الإذاعات، حيث كان يصار إلى تأسيس الإذاعة على اعتبار أنها تبث إلى داخل الوطن، ويتم قبض الأموال وكانت الإذاعة في الحقيقة لا يتعدى مداها البيوت المجاورة.

بعد دخول الجيش إلى اربيل، التقيت بأحد البيشمركة في مدينة شقلاوة، وبعد حديث طويل قلت له لماذا تم تسليم المعارضة العراقية في أربيل إلى النظام الصدامي، فكانت إجابة الرجل بحدة، لأنهم أتباع النظام. لكن النظام أعدمهم، قلت للرجل. فأصر أنهم من أتباع النظام. المشكلة التي تواجهنا هنا أن أتباع الأحزاب الكردية يصدقون مايقال لهم ولا يفكرون. التفكير آخر شيء يمكن أن يحدث لهم. لا ينفع أن تحاول أن

تنير العقول ولا ينفع أن تقسم بأغلظ الإيمان فلا أحد يصدقك . قادة الأحزاب الكردية يعرفون هذا ، والكردي على العموم لا يصدق إلا قادته .

في زاخو بذلت محاولات متعددة لكي أشرح للناس والأكراد بشكل خاص من أن البعض يبيعهم الأوهام ، فيما يتعلق بالسفر مع المعارضة العراقية إلى خارج الوطن ، لكن الأكراد لم يصدقوني ، قلت لهم إن البعض يخدعونكم ويأخذون الأموال منكم . وللأسف لم يصدقني أحد . بعد ذلك جاءني أحد الأصدقاء وطلب مني السكوت عن عملية الكذب التي تجري ، فقلت له لا لن أستطيع . فقال حسنا قلْ ماشئت فلن يصدقك أحد . فقلت له لماذا . فقال لأنك لست كرديا ، والكردي لا يصدق إلا كرديا مثله ، أضف لهذا أنه يعجبهم أن تخدعهم . رأيت كلام هذا الصديق معقولا وهو مالمسته على أرض الواقع ، فقررت التوقف والانعزال بعيدا عن كل مايجري .

زاخو تنوء بالبشر ، تغص حتى الموت بالبشر القادم من كل الاتجاهات والأمكنة . هنا كانت تجري لعبة كبيرة للروليت ، لعبة هائلة الحجم تفرم البشر والأحلام . أعيش الآن مثل عصفور سقط في شباك الوهم . أتسلق الرغبة أو يتسلقني الموت ، لا مشكلة ، كل شيء يجري إلى منتهاه ، الى النهاية الغامضة والقلقة . حاولت ؛ وفيما أنا أجلس في مقهى الفيش خابور الذي اكتشفته مؤخراً ، ان أجد تفسيرات مقنعة ، تفسيرات عن الموت الذي يريد أن يلتهم الجموع الهادرة هنا . تفسيرات عن الأسباب التي تدفع الغالبية للهرب بعد أن دخل الجيش العراقي إلى اربيل ، لكنني لم أجد ، ولن أجد حتما . السؤال يتعلق بآلية الكبت ، الهجرات ، آليات أخرى لها الصفة ذاتها ، لكنني لم أجد أيضا . الموت والجوع والقمع هي

المسـؤولة عن الانفـلات الروحي لهـذه الجمـوع التي تريد أن تهـرب . اللامعقول من الخوف ، اللامعقول مما يحدث . لقد فهمت طيلة وجودي في أربيل ثم شقلاوة وبعد ذلك زاخو ، لم يريد أفراد المعارضة العراقية الهروب . إلى أي مكان إلا البقاء في شمال الوطن . كانت حكايات الدكتور البصري عما يلاقيه أفراد المعارضة من خيانات وزج في السجون أمراً مؤلماً للغاية . لقد فشلت تجربة كان من المؤمل أن تأتي بنتائج كبيرة ، ولكن للأسف يبدو أن كل شيء قد انهار ، كان دخول الجيش إلى أربيل بصحبة بيشمركة مسعود بارزاني المسمار الأخير في النعش المتهالك أصلاً بسبب الأحزاب الكردية وقادة المعارضة من مثل جماعة المؤتمر . التقيت في زاخو الكثير من عناصر المؤتمر وقد هدهم الجوع والعري ، وهو ليس جوعا طارئا ، إنما جوع قديم حيث تعيش هذه العناصر مع عائلاتها على الهواء ، بعد أن قطع الجلبي رواتبهم . هناك عوائل لم تأكل اللحم منذ أربعة أشهر . نساء ورجال وأطفال يعيشون على وجبة خبز واحدة يمكن أن يتصدق عليهم ، أحد ما . الجوع هنا قاتل ، كافر ، ملعون ، لكنه الشيء الوحيد المتوافر . حينما وصلت زاخو رأيت عناصر المعارضة مع عوائلهم يعيشون في المقبرة ، أطفال لا يستر أجسادهم من البرد غير القليل من الملابس الصيفية . بعض العوائل كانت محظوظة فاستطاعت الحصول على بعض قطع الأخشاب أوقدتها وأخذت تشوي على (تنك) بعض العجين . شعرت بالمرارة ، بالأسى ، بالكره لكل شيء . هؤلاء المساكين الذين صدقوا النداءات المتوالية من الإذاعات المعارضة فهربوا إلى الحرية المفترضة ، لكنهم سقطوا في الفخاخ والشراك المنصوبة بتقنية عالية . كان مايحزنني ويؤلمني بشدة منظر الأطفال المشردين ، أي مستقبل زاهر هم يحثون الخطى إليه . أشحت ببصري وشعرت أني أريد أن أحتضن أطفالي بشدة ،

وحينما وصلت الفندق الذي أسكن فيه ، بكيت لأول مرة ، ويبدو أن هذا البكاء لن يكون الأخير حتما .

أثناء تجوالي في المدينة مررت على مكتب الحزب الشيوعي الذي أبدل اسمه هنا من العراقي إلى الكردستاني . كان في المكتب أشخاص طيبون للغاية . وجدت إسماعيل شاكر الرفاعي هناك . كان هو وعائلته في الغرفة الأخرى من المقر . كان محظوظا طبعا لأنه وجد سقفا ووجد نارا ورفاقا طيبين وفروا له بعض البطاطين لكي ينام الأطفال . كان إسماعيل قلقا للغاية وأسرّ لي أن عادل مراد ، مسؤول الإعلام في الاتحاد الوطني ، يريد منا الالتحاق به في السليمانية لإعادة إصدار أسبوعية الاتحاد من هناك . كنت لم أزل أشعر بغصة عميقة ومدوية . لقد تركونا وحدنا أمام دبابات النظام وجهاز أمن مسعود لالتقاطنا من بيوتنا . كان من حسن الحظ أني غيرت محل سكني قبل دخول الجيش ب ٤٨ ساعة فقط ، ولم يكن أحد يعلم بتغييري السكن حتى في جريدة الاتحاد . وفر لي هذا التصرف أماناً نسبيا . كانت تلك الأيام المرعبة تمخر أحلامي كل يوم ، فأنهض هلعا . كانت أياما مرة واستغرق تخفينا أحد عشر يوما متصلا في غرفة ، كان الطعام والماء والأخبار تأتينا من جارتنا الكردية الطيبة ، وكانت هذه الجارة تروي لنا مناظر الموت واعتقال العرب في أربيل من قبل أعضاء حزب مسعود . في كل مرة كانت تقترب منا دورية بشمركة مسعود وهي تبحث عن العرب لتسليمهم لجماعة النظام ، تنبري جارتنا وتجلس أمام البيت بحجة أنها صاحبة المنزل ، وكانت تقول للبشمركة أن لا عرب في الداخل ولا في المنطقة أصلا . بعد انقضاء أحد عشر يوما ، جاء زوج جارتنا وطمأننا إلى أن دوريات البشمركة توقفت عن البحث . فزودنا بمبلغ مالي وأوراق جنسية جديدة غيرنا فيها أسماءنا إلى أسماء كردية ، ثم

صعدنا (الكوستر) إلى شقلاوة .

في شقلاوة المدينة الرائعة ، كانت المفاجأة كبيرة حينما اكتشفت أن الشاعر رياض إبراهيم هناك . كان رياض صديقاً قديماً منذ أيام بغداد ، وكنا غالبا ما نسير سوية أنا وهو وحميد المختار و نذهب بعد مسيرة نصف ساعة كل يوم إلى القاص القلق ضياء سالم ، الذي كان يعمل في فرن خبز خلف عمارة الضمان ، فكنا نأخذ أقراص الخبز ، من ضياء كهدية ثم ندلف إلى مطعم مجاور ونتناول وجبة رائعة من مرقة الباذنجان . كان رياض أكثر ثقة بما ستؤول إليه الأمور هنا ، وربما كان السبب أنه كان يمتلك بصيصا صغيرا للأمل . حييت رياض الذي قلت له إني كنت قلقا عليه ، وذلك كونه وصل قبل دخول الجيش بأسبوعين فقط . لكنه طمأنني أنه لم يحدث له شيء واستطاع الخروج بسلام من أربيل . بقي إسماعيل شاكر الذي لم أكن أعرف عنه أية أخبار هو الآخر . كانت الصدمة قوية لكني شعرت بالراحة قليلا كوني شاهدت رياضا ثم ذهبت إلى الفندق مع عائلتي . بعد ذلك خرجت للقاء رياض . قال لي صديقي إنه سوف يخرج إلى سوريا وإنه مستعد لمساعدتي في الخروج معه . فرحت كثيرا وشعرت أني وجدت أخيرا منفذا للحلم . لكن هذا الحلم كان حلما طويلا وكابوسا متصلا لم ينته أبدا .

على بوابة إبراهيم الخليل في زاخو ، يتوافد الناس من كل الاتجاهات . بالأمس فقط تركت مجموعة كبيرة من أعضاء المؤتمر الوطني وحركة الوفاق أرض الوطن . سحب الأمريكان كل أعضاء المنظمات (الإنسانية) العاملة في شمال الوطن ، وشمل هذا السحب والتسفير أعضاء المؤتمر الوطني العراقي وحركة الوفاق ، هذه الهجرة تركت جرحا عميقا في النفس . على

بوابات إبراهيم الخليل ، مـوت جـمـاعي ، توسـلات ، لم ينفع الإعـلان الأمـريكي ، أو لـم يشكل هذا الإعـلان عن العـمالـة شيـئـا بالنسـبـة لهـذه الجموع ، العمالة هنا ليست سبة إطلاقا ، المهم أن تغادر في أي شكل وفي أي صورة ، حتى وإن كان هذا إلى الشيطان .

الراقصة والطبال والإعلام الثوري

أثناء جلوسي في أحد مكاتب الاتصالات من أجل أن أجري اتصالاً مع أحد الأصدقاء ليقوم بتحويل مبلغ أسير به أموري ، تعرفت على أحد الأشخاص من الذين كانوا بانتظار مكالمة خارجية . كان هذا الشخص ذا هيبة ، طويلا وضخما للغاية يدعى (أبو نور) . عرفني الشخص بعمله وهو أنه المسؤول الإعلامي لحركة الخلاص الوطني ، أما زوجته الجميلة فكانت مذيعة في إذاعة المؤتمر . كان الرجل يتحدث الانكليزية بطلاقة ، وكان قد أجرى اتصالا مع السفارة الأمريكية في تركيا . لكن هذا الشخص كان قلقا للغاية ، وكانت عيناه لا تثبتان على مكان محدد . شرح لي أثناء الانتظار كيف استطاع إنشاء إعلام متميز للحركة التي كان يعمل بها ، كذلك عن مشاريعه المستقبلية لصالح الحركة لولا تدخل الجيش . وفي الحقيقة بهرت لكثرة معلوماته عن وضع المعارضة العراقية ومعرفته بكل الشخصيات السياسية المهمة ، سواء كانت من المعارضة أو من قادة الأحزاب الكردية . بعد ذلك راح يتحدث عن سلبيات العمل المعارض وأنجع الأساليب في الإعلام . كنت في الحقيقة مبهورا وأنا أستمع إليه ،

خاصة أني لا أمتلك هذا الكم الهائل مما يعرفه . كان كل لحظة وأخرى يستقبل المكالمات ، مرة يتحدث بالانكليزية ومرة أخرى يتحدث بالعربية ، ومرات أخرى كان يتحدث بشكل يوحي بسيطرته على الأمور . وكانت كل مكالماته ، كما هو واضح ، مع مسؤولين كبار . كان بودي أو فكرت في الحقيقة أن أجري معه لقاء صحفيا أخرج به بكم هائل من الأسرار لأقوم بنشره بعد ذلك في زمن قادم ، كنت أفكر أني ربما وقعت على كيس مليء . لكنني شعرت أنه يجب أن أتأنى قليلا وأن أجمع المعلومات عنه قبل بدء الحديث . من يعرف هذا الرجل . كان هذا السؤال الأول في رحلة اللقاء . بالصدفة أيضا تعرفت على أحد أعضاء المعارضة ، كان هذا الشخص مثل الأول ، يمتلك معلومات عن كل أعضاء المعارضة ، أضف إلى هذا أنه عمل مع كل الأطراف وطرد من كل الأطراف أيضا ، وذلك بسبب لسانه الطويل . تدريجيا أخذت تتجمع لدي المعلومات عن (أبو نور) من أطراف متعددة ، وفي النهاية تجمعت لدي هذه الحصيلة المضحكة . كان (أبو نور) ضابطا ، لكن للإيقاع يعمل في ملهى ليلي في لندن ، وأثناء العمل تعرف بزوجته المصون التي كانت تعمل راقصة في الملهى نفسه . طرد من بريطانيا بتهمة فتح بيت دعارة وتصوير الأمراء الخليجيين أثناء العملية الجنسية ، ومن ثم ابتزازهم ، ويبدو أن الخطة فشلت ، فألقت السلطات البريطانية القبض عليه وطردته . سافر بعد ذلك إلى الخليج حيث عمل هناك ردحا من الزمن ، ثم طرد ليجيء إلى سوريا التي طرد منها أيضا ، ولأن جواز سفره عراقي فقد ألقي به في زاخو التي تسلل منها إلى أربيل وهناك عملت زوجته مذيعة في إذاعة المؤتمر ، أما هو فقد تسلم مسؤولية الإعلام باعتباره ضابط (إيقاع) وخبيراً في (العملية) الإعلامية .

المناضل أبو آية

على أرصفة زاخو متاهات وضياعات شتى . متاهات وأجناس من كل لون وطعم : فيليون ، سوران ، بهدينان ، مرحلون إلى ايران ، عرب ، أسرى . هاربون من جيش السلطة ، قوادون ، سراق وتجار مفلسون . الكل تحول في غفلة الزمن إلى سياسي عتيد . هكذا تتوالد مراحل التكوين السياسي للشخصية الإنسانية العراقية . الجميع غدا سياسيا ، لأن مهنة السياسة هي الأقرب إلى السمسرة والقوادة ، إنها مهنة تضم بين جنباتها كل أساليب السماسرة واللصوص . فإذا أردت أن تكون سياسيا عندنا ، فما عليك إلا أن تمر بمراحل التعريص والقوادة ، ثم السمسرة ، وتضبط طرق النصب و(الفهلوة) ، لتصبح بعد ذلك سياسيا كبيراً . إنها اللعبة اذن ، السياسة المنزوعة من الأخلاق والبراءة وكل ما يتصف بالطهر الروحي والنفسي .

بعد مغادرتنا أربيل ووصولنا إلى شقلاوة بهويات مزورة ، أصبحت فيها كاكه عمر بدلا من صلاح ، وابني أحمد غدا شيرزاد ، كذلك زوجتي غدت بروين وابنتي بفرين . توقفنا في شقلاوة . كان الجو رائعا والطبيعة

الخلابة مدوية ، لكننا لم نكن نحس بشيء ، كان إحساسنا معدوما أو أنه تركز على حالة واحدة هي الخوف من المجهول ، والخوف من تسليمنا إلى النظام تحت أية ذريعة . انتظرنا في أحد المقاهي واشترينا أرغفة وصحن لبن ، وجاءنا النادل بقدحين من الشاي المحروق . فبدأنا معركة الطعام ، تلك المعركة القاسية ، كان الأطفال جياعاً للغاية ، وأخذوا يلتهمون الطعام بسرعة كبيرة ؛ فتوقفت عن الأكل مفسحا المجال لهم . جاء رياض إبراهيم إلينا ثم ساعدنا في إيجاد مكان مناسب ورخيص للمبيت ، وكان هذا فندقا بسيطا يقع بالقرب من المقهى الذي جلسنا فيه ، بعد أن استرحنا نصف ساعة أخذنا رياض لزيارة عائلته . كان همي الأول أو ما يشغلني ، هو أين الاتجاه ، أين يمكن أن نذهب في هذا الضياع الكبير . كنت أشعر أني ضائع تماما ، خاصة مع عائلة مكونة من زوجة وطفلين . أثناء المسير ، ونحن نرتقي جبل شقلاوة ، حدثني رياض عن السفر إلى سوريا ، وهل هذا ممكن . قال رياض انه ممكن للغاية ، ووعدني أن يدرج اسمي مع أسمائهم . شعرت بنوع من الأمل . أخيرا سوف أهجر هذه القذارة التي غرقت فيها ، أهجر الرعب النازف من الأمكنة والذي يحيط بنا من كل الأماكن . وصلنا إلى منزل صغير بعد ثلاثة أرباع الساعة من المسير وتسلق الجبل . كان عائلة رياض تعيش مع عائلة آشورية هي صاحبة المنزل . كانت العائلة الآشورية رائعة ، وبعد وصولنا أعدت لنا الشاي . استطعت وقتها أن أشرب الشاي بنوع من الارتياح ، إذ إن ثمة أملاً كان يتبلور في الافق . كانت مهما جدا أن يجد الإنسان في تلك الظروف أملا يعيش فيه ومن أجله . استمرت أحاديثنا طويلة في تلك الاستراحة المثلى . كانت أقداح الشاي رائعة والأحاديث أكثر غوصا في الماضي . تذكرنا في تلك الجلسة أشعار عريان السيد خلف ومظفر النواب ، كذلك تذكرنا أنا ورياض

حميد المختار و شوقي كريم وضياء سالم ، بعد ذلك عرجنا على روايات ميلان كونديرا . برغم الأحاديث التي ألهمتنا الغوص في ماضٍ ملون ، لكن فكرة السفر وآلياته ، كانت تؤرقني جدا . نهضت بشكل مفاجئ وشعرت بآلام تحطمني ، كانت تلك الآلام مخيفة وتنبثق من ايام الاختفاء القسري في مدينة أربيل بعيد دخول الجيش العراقي بصحبة عصابات مسعود بارزاني . كان منزل العائلة الآشورية يقع وسط بستان للعنب والخوخ . تذكرت في تلك اللحظات المتوحدة الرحلة الطويلة التي سرت فيها من بغداد وحتى وصولي إلى أربيل . كانت رحلة طويلة عبر الجبال ، يرافقني فيها صوت فيروز والمهرب الذي كان يعرف كل شبر من تلك الجبال النائية والبعيدة عن الذاكرة . كررت سؤالي القلق والمرتبك عن السفر إلى سوريا ، وطمأنني رياض أن ليس هناك من داع للقلق نهائيا . كان رياض شخصاً متفائلاً للغاية منذ اليوم الذي تعرفنا فيه على بعضنا في مقهى حسن عجمي ، لم أشاهد رياض في أي يوم سابق وهو يجر الاكتئاب في رجليه . لم يكن يعرف كلمة الاستحالة أو غير الممكن بالرغم من أنه كان يعاني العديد من الأشياء . كان ذلك زمناً يجب أن لا تنحني فيه ، أن لا تدع اليأس يحطم أوصالك مثل آنية من الزجاج . المرارة في فمي وعيني . كنت أتأمل انحدار البستان وثمة خوف وقلق يسريان في عروقي . تناولنا في غرفة رياض ما قدمته لنا العائلة الآشورية من طعام . ثم جلسنا في الشرفة المطلة على البستان الذي ينحدر نحو واد منسرح . الأيام تتآكل هنا مثلما يتآكل الحديد أو مثلما تتآكل سيقان الأشجار العارية من الصوت . شعرت باللارغبة في الحياة ، الإحساس القاتم للموت والخوف من مجهول عارم . كان الموت يتقصاني في كل الأمكنة ، وكانت لحظات رعب تملأ الأمكنة الخالية في قلبي . قلت لرياض أريد أن أذهب

إلى الفندق ، ذلك أني أشعر بوحدة عارمة تجتاحني . هبطت الجبل مترنحا . سرت في طرقات شقلاوة الجبلية أشبه بماعز جبلي متخم من الألم . لا أدري ، بدأت تراودني في بعض الأحيان أفكار الموت والعجز . لكن رياض كان يقول لي إن الأمور ستتحسن حتما ، سنعبر إلى سوريا وهناك سيبدو العالم أكثر أمانا وأقل قلقا . الشوارع والطرقات الجبلية لشقلاوة كانت مترفة بالأشجار الهائلة ، غارقة في لجة أشجار الجوز وأشجار السرو . أمام هذه الأشجار تشعر بالاندحار والفوضى . لا أدري من أين كانت تهاجمني الفوضى . أشعل سجائري وأتأمل تلك السناجب والطيور الهائمة في سمائها . لم تكن هناك معان للقلق ، ولماذا كان يمكن أن تشعر بالقلق ، بالانزياح العارم الذي أغرق فيه حتى الثمالة وحتى الوجع . انحدرنا من السفوح المذهلة ، السفوح التي تخبئ البيوت خلف غلالات الأوراق المخضرة لصيف هائل المساحة والحجم .كنت فكرت في أوقات سابقة أن أقتل نفسي وعائلتي لأحول دون وقوعنا في قبضة السلطة فيما إذا ما اكتشف المخبأ السري الذي ننحشر فيه في أربيل . لا أعرف كيف كتبت لنا الحياة مرة أخرى . كان رياض يلاحظ السهو المتأصل في وجهي ، السهو الذي يغرقني في متاهات التألم . بعد دقائق طويلة وصلنا إلى الفندق . ودعني رياض ثم اختفى في الطرقات الملتوية . كان الإحساس بالقلق يتصاعد ، ودعني رياض وقبل أن يذهب عرفني على شخص كان موجوداً في الباحة الخارجية للفندق يدعى أبو آية . شكرت رياض إبراهيم على استضافته لنا في غرفته ، ثم انسللت إلى الفندق . الألم ، الخوف ، الرعب ، كل الأحلام كانت تضطرب في الذهن . حينما أردت أن أسرق دقائق للنوم ، كانت الكوابيس تترى علي ، تهاجمني من كل الأمكنة . دائما كان يتكرر مشهد انحشارنا في زاوية الغرفة مع ظلام

شفيف ، ثم يهجم علينا أتباع مسعود بارزاني لتسليمنا للسلطة . بعد ذلك كان يتم رمينا بالرصاص . كانت عيني أنا المشدود إلى جذع شجرة ، تشاهد الطلقات وهي تنطلق من فوهة البندقية ، ثم طيرانها وحتى استقرارها في جسدي . لم أكن أشعر بالألم . لكن مشهد قتل عائلتي كان يولد في آلاماً فظيعة . آلاماً خارجة عن التصور . فأستيقظ مرعوبا ومنهكا لأشاهد زوجتي تبكي وهي تقرأ آيات من القرآن الكريم . أخذت هذه الكوابيس تتكرر بشكل مخيف ومستمر ، ولم أستطع حتى بعد مرور سنوات الانتصار عليها . كانت تأتي في كل مرة بشكل مختلف ، لكن مشهد إلقاء القبض علي من قبل أعوان مسعود والنظام هي ذاتها ، إنه المشهد الفنطازي الأخير ، المشهد الذي يتكرر في نرجسية عالية دون أن أستطيع السيطرة عليه . لم أستطع أن آخذ قيلولة ، فشعرت أنه من الأفضل لو أخرج إلى الباحة الخارجية للفندق ، وهي عبارة عن مقهى صيفي وضعت في باحته الطاولات والكراسي . . نزلت إلى الباحة وكان أبو آية لم يزل جالساً هناك . دعاني أبو آية أن اجلس إلى طاولته . ففعلت . شربنا شايا ودار حديث طويل عن دخول الجيش إلى أربيل وكيف استطعت التخفي لمدة ١١ يوما متصلة حتى انقضت العاصفة . كان حوارا تعارفيا طويلا ، قال لي حينما علم أني زرت بيروت عام ١٩٧٨ إنه أيضا كان هناك ، وعاش ردحا من الزمن فيها ، وانه كان يعمل في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، وتحديدا في إعلام الجبهة . شعرت في تلك اللحظة بنوع من التعاطف مع أبو آية ، أو أن شعورا راودني بأني أمام صديق له معي تأريخ مشترك . روى لي أبو آية أنه كان في بلغاريا يدرس الفلسفة الماركسية في معاهدها . بعد ذلك صدر أمر الحزب الشيوعي العراقي بالعودة إلى العراق . وكانت عملية دخولهم إلى العراق بطريقة سرية لإعادة بناء

التنظيم في الداخل ، الذي تعرض إلى حملة قاسية من قبل أجهزة صدام . بقي أبو آية في بيروت فترة زمنية طويلة ريثما يتم تأمين طريق الدخول . عن بيروت تحدث لي أبو آية ، عن أمكنة زارها ، وكانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لي ، حيث ذكر تفاصيل مذهلة عن بيروت الغربية وجمهورية الفاكهاني ومخيمات الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا ، ثم عرج على محلات بيع الفول والحمص وأي محل كان يكتسب شهرة أكثر من المحل الآخر . أحسست أني فعلا أمام صديق قديم ، صديق له معي توهج مشترك . بعد ذلك ذكر لي كيف تم إدخاله إلى سوريا ومن هناك إلى شمال الوطن ثم إلى الداخل ، حيث باشر بعد وصوله بفترة قصيرة عملية بناء التنظيمات التي تحطمت . أما عن سبب وجوده الآن هنا ، فذكر لي أن تنظيمهم قد كشف ، واستطاع هو التخفي لمدة عام كامل ، بعدها قرر الفرار والالتحاق بأنصار الحزب الشيوعي في شمال الوطن . كانت أحاديث أبو آية تكتسب طعما حلوا ، إذ شعرت أني محظوظ بتعرفي عليه ، وصرت أشرح أنا أيضا رحلتي البيروتية والعمل في صحافة المقاومة . كذلك المؤتمرات التي حضرتها بعد اغتيال أحد إعلاميي المقاومة الفلسطينية العراقيين من قبل النظام في بغداد . بسرعة توثقت علاقتي بأبو آية ، وصرنا نلتقي مرات عديدة في اليوم الواحد . كانت هذه اللقاءات تبعث في نفسي راحة عميقة ، راحة لم أتذوقها منذ فترة طويلة . صرت في الحقيقة أستمتع بمناظر شقلاوة الرائعة وأشعر أني بين رفاق وإخوة يستطيعون إرشادي إلى الطريق السليم ، بفعل خبرتهم بهذه المنطقة وبحكم وجودهم الطويل فيها . في أحد لقاءاتنا المتكررة اقترح علي أبو آية ان يضاف اسمي إلى قائمة خاصة يتم إعدادها للسفر إلى سوريا ، وهي غير القائمة التي ذكرها رياض إبراهيم ، ومن أجل هذا اقترح السفر إلى

زاخو والالتقاء بأحد أقرباء محمد مظلوم الدليمي ، الضابط العراقي الذي حاول اغتيال صدام حسين وفشلت خطته فتم قتله . كان هذا الشخص يدعى محمود . جهزنا حالنا واستطعت بيع اسورة لزوجتي ثم سافرنا إلى زاخو . كانت هذه هي الرحلة الطويلة الأولى التي أقوم بها ، بعد رحلة الهروب الكبرى إلى أربيل . في الطريق توثقت علاقتي بأبي آية أكثر . وأخذ يشرح لي طبيعة العلاقات الكردية بأفراد المعارضة وغيرها من الأشياء ، من مثل ارتباط مسؤول الوفاق الوطني في شمال العراق بأجهزة المخابرات التركية ، ثم محاولة تفجير مقر الحركة الملكية الدستورية من قبل جماعة جلال الطالباني . هنا استوقفتني هذه الحادثة ، فسألت أبا آية عن سبب التفجير ، وهم الذين سمحوا للحركة بفتح مقر لها . ضحك أبو آية وقال إن هذا هو أسلوبهم ، يسمحون لك بالعمل وحينما تأتي يحاولون قتلك ، والتهمة جاهزة هنا بالطبع ، إذ يقولون إن الذي فجر المقر أو الذي أراد قتلك هم جماعة صدام حسين .

وصلنا إلى دهوك ، ومن هناك أخذنا سيارة أخرى إلى زاخو التي تبعد ثلاثة أرباع الساعة عن دهوك . في الطريق إلى زاخو أراني أبو آية بناية كبيرة جدا قال عنها إنها تابعة لجهاز المخابرات البرزاني (الباراستن) وكانت هذه البناية تابعة سابقا إلى مخابرات الدولة . في الطريق إلى زاخو شاهدنا أيضاً مركزا كبيرا للشاحنات التركية وهي تملأ صهاريجها بالنفط ، وتساءلت من أين يأتي هؤلاء بالنفط . ضحك أبو آية وقال إنها تجارة مربحة أقطابها عدي صدام حسين ونيجيرفان البارزاني ، الذي يحصل على ملايين الدولارات كل شهر . هنا تذكرت البيوت البائسة والخيم التي يعيش تحتها الأكراد في أربيل ، فيما قادتهم يرفلون بالدولارات . كانت آلية السلطة الصدامية تعمل هنا دون تغيير ، وشعرت بالبؤس لمناظر الفقراء

الكرد الذين يملأون أربيل وضواحيها فيما يرفل قادتهم بما لذ وطاب ، ويجولون العالم كله بحثا عن الاستثمارات . لم يكن هناك أحد يدري أين تذهب الأموال المستحصلة من النفط ، كما لم يكن هناك من أحد يعلم أين تذهب واردات المعبر الحدوي في زاخو . كانت تجارة النفط تجري على قدم وساق فيما الشعب ينطحن تحت سلطة الجوع والقهر . كان النفط وموارد إبراهيم الخليل السر الخفي للحرب المدمرة التي حصلت بين جماعة جلال ومسعود ، ويطلق عليها الأكراد هنا (معارك أم الكمارك) أكثر من خمسة آلاف كردي قتل في تلك الصراعات ، وأكثر من هذا كان عدد مشوهي الحرب والمعوقين . وأتذكر حينما دخل الجيش العراقي أربيل ، فرح الناس وشعروا أنهم في طريقهم للتخلص من هذه الأحزاب التي تتاجر بلقمة عيشهم ، لكن الأحلام سرعان ماتشتتت وغادر الجيش أربيل فشعر الناس بخيبة أمل كبيرة وحزن لما آل اليه الوضع . الموت في الشوارع ، الجثث يتم تجميعها من الطرقات وتشحن على ناقلات الموت ، فرق الموت تجول الشوارع وتطلق الرصاص على أي شيء يتحرك . في تلك الحرب تتكشف غائية الموت والقتل العمد ، يتكشف حب القتل المسلوخ على أبراج قلعة عشتار في أربيل . كم تدفع ، هكذا كان السؤال ، فتتقيأ الضحية ماعندها من الأموال أو تقتل وترمى في الشارع مثل كلب أجرب بلا صاحب ، العصابات كانت تمارس القتل وتترك الجثث ممددة في الشوارع ، مهرجان هائل للموت تتكشف فيه الرغبة المحمومة لهذه الأحزاب للقتل وشرب الدماء ، الكردي في الحقيقة لا يهتم بالحياة ، ليس لديه نزعة السلام ، أفضل الأوقات بالنسبة له ، هي تلك التي تكون في الحروب . أنك بإزاء متوالية الموت والحزن ، المتوالية المعلقة على لوح الأحزان ، حيث يغدو الانتماء لهذه الأحزاب ديمقراطيا جدا . فيظهر بعد كرنفال الموت

والطعن بالحراب ، رئيس الحزب لينفخ في بوق الديمقراطية المعجوج على عجل وبلا ترتيب . عنصر الحزب ، أي حزب فيهم ، كائن خرافي مهنته القتل أو الموت . ليس لديه تلك الصفة التي تربطه بمساومات اللحظة الشعرية ، إنه متعطش للقتل ، متعطش لرؤية الدماء ، وبعد كرنفال الموت يجلس ليدخن لفافة التبغ متمنياً حروباً أخرى ، وكل ذلك من أجل أربعمائة دينار عراقي من الطبعة السويسرية . في أوقات الاستراحة يفكر البشمركة ، بنوازع الموت ، بأمنيات الاستلاب الذي يمارسه على الضحية . كم تدفع لأوفر حياتك . كم تعطيني لأرسل لك رسولا إلى الحياة الدنيا ، الحياة المأفونة بالموت والجوع والقتل الحلال على الطريقة الكردية . عندما يهاجم البشمركة منزلا لأحد الأعداء يسرق الأموال ، ثم يغتصب النساء . في بعض الأوقات ، وإذا كانت الضحية محظوظة ، تسلب نساؤه سلبا فقط مع الأموال . في شهر تموز على ما أذكر ، هاجم مسعود بارزاني قرية السورجية ، حاول رئيس العشيرة الاستسلام ، لكن مسعود لم يوافق وأباد القرية كلها ، ثم استولى على الأموال وأسر النساء اللاتي ساقهن عرايا إلى معتقله ، أما ذكور القرية من الذين وقعوا في الأسر فقد أبادهم جميعا . حاولت وقتها أن أجد تفسيرا لتصرفات القادة الأكراد وحبهم الشديد للقتل ، لكنني لم أجد غير بروز النوازع الحيوانية والقطيعية وتضخمها ، حيث لم تزل روح البدائية غير الحضارية هي التي تتحكم بهم . كانت حادثة هذه العشيرة واحدة من مجموعة حوادث كثيرة منتشرة في تلك المناطق النائية من شمال الوطن ، والذي يتمتع بحماية الأمريكان . من هذه الحوادث إزاحة الآشوريين والكلدان عن قراهم واحتلالها بالقوة ، أو الاعتداء على نسائهم . ولأن الأشوريين والكلدان من الأقوام المتحضرة والمسالمة ، فإنهم يهاجرون إلى خارج المنطقة خوفا وهلعا وطلبا للأمان .

وبذلك كـان أغـوات الأكـراد ورؤسـاء الأحـزاب يسـيطرون على أراض جديدة ، ويتم إسكان الأكراد فيها بطريقة التأجير والعمل ، أما ملكية الأرض فتؤول إلى الأغوات ورؤساء الأحزاب الذين هم أغوات وشيوخ قبائل أصلا . هذه السياسة كانت قائمة من أمد بعيد ، ومنذ العام ١٩٩١ ازدادت هذه الحالات ولم يعد للآشوريين والكلدان ثمة مدافع عنهم ، خاصة بعد خروج شمال الوطن عن سيطرة الدولة العراقية ووضعه تحت سلطة الأحزاب الكردية والأغوات الإقطاعيين المتحالفين مع الأحزاب .

وصلنا زاخو مساء ، وبعد أربع ساعات من البحث المستمر استطعنا إيجاد غرفة في فندق . واستطعنا إيجاد محمود ، أحد أقارب محمد مظلوم الذي وعد بمساعدتنا على السفر إلى سوريا عن طريق أخ محمد مظلوم الموجود في الأردن . شعرت براحة عميقة بما قاله محمود . الآن يمكن لآلامنا أن تجد لها نهاية ، خاصة في هذا المكان المضطرب والمنفلت على مساحات هائلة من الفوضى والموت المجاني . عدنا في الليلة نفسها إلى شقلاوة . بعد وصولنا مساء اقترح علي رياض إبراهيم زيارة مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي والتعرف عليهم . كانت فكرة الزيارة مناسبة تماما ، لكني لم أستطع اتخاذ القرار بسرعة ، حيث كنت قلقا للغاية من أوضاعنا ، خاصة أن مالدينا من الأموال على وشك أن ينفد . كانت أعصابي مرهقة تماما وروحي ممزقة ، الأحلام والكوابيس كانت تطاردني ولم أكن أستطيع النوم أكثر من ساعتين في اليوم الواحد . حذرني أبو آية في شقلاوة بأن جماعة النظام بلا شك موجودة ، وهي تراقبنا ، لذا علينا الحذر باستمرار . لم أكن أعرف كيف يمكن لي التصرف بما قاله لي أبو آية ، ولذا وجدت أن من المناسب أن أخرج من الفندق وأن اذهب إلى حسينية شقلاوة لترتيب بقائي فيها بدل الفندق ، وذلك توفيرا للمال والأمن ،

هناك سوف أكون محاطاً بأناس من المعارضة أو من القادمين من أماكن مختلفة بعد أن تقطعت بهم السبل . في الطريق شاهدت مسؤول الحسينية ولم أشعر بالراحة لمرآه . بعد ذلك قال لي أبو آية ، إن حسينية شقلاوة كانت وكراً للمخابرات الإيرانية . قابلت رياض إبراهيم مرة ثانية واقترح من جديد أن أذهب إلى مقر الحزب الشيوعي ، فحزمت أمري وذهبت إلى المقر . كان المقر يقع على جبل شقلاوة ، ومن مكانه تستطيع مراقبة الطريق الذي يصل شقلاوة بمصيف صلاح الدين . جلست في الاستعلامات وطلبت مقابلة أي مسؤول . كنت في تلك اللحظة محطما تماما ، وأشعر بالرعب خاصة بعد أن نبهني أبو آية إلى المخاطر التي تحيط بي وبعائلتي . كان إسماعيل شاكر قد استقر في مقر الحزب الشيوعي ، لكنه ترك المقر بعد وصول عائلته من أربيل واستطاع أن يجد غرفة للإيجار بإيجار معقول . انتظرت في مقر الحزب الشيوعي ساعات طوالاً ولم ينفع أني ذكرت لهم أن والدتي شيوعية اعتقلها النظام عام ١٩٨١ وأريد ان يعلموني بأية أخبار يمكن أن تكون بحوزتهم عنها . بعد ساعات من الانتظار جاءني أحد اعضاء الحزب وطلب مني العودة إلى محل سكني ، وسيتصل بي الحزب بعد ذلك . قلت للمراسل هل هذا كل شيء ، فقال نعم . فقلت له كيف تتصلون بي وليس لديكم عنواني . فقال إن الحزب يعرف كيف يتصل بك . شعرت لحظتها بانهيار أعصابي ، لكني استطعت التماسك وشعرت بأني أخطأت عندما ذهبت اليهم . كما شعرت بالأسف كونهم لم يساعدوني في هذا الظرف اللعين ، على الأقل فيما يتعلق بحمايتي وعائلتي . عندما خرجت من مقر الحزب راودني إحساس مهين بأني لن أعود إلى هذا المقر مرة ثانية ، وأن ماجرى ليس إلا عملية طرد بطريقة دبلوماسية . كان في مقر الحزب الشيوعي أحد اصدقائي الأدباء من الذين

أعرفهم من بغداد . كان هذا الشاعر كتب العديد من القصائد في مدح صدام . لكن الحزب أسبغ عليه حمايته وها هو الآن في داخل المقر حيث الأمن والغذاء . كان ذلك مشهداً قاسياً بالنسبة لي ، إذ إن الذين كتبوا للنظام كل نتاجهم الأدبي يعيشون بحماية الحزب ، فيما أنا الذي لم يكتب ولا كلمة واحدة في مدح النظام أشرد وأبقى خارج الحماية .

الوحدة قاتلة ، مرة ، تتأسس على نزعة الرعب والقلق . كنت أشعر بالوحدة المريرة وبأني وحدي في هذا الظرف الاستثنائي . كانت الأموال التي حصلنا عليها من بيع الاسورة في طريقها إلى النفاد ، ولم يتبق لنا غير اسورة واحدة أخرى وبعد ذلك ستكون الكارثة . حاولنا أنا وزوجتي تقليل المصروفات ، فكنا لا نأكل غير وجبة واحدة ، وهي عبارة عن الكراث مع الخبز ، أما الأطفال فكانت لهم وجباتهم الثلاث . كانت رائحة الأطعمة المشوية ، وبالأخص اللحوم في باحة الفندق الخارجية ، نفاذة وملهمة ، وكانت أمعائي تتمزق وأنا أشم تلك الرائحة ، لكننا أنا وزجتي كنا مصممين على الانتصار ، وكان هذا شيئاً رائعاً ومدهشاً . كان منظر الأطفال وهم يتناولون طعامهم ، شيئاً جميلاً إذ استطعنا تأمين غذائهم بشكل معقول ، ريثما نجد طريقة للخروج من هذه الورطة .

مرت أيام طويلة ولم يتصل بي الحزب الشيوعي . كان أبو آية وغيره يترددون على مقر الحزب ، وكان الحزب يساعدهم ماديا . كنت أشعر بالألم ، وأنا اشاهد أبو آية وغيره يتناولون الكباب ، فيما أنا لا أستطيع أن آكل غير رغيف خبز في اليوم . لم أكن أستطيع أن أطلب المساعدة المادية من الحزب ، لقد شعرت بنوع من عزة النفس ، لذا قلت لهم في استعلامات الحزب ، إني قادم للحصول على أية معلومات متوافرة عن والدتي . ولم أقل لهم إني بحاجة إلى مساعدة مادية . اقترح علي أبو آية

أن نرحل إلى زاخو ونستقر هناك لنكون قريبين من محمود الذي يجري الاتصالات بقريبه لترتيب دخولنا إلى سوريا ، استحسنت الفكرة وقررنا السفر إلى زاخو بعد أن يئست تماما من مساعدة الحزب الشيوعي .

في الصباح الباكر حملنا سقط متاعنا القليل . كان المتاع عبارة عن حقيبة ملابس واحدة وقدر صغير وفانوس للأوقات المظلمة ، ثم أرغفة يابسة من أجل الطوارئ ، كان أبو آية هو الآخر يحمل حقائبه ، وضعها في السيارة ثم صعدنا جميعا إلى رحلة المجهول . في الطريق إلى زاخو شعرت أني أعبر الزمن الحالي لأكون في الزمن القادم . لكن ماهو الزمن القادم ؟ كيف شكله ولونه ؟ ما هو الانثيال الذي سيصيبني في زاخو فيجعلني مغادراً لمكان ومستقبلاً مكاناً آخر . كان السفر من شقلاوة يعني الطلاق مع مرحلة أربيل . وحينما بدأت السيارة أول مسلسل الزحف على الجبال ، قلت وداعاً لأربيل ، وداعاً لعشتار وهي تتمدد على قلعتها العظيمة ، وكأنما تومئ للناس بأذرعها الموشاة بالألم . في مدينة أربيل كنت أجلس في مقهى مشكو . كان هذا المقهى نسخة من مقهى حسن عجمي ، حيث يمكنك أن تشاهد فيه بعض الوجوه الأدبية التي بقيت في المدينة ولم يرحلها التجاذب بين الحزبين ، إما إلى خارج البلاد أو إلى مدينة كل حزب .

ابتعدت سيارتنا عن شقلاوة ، عقبنا المدينة خلفنا . شقلاوة مدينة الاسترخاء الجميل ، لكنه الأسى اليوم . كانت شقلاوة محطمة تماما ، لم تمتد اليها يد البناء منذ أن غادرتها الدولة . في عز الصيف لم تكن تستطيع أن تشاهد غير عائلة واحدة أو اثنتين تقومان بزيارة هذه المدينة ، وهم في الغالب من أهالي أربيل . أتذكر شقلاوة سابقاً ، حيث لن يمكنك في هذا الفصل الحصول على مكان للمبيت بفعل السياح . لكن كل شيء تغير

الآن ، حتى وجه المدينة أصبح عابساً ، ميتاً ، لا أثر فيه للحياة . قبل سفرنا بيومين اختطف أحد المسلحين الأكراد فتاة آشورية ولم يستطع أحد العثور عليها . اشتكى أهل الفتاة إلى مسعود بارزاني ، لكن دون فائدة . هذه الحوادث تحدث مراراً دون أن يستطيع الآشوريون أو الكلدان مقاومتها ، لذلك يهاجر غالبيتهم بعيدا عن هذه المناطق ليعايشوا الفقر في أماكن أخرى بعيدا عن ممتلكاتهم ، التي يستولي عليها الأغوات المسلحون بالسلطة والسلاح والبطش . كل شيء تغير في شقلاوة إذن نحو الأسوأ . نظرت إلى المدينة الراقدة بين جبلين ثم أغمضت عيني بانتظار قلق آخر .

وصلنا زاخو بعد الظهر وتوجهنا إلى الفندق الذي يسكن فيه محمود ، استطعنا الحصول على غرفة في فندق بغداد ، الذي تحول إلى فندق بتسمية كردية بعدما هدد صاحبه بالحبس إذا لم يغير اسم بغداد . في اليوم الثاني وجدنا غرفة أقل سعراً في فندق اسطنبول فتوجهنا اليها . دخلت غرفة أبي آية وكانت أم آية قلقة وبحالة عصبية . استفسرت من أبي آية عن السبب ، فأجاب بعد تردد أن أم آية فقدت ثوب السهرة ؟! استغربت ماقاله ، لكن أبي آية لم يعلق ولم يحر جوابا . عدت إلى الغرفة ولم أستطع أن أزيح صورة أم آية من ذهني وهي تنبش الحقيبة بحثاً عن الثوب .

بعد استقرارنا في الفندق بيومين ، وصل شخص كان يسأل عن أبي آية الذي كان خارج الفندق وقتها ويجري اتصالا هاتفيا معينا . تأخر أبو آية كثيرا ، فقدمت الشاي لهذا الزائر الذي كانت ملامحه تكشف عن حالة متوترة وقلق ونفاد صبر . سألني هذا الشخص ، والذي كان اسمه حسن ، إن كنت أعرف أبا آية من فترة طويلة ، فقلت له ، لا إنها لم تتجاوز أياما حسب . أخذ يتجرع شايه بتمهل ثم طلب مني أن أرافقه إلى وسط

المدينة الصغيرة عسى أن نجد أبا آية هناك . وافقت ، وحين هممنا بالخروج شاهد الضيف أم آية التي هربت بسرعة واختفت في غرفتها لمجرد رؤية الضيف . توقف حسن لحظة ونظر إلى غرفة أم آية . ثم نزلنا إلى الشارع . كان حسن يتحدث قليلاً جداً . وسألته عن سبب خوف أم آية منه وهروبها بمجرد رؤيتها له . قال إنه أقرضهم أموالاً كثيرة منذ يوم خروج مسؤول الوفاق السابق ولحد الآن لم يسدد أبو آية أي فلس له . أعدت السؤال مرة أخرى ، ولاحظت أن حسن ذكر مسؤول الوفاق السابق . فقال : كان أبو آية غنيا جدا وكان مسؤول الوفاق يدفع له . قلت لحسن : أتعني أنه كان يعمل مع الوفاق . قال نعم . قلت لكنه كان مع الحزب الشيوعي . ضحك صاحبي ولم يعلق . كررت السؤال . فقدم لي سيجارة وقال إن حسن لم يكن في أي يوم من الأيام عضوا في الحزب الشيوعي . استغربت الأمر وقلت له إنه ربما يكون متوهما ، فالرجل يذهب إلى مقر الحزب دائما وله علاقات متميزة ، أضف لهذا أنه يعرف خصوصيات قيادة الحزب ، ولا يمكن لشخص من خارج الحزب أن يعرف هذه الخصوصيات . كان حسن يسير مبتسما وهو ينظر إلي . شاهدنا مقهى صغيراً ودعاني لشرب الشاي . ثم قال بعد توقف :

- حسنا أنت لا تعرف أبا آية من مدة طويلة فيما أنا أعرفه منذ سنوات . هنا العلاقات متشابكة جدا وخطرة . دائما هناك عدة وجوه لكل حالة .

- لا أفهم بالضبط .

- ماهي المدة التي قضيتها في الشمال .

- حوالي ثلاثة شهور .

- أنت لا تعرف شيئا إذن .

- لكن أبا آية سرد لي كيف بعثه الحزب إلى بلغاريا لدراسة الماركسية ، ثم عودته إلى بيروت ومن هناك إلى شمال الوطن ، ثم تهريبه إلى الداخل وعمله هناك في بناء خلايا الحزب .

- هو الذي قال لك هذا ؟

- نعم .

- ومن يقول إنها صحيحة .

- لا أدري ، لكن المعلومات التي أوردها ، وخاصة أسماء بعض القادة في الجبهةالديمقراطية ، وأسماء بعض القادة الشيوعيين العراقيين ثم الأماكن التي ذكرها . كلها أشياء تدعو لأن يصدق المرء بها .

- انه نصاب كبير . . قال حسن وهو يضحك . الجميع يعرف أبا آية هنا . إنه أكبر قواد في المعارضة .

اقشعر بدني بسرعة وكأن ماسا كهربائيا أصابه . وأصبحت متشوقا لأن أعرف المزيد .

قال حسن بعد أن طلب (استكانا) آخر من الشاي .

- عمل أبي آية الأساسي أن يتعرف بالمسؤولين عن الأحزاب ثم تكمل زوجته المهمة الأخرى . حيث يدعو إلى بيته المسؤول وتقوم أم آية بإعداد الشراب ولبس ملابس السهرة ، وبعد حفلة ماجنة وسكر على ضوء الشموع يذهب المسؤول مع أم آية إلى غرفة جانبية معدة لهذا الغرض ، حيث يوزع أموال الحزب وأسراره .

- لهذا السبب تربطه علاقة قوية مع غالبية المسؤولين عن الأحزاب .

- بالضبط . قال حسن بثقة عالية .

- شيء مقرف للغاية . قلت .

- هذا هو عملهم .

- لكنه الآن في أزمة مالية . قلت .

- من يقول هذا ؟

- هو .

- إنه يكذب ، ولهذا السبب أنا هنا للحصول على أموالي .

الآلام في كل الأمكنة

صباحات مزوقة بخراء الأمكنة كالنذور . الآلام ووقت مشوه يسير في الشوارع السوداء ، شوارع تتمرغ على الأرض مثل حياة خربة شائخة . الروح مألومة ، النفس هائمة ، الأرض تميد تحت هاجس الهروب والاغترابات الجميلة والمرة . أسير في طرقات زاخو ، الطرقات والدروب المتلألئة بخوفنا وموتنا . سوران ، بهدينان ، زازا ، عرب ، تركمان ، اق قوينلو ، ممالك محمد خضير السوداء على أروقة المدينة الغارقة في جهود الباراستن ، والأجهزة السرية وهي ترمي قبضتها الحديدية على الجميع بهيمنة تشبه هيمنة الرب . أصابع الوهم تتناثر على أرجوحة الاغتصاب ، أبناء الملوك والجواري ، كل يجري إلى أجل مسمى . في وهدة البعد ، الانتظار ، التسلق الزمني ، موت الحاضر وحياته ، مرض الآخر واستعادات هائلة لاستحضار الألم الممزوج مع روائح الفساء الذي ينقط في الفم من أنابيب الهروب المجنون . سماء من اكفهرار مضطرب . مطاعم الكباب التي تفوح روائحها إلى مدن الجوع الخفية ، دجاج مسلوق بالبراز ، قيئ في شوارع الشمالات ، وخيول الجر تلهث في افتنات السوقة وخولية الوطن

المنهوش بكلاب هاربة . أقترب من الزمن ، أمسح على تراتيب وجده حضوري الذي لا يشبه غير حضور قملة تهرش في فروة إنسان . أشعر بالخوف والرغبة في التقيؤ ، لكن رياض إبراهيم يلزمني الصمت ويلزمني ابتلاع الوجود على اعتبار الماضي زمنا حاضرا مأساويا قابلاً للطي مثل صفحة جريدة .

ماهي الأشياء التي تتمرد على الذاكرة والتذكر . ماهي الانثيالات التي تسيح على شغاف قلبي الممزق ، قلب مهلهل من وغف وزبد البحر على أنهار زاخو الحجرية الملتوية يعبر إلى سماء الدخان . أسير متمهلا في أروقة المدينة الحجرية والمبنية من حصى الأنهار . أسير في الشوارع المتخمة بالهاربين فيما دوريات (الباراستن والاسايش) تفوح منها روائح القتل العمد . هذا الصباح الحالم والمسفوح على بنادق كردية ، بنادق مؤجرة للحلم الماضي ، بنادق مؤجرة للدفع الثقيل وبالدولارات المتأتية من أماكن خارج الزمن والحدود . أقتل الألم بألم آخر فيما الجيش التركي ينام على أفئدة الجبال العراقية المحاذية لزاخو ، أما البيشمركة فيحرسون حلم الأتراك في ممالك آسيا والخيام التركية ومجامر النار . كنت أفكر ، كيف يحرس البيشمركة أحلام الآخرين ولا يحرس حلمه . إنها معادلات الزمن الخطأ ، لكن من يقول إنها النظرية الخاطئة في أزمنتنا المعاشة على منح القادمين ومساعداتهم من خلف الحدود . أقتل الألم المشاع . أقتل الحسرة المتأتية من أن يطأ دخيل أرض وطني ، فيما البشمركة يفرح ويتقدم صفوف الأتراك من أجل حفنة من الدولارات . كنت أفكر في مأساة الكردي ، المأساة التي زرعتها الأحزاب الكردية في الإنسان الكردي البسيط فتحولت إلى المقدس المعلن . النص المنزل من السماء دون القدرة على التفكير وإشغال العقل . هنا يضيع الكردي بين حقائق الأرض وبين أخيلة الزمن

الأسطوري المحشوة في دماغه إلى الأبد . في مقهى قديم مبني من الحصى والجص قال لي كردي إنهم من سلالة السومريين . وفي أمكنة أخرى شرح لي آخر أنهم عرب استكردوا . في مقهى آخر قال لي كردي صغير إنهم في الأصل من أتباع النبي يونس ، لكنهم بعد ذلك أسلموا وأصبحوا مسلمين . في النوروز (عيد النار) يوقد الجميع النيران الزرادشتية على رؤوس الجبال في احتفال بعام جديد ، أما النساء فيتهادين في دبكة بلا نهاية في ضوء الحرائق .

الوقت مضيعة الأحلام الغافية على سنوات الجمر والممالك السوداء . وجه رياض إبراهيم يطوف في المدينة الخرائبية مثل حلم كامل دون تقطيع . ها هو الآن أغنية تشبه تلكم الأغنية المنزوعة الألحان والنوتات والصوت ، لكنها تبقى أغنية وتبقى مقطوعة سحرية لتأوهات مكبوتة في قمقم الوجع والوقت .

كانت أربيل المحطة الثانية للقائنا ، في البدء كنا نجول في بغداد ، ننحدر من مقهى حسن عجمي حتى نصل لضياء سالم . في الطريق نمر على حرائق الدجلة . ننحدر من حسن عجمي نحو ضفاف النهر . في وجه رياض إبراهيم وقتها معان خفية للألم فيما وجه حميد المختار يكتسب دائما معانيَ للتحدي . في وجه رياض ثمة مأساة مشتعلة هائلة ، لكنه من ذلك النوع الذي يدفن الآلام . من منا دون ألم خفي ، كلنا بآلام ، وميتات الحلاج تخرقنا من قمة الرأس إلى باطن القدم . في وقت سابق كان ضروريا أن يجري رياض عملية جراحية ، لكنه لم يكن يمتلك المال الكافي ، لم يكن يعير الأمر أهمية كبيرة ، لم يكن يتحدث . كان العصفور فقط ينام على شجرة الأحلام أما إذا قطعت الشجرة فكان لرياض أن يحزن له ، إذ كيف يمكن أن تنام العصافير بلا أحلام .

في أسبوعية الاتحاد التابعة للاتحاد الوطني أبلغني زميل بعد أن وصلت إلى مكتب الجريدة أن شخصا يدعى رياض إبراهيم وصل إلى أربيل وأنه جاء إلى هنا يسأل عني ، وأنه سينتظرني في مشكو . لم أصدق ماسمعت . شعرت بسرعة بانقباض لهذا الخبر ، إذ كيف يمكن أن يعيش رياض هنا وفي هذه الوضعية القذرة . لقد كنت أحس أنني أعيش في ورطة كبيرة ، فكيف يمكن أن يعيشها غيري أيضا . سألت الزميل إن كان رياض قد ترك رسالة ما ، أجابني الزميل أن رياضاً سوف ينتظرني في مقهى مشكو في الساعة العاشرة صباحا . في اليوم التالي انحدرت من البيت إلى وسط المدينة . كان مقهى مشكو يقع ملاصقا لقلعة عشتار(اربيل) . كنت قلقاً على رياض ومتلهفا في الوقت نفسه لرؤيته ومعاتبته على الهروب إلى أربيل دون أن يرسل لي مسبقا خبر اعتزامه الهرب .

قبل هروبي إلى (المنطقة المحررة) المنهوبة ، قلت لحميد المختار إني سوف أهرب إلى شمال العراق . فأجابني حميد بعد لحظات ، هل هذا قرار نهائي . قلت له نعم . بعد دقائق من الصمت عاد حميد ليقول لي ، أرسل لي خبرا لألتحق بك . نعم أجبت ، لكني قلت مستدركا ، إذا الأوضاع هناك جيدة سوف أرسل لك . بقينا بعد هذا الحوار في صمت كبير . ثم نهضت وودعته . في فجر اليوم التالي كنت أنا وعائلتي في كركوك حيث استقبلني هناك الشاعر رعد مطشر . بقينا في كركوك ليلتين . كانت الليلة الأولى في فندق ، أما الليلة الثانية فقضيناها في بيت رعد مطشر . كنت في الحقيقة قلقا وأشعر برعب بدأ يتسلط علي منذ اللحظة التي قررنا فيها مغادرة منزلنا . كان الأطفال يتساءلون عن الجهة والمكان اللذين سنذهب إليهما . وكنا نقول لهم إننا في زيارة لأحد الأقارب . كانت زوجتي على

العكس مني ، كانت تشعر باطمئنان ، وكنت أحسدها على أعصابها الباردة . كنت لا أستطيع أن أعيش بدون قلق ، وفي كثير من الأحيان كنت أحاول إخفاء القلق الذي كان يتسرب إلي من كل الأماكن . بتنا ليلتنا الثانية في منزل رعد ، وفي الصباح تناولنا فطورنا المكون من الجبن والخبز الطازج الذي خبزته زوجة رعد . كان صلاح زنكنة حاضرا في كل الأحاديث ، ذلك أنه هو الذي رتب كل شيء ، وهو الذي قام بالاتصال برعد مطشر الذي لم تكن لي معه علاقة قوية . كان أحدنا يعرف الآخر لكن لم تجمعنا صداقة . حينما قررت الهروب قلت لصلاح زنكنة بما عزمت عليه . لكنني لم أكن أمتلك الطريقة للهروب ، ولا العلاقات التي تسمح لي بتنفيذ مشروعي . اقترح صلاح أن يحدث رعد مطشر بالأمر ، وبالفعل قام بالتحضير للموضوع حينما التقى رعد في انتخابات اتحاد الأدباء ، بعد يومين من حصول موافقة رعد على مساعدتي . حملنا حقيبتنا الصغيرة وسافرنا إلى كركوك . في ظهيرة اليوم الثاني لوصولنا ، سافرت زوجتي مع الأطفال عن طريق السيطرة الحكومية ، وبعد أن تم الاتفاق مع امرأة تعمل هناك ، وقبضت جراء تمرير زوجتي مبلغاً من المال .كان رعد يتصرف بثقة عالية . وفي مساء اليوم ذاته انحدرت مع المهرب الذي اتفق معه رعد ، عبر الجبال إلى أربيل .

كنت أشعر بالحزن الشفيف وأنا أنتظر رياضاً في المقهى . لقد أردت الذهاب مبكرا وقبل وصول رياض لأتمتع (باستكان من الشاي) وهو ماحدث فعلا . بعد مرور عشر دقائق على الموعد وصل رياض الذي ضمني بشدة وحميمية ، كنت أشعر أن رياض قادم من كوكب آخر . كنت في الحقيقة فرحا لكن الحزن كان يرتسم على وجهي ، وهو مالاحظه

رياض وسألني عنه . قلت له ، لماذا جئت . فوجئ رياض وقال إنه كان يتوقع مني الترحيب . قلت له إني أبلغت حميد بأن لا يأتي أحد إلى هنا قبل أن أرسل لكم رسالة . شعرت بأني قد ضغطت على أعصاب رياض ، لكن رياض كان من النوع المتفائل ، وغالبا ما يحيل الأشياء إلى ابتسامات رقيقة ، هكذا كان منذ أيام بغداد .

ابتسم رياض وقال ، إن هذا هو الذي حصل وهاهو اليوم هنا ، خاصة أنه لم يعد يستطيع تحمل الحياة والكبت في الداخل ، ولهذا قرر الهروب والوصول إلى هنا بأي ثمن . شربنا (استكانات) الشاي وسألته أين وضع عائلته ، فأجابني أنه استطاع ترتيب منزل لهم . بعد برهة طلب مني رياض أن أذهب معه إلى مسؤول حركة الخلاص لتعزيز موقفه ، وعلى اعتبار أني اصبحت معروفا في أربيل بسبب عملي في جريدة الاتحاد . وافقت بسرعة ، وذهبنا في اليوم التالي إلى مقر حركة الخلاص . في مكتب الحركة التقينا بمسؤول الحركة ، محمد كاواني ، الصديق الشخصي لجلال الطالباني ، وبينهم يوجد ما هو أهم من العمل السياسي ، إنه البزنس السياسي . بعد اللقاء شكرني رياض على المساعدة ، بعد ذلك افترقنا ، إذ كان علي أن ألتحق بعملي الذي يبدأ في الساعة الرابعة والنصف عصراً . كان الانطباع الأول الذي تشكل لدى زيارة مسؤول حركة الخلاص ، أنه رجل وصولي ومتحذلق . كان بالإمكان إطلاق كل الصفات السيئة عليه دون أن تكون قد ارتكبت خطأ معينا أو ظلما ، وكانت هذه الصفات تبدأ بالوصولي لتنتهي بالانتهازي والكولنيالي ، وطبعا مع المرور على صفة النرجسية والمافيوية . كان هذا المسؤول يضع صورة جلال الطالباني على مكتبه ، ويدخن السيجار الكوبي بشراهة واضحة ، ويتكلم العربية بصعوبة ظاهرة . لم أقف كثيرا أمام أبهة المكتب الذي يجلس إليه ،

ولا طاولة المكتب التي تنتشر عليها الكتب ، إذ أدركت بسرعة ودون جهد أنه لا يستطيع القراءة أكثر من الدور والداران . كانت هذه الشخصية تمثل نموذجا لقيادات المعارضة القائمة على البزنس . قيادات تمتهن العمل السياسي وتديره على اعتباره (بزنسا) فقط وليس حركة سياسية .

طيلة أسبوع ، بعيد مغادرتنا لمقر محمد كاواني ، لم ألتق برياض إبراهيم ، إلا في شقلاوة ، وبعد اجتياح الجيش وجماعة مسعود لأربيل .

كان لقاؤنا ، أنا ورياض في شقلاوة ، حميميا للغاية ، وقلت لرياض مازحا ، إنه السبب المباشر لدخول الجيش . حدثت رياض في هذا اللقاء عن قصة اختفائي في غرفة واحدة أنا وعائلتي ، وأننا استطعنا الإفلات من أجهزة الأمن العراقية التي كانت تسير في شوارع أربيل بصحبة بيشمركة مسعود . بمعجزة كبيرة تشبه معجزة موسى عندما انشق له البحر ، أما أنا فقد انشقت الأرض وابتلعتني . كانت في الحقيقة ١١ يوما من الصمت التام وعدم الحركة ، وكان جيراننا يرمون لنا الطعام من النافذة الوحيدة المطلة على فناء المنزل .

كانت الأحاديث في ذلك اللقاء طويلة ، حدثني هو عن الكيفية التي استطاع بها الهرب مع عائلته اثناء دخول الدبابات العراقية ، واستطاع من أربيل التوجه إلى مصيف صلاح الدين ثم الاستقرار في شقلاوة . رياض كان دائما إنسانا مصنوعا من المخاطرة . إذ كيف استطاع الهرب من الداخل إلى أربيل مع عائلته الكبيرة .كانت تلك قصة أخرى تبين القدرة الفائقة لرياض على علك الألم أو علك المخاطرة وتصييرها بالشكل الملائم .

زرت رياض أكثر من مرة في الغرفة التي استأجرها . كانت الغرفة تشرف من مرتفع على بستان يغرق بأشجار العنب . كان الفصل صيفا . في بغداد تغرق المدينة في درجات الحرارة الفائقة ، أما هنا فالجو رائع تماما .

كنا أنا ورياض نذهب فيما إذا التقينا في حسن عجمي ، الى ضفاف الدجلة أو إلى مقهى الشاهبندر ، ذلك المقهى المزروع على الدجلة ، والذي تجاوره (المسنايات) كان شاي الحامض في ذلك المقهى يشكل استثناء كبيرا ، فكنا نعب (الاستكانات) واحدا بعد الآخر فيما زوراق التجذيف تمخر الدجلة ذهابا وإيابا . هنا يختلف كل شيء ، مرأى الجبال واحتضانها للأشجار يجعل الجو رائقا تماما وفعالا في التفكير في الأزمنة المرة . أو قل بتعبير آخر ، يمنحك هذا الصحو القدرة على الحلم والتراخي والنوم بانتظار اقتناص لحظات الإبداع المتداخلة بين الغفو واليقظة . لكن كل شيء الآن يكتسب طابعا سوداويا ، اللحظات المتحصلة من مرأى الاخضرار تتحول إلى كابوس اسمه الجوع وعدم الاستقرار ، ثم القلق المدمر . ما شاهدته هنا أن الكردي لا يقلق ، إنه إنسان سوبر بكل المقايسات الكونية ، الوضعية والنصية . ما يقلق الكردي هنا هو شيء واحد فقط ، شيء مرتبط بالهجرة إلى خارج البلد والهروب من أتون الأحزاب التي سفكت مئات الآلاف من الأرواح من أجل واردات إبراهيم الخليل .

في أربيل وبعد خروجي من الاختفاء الذي استمر (دهورا طويلة) التقيت بجارنا الذي كان ينتمي إلى جماعة مسعود بارزاني ، وكان قد سرق سيارات . سألت هذا الجار ، لم سرق السيارات ، خاصة أنه عضو في جماعة مسعود . قال الجار (طز) في مسعود وجلال . سأبيعها وسأهاجر بثمنها إلى أوروبا . حلم مشروع ، وهو بالمناسبة حلم كل كردي أصيل . لقد استهزأت الأحزاب الكردية بعقلية الإنسان الكردي إلى النهاية ، لكن هذا الإنسان يعرف أن لا سبيل إلى إصلاح هذه الأحزاب ، لذا فإنه أسلم أمره إلى (الخوا) الرب الكردي وقرر الهجرة إلى الأبد ، تاركا كما يقولون (الجمل بما حمل) وما يحمله الجمل هو أشياء كثيرة ، تبدأ بالدماء ولا تنتهي

بالأموال . بعد وصولي إلى أربيل واستقبالي من قبل أحد القياديين في حزب الاتحاد الوطني ويدعى أبو أسو ، تعرفت على عائلة هذا القيادي عن قرب ، وحدثت بيننا زيارات عائلية . في إحدى المرات اشتكت زوجة القيادي من إصرار زوجها على البقاء دون الهجرة . كانت تقول له أنظر . . كل قيادات الأحزاب سبق وأن هربوا إلى خارج البلاد ، وهم يحملون الجوازات الأجنبية ويجب أن تكون أنت كذلك ، ثم ، كانت تقول ، أنظر أين هي عوائلهم . إنهم هناك في الدول الأجنبية ، وكانت تعدد له أسماء القادة الذين كانت عوائلهم تقيم في الخارج ، فيما هم يتبجحون بالوطنية أمامك . كان هذا القيادي أمام إشكالية كبيرة . إنها إشكالية الزيف الذي يراه أمامه واضحا . في النهاية أقنعت الزوجة زوجها وسافر هذا القيادي مع أبنائه إلى الدول الاسكندنافية ، وبعد وصوله بفترة أرسل في طلب زوجته وابنته .

الكردي يعرف أن الأحزاب الكردية تخدعه ، ويعرف أن قادته ليسوا ملائكة إنما تجار ورجال أعمال وقتلة . بعد خروج الدولة من هذه المناطق ، قامت جماعة جلال ومسعود بتفكيك كل مؤسسات الدولة بما فيها أعمدة الكهرباء ، بعد ذلك باعوا كل شيء إلى ايران المستعدة دائما لشراء حتى الخراء العراقي ، المهم هو إفراغ العراق من أي شيء . يروي لك الأكراد في زاخو وفي المدن الأخرى أنهم أمام صدام حسين جديد ، وأن بدل الواحد فإن هناك العشرات من نسخ مشوهة لصدام حسين وعدي وقصي . كان قائمقام زاخو على سبيل المثال ، يحتكر بيع النفط ووقود السيارات ، وكان لايسمح للأهالي بشراء النفط من سميل ، مركز تجارة النفط . واذا صدف أن اشترى أحد ما نفطا وأراد إدخاله إلى زاخو تقوم مفارز التفتيش بإلقاء القبض على هذا الشخص ومصادرة الكمية التي يحملها من الوقود حتى

وإن كانت عبارة عن (جليكان) واحد فقط . إنها الفنطازيا الكردية ، حيث اشترى هذا القائم مقام معظم محطات التعبئة في جنوب تركيا ، بعد أن أثرى ثراء فاحشا . كان الأكراد يعرفون هذا لكنهم لم يكونوا يعترضون . إنهم يروون لك الكثير عن الفساد لكنهم لم يكونوا قادرين على مقاومته . إذ إن الذي يتحدث عن هذه المواضيع تختطفه عصابات الباراستن والاسايش (الأجهزة الأمنية) ثم يختفي إلى الأبد . كانت سطوة هذه الأجهزة مشابهة لسطوة الأجهزة الأمنية التابعة لنظام صدام حسين ، وتتبع الأساليب نفسها في التعذيب وإرهاب المواطنين . وفقاً لهذا يهرب الكردي إلى آخر العالم من أجل الحصول على الإقامة واللجوء في دول العالم . أنا أستغرب نزعة الكردي في عدم مقاومة تسلط هذه الأحزاب على لقمة عيشه وأمنه وحياته . نعم أستغرب وهم الذين يروون لك القصص الأسطورية عن مسالك قادة هذه الأحزاب منذ أيام الثورات الأولى ، ومنذ تأسيس السوفيت لحركاتهم ، ثم دخول الاسرائيليين على الخط وتأسيسهم للأجهزة القمعية لهذه الأحزاب بمساعدة الأمريكان . أثناء خدمتي العسكرية في البصرة عام ١٩٨٦ تعرفت على شخص كردي من مدينة زاخو وتوطدت علاقتي به . بعد سنوات طويلة التقيت هذا الشخص في زاخو عام ١٩٩٦ . وعندما دار الحديث عن أجهزة الباراستن قال لي ، وهو الذي لديه أخ قيادي في جهاز الباراستن ، إن كريم سنجاري قائد هذا الجهاز تدرب على إدارة الباراستن في اسرائيل ، التي أشرفت هي بنفسها على تأسيس هذا الجهاز واختيار عناصره ، ومنهم مسعود بارزاني الرئيس الحالي للحزب الديمقراطي الكردستاني ، وأضاف هذا الصديق أن جهاز الباراستن يعمل بشكل منفصل عن الحزب ، وأن مهمات هذا الجهاز هو التجسس على العراق . وما تزال اسرائيل تشرف بشكل مباشر على هذا

الجهاز حتى اليوم ، حيث لم تزل الدورات مستمرة . القادة الكبار في هذا الجهاز يتدربون في اسرائيل ، أما العناصر الأخرى فيتم إدخالهم في دورات تدريبية في مصيف صلاح الدين الذي يوجد فيه الموساد بشكل دائم وعبر مكتبهم المقام هناك . أما بخصوص وجود الموساد في دهوك وزاخو ، فإنهم يوجدون هناك أيضا ولهم في هذه المدن مكاتب دائمة تنسق عمل التجسس على العراق . كانت هذه المعلومات مقززة ، وكان الصديق يتحدث بشكل مؤسف عما يدور في (الأرض المحررة) تلك المقولة التي يخدعون بها الشعب الكردي .

في أواسط العام ١٩٩٦ ، وفيما كنت لم أزل في أربيل ، تعرفت على شخصية عربية عاصرت الأحداث الكبيرة التي حدثت في المنطقة ، ومنها المتعلقة باحداث حلبجة ، تلك الحادثة التي أخذ يطبل لها إعلام الأحزاب الكردية . كانت هذه الشخصية التي عاصرت ذلك الحدث ، تدعى الدكتور (ج) . عمل الدكتور ج فترة طويلة مع الأحزاب الكردية ، وكان هذا الرجل طبيبا التحق بتلك الأحزاب منذ العام ١٩٧٩ . يروي الدكتور أنه كان يعيش في قرية كردية عندما صدر أمر من جماعة جلال للالتحاق بسرعة لتنفيذ عملية عسكرية . فقام الدكتور بتلبية النداء والالتحاق بالفصائل المسلحة للحزب . أثناء التجمع عرف عن طريق الصدفة أنهم سوف يقومون بالتقدم أمام القوات الإيرانية لاحتلال حلبجة . شعر الدكتور بالتقزز وقرر الانسحاب ، وبعد ساعات من السير في الجبال ، استطاع الهرب من مجموعته العسكرية . ثم سمع بعد ذلك أن القوات الإيرانية ضربت القطعات العسكرية العراقية بالأسلحة الكيميائية ، وتساقط بسبب ذلك العشرات من المدنيين الأكراد ، من الذين كانوا موجودين في المدينة . حينما كان الدكتور يروي لي تلك الوقائع المرة ، كانت الحسرة وهي تخرج

منه كبيرة ، الحسرة على ما آل اليه وضع تلك الأحزاب في تعاملها دائما مع أعداء العراق ، حتى لو تطلب الأمر خيانة الأسس الأخلاقية . يقول الدكتور ، إن هذه الأحزاب قد تحولت إلى عصابات مرتزقة ، تقاتل حسب الطلب ، وأنه شعر أنه ارتكب ذنبا كبيرا يوم فكر بالالتحاق بها ، حتى وإن كان كطبيب يعالج الجرحى . يستمر الدكتور (ج) بروايته عن حال ما آل اليه الوضع الكردي في ظل الأحزاب الكردية فيقول ، إنه شاهد بأم عينيه كيف تقوم أجهزة (الزانياري والبراستن) الأجهزة الاستخبارية لمافيات جلال ومسعود ، بالتسلل إلى داخل العراق وشراء المعلومات ، ومن ثم تقديمها إلى الايرانيين . والمشكلة حسب مايقول الدكتور (ج) ليست في عملية التجسس بحد ذاتها رغم مأساويتها ، لكن في فلسفة الأحزاب هذه وهي تمارس أدوارا خطرة ، وتمارس أيضا عملية غسل دماغ كبيرة لمنتسبيها ولباقي الشعب الكردي ، إنها في الحقيقة تحول الشعب الكردي إلى بائع معلومات للدول التي يعيش فيها ، وبذلك فإنه ستكون صفة الكردي هي المرتزق الذي يخون المجتمع الذي يقيم فيه دائما . هنا يتحول الكردي إلى مواطن من الدرجة الثانية ، ويغزوه دائما شعور بدونيته . كان كلام الدكتور قاسياً جداً وخطيراً ،حيث تحول الأحزاب الكردية مجتمعاتها إلى مجتمعات مشكوك في ولائها دائما . هنا تذكرت الاسرائيليين وهم يهيمون في البراري دونما أرض ، مما ولد لديهم حقدا على كل المجتمعات التي وُجدوا فيها ، لكن الاسرائيليين تمتعوا بقائد استثنائي هو موسى الذي ابتدع لهم إلها من أجل توحيدهم ، كما أنه ابتكر لهم دينا ووعودا من أجل تجميع الشعب حوله . أما الأكراد فلم يصلوا إلى مرحلة إعلان ديانة جديدة وإن كانت هناك دعوات كثيرة تطالب بعودة الأكراد إلى ديانتهم الزرادشتية القديمة ، ومن الجدير بالملاحظة أن الأحزاب الكردية تعمل

وتساند تلك الأصوات المطالبة بالعودة إلى الزرادشتية ، كما أن هذه الأحزاب تعمل على وضع سياسات تجعل من الكردي إنساناً انطوائيا ومنعزلا وحاقدا على المحيط المجاور ، لا بل إنها تثقف هذا الكردي البسيط بأن كل الشعوب المجاورة للأكراد هي شعوب حاقدة على الكرد وتريد إذابته وإماتته ، وأنه كان للكردي يوما ما دولة واحدة اسمها كردستان ، وأن الشعوب المجاورة تقاسمت دولته وشطرتها .

بعد سويعات الظهيرة المرة في بغداد كنا ننحدر أنا ورياض إلى نادي اتحاد الأدباء ، حيث كنا نشاهد هناك شوقي كريم بكل مافي هذا الاسم من معنى . شوقي المشاغب دائما ، والذي يملأ الأماكن الميتة حركة دؤوبة ونشاطا وفوضى عارمة ، فوضى ترتبط دائما بمماحكاته المستمرة مع كل رواد النادي وهم يعبون أقداح البيرة والعرق المغشوش المليء بحبوب الفاليوم . بعد أمسية رائعة غالبا ما تنتهي بشجار طارئ كنا نودع النادي وشوقي كريم بانتظار مأساة أخرى تتمثل في طريقتنا الخاصة في الوصول إلى منازلنا . هكذا ينتهي يوم مقدس من حياتنا ، يوم لم ولن يعود أبدا ، لا بل انه ينحفر في الذهن عميقا ليبقى ذكرى ماثلة . كنا في بعض الأحيان نهب مع شوقي كريم حيث يصطحبنا إلى مايشبه منزله ، حيث تستقبلنا أحلام منصور باللعنات ، لكننا لم نكن نهتم إذ نعد التشريب ومن ثم نتقيأ لنغفو بانتظار صباح رائع نخرج فيه ليوقفنا شوقي كريم في الدور من أجل شراء أقداح من قيمر المصلحة .

عندما كنا نتذكر أنا ورياض جشع شوقي كريم للحصول على أقداح إضافية من القيمر كنا نغرق في ضحكات مجلجلة ، وكانت هذه الضحكات نوعًا من الاحتيال على الألم والقلق الذي نرزح تحته . سافرنا إلى زاخو أنا ورياض إبراهيم قبل أن نقرر الارتحال النهائي إلى زاخو .

وشاهدنا هناك الفوضى التي كانت تعيش فيها المدينة ، إنها فوضى عارمة تشبه إلى حد بعيد سبياً بابلياً . في أحد المقاهي قبل توجهنا إلى المعبر السوري لرؤية إن كانت اسماؤنا قد وصلت ، تناولنا الصمون مع الشاي . وحينما عدنا بلا إجابة ومبتئسين درنا في زاخو مثل ارميا النبي . توجهنا عندما حل المساء إلى أحد الفنادق الرخيصة ، بعد أن زودنا صاحب الفندق ببطاطين تشبه تلك التي توضع على البغال ، تمددنا في ممر الفندق . لم استطع النوم وقتها بالرغم من أني كنت مرهقا للغاية . كانت الأفكار السوداوية تلاحقني ، وما إن أغمض عيني حتى تطاردني الرؤى والأحلام والكوابيس في مزيج قل نظيره . كان رياض يحمل معه رواية لميلان كونديرا ، فاستعرتها منه وقرأت لساعات طويلة . في اليوم التالي توجهنا مرة أخرى إلى شقلاوة . ماهي طبيعة الارتحالات التي يفعلها الإنسان ، لماذا تكتسب الارتحالات لحظات من الحنو ومن القلق ومن الابتئاس . هل كانت مدينة شقلاوة رائعة إلى هذا الحد . في ذلك الوقت بدأت أشعر بحالات الاكتئاب المر وهي تهجم علي فتمنيت أن نموت جميعنا مرة واحدة وبدفعة واحدة ، لكن ليس قتلا على أيدي العصابات ، إنما أن ننام فلا نستيقظ لتضمنا بعد ذلك مقابر شقلاوة إلى أبد الآبدين . هنا في شقلاوة بدأت تصارعنا الكوابيس ، إنها من المرارة بحيث لم أكن أريد النوم ، ولم أكن أريد حتى الإغفاءة القليلة . في بعض الكوابيس ، كان يهجم علي شيء يشبه تعامة البابلية أو الآشورية ، العماء الكبير ، فأضيع في ذلك العماء إلى الأبد . السقوط المريع من مرتفع نحو هاوية بلا قرار ، أحلام الطفولة البائسة ، أحلام الشباب ، أحلام البلوغ الجنسي ، كلها كانت تتحول في هذا العماء الشامل والتام إلى رؤوس شيطانية تدفع برماحها إلى قلبي المتعب والمتهرئ بفعل اكتساح الجيش أربيل وانتظار

الموت في أي لحظة . لم أكن وقتها مهتما كثيرا بموتي ، لم أكن مهتما بأن أحمل وسط بطانية وأنا مضرج بالدماء . كان خوفي على زوجتي المسكينة التي أصرت على مرافقتي رغم عدم موافقتي على الموضوع . كانت تقول أريد أن نحيا سوية أو نموت سوية . مذ ذلك اليوم ، الساعة ، الدقيقة ، الثانية ، اللحظة ، جرى ثمة شيء في عروقي ، شيء يشبه التقدمة المرفوعة للإله حينما تفوح روائح البخور والعطور والمر والطيب . الحزن المدمر كان خوفي على زوجتي ، كنت أريد الفداء ، التضحية . لكن مع رجال الأمن والبشمركة تسقط القيم وتسقط كل سياقات الفداء والافتداء ، إذ إنهم عبارة عن عصابات ومافيات تحركها روح الانتقام والغزو والتنكيل . ليس هناك روح إنساني يحرك البيشمركة ورجال أمن صدام ، إنهم من الطينة ذاتها ، ومن ذات السياق غير الأخلاقي . تعطشهم للدم والحقد هو الذي يحركهم لذلك فهم خارج النص وخارج الأخلاق وخارج القانون . كانت الأفكار تهاجمني وأنا في الطريق إلى زاخو المليء بنقاط التفتيش والكمارك . كانت البضائع التي تأتي من زاخو أو بالعكس ، وأعني بها تلك القادمة من إيران تمر على العديد من نقاط الكمارك ، وكان صاحب البضاعة يدفع رسوم الكمارك عند كل نقطة ، ثم تذهب الأموال إلى شيخ العشيرة الذي تقع نقطة التفتيش في منطقته .

الجبال تزداد شموخا ، عبرنا السهل الكبير الذي يصادفنا بعد خروجنا من شقلاوة . كان هذا السهل كبيرا إلى درجة مخيفة . حين ترى تلك السهول لا يتبادر إلى ذهنك غير نوعية المأساة التي نعيشها جميعا ، مأساة الاحتراب والاحتراب المضاد . بعد استدارات مريرة في تلك الجبال ، شعرت أني بحاجة إلى النوم ، فاستسلمت هربا من الأفكار النزقة والقلقة التي كانت تنهشني .

لم يمنحني النوم مـــاكنت أبحث وأهرب منه . لا لم يمنحني ذلك الاسترخاء الذي كنت أوده وأتمناه . في الحلم المضطرب شاهدت مفارز البيشمركة تقتحم البيوت بحثا عن عرب أو معارضة ، حيث أصبح كل عربي هو معارضة بالضرورة . كان البيشمركة يقتلون من يقاوم ، ومن لم يقاوم يلقى عليه القبض ويسلمونه إلى مفارز الأمن الصدامي . بعد ذلك جمعت كل الحصيلة من العرب ليتم إعدامها في قرية قوش تبه . التركمان المسالمون ، هم أيضا دفعوا حصيلة كبيرة ، بعضهم قتل أثناء المواجهات ، أما البقية فتم إعدامهم أيضا في قوش تبه . كان مسعود البارزاني يريد التخلص من التركمان كونهم يمثلون بالنسبة له معادلاً موضوعياً وشيئاً يشكك في انتماء كركوك وأربيل إلى الأكراد ، باعتبار هذه المدن تركمانية أصلا ، أضف إلى هذا أن الأكراد وعبر الكثير من السنوات يتحينون أية فرصة للتخلص من التركمان . لقد شكل التركمان مأزقا لمسعود ، ومن قبله شكلوا أيضا مأزقا للقادة الأكراد ، فوجودهم الأزلي في مدن كركوك وأربيل يعني انتماء هذه المدن إلى عراقيتها ، ويشكك في عائدية كركوك وأربيل إلى الأكراد . هناك ثمة شيء يجدر التعرض له ، وهو أن الأكراد ما يزالون يتمتعون بعقلية النفي للآخر ، وهذا النفي كان مسؤولاً عن تشريد الكثير من التركمان والآشوريين والاستيلاء على أراضيهم بقوة السلاح . وعبر السنين ، كانت هناك مواجهات عديدة بين التركمان والآشوريين والكلدان من جهة وبين الأكراد الغارقين في دم الضحايا . كان البيشمركة يجولون في الشوارع والأزقة مثل جراد يلتهم كل شيء ، الموت في الشوارع ، الموت في السماء ، الموت على الطرقات ودروب روناكي والشستي . أين ضعت يامقهى مشكو في كرنفال الموت هذا . هذا الاحتفال الكبير والفائق الروعة ، المهرجان الملون بالدم والروح النازفة من كل مكان . الآلهة كانت

تموت ، لكن ليس بسبب وجود إله واحد ، إنما صنيعتها من البشر الذين نشروا فوق رؤوسها أشواك الدروب والصحارى ، أشواك لها أعضاء تشبه الأعضاء البشرية ولها ملاقط تشبه ملاقط الصراصر والديناصورات المنقرضة . حينما يشيع الموت تغدو الحقيقة تافهة جدا . ثمة إشاعة أطلقها أبو آية حينما لم نكن نزل في شقلاوة ، هي أن (س) عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني يطارد الآن فلول الأمن الصدامي . كان ذلك عبارة عن نكتة كبيرة . أراد الحزب وقتها أن يتنطع بمسؤولية أو بطولة ليس له فيها مكان . كيف يطارد هذا المسؤول رجال الأمن وهم يسيرون بصحبة مافيات مسعود بارزاني وحمايتهم . لو فعلها حقيقة فسوف يخصي حزب مسعود والى الأبد جماعة الحزب الشيوعي ، أضف إلى هذا أن إمكانية تعاون الحزب الشيوعي مع جماعة مسعود قائمة وغير مستحيلة ، بل ممكنة ، إذ من غير المعقول أن لا يكون هناك تعاون أصلا بين الحزب الشيوعي بجناحيه ، والكردي والعراقي وبين جماعة مسعود .

في الأحلام رأيت غيمة كبيرة كانت تسير قريبة من الأرض ، في البدء توهمت أنها ربما كانت روح الإله فاقتربت منها ، أو توقفت فيما كانت هي تتجه نحوي . بعد دقائق من الوقوف القلق والمرتبك وصلت الغيمة فشعرت بقوة الرعب والانحطاط والخوف والرهبة . انحنيت ، وحينما رفعت عيني كان ملاك الآلهة أو رسولها ، إن صح التعبير ، يقف إزائي متمتما بأشياء غير مفهومة ، ربما كان الرجل يتحدث الآرامية أو السريانية ، لم أكن أعرف ، وحينما هممت بالنهوض انقض على الملاك أربعة من عصابات البيشمركة والأمن وقيدوا بالسلاسل الملاك المسكين . بعد أيام وربما أسبوع ذهبت إلى الباراستن للسؤال عن الملاك ، فقال لي أحد أعضاء البيشمركة إنه يعمل مع صدام حسين . أثارني الجواب وقلت

متعجبا إنكم ألقيتم عليه القبض بصحبة رجال صدام . أشعل البيشمركة سجارته (الكنت) وقال ، كاكه هو يعمل مع النظام . خرجت من مكتب الباراستن وحينما وصلت سوق الدولار في أربيل شاهدت الشارع مليئا بالحاخامات الذين كانوا يرتدون قلنسواتهم . قلت لرياض إبراهيم : هل ترى ؟ وحينما لاحظ رياض هذا المشهد انقض علينا رجال البيشمركة باعتبارنا من العرب . بعد أسبوع من التوقيف وتهديدنا بالكلاب البوليسية ، خرجنا من المعتقل وأردنا الذهاب إلى شقلاوة . وجدنا صعوبة بالغة في إيجاد سيارة تقلنا إلى هناك ، وفي النهاية عثرنا على سيارة تقلنا إلى مصيف صلاح الدين ، وبعد أن دفعنا للسائق كل مانملك من مال . أثناء الصعود الملتوي كنا نشعر بنوع من التوجس ، وحينما انتهت دورات الصعود فوجئنا أننا لم نغادر أربيل ، وأن كل الأمر لا يعدو ان يكون نكتة سمجة ، وأننا كنا نحلم داخل الحلم ، وأن الكلاب البوليسية كانت تزمجر في الغرفة المجاورة ، فيما صرخات شاب كانت تتسلل إلينا من فرجة الباب . بعد ساعات طويلة من السفر وصلنا إلى زاخو وذهبنا إلى فندق اسطنبول . كان معنا في الرحلة أبو آية ورياض إبراهيم مع عائلاتهم . رياض كان يشعر ربما ولأول مرة بقلق متجذر مرفوعا للأس العاشر . سرنا في زاخو بعد أن بتنا ليلتنا الأولى فيها ، كانت شوارع زاخو مكتظة ومحال الاتصالات التلفونية ، كلها مشغولة بالزبائن . كان في الواقع مهرجانا للهروب الجماعي . قلت لرياض إننا بلا شك سنضيع في هذه القيامة ، وأجاب رياض معلقا : أعتقد أننا ضعنا فعلا .

- ليس تماما بعد ، قلت .
- ليس هناك من ثغرة في موضوعة الضياع هذه . قال .
- هناك ثغرة صغيرة وهي سفرنا إلى سوريا .

- نعم أصبت . هناك بصيص ، إنه بصيص بحجم الشمس .

تناولنا صمونا مع الشاي في مقهى بلا اسم ، ثم سرنا بعد ذلك نكمل كرازتنا في شوارع زاخو .

بعد وصولنا إلى زاخو أرسل الباراستن بطلب رياض ابراهيم . أربكني هذا الاستدعاء ، وحينما عاد رياض الذي أخذ يذوي قال : إنه تحقيق عادي للغاية . لم أصدق ماقاله ، لكنه ربما كان لا يريد إقلاقنا .

بعد استقرارنا في زاخو ذهبت إلى مقر الحزب الشيوعي الذي دلني عليه اسماعيل شاكر . كان اسماعيل يشغل مع عائلته غرفة الاجتماعات ، وحينما دخلنا أنا ورياض إبراهيم الغرفة كانت بقايا وجبة الصمون قد استنفدت على الآخر من قبل عائلته .

كانت تجري في زاخو وقتذاك حملة تسجيل أسماء من بقي من المعارضة للسفر إلى خارج العراق ، وقد بيعت الأسماء بيعا علنيا . استطعنا تسجيل أسمائنا ، وكانت هذه نوعا ما فرصة إضافية للخروج من زاخو ا ، أما موضوع السفر إلى سوريا فبقينا نتابعه هو الآخر عبر محمود قريب محمد مظلوم ، الذي أبدى استعداده لمتابعة الموضوع . أثناء جلوسنا في مقهى (العاصمة) أنا ورياض جاء رجال الأسايش (الامن) وطلبوا من صاحب المقهى تغيير اسم المحل ، استغرب صاحب المقهى هذا الطلب ، وحينما سألهم عن السبب قالوا إنهم يريدون تغيير كل الأسماء إلى أسماء كردية ، ويجب عليه أن يغير الاسم وإلا سوف يسحلوه سحلا إلى الأسايش . احتج صاحب المقهى ثم قال لهم بعد لحظات فيما يشبه ومضة استنارة إن الاسم لا يعني اسم بغداد العاصمة إنما اسم أربيل . لم تنفع هذه الإجابة من صاحبنا في الالتفاف على الموضوع ، وقال له رجال الأسايش : إذن غير الاسم إلى هولير . لا تنسَ هولير وليس أربيل . انسللنا

من المقهى بعد هذه المواجهة ولم نشأ التدخل رغم أن الموضوع أثارنا بسبب إنزال اسم بغداد من مدينة عراقية . كنا نعرف أن صاحب المقهى يقصد بالعاصمة بغداد ولا يقصد أية مدينة أخرى . سار رجال الأسايش إلى محال أخرى وأمروهم بإنزال اليافطات التي تحمل أسماء سورانية أيضا ، وكان هذا مثار دهشتنا ، فالسورانية يفترض أنها لهجة كردية ، لكن هذا عزز لدي شعوراً خاصا أن اللهجات الكردية هي ليست لهجات إنما لغات مختلفة ، وقد عزز هذا اليقين لدينا عندما شرح لنا أحد السوران الذين يعملون في زاخو أن السورانية في الحقيقة هي لغة وليست لهجة . والأكراد يعرفون هذا لكنهم يصرون على أنها لهجات . شرح لنا هذا المثقف السوراني ، والذي عمل لفترة طويلة في بغداد وأصبح ذا ذهنية منفتحة ، وميالاً لنا كوننا من بغداد ، كمية الحقد التي يحملها البهدنان إلى السوران ، حيث يعتبرونهم من درجة إنسانية أقل ، أو أنهم ليسوا أكراداً أصلاً ، وقد ألقى هذا شكاً لدي حول أصول الأكراد الفارسية والأذربيجانية ، ومن أن الأكراد لا يؤلفون فعلا شعبا متجانسا وله أصل واحد ، وقد لاحظ هذا الاختلاف أيضا ديفيد مكدول ، الذي قال في كتابه «تاريخ الأكراد الحديث» (من الجائز أيضا أن تكون قبائل سامية سكنت جبال زاغروس) كذلك يفسر مكدول في كتابه لفظة الكردي فيقول (إن لفظة الأكراد كانت تحمل مدلولا اجتماعيا - اقتصاديا اكثر من المدلول العرقي ، كما أن (هناك لغتان أو لهجتان رئيسيتان موجودتان في الوقت الحاضر ، الكرمانجية التي يتكلمها معظم الأكراد في المناطق الشمالية ، والسورانية التي يتكلمها الأكراد في المناطق الجنوبية . من الناحية القواعدية تختلف اللهجتان بعضهما عن بعض ، كما تختلف اللغتان الانكليزية والألمانية ، مع أن درجة الاختلاف في المفردات على

القدر نفسه من الاختلاف بين الألمانية والهولندية) . تركنا المقهى وضعنا في اسواق زاخو . فكرنا أثناء تجوالنا أن نمر على إسماعيل شاكر ، واتخذنا طريقنا إلى هناك . كان رجال الأسايش يدورون في حملتهم الكبيرة على المحال لتغيير الأسماء ، وشمل هذا فندق اسطنبول الذي تحول إلى فندق دلال ، والجسر العباسي الذي تحول إلى جسر دلال . كان إسماعيل شاكر لم يزل في مقر الحزب الشيوعي ، وحينما وصلنا استقبلنا ودخلنا إلى غرفته العارية . كانت عائلته الكبيرة متحلقة حول المدفأة الوحيدة والصدئة ، أما نوافذ الغرفة فعلق عليها بطانيات من أجل عدم تسرب الحرارة . تحلقنا نحن أيضا حول المدفأة وكان الجو في الغرفة مظلما . أشعل إسماعيل فانوساً كان قد أعاره إياه الحزب الشيوعي ، ثم انخرطنا في الحديث عن أفكار السفر والهجرة وطرق التهريب . كانت الطرق كلها مغلقة أمامنا ، وخاصة طرق التهريب التي تتطلب منا أموالا كثيرة . كنا مفلسين ولا نملك إلا ماهو ضروري للبقاء على قيد الحياة . حاول رياض أن يتصل بأناس يعرفهم في الشام ، لكنه اصطدم بعدم وجود أرقام تلفوناتهم . اتصلت أنا بمن وجد من أصدقائنا في عمان ، وخاصة أولئك الموجودين في مقهى الفينيق . استطعت التحدث مع نصيف الناصري وطلبت منه أن يتعاون مع الأصدقاء من أجل شن حملة صحفية تطالب بإخراجنا من زاخو بأية وسيلة ممكنة ، خاصة أن أجهزة النظام ، بالتعاون مع جماعات مسعود ، تبحث وتسجن وتطرد العرب ، وليس أمامنا إلا خيارات قليلة ، أما العودة إلى الداخل فيعني هذا الموت في السجن ، وإما أن تتم تصفيتنا من قبل البيشمركة . وعدني نصيف ببذل كل ماهو ممكن ، وانتهى اللقاء على أمل ربما يبدو غير فعال لكنه يبقى أملا . كانت الأيام تجري بسرعة وأصبحنا أنا ورياض على وشك الإفلاس . كان رياض وعائلته الكبيرة في

مأزق كبير إذ إنهم صرفوا ما يملكون بسرعة كبيرة ، دون نظر إلى العواقب وانسداد الأفق . قال إسماعيل شاكر أثناء جلساتنا معا ، إن عادل مراد ، عضو القيادة ومسؤول الإعلام في جماعة جلال الطالباني ، أرسل لنا رسالة شفهية ثانية عن طريق الحزب الشيوعي الكردستاني ، يتمنى فيها ان نلتحق به في السليمانية ، حيث المقر القوي ومعقل الاتحاد الوطني . سألني إسماعيل عن قراري ، فقلت له إني لا أريد الذهاب إلى هناك ، وذلك بسبب أنهم تركونا وهربوا من أربيل أولا . وثانيا إذا ماحدث شيء مشابه لما حدث في أربيل في ٣١ آب ، فإن ظهورنا سوف تكون لا يران ولا نستطيع الهرب إلا لها وهو شيء مقرف حقا . هنا أفضل ففي حالة ما حدث شيء على الأقل نستطيع دخول الحدود السورية أو التركية . احتمالات النجاة هنا أكبر . بقي إسماعيل شاكر مترددا . أما رياض فكان يصغي الينا وهو منشغل بتسخين قطعة صمون على المدفأة . كان هذا الأمر لا يعنيه كونه أصلا لم يذكر اسمه في الرسالة الشفهية . أحد العرب الموجودين في زاخو ويدعى حسين الكذاب ، والذي يعمل في المعارضة ، قال لنا في إحدى المرات في شطحة عالية ، إنه سوف يهرب إلى السليمانية ، ومن هناك إلى ايران ثم باكستان ، حيث سيقدم من هناك أوراقه إلى الأمم المتحدة وسوف يقبل حتما ، وقد سمع بالتسهيلات التي تقدمها الأمم المتحدة هناك للمعارضة العراقية . كان حسن هذا عقلية غريبة وربما كان مصابا بالفصام الهستيري ، لم أعر ما قاله الكثير من الاهتمام ، إذ من غير المعقول أن أجتاز دولتين من أجل الوصول إلى الأمم المتحدة ، أضف إلى هذا أنه من المحتمل ، لا بل من المؤكد أنه كان يعمل لصالح الباراستن ، وكان يستمزج رأينا في مسالة السفر إلى السليمانية . كنا حذرين للغاية وخاصة من النماذج المشابهة لهذا الشخص ، الذين جندهم

الباراستن من أجل التجسس على العرب . تعرفت على حسين في شقلاوة عقب وصولي اليها من أربيل . عرفنا هناك على عائلته التي احتلت غرفة مجاورة لنا في الفندق . كانت عائلته مكونة من امرأة قال إنها اخته ، وإن زوجها فقد في معركة أربيل مع الجيش العراقي ، وكان بالإضافة إلى المرأة هناك طفل معوق . لم أشك وقتها في تبعية المرأة بالرغم من أني لمحت علامة فارقة في تركيب وجهها وشكل رأسها القريب إلى طبيعة الرؤوس الكردية . كانت المرأة تتحدث العربية بشكل طليق ولم أسمعها تتحدث الكردية إطلاقا . حاولت أثناء جلوسنا سوية مع حسين أن ألتقط أية مفردة في الكلام تنم على كرديتها ،لكني فشلت . لكن شكل الرأس وطبيعة الوجه بقيا يشكلان بالنسبة لي شيئا مقلقا . كنا في بعض الأحيان نزور هذه العائلة في غرفتهم من باب الضجر . وفي إحدى المرات قالت أخت حسين إنها تجيد قراءة الفنجان . لم أعر الموضوع أهمية كبيرة ، لكن زوجتي أخذت تصر على أن تقرأ لها الفنجان . كانت زوجتي تعيش قلقا كبيراً معي في هذا الضياع الكبير . وفي إحدى المرات فوجئت حينما عدت إلى غرفتنا في الفندق بدخول زوجتي في نوبة بكاء هستيرية . شعرت باضطراب وارتعاش خفي . هذه السوسنة الصلبة التي صمدت أمام هول الصدمات ماذا يبكيها . قالت بعد استفساري عن السبب : أنت سوف تسافر إلى تركيا وسوف تتزوج هناك . ضحكة بقوة الآلهة التي منحتني الضحك في عسير الأيام ومرها . من قال لك . قلت .

- هي .
- من هي .
- أخت حسين . جاءت ومعها فنجان قهوة . شربته وظلت نصف ساعة كاملة تقرأ لي .

- مدهش . انحنيت وقبلت رأسها . كانت تنظر لي مثل قطة مستلبة في عيني مباشرة .

- كيف تصدقين هذا الخبل .

- إنها صادقة في ما تقول .

- من قال إنها صادقة . إنها تتلاعب بك فقط . هناك أناس يشعرون بالمتعة في تعذيب الآخرين . صدقيني انها تكذب عليك ليس إلا ، ربما ستقول لك بعد ذلك إنها باستطاعتها أن تعمل سحرا لإعادتي إلى الطريق القويم . ضحكت ولم أستطع تمالك نفسي .

أخذت زوجتي تقتنع بما أقوله وتوقفت عن البكاء . شعرت أنها في حالة أفضل ، لكنها قالت لي بعد دقائق ، هل تعدني بعدم الزواج من أخرى .

صدقيني إنها تخاريف . لا أريدك ان تكوني مهزوزة بهذا الشكل . نحتاج هنا إلى القوة ورباطة الجأش . ثم إني أعدك أن شيئاً من هذا القبيل لن يحدث . هل تتذكرين يوم أن قالت لنا في إحدى جلساتنا معهم ، اننا من أصحاب الرايات السوداء وأشياء من هذا القبيل ، وإنك سوف تلدين طفلاً عظيمًا يغير الدنيا . يومها ضحكت من هذه الأشياء في سري . إنها كاذبة ياعزيزتي . شعرت زوجتي بطمأنينة أكبر بعدما أقسمت لها إن شيئاً مما قالته أخت حسن لن يحدث .

بعد مرور أكثر من شهر على وجودنا في زاخو التقينا بشخصية عربية غريبة . كان هذا الشخص قد عمل سابقا مع جماعة ال ب ك ك (حزب العمال الكردستاني) . حدثنا هذا الشخص عن رحلته المدوية قبل الوصول إلى زاخو . كانت رحلته تشبه تلك الرحلات الأسطورية القادمة من مديات تاريخية موغلة في القدم ، ولتضيع هنا في هذا المكان الموحش والخالي من

الروعة . ذهبنا أنا ورياض لزيارته في يوم ماطر . كان ينام في المقبرة . حملنا له معنا صمونا ساخنا وأشعل هو شظايا الخشب وبدأ يسرد لنا قصصا خرافية عن المغارات والمسالك الجبلية السرية ، وفجأة توقف وأخذ يلتفت يمينا ويسارا قبل أن يكمل . كانت جماعة مسعود بارزاني تطارد حزب العمال وقتها وتقتل أتباعه . كان صاحبنا مرتعبا لكنه شعر بالاطمئنان معنا . وجبة الصمون كانت جاهزة ومعها علب الشاي المتضور حرارة . بدأنا سوية بالتهام الصمون وغرقنا في حكايات جديدة من حكايات الجبال والمغاور . كانت الأقاصيص مذهلة وتشبه أقاصيص ألف ليلة وليلة . الشاب الذي يدعى جاسم كان هاربا من الداخل بسبب الخدمة العسكرية ، وبدأ في أربيل ببيع السجائر على الأرصفة ، وبعد دخول الجيش في ليلة وضحاها وجد نفسه يسير هاربا من أجهزة الأمن البارزاني والصدامي ، وتائها في الجبال والمسامل الحجرية . كان في الحقيقة يريد الهروب إلى تركيا ، وأثناء سيره بين الجبال اصطدم بمجموعة مقاتلة من حزب العمال الكردستاني . شرح لهم وهو في الأسر ماكان يريد الوصول له ، إلا أنه وأمام الجوع الكافر انضم لهم ، وأخذ بعد التأكد من وثائقه ومن أنه ليس عميلا لمسعود بارزاني ليوضع في إحدى المغاور ، و هناك عمل على إصدار جريدة للتنظيم كأي عراقي . لا أعرف على وجه التحديد لم يحب العراقي الصحف والكتب إلى هذا الحد ، إنه مهووس بكل مايتعلق بالثقافة والأسطورة . استمر جاسم بالعمل فيما كان يحصل على وجبات طعام مجانية . كان من موقعه يشاهد الشباب الكردي المتحمس ، الشباب الذي ينام على الجمر ويتوسد مخازن أسلحته بعشق غريب . كانت مجموعات القتال تضم نساء ورجالا ، وأثار هذا دهشة جاسم إلى حد كبير . كان معجبا بالالتزام الثوري لهؤلاء الفتية ، ومعجبا بروح الثورة الملتهبة التي في

صدورهم ، وعكس ماكان موجودا لدى مقاتلي عصابات مسعود بارزاني ، حيث الخيانة جزء من تركيبهم الفسيولوجي . كان هؤلاء الشباب من أكثر أنواع البشر كرها للخيانة ، وكانوا يمتازون بحبهم للعرب ، لأنهم – وحسب قولهم – الوحيدون الذين منحوا الأكراد حقوقهم ، وعكس ماكان يجري في تركيا وإيران . في بعض الأحاديث مع بعض الشباب الذين يتحدثون العربية قالوا لجاسم : انهم والعرب في معركة واحدة ضد الامبريالية ، أما مسعود فهو عبارة عن كلب حراسة لتركيا وللمصالح الاسرائيلية ، وإنهم كشفوا ولمرات عديدة عن العلاقات المتطورة التي تجمع بين مسعود وأجهزة المخابرات الاسرائيلية ، كما كشفوا لجاسم عن التنسيق المشترك بين مسعود والمخابرات الإسرائيلية في محاربتهم وتتبع خطواتهم . كان مع تنظيم الب ك ك برئاسة (ابو) الكثير من الأكراد العراقيين ، وهؤلاء هم الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية ، وهم الذين أصبحوا أيضا أصدقاء حميمين لجاسم . اثناء إقامته الطويلة ، تنقل جاسم بين مواقع كثيرة ، وكان محل ترحيب كبير . شرح لنا أثناء تناولنا طعامنا من الصمون والشاي المحروق ، الطبيعة المذهلة لمعيشة هؤلاء المقاتلين ، كانوا في الواقع ممسوسين بالحب والرومانسية وصلابة الإنسان الثوري . بعد فترات التدريب وتنظيف المغارة ، يبدأ درس الماركسية ، الشباب مع الشابات ، لا فرق بين الاثنين . أما الخيانة فهي أمر مستبعد من قاموسهم الفكري والعقلي والسياسي . يؤمن هؤلاء الفتية بكرديتهم بدرجة أقل من ماركسيتهم ، إذ يعتبرون أن فهم الماركسية والشيوعية يأتي بالدرجة الأولى قبل انتمائهم القومي ، لذلك فقد احتوت أدبياتهم ونشراتهم الداخلية على الكثير من المقالات التي تدعو إلى تحرير الشعب التركي من نظامه السياسي وإقامة العدالة الاجتماعية . قضيتهم السياسية الأولى هي إقامة المجتمع المثالي الخالي من الظلم الاجتماعي

والسياسي ، وإخراج تركيا من دائرة التبعية للامبريالية الأمريكية وحليفتها الصهيونية . يقول جاسم إنه لم يشاهد تعصبا قوميا لدى هؤلاء الشباب ، ولا تعصبا لقادتهم الذين عركتهم المعارك . فهم مؤمنون بدرجة غريبة بالمبادئ التي يحملونها . لم يشاهد جاسم ، وهو يستمر في رواية الرحلة الحلم ، ان اعتدى أحد المقاتلين الذكور على النساء أو بالعكس ، وكأنما قد ماتت الغرائز الجنسية أمام الفكر وسموه . وهو عكس ماكان يحصل في الحزب الشيوعي العراقي ، الذي قام العديد من مسؤوليه باعتداءات جنسية على نساء المقاتلين والمقاتلين من النساء ، دون أن يكون هناك رادع سواء ثوري أو اخلاقي . يقوم حزب العمال الكردستاني ، وحسب قول جاسم ، بتربية مقاتليه تربية حزبية صارمة ، وبأن يكون الحزب أكثر أهمية من الأب والأم والعائلة ، وبأن قضيتهم العليا هي تحرير الإنسان من النزوات والنزعات البرجوازية والرأسمالية . تلك النزعات التي تدمر الأحزاب الاشتراكية والوطنية . يبقى الحزب هو القيمة الروحية والمادية الأعلى . يبني حزب العمال استراتيجية التثقيف على اختيار الأعضاء الصغار في السن وتربيتهم تربية حزبية صارمة ، وطبعا إن هذا لا يمنع انضمام عناصر كبيرة في السن ، لكن كل إنسان حسب طاقته التي يستطيع تقديمها إلى المعركة . المدهش - حسب مايقول جاسم - أن الكره القومي والشوفيني ليس موجودا ضمن مفكرة الحزب . فبالرغم من البطش الهائل الذي جابهتهم به تركيا ، إلا أنهم لا يشعرون بالكره للمواطنين الأتراك ولا لتركيا الوطن ، وهو عكس ما هو موجود عند عصابات الثنائي الراقص ، مسعود وجلال ، حيث التثقيف في هذه الأحزاب يتركز بالدرجة الأساس على كره العرب والإسلام بدرجة مقيتة . أمضى جاسم فترة طويلة متنقلا بين المغاور والجبال ، وحينما شعر بالتعب والإرهاق ، قدم طلبا إلى الحزب من أجل

الرحيل . وافق الحزب ومنحوه أطعمة وبعض النقود ، ثم وضعوه على دروب الوصول إلى تركيا . سار في تلك الطرقات أياما ، وفي النهاية وقع في براثن عصابات مسعود . استطاع جاسم بذكاء خارق إقناع رجال مسعود بأنه إنسان عادي جدا يريد الوصول فقط إلى تركيا ، وبعد تعذيب خفيف تقرر إطلاق سراحه ليستمر في مسيرته ، وليصل إلى زاخو التي سمع أن هناك خطة لترحيل العرب منها إلى خارج المنطقة . أخذ أنفاسا متقطعة لكن عميقة من سيجارته ثم استمر بالحلم برحلته السرية في الجبال والوديان ، الرحلة التي غزت عقله مثلما تغزو امرأة ناضجة عقل مراهق . كانت رحلته في الواقع تغزوه حتى في أحلامه . روى لنا الكثير من الأحلام والكثير من الرؤى . لم أكن أعرف لم كان لقاؤنا به يوحي لي بأنني أمام ساحر نفدت ذخيرته من السحر . ودعناه أنا ورياض ثم ضعنا بعد ذلك في لجة الطرق والبشر والحيوانات وأسواق الدولار والبورصات السرية للسجائر القادمة من أماكن مجهولة . كان أعضاء المنظمات التي تعمل في شمال العراق قد تم ترحيلهم بصحبة أعضاء من جماعة الوفاق والمؤتمر . لكن تبقى بالرغم من هذا الكثير من أعضاء المعارضة الذين لم يتم تسفيرهم . شكل هؤلاء هيئة قيادية من أحدهم ويدعى أبو تراب ، بعد ذلك دخل على الخط حزب مسعود الذي طلب من هذه الهيئة إصدار بيان إدانة للمؤتمر الوطني برئاسة أحمد الجلبي . أخذت هذه الهيئة تسجل أسماء العرب المتبقين وتجري اتصالات لتسفيرهم بدعم من مسعود بارزاني ، الذي أوكل مهمة الإشراف على الهيئة لجهازه الاستخباراتي (الباراستن) وكان الشخص المكلف بهذه المهمة يدعى حمدي سنجاري ، وهو ضابط تدرب في إسرائيل وحصل على درجات متفوقة حسب زعم أقرباء له في زاخو كانوا يتفاخرون بحصوله على التفوق في دورته الاستخبارية والتدريبية في إسرائيل . عملت الهيئة

المشكلة من العرب على تسجيل الأسماء وقفز إلى الواجهة نائب الضابط المدعو أبو تراب ، الذي سرعان ماسيطر على الهيئة بمساعدة من حمدي سنجاري ، وسرعان ماباع أسماء العرب إلى جهات متعددة ، منها المخابرات العراقية وبمشاركة مع الباراستن ، مقابل كمية معقولة من الدولارات . كان أبو تراب نائب ضابط هرب من جبهة الحرب إلى ايران في أعوام الحرب العراقية الإيرانية . وبعد تأسيس المؤتمر الوطني غادر إلى شمال العراق ، وانضم إلى المؤتمر مثله مثل الكثيرين من العراقيين الذين هربوا إلى إيران واختاروا الوقوف مع إيران وقتها ضد العراق ، وها هي الفرصة متاحة لهم الآن للعودة ، خاصة أن أغلب الذين عادوا من إيران هم من التوابين الذي كانوا يشرفون على تعذيب الأسرى العراقيين في السجون الإيرانية . كانت هذه الجماعات منضمة إلى حزب الدعوة والمجلس الأعلى اللذين كانا يشرفان على التوابين وتعذيب الأسرى العراقيين . وصل أبو تراب . وبعد فترة من وصوله وانضمامه إلى المؤتمر الوطني ، انضم إلى انشقاق كبير على المؤتمر الوطني بدعم من جهات إيرانية ، وأسسوا ما يسمى بحركة الدفاع المقدس التي استطاع الجلبي القضاء عليها بسهولة . استلم أبو تراب مسؤولية الهيئة المشكلة من العرب في زاخو ، وبدعم من الباراستن الذي تربطه علاقة بأبي تراب ، وبين ليلة وضحاها صعد نجم أبو تراب وتحول من شحاذ في طرقات زاخو وبنصف نعل في رجليه إلى غني كبير لا يأكل إلا السمك ، ولا يشرب إلا البيرة الأمستل والويسكي . كانت خطة الباراستن واضحة ولا تتطلب الكثير من الذكاء لكشفها ، إذ إنها كانت تريد تنظيف المنطقة من المعارضة ومن العرب ، ووجدوا في هذه الهيئة ما كانوا يحلمون به .

كنا أنا ورياض نسير في طرقات المدينة أشبه بالمسرنمين الحالمين

برحلات الخروج والهجرة من هذا الزمن الرديء . في بعض الأحيان كنا نذهب إلى المدينة القديمة ، أو الأصح الحي القديم الأول الذي انبثقت منه زاخو . كان الحي القديم يسكنه المسيحيون البناة الأوائل للمدينة التي نزح اليها الأكراد في العصر الحديث ، ولتتشكل من هذا المزيج مدينة كبيرة وواسعة . كانت المدينة القديمة ، والتي أسميناها أنا ورياض بالحي اللاتيني ، تقع على تلة مكونة من الحصى بمختلف الأحجام ، وهو المادة الأساسية التي بنى منها المسيحيون الأوائل بيوتهم . كانت هذه المدينة الواقعة على هذه التلة تمنحك إحساسا بالصلابة والقوة والجبروت والتسلط اللانهائي ، رغم أن أهلها المسيحيين مسالمون للغاية . أثناء تنزهنا المدوي هذا ، والذي كان بدون هدف محدد ، شكى لي رياض أنه على وشك أن تنفد ذخيرته من المال وكان هذا مخيفا للغاية . وبسبب قلة ما هو موجود لديه من المال انتقل إلى مكان آخر ، حيث استأجر غرفة في منزل . الاوضاع كانت تزداد سوءا . بدأت هذه المحنة تلقي بكآبتها على رياض الذي غدا أشبه مايكون بظل شخص وهمي يسير في الشوارع . قبل أربعة أيام سرق أحد اعضاء المعارضة رزا من محل واستطاعوا الإمساك به . الجوع شبح مرعب كان يطاردنا . وضع السارق في الباراستن وتلقى هناك ضربا مبرحا . كان الرجل جائعا ولم يكن بحوزته فلس واحد . أثناء تجوالاتنا التي لا تنتهي ، اكتشفنا أحد المجانين الذين وصلوا مؤخرا إلى زاخو . لم نعرف من أين جاء ولا كيف ، حدثني رياض أنه عرف أن هذا المجنون كان يريد أيضا الوصول إلى تركيا ، لكن المهرب استولى على أمواله وسلمه إلى الأسايش الذين أشبعوه ضربا على رأسه فجن الرجل ، وها هو الآن في زاخو يدور بلا هدف ويأكل من المزابل . منحتني هذه القصة ساعات طويلة من الكآبة . ما الذي سوف أفعله اذا مانفدت النقود ، لم يكن لدي المزيد

من الذهب لنتصرف به ، وهل سأصبح مثل هذا المجنون وهو يبحث في المزابل عن الطعام . . انتقلت أنا أيضا إلى غرفة في منزل لتوفير ثمن غرفة الفندق الباهظة الثمن . كان هذا أمراً شائعاً في زاخو . هذه الخطوة سوف توفر لي أياما إضافية حتى يصدر أمر السلطات السورية بالسماح لنا بدخول سوريا . أصبحت سورية حلماً بعيداً ، حلماً خارج مديات الزمن ، ولم نعد نفكر بها كثيرا ، وأصبحت هذه الفكرة تغادرنا في الكثير من الأحيان . زرت رياض في غرفته الجديدة واستمعنا إلى قصائد مظفر النواب وعريان السيد خلف . حالة الاكتئاب كنا نريد كسرها ، تلك الرتابة المقلقة والمدوية ، لكننا في كثير من الأحيان كنا نفشل في تحطيمها . تعرفنا أنا ورياض إلى تاجر كبير كان فيما سبق مهرباً كبيراً . أخذنا نتردد على هذا التاجر بين الحين والآخر لتناول الطعام وشرب الشاي ، ويوما بعد يوم أخذت آمالنا بالموافقة السورية تضعف . ألقى هذا الإحساس بالفشل ظلا كبيرا على رياض ، أصبح أكثر قلقا وكدرا ومأساوية ، وحتى قصائد عريان لم تكن لتؤجل الحزن . لم تكن تدفع به إلى حالة التلاشي . يوما بعد يوم كنا نتماهى في الحزن ، أخذت ألاحظ أن رياض أخذ ينفلت من دائرة الأمل إلى مساحة الاضطراب والهلع . في كثير من الأيام ، بل عديدها ، أخذنا نسير في شبه عزلة . كلانا أخذ يفضل السير بمفرده . كنا نتأمل الحزن ، نتأمل اللاجدوى والعبث في جو زاخو الذي أخذ يبرد تدريجيا ، فيما لم تكن لدينا كمية مناسبة من الملابس الشتائية . من حسن الحظ أن أطفالنا كانوا يملكون ملابس ثقيلة . مررنا أنا ورياض واشترينا من البالة كنزات بثمن قليل . شعرنا بفرح طفولي ونحن نرتديها . كانت كنزتي كبيرة جدا . وصرت أدور بملابسي الجديدة في شوارع زاخو ، وكنت أضيع في بعض الأحيان في تلابيب الكنزة وفي خيوطها المتهرئة . مع الدفء

المفتعل أخذنا نذهب مرة أخرى إلى المقهى الواقع بمحاذاة الخابور . استكانة الشاي هناك مع قطعة من الصمون الأبيض كانت تكفي أحلامنا المحطمة . لم يعد رياض يحمل معه كتاب الضحك والنسيان لميلان كونديرا . لم نكن نحمل سوى حزننا وابتأسنا من لحظة الضياع واللاجدوى . هل ننتحر من أجل الخلاص ؟ كنت أفكر أن أشتري بما تبقى لي من مال قنبلتين يدويتين وأفجرهما بيننا أنا وزوجتي وأطفالي . الأحلام تتتابع ، لم نكن ننام بل نقلق . يضيع الوقت في زحمة المياه المتدفقة من السماء والهاربة إلى نهر الخابور . أخذنا نذهب سوية ، أنا ورياض إلى أطراف المدينة . أخذنا هناك نشاهد البساتين والجبال . بعد ذلك أخذنا نسير باتجاه تلك الجبال . كان الخابور يلف المدينة ، فكنا نضيع سويعات في تلك المتاهة المصنوعة من الماء والشجر والحجر . إنها تشبه متاهة أحلامنا . في بعض الأحيان ، وأمام المشهد المذهل ، حيث نقف حيث يروي رياض أحلامه الغامضة ، أحلامه المدوية والكئيبة لفلسفة النوم . كان يرى في تلك الأحلام - الكوابيس ، تلك الأشباح القاتمة الوجوه ، كانت هذه الكوابيس تتحدث معه بوجوهها المائعة . كان يقول إنه كان يهرب منها لكن أياديَ غريبة ومجهولة تحضره ليستمع إلى ماتقوله . أشباح ، أشباح ووجوه شائخة لا يعرفها . كان يتذكر البصرة وبغداد على نحو غريب ، وشعرت أنا بقلق من أحلامه ، لكنه كان مجبرا على الانصياع لها وكأنما كانت هناك رسالة ما تتحدر من أفواه تلك الأشباح . هل هي رسالة السماء أم أنها تعاويذ وقرارات الآلهة . كانت تلك رسائل اللحظة العارية فوق أرض زاخو حيث يموت القندس والعصفور من كثرة رجال الأمن المسلحين والمنفلتين بلا وصاية . أخذنا بزيارة منطقة الكيستة - القلعة - زاخو القديمة ، الكنائس الملهمة والحيطان المعمولة من الحصى الهائل

الكتلة . كانت تيارات الهواء تعبر المرتفع بشكل مدوٍّ . أسلاك مولدات الكهرباء تعيش مثل العصافير على حيطان وأعواد المنازل . كل أحلامنا تضيع مرة واحدة . في بعض الأحيان كنا نشتري علبة من الدخان لنتشارك الألم وامتصاص النيكوتين حتى العقب . عصفور أو غراب ينعق وحيدا في الكيستة وزهرة مائلة يضرجها الخابور بدم مستباح . من يقرأ مزامير الاكتئاب الذي يزحف كما السرطان البحري . عصفور الكيسته أو مجنون زاخو أو البقايا البشرية النائمة في المقبرة وهي تتدفأ بعظام الموتى . زرنا المقبرة سوية وجلسنا إلى بعض الذين لم يكونوا يملكون مالا لدفعه إلى الرأسمالي القذر صاحب الفندق ، الذي استغل الموقف فرفع أسعار المبيت . أطفال يركضون بين قبر كاكه جلال وكاكه مسعود وكاكه أحمد الجلبي . أولئك الذين أضاعوا بوصلة الاتجاهات وهم يفرحون بملايين الدولارات المستحصلة عن أرواح هؤلاء الضائعين في المقابر . . . فناء عظيم ، انزياح مبكر عن جادة اللعب الخشن . عصابات مسعود تنعم بالأسلحة والدولارات ، وجماعة الجلبي بالأموال ، والبؤساء يلتفون بدثار الأرض المشبعة بالرطوبة . يعقد أحمد الجلبي اجتماعاته في لندن وواشنطن ، وكذلك يفعل إياد علاوي ، حيث الروايات تتحدث عن اجتماعات الملاهي الليلية . لكن إياد علاوي لم يجوع اصحابه كما فعل أحمد الجلبي ، وبقيت جماعة علاوي تنام في الفنادق وتأكل الكباب في المطاعم . العصافير تشكل في موجاتها الهاربة غلالة من الضباب المرتعش ، ضباب مصنوع من الريش وهي تهاجر في السماء المهاجرة أصلا . ننظر إلى حافات الغيم ونتذكر ذلك الرحيل الذي نقل عنه أنه كان يقرأ الطالع . لكن لا طالع هناك ، لا طالع غير النحس المتجذر في أروقة المدينة ، والذي يبزغ مثل قرون الشياطين . كان في الحقيقة شوكا مؤلما

بروس مدببة وقابلة للوخز . لكننا ندوس على الأشواك بباطن قدم أشد احتمالا من خف الجمل . ما الذي تعنيه الهجرات ، ماالذي تعنيه الاغترابات ، ماالذي يعنيه أن يوافق حاكم سوريا على دخولنا . كلها أشياء من صنع المخيلة المتعبة ونحن نجلس إلى الفيش خابور كل يوم بانتظار برقية لن تأتي أبدا . لكننا لا نستطيع اقتلاعها من ذاكرتنا ، لذلك فقد تحولت إلى طقس سحري وتوسلي ، طقس مشحون بذاكرة ممتلئة وخيال جامح مووؤد ، سيان وحيث لا فرق بين الابتشاس والكآبة وبين الفرحة والانتصار . مررنا في رحلاتنا عبر المدينة وانتظار اللاجدوى على إسماعيل شاكر الذي ينام مع أحلامه هو الآخر ، لكنه اعترف بأن أحلامه قد بدأت تذوي . لكن ماهو المصير ؟ ماهي المسيرة المذهبة للزمن وهي تقذفنا في كل الاتجاهات بلا أمل . يجب أن نعترف أنه لا طائل من انتظار ما لا طائل منه . افترقنا أنا ورياض ، ذهب هو إلى الغرفة التي يسكنها وذهبت أنا إلى غرفتي أيضا في منزل آخر . مساء زاخو مفعم باللغو والوحشة . لم نكن نحب كثيرا السير تحت جنح الظلام . لم نكن نعرف السبب ، لكننا كنا موقنين أن أصابع الاغتيالات تمتد بعيدا وطويلا ، وهي أصابع قادرة على القتل بشكل أفضل تحت جنح الظلام ، لكن للأمانة يجب أن نعترف أن ليل زاخو مثل نهارها ، وبإمكان القتلة أن يمدوا أيديهم إليك في أية لحظة . أما الناس والشارع فلا يعيرون للموت أهمية أو أنه الخوف من عصابات مسعود التي يعرفها الأكراد جيدا ، والتي تبطش بكل قسوة فيما الناس لا يقدرون على الاعتراض . في بعض الأحيان أو غالبا ما تمنحك عصابات مسعود إحساسا بأنك أمام سلطة دكتاتورية أكثر شناعة من أكبر ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية . الكرد يعرفون هذا ، لكنهم غير قادرين على قول كلمة ، فترى الاستسلام بادياً وشائعا ومتجذرا فيهم . لقد وصلوا إلى

قناعة أو استسلام داخلي ، وليس هناك من بؤرة تتوقد للثورة على هذا التابو . لقد لمحت تلك النذر البسيطة والمتناثرة في أربيل وفي زاخو وفي دهوك أيضا . لكن كان هناك خوف واستسلام شديدان لفكرة التغيير ، ومن يستطيع أن يغير ذلك المارد الفائق القسوة . . الاستسلام تلك الكلمة السحرية للأشياء . الكلمة الملهمة ، والتي تنطوي على تناقضات مجهولة ومعرفة في ذات الوقت . الاستسلام قد لايأتي دفعة ، إنه يأس يتجذر وانسلاخ من الواقع باتجاه أصول ودوافع معرفة . يشبه الاستسلام تلك الصفة الانبساطية التي انطوى عليها تاريخنا شاملا ، والتي لم يستطع اليهود التجانس معها ، فكانوا متمردين أبديين حتى على الناموس السماوي . موسى المسكين كان تائها مع هذا الشعب . إنه يشبهني . في كثير من الأحيان أعقد ثمة مقاربات تجنيسية ، مقاربات عنا نحن واليهود ، فأكتشف ملهما وفي ثورة تصوفية واستنارية ، أننا في الحقيقة نحن اليهود وليسوا هم ، أو أننا يهود بالفطرة والاستعاضة ، والنتيجة أنهم قتلوا موسى وعيسى ونحن قتلنا الحسين والحلاج . هم لم يصدقوا ناموس السماء ونحن أيضا لم نصدق كل النواميس . لذلك فنحن نمتلك أكبر قدر وعدد من الشيوعيين . وحتى لو ظهر الله لنا جهرا فإننا سوف نقول إنها حسب خدع صوفية ، أو لأدخلناه ضمن منظومتنا الفكرية التحليلية . إنها الهشاشة في المطلق ، في الايمان بالذاتي . لم أحاول أنا ورياض إثارة مواضيع مماثلة مع أحد بهذا الخصوص ، لكننا كنا نؤمن في شوارع زاخو أن الاستسلام شيء مذهل ومخز . كنا لا نستطيع أن نتصور أن يستسلم أحد للاستسلام بهذه الصورة المرة والتعيسة . هل الاستسلام قدر المحتومين ؟ هل الاستسلام جرن الفجيعة أو وكر النسر الرابض على قمم المرتفعات المأفونة بالليلك البحري ، أم سرطانات بحرية تذوب على سواحل السخافة والضياع .

الكردي مستسلم بذاته ، تلك عبارة مجحفة بحقه . لماذا إذن يكون الكردي ثائرا دائما ، فيما نراه الآن محطما تماما ومركونا إلى زاوية النسيان . لقد سكن الكردي أرض العراق فواجهته عبقرية المكان ، فكان ثائرا على السلطة مثلما يفعل أهل العراق قاطبة . لكن الكردي تحركه أيضا ثوابت أخرى غير عراقية ، إنها ثوابت الهجرات المتبقية فيه ، لذلك فإنه يستسلم لعصابات مسعود وجلال ولا يمارس عراقيته كاملة ، وهكذا هم أرادوه إنسانا منزوعا من عراقيته . في بعض الأحيان كنت أذهب متسلقا جبال زاخو ، إنها محاولات في الفردية والذاتية المفرطة . في الجبال كنت أشرف على بيوتات زاخو ، على المدينة المسكينة . من تلك الوحدة كنت أمارس تفكيراً تنظيريا متباعدا عن الذاتية . من تلك الوحدة كنت أتأمل عراقيتي ، ثورتي الداخلية . عبقرية المكان أو عبقريتي الذاتية أو عبقرية العقل الجماعي لعراقيتنا . هل الإحساس بالظلم التاريخي هو الذي يحركنا ؟ هل الموت الباهت الذي يبث فينا سلس الحياة المتقطرة نقطة إثر نقطة . هل القوادون والعاهرات هنا جنس بشري عراقي مثلما كل العراقيين ، العاهرة العراقية تختلف عن عاهرات العالم الآخر ، إنها متمردة لكنها مستسلمة دائما لعملية الدفع . العاهرة العراقية ليست عاهرة بالمعنى المتعارف عليه ، فقضية المال لديها تكاد تساوي صفرا . ليست النقود حافزا كبيرا لديها إنما الرغبة في تحطيم ذاتها . هي لم تعرف تلك العلاقة المزدوجة بين الشاري وبين جسدها ، لكنها تمارس نوعاً من الثورة الداخلية عليه ، ومن أجل تحطيم صفة العهر لتحيلها إلى مقاربات ملهمة لنزوعها الشنيع اجتماعيا . حياة العاهرة لدينا تتحول إلى ترحالات غريبة ، ترحالات بين المدن والقصبات والأقضية والنواحي . إنها سلسلة من الترحال المستمر وعدم الاستقرار . لذلك فهي ترفض هذا النزق الاجتماعي وتثور عليه من أجل الاستقرار .

لكن حياتها تبقى لائذة ، متصدعة ، محطمة ، ثائرة كعنوان أبدي لوزر المكان والزمان .

على سفوح جبال زاخو ، كنت أمارس التنظير وأمارس التثليث كإنسان حضاري ولم أمارس إسلاميتي ، حيث هي شيء بعيد جدا عن الواقع . ربما كنت أمارس التصوف بمختلف حالاته ، الانبساطي والانفعالي والصامت . ربما كنت أمارس نوعاً من الاتحاد السماوي الذي اكتشفته متأخرا أنه ، بغض النظر عن ديانتك ، فإنك سترتفع إلى الاتحاد بغض النظر عن خلفيتك الدينية . الاتحاد السماوي أو التوحد في الذات الالهية ليس له علاقة بدين معين . لذلك كنت أبحث وأنا على جبال زاخو عن السر التكويني لكلمة الله ، واكتشفت أن كل شيء زائل غير مقدس بما فيه أجسادنا . هناك بصيص أمل في نهاية النفق ، وهذا الأمل بعيد عن الشكل المعاصر لتسمية الله . إنك في قمة انفعالك الصوفي ستجد أن الأشياء والكلمات واللغة والنظر والانفعال والتأثر والتأثير المتبدل ، كل شيء هو عبارة عن وهم حقيقي . وجودك الذي تتصوره أنه ذائب في الذات هو في الحقيقة أنت وكينونتك المتضخمة . ليس هناك ذات إلهية بالمعنى المتعارف عليه ، إنما شيء خرافي ناعم الملمس والإحساس . هذا اللاشي هو الوصول إلى انت . والوصول إلى قمة البعد اللازماني والمكاني فتتشتت ، تتشظى ، تتمرد ، تذوب ، تتبخر ، تغرق ، تخرج ، تعلو ، تتنزل ، تذوب . الجبل يمنحك الإحساس بالكلية . وأنت تمنحه الإحساس بالعزلة والتطويق . لكن الجبل لا يمنحك دائما إحساس التفرد إنما الصحراء هي التي تمنحك ذاتية عالية ، لذلك فإن إبراهيم الأوري حينما حمل فكرة التوحد كان يعيش في الصحراء ، وفكر بانتزاع الألوهية من الملوك . إنها الصحراء والعراق ، فكرة الثورة المخبوءة في العقل والجسد . ومثلما كان

إبراهيم عاشقا للصحراء ، كان أخناتون ومحمد أناساً عاشوا نزق الصحراء ، ومن مرتفع في متوالية غريبة كانوا يشرفون على الصحراء ، فتمنحهم تلك أفقا بلا حدود للتفكير . موسى صعد الجبل ، وإبراهيم عشق مرتفعات فلسطين ، ومحمد اختفى في غار جبلي . إنهم أناس عاشوا ذاتيتهم المفرطة التي كانت تنبثق منها استلهامات مدوية مغيرة الواقع . عبقرية المكان شيء مذهل للغاية . الثورة جزء من تركيبة الصحراء ، والسلاسل الجبلية تمنحك هي الأخرى نزقا آخر ، إنه نزق الفردانية والانعزال . السلاسل الجبلية تميت في الحقيقة العبقرية مالم تترادف مع الصحراء . كنت في زاخو أصعد الجبل بذاتية عالية ، أصعد بوحدتي ولن أتسلقه بصحبة أحد . في إحدى المرات ، وأنا على القمة مقابلا النهر المتعرج والمليء بالحصى ، شعرت فجأة وكأن نوراً يخرج من المكان نوراً وصمتاً غريباً . شعرت بالخوف لكن الخوف سرعان ماهرب . في روحي ثمة شيء يشدني شداً إلى الاختفاء عن البشر . كنت أشعر بميل غريب إلى الجلوس وحدي وتأمل الصخور والحصى وتعرجات النهر . كان النهر ، وبعد صمت طويل لا أعرف كم كان ، يحدثني . ثمة استفاقة واعية تتلجلج وذاتي تفر وتتقلص وتهرب وتنداح . كنت أشعر أني جزء من المكان ، لكن المكان ليس جزءا مني . ثمة إحساس بألوهية عظيمة تمتد مابيني ومابين النهر والحصى . كنت أشعر أنها بدايات التوحد الذي تدفعني نفسي اليه . لكن أين أذهب بأطفالي وزوجتي . النهر ينتفض وكأنما يعترض على انسحاقي أمام الحاجة البشرية . الذات العليا هي ذات مختلفة عن الذات الدنيوية ، إنها ذات تتأصل فيك كلما كان الممكن أكثر مساحة وكمية . جربت في سنوات سابقة التوحد مع الوجود حينما كنت أسير على درب التصوف النقشبندي . النقشبندية كانت تعالج الذات باصطلاحات كبرى ، قطع

النفس أو السيطرة عليه ، الانعزال ، الانهمام الذاتي ، ايقاف التخيل والتركيز على مفردة الله ثم بعد السيطرة على التنفس ، العملية المهمة . تأتي حالة الضياع ، حينما تمارس انغلاقا وانفلاتا في آن واحد . هل الذاتية المفرطة هي أول مدخل فوضوي إلى الله . هل عملية التنفس هي أول المسيرة . كان يجب أن تتحكم بعملية تنفسك وعملية الصور ، وتفريغ الذات من حشايا صور تبرز اليك . الإخلاص ، تلك الكلمة السحرية التي تلخص كل عمليات التوحد . لكني لم أكن أتوحد مع الله ، ولم أكن أتوحد مع الأشياء إنما أتوحد مع ذاتي ، أتوحد مع الغدة الصنوبرية وباقي الغدد في عقلي . التوحد مع الله غير ممكن ، وفي قمة التصوف والانسحاق أنت لا تقترب منه إنما تقترب من مناطق خالية وبعيدة في الذهن . شراب التوسيرام كان يمنح الذات هو الآخر مساحة للتنقل بين الوعي الجزئي والوعي الكامل . أتدحرج فوق الحجر الأصم . (أتدعبل) مرتعبا فوق صحوة الايائل الهائمة ، أي عصفور البكاء ، الخصم . الخطم . الفوهة المترعة بأزيز الزرازير فوق سهب ملوث بالثلج . أقترب من دائرة المحيط ، من مثلث الاستقامات ، كل الزوايا منفرجة وقانون الإزاحة الجزئية يرفسني كما الكلب . هل اقتربت أم لم أزل بعيدا فوق الموجة العاتية في بحر الألم . تنزل حمامة في قاحل روحي . حمامة لا شرقية ولا غربية . فقط حمامة تكبر باستمرار لتضمني بين أجنحتها وتحلق بي إلى حيث لامكان ولا زمن ولا رؤية ولا عين ولا أذن ، فقط قلب ينبض بعجالة الابتئاس والفرحة العميقة . هناك تصور سابقاً أننا نتحد مع الله لكني لم أشاهد الله في نهاية الرحلة ، ووجدت محيطا فوضويا لملايين الأرواح الهائمة في هذا المحيط . المثلث ينفرج في انفتاحات متتالية السرعة والتعجيل . أحمال الثقل البشري تنزاح وتتحول في المحيط المحيط ، إلى تافه متمرد وكأنك أنت

فقط في هذا المحيط ، حيث لا تسمع الابتهالات المحتومة . أنت وحدك مع الله الذي ليس الله إنما شيء غريب يشبه انتعاشة نصف قنينة من التوسيرام إذا لم تكن مدمناً أصيلاً .

كان رياض يسألني في بعض الأحيان عن السر في اعتلائي صهوة الجبل بمفردي . لكن الذات خارج المكان كانت لا تجيب ، لم تحر جوابا . فأصمت صموت الهجرات الأولى لمحمد . هل أنا محمد الجديد . كان هذا السؤال يراودني حتى في الأحلام . لكن إلاله لم يمنحني قوته السحرية من أجل أن أبعث للناس . من سفوح جبال زاخو كنت أتأمل البشرية ، أتأمل معادلات الفلسفة النشوئية والوضعية . أتأمل فوكو وهايدر وتيري ايغلتون والحلاج وموسى كريدي وعبد الستار ناصر ، فأبتئس لأن الأنبياء دائما هم صنيعة سماوية . لكن من يقول هذا . إنهم هم الذين يدعون هكذا ذاتاً خارجية . بالقدر الذي تكون فيه ذاتك متوهجة بالقدر الذي تكون إنسانا داخليا منقلبا على ذاتك ، تمارس الثورة الداخلية التي لا تريد أن تخرج . السبب طبعا لأنك غير ممنوح الرخصة من الذات السماوية ، الذات شيء ملهم . في أحلامنا نشاهد الثورة والنشوء والتطور والانقلابات . إنه القتل الذي يطاردني في كل الأمكنة حتى لو كان موتا كرديا . رياض يتساءل في كثير من الأحيان حينما يمر على غرفتي ويخبرونه أني في الجبل المقابل ، عن السر غير المعلن لهذه الخلوات . لكنه لم يكن ليحصل على إجابة شافية ، وكيف يحصل إذا كنت أنا نفسي لم أحصل على الإجابات الكونية السرية . كنت لا أريد أن يعرف أحد سواي وعائلتي أين أذهب ، أين أنزوي ، أين اختفي من العيون . أين أتوحد وأذوب في ذاتي . في تلك الخلوات كنت أمارس أعلى ذاتية وأعلى ثمرة داخلية غير ناضجة للنبوءة . كنت أنتظر رسول الرب كي يمنحني القدرة

والقوة والإذابة الداخلية والتشظي، أن يمنح فمي الكلمات التي عمقها عمق البحر، وصوتي صوت الهدير، وأصابعي قدرة إحياء الموتى. حينما تمارس الوحدة أو التوحد، تكون قد اقتربت بدرجات كبيرة جدا من الإله الذي سوف ينظر اليك لكنه لا يحرك ساكنا، لأنه لا يعيش في مكان ليتحرك، هذا أولا، أما ثانيا لأنك لا تعيش على ضفاف الصحراء، فكيف تمنح النبوءة وأنت تتشظى بين ذاتك وذاته. النبوءة عملية ذاتية صرفة ولها علاقة معرفية بتلابيب الدماغ ومنطقه، التي تكون غدة النبوءة فعالة أكثر من الغدد الأخرى، فتشهد التواصل عبر الغدة الصنوبرية أو غدة غيرها من تلك المسؤولة عن التسامي والتقاط الإشارات السماوية. النبوءة تشبه إلى حد بعيد إنسانا يتمتع بالقدرة على قراءة أفكار الآخرين. إنها الشفافية ليس إلا التي يستطيع بعض الناس تنميتها ليكونوا أنبياء ورسلاً، وليحققوا التواصل مع الكون. الوحدة الذاتية أمر غريب ومذهل ومدهش في الوقت ذاته. فإذا أجريت تجربة بأن تعيش الكفاف والوحدة، فإنك حتما ستتحول إلى كائن آخر. كائن شفاف ورمزي، وبالطبع فإن البشر ليسوا كلهم قادرين على ممارسة طقوس الشفافية الذهنية. إذ إنهم غارقون مع الذوات البشرية الدونية.

الوحدة مع الله أو الوحدة مع الذات، أو الوحدة مع طقس التسامي، أو حتى الذوبان مع الهالة المحيطة بالله. تلك المسميات المتعددة تمحوها قدرتك على التخلص من أدران المادية للانتقال إلى السمو الذاتي. بعض البشر، مثل انشتاين وغيره، يتمتعون بذكاء خارق ويمتلكون شفافية وتسامياً كبيراً، ولذا فهم يحصلون على الاستنارة. الأنبياء أو النبوءة حالة مشابهة للنبوغ العقلي، ولكن هذا النبوغ وجد طريقه في النبؤة عبر تضخم

منطقة معينة في الدماغ . هذه المنطقة تكون حساسة جدا وتتصل نتيجة التدريب بالوجود الاصلي . لذا فإن كل شيء يعتمد على دماغك أنت . هناك أدمغة تتمتع بانغلاق ذهني وهي أدمغة المجرمين ، وهناك أدمغة متسامية هي أدمغة الأنبياء والعباقرة . وبالنتيجة فإن النبوءة هي حالة إنسانية صرفة وليست نتاجاً سماوياً . المتصوفة أو بعضهم يعيشون تجربة التوحد فتنبثق فيهم أو لبعضهم نبوءات سماوية ، أو بتعبير أدق يستطيعون الوصول إلى حالة النرفانا والعدم والفناء ، وهي تجربة ذاتية صرفة . ليست الصوفية أو التسامي حكرا على المسلم انما هي عملية ترتبط بالذهن والزهد عن البشري ، والانقطاع لتنمية موهبة النبوءة . هكذا يفعلها عبدة البقر والفئران والنسانيس واليهود ونحن . التصوف والعزلة يضيفان إلى الإنسان خشوعا عارما ، إنها العودة إلى الذات أو الله ، العودة إلى العيش ضمن قوانين أخرى غير قوانين المتاح والأشكال المادية من زوايا وأوتار وأرباع الدائرة ونصف المثلث .

في مرحلة من مراحل حياتي جربت أن أكون نبيا . سلكت أول الطريق في القراءة والانقطاع والتأمل . بعد أعوام طويلة اكتشفت هزالة العالم وثورته المعرفية . العالم التائه والذي يبحث عن لا شيء . إنه عالم الرأسمالية البغيضة وعالم الستالينية المفجع ، وعالم رجال الدين المضطرب والسخيف والسطحي . في تلك العزلة الملهمة اكتشفت أن قوانين الآخر هي من تجليات عدم الوضوح والتنافس على السخافة ، وحتى الكتابة والتأليف والبحث عن الأصول والحقيقة الموضوعية والذاتية كانت لهواً كبيراً . أين إذن الحقيقة المرة والمتصدعة ، الحقيقة الأزلية . نحن المكونين من العدم والى العدم ستنتهي مسيرتنا الحافلة بالألم ، هل حياتنا تجربة في المحنة . هل الحياة نفسها محنة كبيرة للجسد . كنت أتساءل عن النشوة

والذوبان في العدم أو الخالق أو الله أو الروح القدس ، أو الميكائيلية أو حفنة الملائكة الآلهة بدءا من جبريل إلى ميكائيل مرورا طبعا بالشيطان . . أو في الإرادة العليا . أو حتى في ذوات الآخرين . لكنني أكتشف يوما بعد يوم عقم الأشياء والأفكار . لم تكن تجربتي شيئاً مادياً ولم تكن تجربة صوفية مثالية من تجارب الصوفية في التوحد . وجدت في العزلة ذاتها ألقا وشحذا للذات من أجل السمو . لكننا ذوات منحطة ، أما التوحد مع الإرادة العليا فلم يكن سوى بهتان كبير ، بهتان متعاظم ومدوٌّ . إنه تفكير بائس ذلك الذي حصلت عليه . فكرة العالم بسخافاتها المتوالية وفكرة العالم والإنسان بهزالتها الدنيوية العالقة بين ذواتنا نحن البشر . الانقطاع والوحدة يجعلانك ذاتياً جدا ، وذاتياً بالمعنى غير المتعارف عليه . تتحول في العزلة إلى كائن خرافي ، ليس لديك من المتاع غير اللغة كوعاء استيعابي ، لكن في النهاية تضيع اللغة أيضا وتتقدم منظومة فكرية أخرى ، منظومة تختلف تماما عن المنظومات الإنسانية الأخرى . في تلك المرحلة تغدو الأشياء سائرة على وتيرة واحدة وأمامك سلم طويل . كلما قدمت قدما إلى الأمام يبتعد عنك السلم أقداماً أخر ، إنها عبارة عن متوالية هندسية تشبه نظرية الجلوس في المرحاض من أجل الإفراغ وقراءة جريدة قديمة . الطحالب والقطط تسير في الأرجاء الواسعة ، العاصفة تمحو آثار الأنبياء . وحدي أنظر إلى المخلوقات بأعين باكية . هذه هي الحياة بمنظار التطهر الرمزي . أحاول مرة أخرى ، وبعد الانتهاء من الإفراغ ، أن أعتصر عضوي التناسلي مرات كثيرة لأطهره من البول . رجل الدين يقف خلف الباب يحمل تعاليمه السماوية وعصا غليظة من أجل التأكد أني انعضت عضوي ثلاث مرات حسب السنة . ها هي جهنم الدرك الأسفل للذين يبولون واقفين ، فيغرقون في البول وتصبح أجسادهم نجسة . أيام طويلة كنا

نقضيها مع إمام المسجد وهو يعلمنا بعصاه الوهمية التطهر من النجاسة ، أما الأرواح فتعيش مأساة أخرى . في العزلة يسقط كل شيء ، تسقط التعاليم ويسقط ميكائيل وباقي الملائكة تباعا . فلا وردة حمراء في بئر الثلج والنكاح الذاتي . ايها الغرور النتن والإحليل الناتئ من شقة في بنطلون الدهر المر ، والذي يتواصل عبر مجريات الوهن السماوي ، اعزف للمخلوقات على قيثارة العماء ، حيث انت وحيث لا مكان ؛ لأن الأمكنة كلها مشغولة بمخلوقاتك البائسة . أنت تتربع على الكرسي ونحن نلتحف السماوات العارية من علامات الاستفهام . في الوحدة تبدأ اللغة بفقدان وظيفتها ، تتحول إلى الإله الأخرس الذي يجيد مخاطبتك فقط عبر الرموز والإشارات ، وكأن الثراء اللغوي لا يهمه في شيء . لغة الرموز البدائية لكن المتفوقة تتبعثر على الأرض ، و يمنحك الرمز معادلة التساوي مع التأثير النفسي . إذا حضر الملاك فإنه لا يحدثك في تفجر النبوءة ، إنما يومئ لك ويخاطبك ذهنيا فتفهم دون حاجز اللغة . إنه من المشكوك فيه من ضمن الاكتشافات ، أن تكون اللغة عاملا حاسما في ذلك الملكوت المقدس . لا لغة هناك ، إنما إشارات ونقل للأفكار عبر الدماغ الشفاف والمتلألئ ، الذهن المتقد على نار الإيعاز والإيعاز المضاد . لذلك فحينما نموت نخسر كل ماديتنا : الجسد ، الدماغ ، السلوك اللاإرادي ، العقل الباطن ، المتواليات الهندسية وقوانين نيوتن . في التحول الدراماتيكي نغدو جسدا شفافا غير مرتبط بعملية التراكم الذهني ، فبالقدر الذي تطور فيه ذهنك عبر عمليات القراءة ، بالقدر الذي تكتسب فيه شفافية ذهنية . هذه الشفافية تساعدك على بلوغ مراحل متقدمة في الملكوت ، إنها الحرية ، حرية العقل المجرد من قوانين المادية واللغة ، التي هي تكوين مادي صرف برغم أنها غير ملموسة . أحلامي كانت تتأرجح على مادية الأشياء .

النزعة الغرضية من تكويننا البشري تبرز من بين التراكمات الذهنية . هل الأحلام نوع من الارتباط الذهني بالملغي من الأيام ، بالماضي من الأعوام ، بالرمس الذي تشيعه الأحداث فوق مقاربات العملية الجنسية . اليوم كانت امرأة تعتصر نهديها عبر النافذة المجتزأة لذهني . كلما وضعت رأسي على الوسادة تبدأ تلك المرأة بلعبتها تلك . في بعض الأحيان ، في الجانب المظلم من الذهن ، وأعني به الجزء الآخر من الدماغ ، الذي يكون على الجانب المعاكس لرأسك وهو على الوسادة ، ثمة انبثاقات من الطفولة تتلألأ ، لم أكن أعرفها ولم أكن قد أدخلتها ضمن عملية التحليل المعقد ضمن منهجية صارمة ، لكن المرأة كانت بعد مداعبة النهد المنتصب والشامخ كأنه رب ، تندرج في متاهات الذهن لتقوم بخلع ملابسها قطعة بعد أخرى وجزءا بعد جزء . قررت هذه المرة الانتظار فترة أطول ، فترة من أجل أن أمنح متخيلة الذهن آفاقها الملهمة ، فوجئت وفيما أنا أفكر بعري كامل للمرأة ، بنمو شعر عانتها بسرعة عجيبة ، وأغرقني هذا في متاهات غابية أكبر من حد التصور ، في تلك الغابة اكتشفت نوعا آخر من الرجولة ، إنها الرجولة الناقصة والقائمة على تشويرات داخلية مكبوتة . حاولت الوصول إلى الغدة الصنوبرية ، لكن الطرق كانت مغلقة بملايين العليقات وأشجار الحور والشوك الأرضي . تلك الأحلام كانت تترصدني كل يوم ، كل ساعة ، كل لحظة مأساوية كنت أقضيها في زاخو . في أوقات أخرى ، في أوقات يمكن أن أسميها ايام الجنون والرغبة المنتفخة سماويا ، كنت أصعد الجبل المقابل للجسر العباسي ، وأتأمل المخلوقات التي تصبح عبارة عن نمل ودبيب غير إنساني ، حيث تتحول الفكرة إلى أكثر الأشياء تشابها مع الذات . من قمة ذلك الجبل المتوحد ، أتأمل مع رياض إبراهيم ، فكرة البنية العشوائية للأحلام ولتلك التراجعات

والانكسارات للزمن المضغوط في الرؤية . امرأة سوداء بملابس داخلية بيضاء ، امرأة بيضاء بملابس داخلية سوداء . ضيق الوقت وضيق مساحة التنافر العدواني ترجح كفة الاغتصاب . في بعض الأحيان كنت أصطحب رياض معي إلى الرحلة الجبلية السماوية لأريه العوالم المضمخة باللذة المسحورة . كنا نتأمل البعد الإنساني المعاصر لأهالي زاخو ، وكان الإله يضيفنا على مائدة الجوع . أفلس رياض مبكرا وغدت الأيام أكثر سوادا . ما العمل ، عكس صيغة ماركس أو لينين أو حتى تيري ايغلتون . الجوع كفارة للأشياء المعقدة والمرتبكة ذاتيا ، تلك الاستعدادات المؤججة لنزعة الهروب الأبدي . كنا في القمة أو السفح ، نجلس إلى الأرض ، نرمي الحجر الدفين الذي تلفظه الأرض باتجاه النهر القميء والمتعرج . فكرة السفر كانت تبدو بعيدة جدا ، ليس هناك من أمل ، رياض كان يستمر في الحلم . نغادر الجبل حيث الرؤية أشد وضوحا في مخاطبة الإله سن ، لكن نزعة التفرد حيث هي الأخرى تذوب ، تحدثنا عن ابتلاءات البشر في معمعة الذوبان الكبير . ذوبان النزعات البشرية والانثيالات ، لكن ما هي الانثيالات الحزينة حيث تبدو مضمخة بالألم . لماذا الألم الآن وما بعد وما قبل في تراجيديا البعد عن الذات الكوني المتوحد في عبثية مجدنا المسفوح فوق تراجيديا كردية لذبحنا بتواصل . مغارات التوحد التي تنام الهنيئة على عار الأشياء . شيطان الذكريات الحزينة ، قفرة في المكان . النقطة تجتاح العبارة مثلما يجتاح جيش مذهل فرج امراة مسنة . ألاقيك أيها الله على صخرة الجبل مثل موسى ، فلا يعمل إزميلك على صخرتي فأخرج خالي الوفاض من اجتماعنا السرمدي . لحظات تضرب الزمن بالعضو التناسلي للاناسة البنيانية فيهرب عبد الستار ناصر إلى زمن أشد اغترابا . ماذا بعد طردنا من اللعبة السماوية ؟ ماذا بعد انحسارنا الذهني

عن ماهية المقولات الفلسفية . جاك دريدا وأنبياء الماركسية مرورا بتناذر الأشياء وتبعضها . فرج امرأة محفوظ في جمجمة الرب . الرب ذاته نائم عن الألم فيما مخلوقاته ترقص من الوجع المثلوم بدائية الاستحلام المبكر للعقل . أين رحلة العقل وهي تتأرجح أمام أحاديث مستمرة عن غفلة الزمن وهو يطأنا بنعاله . أين الرسل ذوو العزم وهم يتحلقون أمام جسد امرأة غضة . يسيل اللعاب وتنتصب قضبانهم . كلهم هربوا إلى الزمن الآخر . الله ، رسله ، القوادون ، أبناء القحبة ، المناويك ، رجال الدين الذين لديهم نزعات طفولية ونزعات شرجية . جربنا في متاهة الحدث والليل والنهار الاتصال بالإله مرارا لكنه كان نائما ، وكنا نسمع شخيره ، فيما المردان والصبيان يضعون الدهن على فتحات خروجهم من أجل ممارسة جنسية مثلى . إنه الزمن يضيع مثل مسبحة مسيحية ، فننام على سفح الجبل مثل خراف ونعاج آيلة للسقوط في العقل الأوسط أو في المحنة النهائية لذواتنا . إنها استطرادات ملهمة ، استطرادات نبحث عنها فيما هي تهرب إلى مديات غير مرئية ، مديات بلا نهايات محتومة أو نهايات جوانية في ذاتنا . الجبل هو الجبل ، الكتلة الصماء والخرس الأبدي . أما نحن فكتل بهيمية ، حالنا حال الماعز الجبلي وهو يجتث طعامه من الأرض السبخة ومن أجل موت مؤجل . أين تكمن صورة الإله الغارق في شخيره والهارب من توسلاتنا ، لا نعرف على وجه التحديد لكنه حتما في مكان مجهول . بعد صعودنا الجبل تجمعت في السماء مجموعة هائلة من الغيوم . كنا ننظر إلى الغيوم أشبه بأطفال أو أشبه بفراخ ديك رومي . لم نكن ننتظر المطر في تلك اللحظة ، إنما كنا ننتظر الصحو الإلهي منزوعا من التعذيب والبهيمية القاتلة للملائكة ، الذين كانوا يتثاءبون في حضرة الإله . يستمر الجوع قاتلا ، لم يأكل رياض طيلة يوم كامل وأصبح الصحو

شيئاً خرافيا . نزلنا من الجبل بعد أن شعرنا باليأس القاتل ، وتواعدنا على الجوع الملحق بأجسادنا مثل زنار الخطيئة . لم نر الله ولم نسمع صوته ، بل إنه لم يسمعنا البتة رغم توسلاتنا . ما هي الأشياء الواجب عملها ليسمعنا؟ ماهي الانثيالات الضوئية والوسائل والطرق لوصولنا إلى البوابة الاولى للسماء . الأوراد ، الأدعية ، التسابيح ، التوسل ، خراء ، كل شيء كان عبارة عن غائط حيث لم ينفع شيء . نغترب في الزمن ، نغترب في مأساوية اللحظة . الأبواب كلها موصدة فيما زاخو تثقل خطواتنا في المجهول . كنت أفكر في النزعة القاتلة التي تدفعني دفعا إلى الموت ، وكنت أفكر أن أقتل أطفالي وزوجتي للتخلص من الجوع الكامن خلف الأبواب .

لا ملجأ أيتها السماء ، لا ملجأ أيتها الأرض العاهرة ونحن نجوس في متاهاتنا الملبدة بالسخام . فوق الجبل ، على القمة ، بمحاذاة السفح ، كانت الإشكالات المتتابعة لأنفسنا تغرق في بوهيمية عارمة . صوت الرب كان يبتعد عنا وحتى وفق تصور فلسفي وسوسيولوجي . كانت الكلمة تعبر عن ذاتها المتناهية ، الذات المنكسرة وهي تتابع ترادفات المعنى اللفظي لمأساتنا . كنا فرديين حد الاستعاضة عن منظومة الدعاء الكامل . المنظومة المتجذرة في ذات آيلة إلى الانحدار نحو قاع فارغ آيل هو الآخر إلى السقوط . بئر اللغة ، النزح المستمر للدعاء ، النتح الهوائي والفكرة المستقيمة متجذرة في معاني قريبة ومحشوة بالدلالات . أين هو الاستباق نحو الفعل المضطرب . في قصص الجوع أو في قصص موسى كريدي أو حتى قصص عبد الستار ناصر ، حينما تروح الكلمة إلى متاهات غير معروفة لنا . تأسيا على الجوع ، فكرنا في قصائد عريان السيد خلف وكوكب حمزة ، وميلان كونديرا وهو يتشمم حر امرأة نزقة . تلك الرائحة المنبعثة من مدخلات الذهن حينئذ ، تصبح الرائحة فعلا خلاقا وآدميا في الوجود البشري .

الكثير من القصص وهي تقبع في المنطقة المحرمة من الذهن أو المساحات الفكرية لرؤية الجسد وهو ينهار تحت سوط الجلاد . نحن نمارس في التعذيب ، سلطة القتل وتعذيب النزعة الفردانية ، منطلقين من حيثيات الأنوثة والرجولة وغرائز سابقة على الفكر . لم يجرد عبد الستار ناصر كتاباته من الجنس ، ولم يجرد موسى كريدي كتاباته من النزعة الفلسفية أو مقولات التأريخ ، فكان الضوء في نهاية النفق عبارة عن جوع متأسس على القتل الرحيم . كنت أفكر في تعاليات الفكرة أو نظرتها الدونية لنا ، فلم نجد أكثر من تأس كبير ومضطرب في القاعدة الذهنية لفكرنا . هكذا فعلها صدام حسين وثلة صغيرة من الأكراد المتعاونين معه معنا ، فكان جهاز الباراستن الكردي والأسايش عبارة عن نزعة تسلطية فوق رقاب الأكراد أنفسهم وفوق رقابنا نحن الفقراء والجوعى . كل جهاز أمني يعكس الشكل الحقيقي للكيان السياسي . إذا كان الجهاز إنسانياً فهذا يعني أن النظام السياسي جيد ويحترم الإنسان والعكس صحيح . جهاز الأمن هو وجه الدولة الحقيقي . قبل أيام أرسل جهاز الباراستن مرة أخرى في طلبي ، جلست في قاعة الانتظار خمس ساعات متواصلة من القلق . كان الجهاز قد أرسل في وقت سابق لرؤية رياض إبراهيم وآخرين لا أتذكر أسماءهم . وضعوا في قاعة الانتظار مثلي ساعات طويلة وحين خرجوا لم يشاءوا الحديث . كنت أود في الحقيقة أن أعرف ماهي الطقوس الغريبة التي يمارسها هكذا جهاز . أحدهم استطاع الحديث حيث كان معتقلا لمدة أسبوع ، حيث وضعوه في غرفة عارية وتحت تهديد بكلب شرس ، وافق على العمل معهم والتجسس على جماعة المعارضة ، وعلى العرب عموما . بعد أيام من خروجه بصحبة الإعاقة الذهنية التي حصلت نتيجة الترهيب والضرب استطاع الفرار إلى السليمانية . هناك اعتقل من قبل جهاز

زانياري ولم نعد نسمع أخباره . كان جهاز الباراستن أشبه بسيف مسلط على رقبة العرب ، وكأنما هو نفسه جهاز المخابرات العراقية . في وقت سابق حدثني رياض عن أنهم اعتقلوا شابا عربيا آخر وطلبوا منه السفر إلى السليمانية والتجسس لصالح الباراستن ، وحينما لم يوافق أطلقوا عليه كلب الحراسة فمزق ذراعه وأجزاء أخرى من فخذه ، في النهاية خرج من المعتقل بجروح شنيعة ثم اختفى دون أن يعرف أحد أين هو بالضبط ، رغم أننا عرفنا بعد ذلك من كردي تركي يعمل في الباراستن ومتعاطف مع العرب ، أنهم قد أرسلوه للقيام بتفجير في السليمانية ، وأنه ميت في كل الأحوال . يمارس الباراستن والأسايش ، وهو جهاز الأمن الداخلي ، سلطة معقدة من التسلط ، فهو من بنات أفكار الموساد الاسرائيلي ، لكنه مطعم بصفة خاصة بالنزعة أو الأسلوب الصدامي في الحصول على المعلومات وتداولها . استدعى الباراستن والاسايش كل العرب الموجودين في زاخو في حملة كبيرة للتجنيد ، وشمل هذا تهديدهم بالطرد والسجن والتعذيب . فانهارت أعداد كبيرة تحت نزعة التعذيب ، وغدا العرب كتاب تقارير يكتبون تقاريرهم عن الآخرين الذين هم أيضا مجندون إلى الاسايش والباراستن . المثير هنا أن البارستن يستدعي س كلما كتب عنه تقرير من قبل ص ، بالرغم من أن س هو عميل لصالح هذا الجهاز أو ذاك . كانت تلك فنطازيا غريبة وعجيبة ومحزنة ومضحكة في الوقت ذاته .كوميديا سوداء وتراجيديا وصلت في مراحلها النهائية إلى قيام الاسايش والباراستن بجمع العزاب العرب وبعض العوائل ، ووضعهم في معسكر اعتقال جماعي بانتظار فرصة سانحة لتسليمهم للنظام . يذكر كاوه ، العضو السابق في الحزب الشيوعي العراقي وأحد الذين عملوا مع الأنصار ، وضعهم في معسكر الاعتقال هذا أنه يشبه معسكر اوشفتز

النازي . جلسات التحقيق المرعبة كانت تجري تحت إشراف ضابط مخابرات اسرائيلية من أصل عراقي ، يعرف كل دقائق الأمور وتحركات الجيش العراقي وتوزيع الوحدات . كان يسأل في غالب الأحيان عن معلومات لم نكن نحن نعرفها ، وكان يفاجؤنا غالبا ، والحديث لكاوه ، عن أسماء القواعد الجوية العراقية . حاول ضابط المخابرات الاسرائيلي تجنيد عدد من العرب في ذلك المعسكر ، ونجح مع بعضهم . تظاهر كاوه بأنه مصاب بأمراض مزمنة واستطاع التخلص من قبضة الموساد وعناصر مرتزقة مسعود . كان كاوه يتكلم الكردية بشكل مذهل ، واستطاع بكثير من المراوغة من الخروج من معسكر الاعتقال ، لكن المشكلة التي واجهته أنه الآن بلا عمل . استطاع كاوه ، بعد محاولات عديدة ، الحصول على عمل في فندق لأنه يعرف العربية والسورانية والبهدنانية . بعض العرب الذين وافقوا على العمل مع ضابط المخابرات الاسرائيلي تم إخراجهم من المعسكر وأرسلوا إلى داخل العراق بمعية عناصر مسعود الذين كانوا ضباط ارتباط .
كانت الرغبة العارمة في تحطيم العرب والمعارضة بارزة بشكل مثير للكآبة لدى الباراستن والأسايش ، ولدى محققيهم أساليب وتصرفات أجهزة أمن صدام حسين نفسها . كانت هناك في الحقيقة رغبة سرية ومخيفة في تقليد أجهزة صدام ، مضافا اليها طبعا أساليب الموساد الذي ساهم في تأسيس جهاز الباراستن . قبل أربعة أسابيع التقيت عن طريق الصدفة ، وكنت بصحبة رياض ، بأحد أعضاء حركة الوفاق الوطني العراقي - جماعة إياد علاوي - كان هذا الشخص كرديا من أهالي زاخو الأصليين . تم استدعاء هذا الشخص وترهيبه من أجل أن يترك العمل في الوفاق بحجة أنه كردي ، ويجب أن لا يعمل مع المعارضة العراقية . كانت تلك النزعة تكبر بفعل الضخ المستمر من جماعة مسعود باتجاه لاعراقية

الأكراد؟ كان مسعود يريد أن يجعل الأكراد أمة منزوعة الخصائص الوطنية ، وذلك بإسقاط الوطن ، والذي يعني إسقاط الانتماء والعيش كمرتزق يبيع سلاحه وخدماته للآخرين ، وهم هنا الموساد الذين يدغدغون مشاعر الأكراد بكردستان الجديدة في العراق . كنا في بعض الأحيان نتساءل أنا ورياض عن ماهية الفكرة التي يحملها مسعود وحتى جلال عن الوطن ، الحلم أو الوطن الحقيقة . كان هناك تضاد فكري وإشكالية كبيرة تمارسها هذه الأحزاب بالضد من كينونة الكردي . في الفكر مابعد الحديث ، ثمة التماسات وتشظي لفكرة الكينونة ، حيث تعيش الآن إرهاصات العولمة وإرهاصات التناذر ، حيث تكون الدولة - حسب - كيانا هشا ليس أكثر من منظم كريه للفعل الثقافي والكوني ، الذي يتسرب الينا من كل مكان ، حتى صرنا غير قادرين بالمرة على لجم الثقوب من النضح . تبدو وجهة نظر هذه الأحزاب الكردية والشوفينية تغريبية كبيرة وهي تمارس سلطة عجيبة وكريهة على عقول الآخرين . هذا الآخر الذي يصاب الآن بالتآكل والضجر . لا بل بالكآبة إزاء حاضر تغريبي كبير . الهوية المطروحة من قبل هذه الأحزاب هي هوية مبهمة وغارقة في ضبابية مقيتة ، ، ربما يعرف قادة هذه الأحزاب تلك المتواليات ، وربما هم أيضا يعرفون مايجري نتيجة سياساتهم التي أعتقد أنها تتشكل في غرف مظلمة ، غرف بلا إضاءة حيث يدور الهمس الماسوني فقط ، وتتحرك اللوامس من أجل تبين شيئية الآخرين الغامضين ، والذين يرسمون السياسات . الكردي عبارة عن إنسان محاط بهالة وخطوط متشابكة من الوله بالآخر القوي ، وهو هنا اسرائيل ورجال مخابراتها ، والأمريكان على وجه التحديد يشبهون القوادة أو السمسار أو الوسيط بين الأضحية وبين الرجل الذي سوف يدفع أكثر من أجل المتعة الشخصية . المتعة هنا هو رؤية عراق ممزق لكنه غير

منفصل ، إذ إن انفصال الكردي سوف لا يمنحه القدرة على التأثير في الوضع العراقي ، وتنتفي منه صفة الارتزاق ، وهو ما لا يريده قادة الأحزاب الكردية ، إذ إنه سيحرمهم من موارد مالية كبيرة يقبضونها عن ثمن الرؤوس التي تحت سيطرتهم . القادة الأكراد يعرفون تلك الحدود ، ويعرفون أنهم ليسوا أكثر من مرتزقة امتهنوا القتال من أجل الدولارات الخضراء والسرقة . بعد خروج الجيش العراقي من المنطقة الشمالية هبت الأحزاب لتسرق كل شيء وتبيعه إلى ايران ، باعوا كل شيء حتى الملابس الداخلية لنسائهم إلى إيران ، لم يبقوا شيئا من بلدوزرات البلدية إلى أسلاك الكهرباء إلى المرصد الفلكي ، وحتى الألمنيوم الذي تصنع منه القدور باعوه إلى إيران حيث أصلهم الفارسي الذي يحنون له . هناك حالة غريبة يعيش الكردي داخلها ، وهي الانبطاح أمام الايراني والفارسي تحديدا ، حيث يتحول الكردي أمام الايراني إلى أشبه بنعال مطاط ينتعله الايراني باستمرار ، وحينما يضجر منه يرميه إلى المزابل ، لكن هذا النعال يشبه حذاء أبي القاسم الطنبوري إذ سرعان مايعود إلى الإيراني لينتعله من جديد ، وتبدأ دورة حياتية جديدة . الكردي يشعر بالضعف امام الإيراني ، وكنا نلاحظ هذا من خلال تعامل الإيرانيين بفوقية وتعال مع الكردي الذي دائما هو بخدمتهم . تعود تلك العلاقة الخاصة بين الكردي والإيراني الفارسي إلى عهود طويلة ، اذ يعرف الأكراد أنهم ليسوا أكثر من رعاة إيرانيين سكنوا البوادي والقفار خارج المدن الإيرانية ، لذلك فان الإيراني من أهل المدينة ينظر إلى الكردي على اعتبار أنه راع فقط لا غير ولا يحتاج هذا الراعي إلى احترام كبير . الكردي يعرف هذا ويتصرف وفق هذا المنظور والمنهج والرؤية والدونية . إنه وضع خرائي مقيت وغير متجانس أخلاقيا مع فكرة الوطن العراقي التي يكرهها الكردي كألعن شيء في

العالم ، ويعتبر وجوده مع العرب قمة المأساة . أما بقاؤه تحت النعال الإيراني والتركي فانه مقبول جدا ومرحب به . الحركات الكردية في إيران حركات ضعيفة جدا ، والإيرانيون ينظرون لها على اعتبارها مشكلة إيرانية صرفة ، وحتى الأكراد يتعاملون مع المشكلة على اعتبارها مسألة داخلية ، مسالة إيرانية ، وهم يقبلون بالحلول الفارسية لهم لأنهم فرس وإن كانوا رعاة ماعز وأغنام . إنه الحنين إلى الأصل الذي لا نستطيع أن نقول أمامه شيئا . في تركيا وايران يتم التعامل مع الكردي ببهيمية غريبة ، وهو عكس ما هو موجود في العراق . إذ إن العراق يشكل خطرا على اسرائيل ، ولذا فواجب الحركات الكردية إضعافه إلى الحد الأقصى ، والقادة الأكراد يعرفون أن هذا هو واجبهم وأنهم بندقية للإيجار ليس أكثر . ايران وتركيا في الحقيقة ليستا ضمن منظومة الفعل المحرر لفلسطين ، إنهما نائيتان تماما وبعيدتان عن دائرة الفعل ، لذلك فان الفعل المضاد يسير هو الآخر مجانبا لهم ، فيما يكون الفعل تجاه العراق العربي في أقسى قوته . العروبة تشكل خطرا كبيرا ، لذلك فإن الأعداء يتكالبون عليها . هناك تصور أن الغرب وأمريكا يشنان حملة ضدنا لأننا نتبع الديانة المسلمة ، وهذا خطأ كبير . المعركة ليست مع الإسلام إنما مع العروبة . في كثير من الأحيان كنت أفكر بعمق في مسائل معينة تخص العروبة ، فكنت أكتشف أن العداء كله موجه لتدمير العروبة : ايران ، تركيا ، الأكراد ، الاسرائيليون ، الأمريكان ، الأوربيون . . شيء مخيف للغاية أن تواجه العروبة كل هذا الكم الهائل من الأعداء الذين يريدون أن يروا العروبة ممزقة ومحطمة . كل واحد من هؤلاء الأعداء له اسبابه الخاصة في العداء للعروبة ، لكن المحصلة النهائية أنهم متفقون على أننا خطر كبير عليهم . في بعض الأحيان كنت أستمع إلى البعض وهو يصف المعركة القادمة مع الغرب على أنها معركة بين الإسلام

وهذا الغرب ، لكني لم أجد أي شيء من هذا القبيل . الغرب متداخل في مشاريع وتحالفات مع العديد من الدول الاسلامية ، بل وصل الحال أنه سمح لبعض الدول الإسلامية أن تتزود بالسلاح النووي ، لكن هذا السلاح غير مسموح به للعرب إطلاقا ، وليس هذا فحسب إنما غير مسموح للعرب أن يمتلكوا التكنلوجيا المتطورة ، والتزود بالأسلحة الحديثة من كل الجهات ، حتى لو كان هذا الاتحاد السوفيتي السابق . الأكراد في هذه المعمعة هم عبارة عن سلاح من أسلحة الغرب لغرض إضعاف العروبة وقتلها ، كنت أشعر بالاشمئزاز من موقف جلال ومسعود ، كذلك أشعر بالتقزز الهستيري من قادة الأحزاب الكردية الشوفينية ، وذلك بناء على منظومة الفهم ومعادلته العراقية . إنهم أشبه بالسفلس والزهري اللذين يصيبان الجسد ، وهم بحاجة فعلية للكي بقسوة مع عدم توفير الجو المرضي المسبب لهذه الحالات . هذا الجو الذي يجب أن يخضع لمنظومة متكاملة من الحلول والإجراءات الاحترازية . إن الحكومات العراقية كانت قد أخطأت في تعاملاتها مع الأحزاب الكردية ، فيما وقع الكردي العادي ضمن متوالية التشريد . إن الفعل الخلاق يجب أن يتجه نحو تعزيز كينونة الكردي بوطنيته وجعلها هي القيمة التأثيرية العليا في تفكيره ، لكن هل هذا صحيح أو هل هذا ممكن . لا أعتقد أننا سننجح هنا ، والسبب قطيعية الكردي وتعلقه بالأوهام التي يزرعها فيه شيخ العشيرة والإقطاعي . لقد فشلت محاولات حكومية سابقة في تحرير الكردي من سلطة رجال الإقطاع ، ويبدو أن الإنسان الكردي هو الذي لا يريد أن يتحرر ، إذ لا يستطيع العيش بدون القوة فوق رأسه واضطهاد الإقطاعي له . نحن في الواقع تنقصنا الدراسات الابستمولجية والدراسات الانثروبولوجية ، وينقصنا علم المخاطبة مع الآخر الذي يكتسب فنا وفعالية مضاعفة متى

تمت الاستعانة به . . الإسرائيليون أفضل منا جميعا ، إذ أدركوا قطيعية الأكراد فاشتروا قادتهم ، وبالرغم من أن الأكراد يعرفون غائية الإسرائيليين ويعرفون أيضا غائية قادتهم ، إلا أنهم يسلمون رقابهم لهؤلاء القادة مقابل حلم وهمي اسمه كردستان ، تلك التسمية التي ابتدعها مجهول فتعلق الأكراد بها . إنها تشبه تعلق الطفل بلعبة رغم أن هذه اللعبة مؤذية له ، وأنها لعبة شيطانية من أجل السيطرة عليه ونزع الوطنية منه ، وقطع انتمائه للأرض التي يعيش عليها ، وللوطن الذي يعيش في كنفه . إنها تغريبة كبيرة ووهم كبير . استفاد الاسرائيليون من الميثالوجيا الكردية التي ابتدعها مبشرون سابقون ، كما استفادوا من دراسات عملوها على الكردي واكتشفوا أشياء مذهلة . كان مما اكتشفه الإسرائيليون هو تلك العلاقة الفنطازية والحميمية بين الكردي والطبل . فبدأوا العمل سريعا على استثمار هذه العلاقة . إنها الدراسات الانثروبولوجية والمجتمعية التي نفتقر نحن لها . هناك دائما ارتباط وثيق بين الكردي والطبل ، هذه العلاقة مبنية على رغبة الإنسان الكردي في الفرح والتماهي مع الطبيعة . الطبل هنا هو عنوان رمزي وحياتي كائن عميقا في الحياة الكردية ، الطبل رمز للطهر والانفلات مع الرب الطبيعي أو الرب البيئي . أما ضربات الطبل فإنها تشير إلى نوازع الذات وقدرتها على الانتقال من حال إلى حال . ومن الجدير بالملاحظة أن الطبل أداة أيضا للاحتفال بالمقدس ، وهو هنا العيد الزرادشتي الذي يعتمد في طقسيته على الطبل والنار باعتبارها إلها مقدسا أو رمزا تأويليا . بهذا الشكل فإن هناك علاقة متجانسة بين الطبل والنار والكردي والفرح . إنها علاقة غريبة فيما إذا أردنا تحليلها . المثير للدهشة هنا هو التقاط اليهود ذلك المقدس ليعلنوه عنوانا لسلسلة طويلة من البحوث التي نفتقر لها نحن . العقلية الغربية الاسرائيلية اكتشفت المقدس وغير

المرئي من الذات الكردية ، فراحت تعمل على استلاب الكرد وتغذيتهم بالطبل وأسباب الانتفاخ المتورم للذات . الإسرائيليون يضربون على طبل الذات الكردية ليس من أجل عيون الكرد طبعا ، ولكن من أجل ذواتهم الخاصة ، وبالرغم من هذا ، يرقص الكردي وينجذب متسارعا إلى الطبل .
ماهي ثيمة الطبل وماهيته ثم ماهي ماهية ورمزية عيد النار الزرادشتي . إنها كما أعتقد نوع من الديانة الداخلية للكردي أو الديانة غير المعلنة له . يحتفل الكردي بعيد النار كما لاحظت ، بنوع من القداسة ، إنه الدين الدفين الذي ينعكس على الحاضر المتأتي من ارتباط مع الماضي السحيق لتاريخ الكردي ، الذي لم يزل يقدس النار باعتبارها إلها غير مرئي في عمق ذاته ، أما الأسلمة المعاصرة فهي لا تعدو إلا شيئاً هزيلاً وغير مهم ، وهو عبارة عن واجهة تختفي خلفها الروح الزرادشتية . في داخل النفس الكردية ثمة نعي لفكرة التوحيد الإسلامية ، بالاضافة إلى أن الكردي يشعر أن الإسلام كان أكبر قوة حطمت الذات الكردية ، وهو مسؤول مسؤولية مباشرة عن تحطيم الديانة الكردية ، ومسؤول أيضا عن عدم انتظام الكرد في دولة خاصة بهم . لست هنا في وارد إثبات أو نفي مسؤولية الإسلام عما حل بوطن الأكراد المفترض ، ذلك أن هذا موضوع معقد للغاية . لكني أعتقد أن الإسلام قد أضاف إلى الأكراد الكثير من قوة الشخصية ، وهو عكس مايفكر فيه المثقفون الأكراد من أن الإسلام قد حطم الدولة والشخصية الكرديتين . الآن هناك دعوة إلى إعادة إحياء الدين الزرادشتي ، ويقوم جلال الطالباني ومسعود البارزاني بدعم مشاريع تقوم على إحياء هذا الدين ، وهم يوفرون أموالا كثيرة لهذا المشروع ، أموالاً كان يمكن أن تصرف على مجالات الصحة والتعليم وتحسين معيشة الأكراد بدلا من إضاعتها في مشاريع وهمية وغير مجدية . العودة إلى

الجذور الآن ، وكما لاحظته أثناء ترحالي في شمال العراق ، قوية . ويقوم مبشرون أكراد بالتعاون مع ماسونيين بتجديد الدين الجديد - القديم ، ومن أجل أن يعود الأكراد إلى ديانتهم السابقة . في إحدى الجلسات الخاصة مع شاعر كردي ، اعتبر أن العودة إلى الديانة الزرادشتية يمثل مسألة حيوية لقيام الأمة الكردية من جديد ، وبعد أن حطم الإسلام هذه الأمة بديانته الإسلامية ، وجعل الأكراد شعباً تائهاً بين الشعوب الشرق أوسطية . وقتها لم أعلق على ماذكره هذا الشاعر حيث كنت فقط أستمع للفيضان الروحي الذي يجري في المنطقة ، وكان هذا الفيضان تيهاً روحياً وقومياً كبيراً . لقد انسحب الكردي حتى حينما دخل الإسلام إلى ذاته ، والى التصوف الذي يتوافق مع تركيبته الزرادشتية القائمة على النظر إلى الطبيعة كأم وكأب ؛ فعكس بسبب هذا التوحد ديانته القديمة داخل الديانة الجديدة ، فخرج بالتصوف الذي التقط كما يلتقط الطفل حجرا ثم يرميه باتجاه ذاتية ذاته . يعرف الاسرائيليون ، على نحو واضح ، نفسية الكردي ، ويعرفون أن الكردي باق داخليا كزرادشتي مؤمن حتى وإن كان هذا بالخفاء . وبسبب هذا نجحوا في اختيارهم الموفق . وبسبب عقدة الإسلام في الذات الكردية ، لم يعترض الأكراد على تعاون قادتهم مع إسرائيل في ضرب العروبة وهي تتصدى لأهم وأخطر غزو ثقافي وفكري وعسكري من قبل الاسرائيليين منذ الغزوات الصليبية الأولى للمنطقة . أما التعاون من أجل إسقاط العراق وتحطيمه ، فهو يندرج ضمن المخطط الشامل للاسرائيليين من أجل الانتقام من العراق ، وذلك لدوره في تحطيم الممالك اليهودية ، أضف إلى هذا أن توافر إمكانيات قيام دولة قوية جدا في العراق يعني في النتيجة فشل المشروع الاسرائيلي في تحطيم الأمة العربية . لكن ، لماذا يحارب الكردي ديانته الجديدة ، وأعني بها الإسلام . ثم لماذا يحارب هذا

الإنسان المخلوق من الجن والإنسان كما تقول قصص الميثالوجيا ، إحساسه بالوطن والعيش المشترك مع الآخر . ربما تكون الإجابة قاصرة بعض الشيء ، لكنني أعتقد ، ومن خلال احتكاكي بالعديد من المثقفين الكرد في اربيل ، أن الكردي يجب بالضرورة أن يرجع إلى ديانته السابقة . لكن السؤال المهم هنا ، هل هو غادر ديانته القديمة فعلا ليعود إليها ؟ قد يبدو هذا التساؤل محيرا أو حتى في غير محله خاصة ، لكن الحقيقة أن الأكراد ، لم يغادروا الديانة الطبيعية التي تعتمد على النور والطبيعة والنار ، التي هي الخالق أو المزود للطبيعة باحتياجاتها من النور . الكردي في الواقع لم يغادر ثنائيته ، وما يريده الكرد هو الإعلان فقط وإظهار مايجيش في القلب من حب لزرادشت وعبادته وفق آلية جديدة . ربما لا تظهر الآن إلى السطح تلك العودة إلى الديانة الجديدة ، لكن هناك تيار واسع بين الكرد يؤيد الإعلان إلى العودة إلى الزرادشتية والانفصال علنا من الجسد الإسلامي وثقافته .

الرب الكردي (خوا) هو صديق الكردي وليس ربه الذي يعبده ، وهو أيضا يختلف عن الله في الفكر الإسلامي والمسيحي واليهودي . إنه الأخ - الأكبر - حسب وشيخ العشيرة الذي يتعامل مع أتباعه باعتباره صديقاً فقط وليس إلها يستحق التبجيل والخوف . إنه الرب الفارسي أيضا حيث يشترك الأكراد مع الفرس ، بالديانة ذاتها ، ويحتفل الاثنان بالنار المقدسة والنوروز وكره العرب الذين حملوا الدين اليهم ، كما ساهم الإسلام -حسب التفكير الفارسي والكردي - في تحطيم الدولة الفارسية ومنع إقامة دولة كردية . الكردي ربما أكثر التصاقا بدينه الطبيعي من الفرس . وهو لهذا السبب يوقد النار على رؤوس الجبال لتغدو الليالي الكردية

مسهدة ورائعة ، حيث الظلمة وحيث شعلات النار المقدسة تفتك بالظلمة ، فتشاهد الجبال وهي مشتعلة بألق ناري متلجلج وكبير . الكردي بطبيعته يعود إلى زرادشتيته كل عام مثل الفارسي ، ومن أجل أن يعم النور ظلمة حياتنا الخاصة وظلمة حياة الكون . كنا في كثير من الأحيان نسير أنا ورياض فنتأمل تلك اللوحة الرائعة من التوقد المذهل للنار ، النار التي تتداخل في ميثالوجيات متعددة ، فبالرغم من أننا في الإسلام نعتبرها جزء من كينونة جهنم ، إلا أنها لدى الآخرين ، نور العالم ونور مهم لحياتهم . كنا نتوقف أمام عدمية الأشياء ، نتوقف أمام زرادشت وهو يمد يده وذراعه نحو الأرجاء الجبلية ليضمها إلى مملكته النارية ، تلك المملكة العصية على الفهم والمعرفة ، أو العصية على التلاشي ، بالرغم من ظهور الدين الإسلامي وسيطرته هناك . كنا نقول أنا ورياض ، إن العالم يعيش فنطازيا غريبة ، وإن الإنسان قادر على تجميع أشلاء الأفكار ليضعها ضمن مفهوم واحد . فالكردي يعتقد جازما ، أن طقس النار هو جزء من تركيبة ديانته الجديدة - القديمة ، وهو لهذا لا يحب حدودا أو مساحات فاصلة بين إسلامه وبين زرادشتيته . وهو لهذا يمارس كلتا الديانتين . الزرادشتية وعبادة النار التي هي جزء حيوي من الذاكرة الدينية للكردي ، والتي تتجذر بمعية التلقين والخطاب الأبوي للأسرة .

انتهى عيد النار ، وأصبحت الليالي من جديد ظلمة أبدية . في بعض الأحيان كنا نذهب لزيارة إسماعيل شاكر . البرد أصبح أخف وطأة وشعرنا بفرح مبطن لقدوم الربيع . كنا نجلس في غرفة اسماعيل نستذكر الأيام السوداء أو الأيام البيضاء ، حيث لا فرق إذ لم تعد الألوان ذات أهمية وربما حتى الأيام التي تسير بتصرم شديد . في زاخو تضيع مساحات الاحتراق ، تضيع الجمل المؤجلة في تاريخ الجنون والعته والسفالات المتراكمة كحالة

كيميائية وفيزيائية . انبرى أحد المعتوهين ، ويدعى أبو تراب ، ليؤسس حركة سياسية أسماها حركة الدفاع المقدس . كان أبو تراب شخصاً قادماً من إيران لا أحد يعرف من هو ، حيث يقول إنه ضابط ، ويقول البعض إنه نائب ضابط ، فيما تقول مجموعة أخرى إنه رئيس عرفاء شرطة وكان توابا في إيران ، واشترك في تعذيب أفراد الجيش العراقي ، حيث كان هو عضوا في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية ، والذي كان يعذب الأسرى العراقيين بالنيابة عن الايرانيين . انضم أبو تراب إلى المؤتمر الوطني العراقي ، مثله مثل الكثير من أتباع ايران الذين كان المؤتمر الوطني يضمهم اليه بشكل غريب ، حيث تجد أن أغلب أعضاء المؤتمر الوطني هم من القادمين من إيران ، والذين كانوا يعملون لمصلحة الاستطلاعات الإيرانية وهو جهاز المخابرات البديل عن السافاك القديم . بعد فترة من انضمام أبي تراب للمؤتمر ، قاد انشقاقا وتمردا فيه لمصلحة جماعة مسعود بارزاني ، حيث كانت العلاقات بين الطرفين سيئة ، وحيث كانت أصابع مسعود تعمل في اختراق المؤتمر وتخريبه ، وتنفيذ العديد من الاغتيالات لصالح المخابرات العراقية . في حادثة مدوية ألقى جهاز الأمن في المؤتمر القبض على شخص كان يعمل على وضع متفجرة لنسف مقر المؤتمر الرئيس في مصيف صلاح الدين . ألقى جهاز الأمن في المؤتمر القبض على هذا الشخص ، ولدى التحقيق معه اعترف بأنه مدفوع من كريم سنجاري رئيس جهاز الباراستن من أجل تنفيذ التفجير . بعد تحقيقات مطولة للكشف عن الأبعاد الكاملة لهذه الحادثة ، توفي هذا الشخص تحت التعذيب . ومن أجل لملمة القضية بسرعة والتكتم عليها وعدم انتشار أسرار التحقيق الذي يفضح تآمر مسعود على جماعة المعارضة ، قام كريم سنجاري بمطاردة كل الأشخاص الذين ساهموا في اعتقال هذا الشخص والتحقيق معه ، ومن

ثم قتلهم جميعا بدم بارد في مصيف صلاح الدين وفي شوارع زاخو. كانت مطاردات كريم سنجاري لأعضاء التحقيق، تشبه أحداث فيلم العراب أو المافيات الإيطالية، حيث لم يكن هناك فرق كبير بين الاثنين في تنفيذ عمليات القتل والاغتيالات والتصفيات في الشوارع. فجأة تذكر جهاز الباراستن صديقه القديم أبا تراب فاتصل به عن طريق مسؤول كبير فيه يدعى حمدي، وهو ضابط يعمل في جهاز الباراستن تلقى تدريبه في اسرائيل، وفي معسكر زاويته حيث كانت قاعدة الموساد الرئيسية ومعسكره، قام حمدي بإبلاغ أبي تراب أن البارتي يريد شن حملة تشهيرية بأحمد الجلبي والمؤتمر الوطني. وبالفعل قام أبو تراب بإصدار بيانات باسم حركة الدفاع المقدس، تتهم المؤتمر بالعديد من التجاوزات. قبض أبو تراب من هذه العملية أموالا من البارتي وتحول إلى برجوازي بلمح البصر، وأخذ يدور على محلات العطور في زاخو لاختيار أغلى الأنواع. تجمعت حول أبو تراب مجموعة من المرتزقة، وأخذ أبو تراب يتصرف على اعتبار أنه رئيس حركة سياسية كبيرة. كانت مخططات الباراستن تتلخص في مجموعة أشياء هي إعلان موت المؤتمر والتشهير به وبأحمد الجلبي، واتهامهم بسرقة الأموال من الأكراد. كذلك التشهير بأنهم عملاء للمخابرات العراقية. كانت هذه التهمة مضحكة للغاية، فلم يكن أحد يصدقها، خاصة أن مسعود وجماعته كانوا على علاقة قوية بالنظام، وكانت الاجتماعات السرية العلنية تتواصل في مصيف صلاح الدين وفي كركوك. كان نيجيرفان بارزاني هو بطل هذه الاجتماعات واللقاءات الدورية، وكان يتم في هذه اللقاءات تقاسم واردات النفط والكاز الذي كان يباع إلى تركيا بعلم الأمريكان ومعرفتهم، الذين كانوا يغضون النظر عنه. كانت سياسة البارتي من دعم جماعة أبي تراب،

التخلص من العرب ومن المعارضة بأي ثمن ، وكان الباراستن يضغط على العرب عبر كل الوسائل من أجل طردهم من مناطق البارتي ، وكان يطلب بصريح العبارة مغادرتهم إلى السليمانية حيث جماعة جلال . المهم من هذه السياسة هو خروج العرب من المنطقة بأي شكل وبأي وسيلة ممكنة ، وحتى لو تطلب هذا تصفيتهم جسديا . كانت حركة الناس وطرق تعاملهم مع العرب تعكس مزاج البارتي (حزب مسعود) وسياسته المخيفة والعنصرية . بعد وصولي إلى زاخو حاولت أن أستأجر غرفة في منزل ، وحينما عرفت المرأة صاحبة المنزل أننا عرب قالت إنها تفضل أن تؤجرها للكلاب ولا تؤجرها إلى العرب . كان هذا نموذج من النماذج المتعددة التي يزخر بها المجتمع في زاخو ، ولقد شعرت بغصة وألم كبيرين . كنا في بغداد لا نعير مسألة القومية أية اهمية ، وكان هذا الشعور هو ذاته في بقية المحافظات العراقية الأخرى . كان الناس حينما تصل إلى منطقتهم عائلة كردية يقدمون كل المساعدة لهم وحمايتهم والمحافظة عليهم . كان السوران أكثر تآلفا مع العرب وعلى العكس من البادنان الذين يمتازون بخبث وعنصرية غريبة وملفتة للنظر . كان البادنان يمارسون عنصريتهم ليس على العرب والآشوريين والشبك والتركمان ، إنما على السوران أنفسهم وعلى الأكراد الفيلية . وهذا ماجعل السوران يتعاطفون مع العرب ، إذ بدأت تعمل هنا العوامل المشتركة للاضطهاد . كانت هذه العنصرية تتجلى في كل شيء تقريباً ، وأذكر أنه كان الأطفال البادنان يركضون خلف أحد الاطفال العرب ويصرخون هي هي ، عربة عربة .

برز أبو تراب بشكل كبير على ساحة العمل السياسي ، وانضم له العديد من العرب الذين تقطعت بهم السبل ، وكان أبو تراب ومن خلفه حمدي وجهاز الباراستن يروجون لفكرة السفر القريب . جاءني رياض

ليقترح علي أن نضيف أسماءنا إلى قائمة الراغبين بالسفر ولم أعترض . كنا نريد الرحيل بسرعة ، خاصة بعد أن شعرنا باليأس من الدخول إلى سوريا وفكرنا مراراً بالدخول اليها بطريقة غير شرعية عن طريق التهريب . لكن هذا الأمر يتطلب أموالا لم تكن تتوفر لدينا . كانت الأيام تسير عجلى ، سريعة وبطيئة في الوقت ذاته . لم نكن نعرف كيف يمكن أن يتحد البطء والسرعة في الوقت ذاته . كانت كذبة السفر مع أبي تراب تكبر في زاخو ، حتى إن الأكراد أنفسهم وجماعة مسعود صدقوها بعد أن أطلقوها بأنفسهم . بدأ رياض يتعب بشكل كبير . أخذت أعصابه الهادئة دوما بالاضطراب . كان الوضع المادي يلعب لعبته القذرة في تحطيم النفس والأعصاب ، خاصة أن رياض كان يعيل عائلة كبيرة . من أين يمكن أن يأتي المال ؟ سؤال محير ، خاصة بالنسبة إلى الأدباء والمثقفين ، وبشكل خاص بالنسبة إلى الأدباء الذين هم مفلسون أبديون في عالم مادي قذر . المال والأديب لا يلتقيان إلا في استثناءات قليلة ونادرة . حاول رياض الاتصال بأصدقاء يعرفهم مثل محمد مظلوم وغيره ، وفي كل مرة كان يشعر بأمل يتورد ، إلا أنه سرعان ماكان يصاب بخيبة كبيرة وتخبو إطلالات الأمل عندما يعتذر هذا الصديق أو ذاك . فكرنا أن نذهب إلى السليمانية ، لكننا استنكرنا الفكرة ولم نحبذها . كنا نريد أن نخرج من هذا المستنقع القذر ، المستنقع المليء بالقاذورات الإنسانية والعنصرية والتفاهات والاحتيال . شكلت تجربة أبي تراب في محاولات الخروج ثمة املاً كاذباً . كنا نعرف أن كل شيء كان عبارة عن كذبة كبيرة ، لكننا كنا مضطرين لتصديقها ، إذ لا خيار أمامنا البتة . كان ذلك شيئا غريبا ، شيئاً يساوي في قيمته الانحدار والانتحار . هل وصل بنا اليأس حدودا غير معرفة ، حدوداً تضيع مع ثيمة الوجود والبقاء وقرارات ماخلف الأغلفة

الفارغة للكلام . كانت شخصية أبي تراب شخصية كارزمية غريبة . فجأة تحول إلى منقذ في عيون الآخرين . الفجأة غريبة ومدوية ،لكن اليأس كان أكبر ، انضمت إلى أبي تراب أعداد كبيرة من العرب على أمل الخروج ، وتحول أبو تراب إلى بطل فنطازي تدور حوله الحكايات من مثل تناوله اطباق السمك المشوي ، وتناوله أفضل أنواع البيرة ، وتبذيره للمال على العطور السخيفة المنتشرة في زاخو . مع المال التفت حول أبي تراب مجموعة من العرب والأكراد ، منهم الضباط السابقون في الجيش العراقي وبعض الشيوعيين الذين أصبحوا منظرين للحركة . ومع التفاف هذه المجموعة بدأ بيع الأسماء والأرقام في القوائم ، وتحول الموضوع برمته إلى عملية بيع وشراء واسعة ، ومن المضحك أن أعداداً لا بأس بها من جماعة مسعود بارزاني انضمت إلى هذه القوائم ، ومن ضمنهم شيوخ عشائر وأغوات ، كان سحر الساحر ينقلب على جماعة مسعود ، حيث صدقوا الكذبة التي أطلقوها بأنفسهم ، وكان هذا شيئاً مثيراً للتقزز والتقيؤ ، لكن هذه هي مشكلة الأكراد على مر العصور ، إذ يطلقون الكذبة دائما ومن ثم يصدقون كذبتهم ، ويخوضون صراعا مريرا من أجل هذه الفكرة . كان هذا شأن الكثير من الأشياء ، من مثل أنهم من أصول ميدية أو أن الاستعمار قسم كردستان بين مجموعة من الدول ، وأن كردستان كانت دولة واحدة ، وأيضا عائدية كركوك إلى كردستان بالرغم من أنهم لم يأتوا إلى كركوك إلا في أواخر الثلاثينات للعمل في مصافي النفط كأيد عاملة رخيصة ، وحيث كان التركمان والعرب قد سبقوهم في الاستقرار في هذه المدينة ، لا بل إن مدينة أربيل نفسها كانت مملوكة بالكامل إلى البرجوازية التركمانية . كان دعم مسعود لأبي تراب قد حوله إلى شخصية منقذ وهو يتصل بالعراقيين خارج العراق من أجل إيجاد مخرج . هكذا مثل نبي كان

يجتمع بين فترة وأخرى بالعرب ليعلن لهم نتائج اتصالاته . والمدهش أنه في كل مرة كان يقول إن خروجنا مسألة وقت ، وفي كل مرة كان العرب والأكراد يصدقونه . كانت المعارضة في زاخو أو من تبقى منها ، مجموعة غريبة وغير متجانسة نهائيا ، حيث تضم في الأعم هاربين من إيران وأكراد فيلية وأعضاء حركات إسلامية ، بالإضافة إلى أناس من داخل العراق وصلوا مؤخرا وحشروا أنفسهم مع أبي تراب باعتبارهم من المعارضة . إنها فنطازيا الأحلام ، وجدنا أنفسنا أنا ورياض وإسماعيل شاكر وسط هذه الفنطازيا . وجدنا أنفسنا معنونين على طوائف الاغتراب ، معنونين نحو الموت البطيء والسم الذي نشربه كما يشرب الحمام المهاجر مياه الأوحال ، لكن الطيور لم تكن لتموت فيما نحن نغرق في الجيف والهزالة الفكرية والتموضع الغريب للألم ، الضياع ، الورطة ، ضبابية الغد ، بؤس الحاضر ، انحطاط الأخلاقيات ، التوحش المدوي في ظل الجوع .

تعرف إسماعيل شاكر على شخصيات غريبة في زاخو ، شخصيات قلقة لكنها كانت تعرف ماتريد . أمام الجوع كانت هذه الشخصيات تستجدي المارة من أجل قطعة خبز ، فيما أحمد الجلبي يغرق في الشمبانيا في لندن ، وباقي الأحزاب السياسية العراقية يغرقون هم أيضا في السكوتش والبلاك آند وايت . كان مشهد المعارضة مشهدا مائعا يتحول فيه الإنسان إلى جرذ أو صرصار مبلل وهو يسير في الشوارع بلا نهايات معروفة . استطاع إسماعيل شاكر التعرف على أحد الأشخاص القادمين من ايران واسمه أبو عماد . كان أبو عماد هذا برجل واحدة ، وفي زاخو أخذ يستجدي سواقي الشاحنات التركية ليحصل منهم على كميات جيدة من المال أخذ ينفقها على اسماعيل شاكر ، الذي عاد إلى شرب البيرة والعرق مع أبي عماد . كان اسماعيل قد انتقل بعد التعرف على أبي

عماد إلى غرفة مستأجرة في أحد البيوت المجاورة للمنزل الذي أسكن في أحد غرفه .

استطاع أبو تراب أن يجمع ثروة بعدة آلاف من الدولارات ثمن إدخال الأكراد في القوائم ، وبعد ذلك هرب إلى تركيا فجأة . في ليلة مجهولة من الليالي التي بلا اسم في زاخو . كانت تلك الليلة ليلة مجنونة من الليالي ، حيث تتوقف منظومة العقل والمعرفة عن العمل لتعمل بدلا منها منظومة الجوع والعري والبرد القارص . كان أطفالي يلتصقون بأمهم من أجل الدفء ، وكانت زوجتي تلتصق بالحائط في بطانية واحدة للجميع . في المساءات الباردة كنت ألتحف سترتي وأضطر للنوم دون أن أنزع الحذاء طلبا للدفء . وبالرغم من البرد واللادفء واللاحب كنت أشعر بأني ربما أفضل حالاً من آخرين كانوا يفترشون مقبرة زاخو مع أطفالهم ، ومن أجل الحصول على الدفء ، كانوا يلتقطون شظايا الخشب لإيقادها ، كنا نشاهدهم وهم يجولون شوارع زاخو بحثا عما يمكن إحراقه ، أوراق المقوى ، جذوع متهرئة من الخشب وأي شيء يمكن إحراقه . كانت جلساتنا أنا ورياض مع إسماعيل شاكر ، جلسات للنظر في تكوينات العقل الجمعي للمعارضة أو ماتبقى منها هنا . كانت جلسات جميلة نحيل فيها إلى مسطرة الوعي والى منظومة التحليل ، وبعض المشاكسات كانت تنسينا طعم الجوع اللاذع أو قرقرات المعدة الخاوية أو حتى الحلم بعلبة بيرة على سبيل التذكار . في بعض الأحيان كنا نرى علب البيرة المعدنية وهي تقرقع في الشوارع فارغة ، فنتأملها ، ثم تحطم تلك الأحلام سيارة عابرة تدهس العلب لتحيلها إلى شيء بلا هوية ، شيء ممزق لنياط القلب وممزق لمعاني الأشياء وديمومتها ومتواليات الحياة . هل العلبة كائن نرجسي ؟ هل العلبة شيء خارج الوعي ام أنها في الوعي الكامل لنا . ثم ما الذي يعنيه

تحطم تلكم العلبة وتحولها إلى شيء آخر خارج المعنى والسياق ومنظومة السكر والتعتعة والفناء والتأمل في كونية الأرض والكون ذاته ، ثم ماهي علاقة الجملة الشعرية بحدث الدهس نفسه . ربما سيقول أحدهم أن لا علاقة لدهس العلبة بمنظومة التفكير والتأمل ، وربما سيقول شخص آخر إن منظومة التأمل هي خارج قياس العلبة كعلبة ، لكنني أقول ان هناك لم تزل علاقة بين الماضي والتأمل وبين العلبة كمحتوى للتأمل والفناء الفكري وأغاني العته وليالي نادي اتحاد الأدباء . أيضا فإن الموضوع له علاقة بضياء سالم وحميد المختار وحسن عجمي وجنون صلاح زنكنة ، وعالم محمد الأحمد ، وتيهان نصيف الناصري وهو يبحث عن ذكور القطط في سطح داره ليعذبها . كذلك علينا ملاحظة أشياء أخرى وهي العلاقة الأزلية بين شكل العلبة كمحتوى للسكر وجلسات جان دمو في مشرب بلا اسم ، وحسن النواب كمعادل موضوعي للانفلات من الأزمنة الحالية إلى أزمنة محايثة وغريبة ، أزمنة تحمل بصمات الانفلات والانبثاق والانبلاج والتمرد على كل ماهو كائن ، وضد الجوع وتوسل الأصدقاء الأغنياء من أجل وجبة زرازير مشوية على فم التنور الهائل لذات متضخمة بشكل موضوعي . العلاقة إذن علاقة في المحتوى والمعنى ، علاقة تسود فيها آليات البحث عن عوالم مغايرة ، عوالم متمردة وأنت تقرأ قصة قصيرة في حضور العفاريت والجن في مقابر الشيخ معروف والشيخ عمر ، أو في مقبرة السهروردي أو على ضريح الحلاج المضاء دائما من قبل السدنة . المحتوى أيضا مليء بانثيالات القصائد الذاهبة بك إلى اللحظة الشعرية المتمردة والكائنة في مديات بعيدة في النفس . قصائد اصدقائي كانت تحيل شكلانية علبة البيرة أو قنينة العرق ، الى شكلانية عقلية يمكن الاستعاضة بها عن قصائد امير الحلاج أو إبراهيم البهرزي ، قصائد ملونة

بأكاسيد المعادن واخضرار الألمنيوم واصفرار علبة الدخان وورق الجرائد المتكسر ، اصفرار غير معالج كيمائيا قائم على ماهو شكلي في نثريات الجنون عند جمال السوداني . هل عبد الستار ناصر إنسان خال من الإشكالية ، هل هو إنسان اكسيدي يعالج الألمنيوم والحديد المنصهر وذرة الماء المتأتية بقوانين اللزوجة والتعجبل الأرضي ؟ هل المعادلات الرياضية تشكل مفهوما غير منطقي لحالة منطقية جدا وأنت تتقيأ العرق في سيارة صلاح زنكنة أو في طرقات بعقوبة أو ساحة الأندلس ؟ تبا للأشياء الخارجة عن الذاكرة ، تبا للوغوس العقل وتربية الدجاج من أجل بيضة مسلوقة على قحف رجال الدين وهم يناكون من الخلف من أجل ديمومة عيورهم المنتصبة مع السلطات الفيزيائية لتمارين اليوغا . أي هندي آخر يستطعم الريح من أجل غيوم غير مؤاتية ؟ أي جبل اهتز حينما نزل القرآن عليه؟ أي موسى كلم الرب فخدعنا وخدع نفسه حيث كان ينام ورأى كل شي في الحلم ثم سرد لنا أيضاً كل شيء فصدقناه . اية كذبة شنيعة كذب بها عيسى وموسى ومحمد على اذهاننا المبتلاة بهم فغدوا تماثيل وأصنام لوغوسية جديدة . أضحك مع قصيدة عارية ، أضحك من قصة هائلة المحتوى لكنها سخيفة جدا . . السخافة في حياتنا هم دائم وبحث متصل بلا نهايات . هل النهايات مجزومة وخارج المحتوى ؟ هل النهايات هي فعلا نهايات أم تحول الشيء إلى شيء عاهن ومتغير ، مثله مثل النار التي تغير المعادن والألمنيوم على وجه التحديد . إننا ننحشر في تكامل الذرات ونقصها المدوي . علاقة الرياضيات بالقصيدة النثرية علاقة قائمة جدلية . ربما لم يلاحظ الشعراء ذلك ، لكن هذه العلاقة ناتئة من أذناب الخنازير ومن أذناب الفئران التي تأكل أشياءنا بشهية تحسد عليها . هكذا كنا نضيع في العبارة أو نضيع في شكل الجملة ، وفي شكل المنظومة

الذهنية لقصيدة النثر ، فيما أقدامنا تدفعنا إلى أكل الباذنجان كمرق خال من الكولسترول وتجانسات الزمن وتغيرات أحاسيس الإدراك . ليس هناك من تفسخ ابدي غير تفسخنا ونحن ننام عراة إلا من أحذيتنا . عراق في متاهة المستحثات الدماغية ومعادلات اللزوجة والرطوبة وقوانين القوادين وسماسرة الجنس . بنية عقولنا مذهولة ، لم أشاهد في حياتي معاهرة النائك والمنيوك . لم أر في حياتي معادلة التجانسات وهي تنسحب بعيدا عن ذهن مستوفز ، غائر ، غائم ، مدلهم ، غبي ، منحط ، قواد ، سافل ، أرعن ، برجوازي ، شوفيني ، إنها الحرب المعلنة لفيضان الدورة الشهرية وهي تنبلج في أفق السماء الأولى فتتكون جوهرة الدم الرابض على جلد القضيب ، أيتها الأيور المنتصبة في إست الوقت وحر الزمن ومدارات النيوترون ، هاهو عقلي يتجول مثل قحبة متقاعدة . ها أنا أغزو الايزوتريك وأتفسخ مثل صرصار في بالوعة القيامة حيث المؤمنون يكشفون لنا عن مؤخراتهم وملائكة الاله تلهب مؤخراتهم بالسياط . أيها الملاك أقول ، انا أنت وأنت في جبتي مثل حزام الظهر ناتئا كقرعة مثلومة فوق جبال التسلط والجبروت . امنحني ايها الملاك أجنحتك العارية وسأريك مؤخرتي الجميلة الني لم يطأها من قبلك إنس ولا جان . أين أنت يا علبة البيرة ، لماذا تنحطين إلى سفالة الوضع هذا ؟ لماذا هذه العلبة تتزامن وتتحايث مع العقل المبني على قصور دقائق الساعات الملتهبة . إنها السخافة والسحر واللامعنى المبثوث في شعر العانة لامرأة لم ير المقص فراديسها زمنا طويلا . أنام مع موت أحلامي وأنام مع انثيالات الذهن وانفتاحه . النضج البيولوجي يغيب في عقل الوقت ، فيما الوقت يضيع في الصياغة الصورية للعبارة . نحن نضيع في الجينالوجيات ، نتوه في انحطاط الجملة الشعرية والهوس والابتذال السياسي والكيدية اللعينة . السماوات خلفنا وليس

فوقنا . تعالنا يطأ ركام الأحلام المتوالدة في جحر الوقت . العبارات هائمة تتمرد على ينبوع الفكرة المبتذلة . هاهو الانسداد الفكري والذهني يحاول التملص من كاتب تقارير مقابل عشرة دنانير من الطبعة السويسرية . الارتهان إلى البيشمركة وجهاز الباراستن يموضع الذات ويخلق حالة خرائية مدهشة . هل شاهدت ياعزيزي فأرة في وضع الولادة ، السفاد الغريب والفرج المفتوح على النهايات ، كيس التتن المتمرد على سجائر (كنت) الأمريكية ، والدجاج المسمن والمستورد من منشأ مجهول لحساب قبضايات البيشمركة ، ومن أجل تغذية الشعب الكردي . حاولنا أن نشرح للأكراد البسطاء سفالة القادة ومتاجرتهم بالأرواح وكاد هذا يكلفنا حياتنا . بتنا ليلة كاملة مع كلب حراسة يحاول التهامنا كل لحظة ثم أفرج عنا بتدبير إلهي . تجربة الاحتجاز كانت مريرة ومفعمة برائحة الغائط والتبول في صفيحة سمنة ، ثم الاغتسال بالقذارة فيما خلف القبضان يأكل البيشمركة أفخاذ الدجاج المهرون . يحيا الشعب الكردي وتحيا أفخاذ دجاج مسعود وجلال وسجائر الكنت المجهولة المصدر والتصنيع . أشياء مدهشة كنت تكتشفها ، من مثل الشكل الغريب للدجاج وللأسعار الرخيصة له .
كانت تلك الأسعار رخيصة جدا حتى إني شعرت بالدهشة أمامها ، كذلك لشكل الدجاج نفسه ، الدجاج الكبير الحجم بشكل ملفت للنظر والمسمن بدرجة كبيرة ، وهذا ماجعلني لا أتناوله بالرغم من أن الأكراد يقبلون على شرائه بشكل كبير جدا . في أحد الايام تعرفت على تاجر تركي في أحد مقاهي زاخو ، وحينما عرف بأني لست كرديا نصحني بأن لا أتناول هذا الدجاج الذي يستورده هو ، لأنه قد يصيبني بالسرطان . قلت له إني لا أتناوله في كل الأحوال ، لأني أشك فيه بدرجة كبيرة ولأني أعتقد أنه مزروق بالهرمونات . فقال لي التاجر إنه فعلا كذلك وأنهم

يجلبونه من اسرائيل خصيصا للمنطقة . حيث يشتريه أحد قادة البيشمركة منهم ويبيعه على الناس . سألته أيضاً عن السجائر التي لفت نظري رخص سعرها وأنها كلها بالنكهة ذاتها ، فذكر لي أن هذه السجائر تحتوي على مواد رديئة الصنع أو نفايات التبوغ المتبقية من عمليات التصنيع ، وتضاف لها مواد تجعل المدخن يدخن بشراهة . ونصحني أن أدخن السجائر التركية الغالية لأنها أفضل . قلت لماذا تفعلون هذا بهذا الشعب المسكين . فقال ليس هو والتجار الأتراك السبب ، إنما هم التجار الأكراد ، وتحديدا الرؤوس الكبيرة في عصابات مسعود ، الذين يستوردون هذه النوعيات المسمومة من أجل الإثراء السريع على حساب الكردي البسيط . كان الحقل الإدراكي يتأين ، يتفاعل مع الوزن والكتلة بدون التعجيل الأرضي ، فقط ضرب المصفوفات التي غدا العقل شبه نائم في توالي تلك العبارات الرياضية ، تفسخ لاهوتي ، انحطاط جينالوجي ، انسحاق ذاتية الوعي . المصفوفات الزوجية والفردية تتناثر مع الوقت ، مع الدقائق ، مع حيثيات الزمن وعدم تكامله في الدورات البيولوجية والايزوتيكية . ماذا يفعل البيشمركة حينما لا يجد من يقتله ؟ إنه ينام ليحلم بالحرب ، ليحلم ببنادق محشوة بالرصاص والخراء ، وقنابل البراز وقذائف الأعضاء البشرية ، وأجساد الموتى التي يتم التمثيل بها . إنها أيونات وذرات الاستغفال العضوي والمحنة التي تحارب معادلات الريب . الحامض النووي للقادة الأكراد يشابه إلى حد بعيد الحامض النووي للقرود التي تمد يدها دائما من أجل العطايا ، من أجل السلب ، ولذلك فإن ذرات هؤلاء القادة غير متعادلة وطنيا . إنها تقطع أشواط العمالة واستجداء المعونة الخارجية من أجل قتل الوطن . كانت هناك لعنة أبدية ألحقت بالوطن ، لعنة مشحونة باضطراب الوزغ واضطراب العقل . اللعنة كانت

كبيرة جدا ككتلة ثقيلة للغاية مرمية على جسد الوطن . كان لا بد لنوري السعيد ومجموعته من أن يضموا الموصل لأنها فعلا أرض عراقية ، أرض عربية وامتدادية لميزبتيميا حيث تنداح فيها قبائل العرب شرقا وغربا ، وهنا كانت المشكلة أو اللامشكلة ، حيث انضم مع هذه المساحة بضعة أناس وضعهم الانكليز عمدا من أجل أن لا يرتوي العراق من بئر عروبته . هؤلاءالناس وقادتهم لا هم لهم إلا تعليم الكبار والصغار كيف يخان الوطن وكيف يقتل العراق . منذ ذلك الحين كانت اللعنة تتناسل مثل سرطان حقير ، مرض يشبه إلى حد بعيد السفلس والزهري ، ما إن تقترب منه حتى يصيبك باللعنة ، كان القدر هو أن نقترب من هذا المرض ومن أجل أن نصاب به . كان الانكليز أذكياء جدا . أعترف بكل ما أملك من هوس بالوطن ، أنهم فعلا كانوا أذكياء حينما غرسوا ذلك الخنجر في جنباتنا كي يجرحنا كلما أردنا الحركة غربا أو شرقا . إنها لعبة الأمم ولعبة الحقارة الانكليزية .

الانثيالات تتتالى ، الانثيلات تفر مثل عراجين السماء الازوردية . سماء مليئة بالكفر والنكران ، سماء متتالية ومتعددة الأبعاد . التشظي والشيئية صفات الحياة الحيوانية وأنت تسير في اصطبلات زاخو المريرة . رجال يرتدون الشراويل ، رجال يلثمون البنادق مثلما يلثم الرجل رجلا آخر في وصال الوقت والرغبة الشرجية . لا تنشيط ذهنياً في زاخو . هناك فقط الألم ورياض إبراهيم واسماعيل شاكر وبعض الوجوه الغرائبية في طواف جنائزي . الوقت مقصلة الزمن والزمن مقصلة المستحثات . تاريخ الأشياء لا يندحر ، لا يمر فوق رؤوس الرفاق الشيوعيين حتى وأنت تقرأ وتحلم بماركس ولينين . العاهرة التثقيفية في خطابات غير مواتية كانت تنوح في التزحلق على الشوارع ، النوم في الطين والرقود في السبخ . الانتحار

كمعادل موضوعي للعلاقات السجالية . كل الأيام في زاخو مضرجة بالدم ، أي دم وأي لون حتى وإن كان دم الدجاج المسفوح على تلال المضيق المخنوق بكتلتي حجر كبيرتين . ذكريات تشبه الأشباح تنمو في تزحلق الوقت . رياض هائم أبدي في المتاهة . إسماعيل شاكر يقتله التركيز في الأشياء ، أما أنا فمثل معزة كردية هاربة باتجاه الشمس . أية معارك جانبية تجمعنا بالرفاق وأية انكسارات تضرجنا بدمائها الملونة في كرنفال هندي . بشكل حصري نشرب الشاي في مقهى بورصة الدولار ، إسماعيل يكرر طلباته من استكانات الشاي فيما رياض يكتفي بوجع اللحظة المريضة . قبل يومين أحس رياض بآلام تسري في صدره ، أثناء زيارتنا لمكتبة دهوك شعر بألم في صدره . كان ألماً خفيفاً ، أحس بالحزن المفاجئ يخيم عليه ، يغرق فيه ، الوجع ذهب فجأة لكن وجه رياض تغير بسرعة . صفة الحزن كانت ترافقه في المسير والارتحال والشدو والغناء وقراءات الشعر الخجول . في الأيام الأخيرة ، وبعد استدعاءات متتالية إلى مركز الأسايش والباراستن ، أخذ شكل رياض يتغير ، ووجهه أضحى خفيا وكأنه يحلق في سماوات الإله ، نرام سين كان يبتسم له وعشتار تلوح له من آفاق بعيدة . ماالذي يمنح هذا الرياض تلك الخفة المستوية ، تاريخ النسيان ، تاريخ القهر ، أم تواريخ المساحات الشاسعة . الألم يضرب في كل الأمكنة وفي كل الاتجاهات . التنشيط التاريخي يعبث بنا في متاهات الأودية . يوم غائم وقذر ذلك الذي انحدرنا فيه باتجاه الشمال أو (كردستان) .

عند انعطافة الفيش خابور ، جلسنا في مقهى يقع على ضفة النهر ، لا شمس هناك ولا مطر يقرقع ، لا شبابيك لعتمتنا الملقاة على الصخور . هربنا في تلك المساحة الضوئية الغائمة إلى ركن في المقهى الخارجي

حيث الضباب يغطي الضفاف . النساء الكرديات كن يغرقن في لجة النهر وهن يغسلن ملابسهن وقِرب اللبن الممخض ، حاولنا أنا ورياض أن نرسم تشكيلا غائما هو الآخر لتلك الوجوه ، لكننا لم نلمح وجوه الصبايا المراهقات اللاتي حطم الشبق قدرتهن على صخور زاخو . لا صبايا ولا شمس ولا من يحزنون . الأيكة والجندر والقيئ النافث لسمك الشبوط . منارات التوحد كانت تحطمنا . بكينا في تلك اللحظات بدون أن نذرف الدموع ، ثم تأملنا الماضي بمفردات القيئ اللغوي . ماذا يقرأ الكردي في نافلة الظلام . العرس المتوحش أم سيمفونية اللغات النارية . الكردي لا يقرأ ، علم الأرقام والحروف تائه بالنسبة له ويشكل ألغازا سحرية عصية على الاقتراب والحل . كان رياض يحاول أن يقيم ثمة التماسا للذاكرة ، التماسا فضا وصعبا من أجل إدخال الأرقام على حروف الوقت والزمن ، لكنه في كثير من الأحيان كانت العبثية تطارده فيجلس كئيبا . الوقت ذلك الكائن اللغوي والمتعلق بذرية الساعات البغدادية وحقول النارنج العصية على الفهم تحت ظلال النخيل الميت ، أحلام كانت تمر ، رؤئ عرجاء تمخر ذاكرة الاستحياء . الضباب والاكتئاب صنوان لمرحلة الانغلاق اللغوي .

سوف يقترب الكائن السماوي من إذلال منقطع النظير ، إذلال اللحظة المأساوية وهي تندحر عميقا في الذات . الذبيحة السومرية تتعلق بكلاليب الإله فيما الإله نفسه يتعلق بازدهار الوضع السيبيائي للكون . الذبيحة اليهودية كانت اقتباسا سومريا صرفا . من منا رأى الروح وهي تمخر العماء الاهليللجي . عنق الرحم والانتانات المهبلية نغتسل بها في طقس سماوي . قدح جعة من أجل البكاء ، قدح جعة كبير من أجل البكاء المر والطويل على ذكريات بصرية أو بغدادية اللهو . الكائن الرب ، الكذبة

الكبيرة ، الكائنات العظيمة التي أوجدتنا وأوجدت الاكتئاب ، البكاء ، الرعب ، الخوف ، والرغبة الجنسية المقتولة سريعا بسيف العادة السرية ، وامتلاء الخصيتين بدموع التكاثر النرجسي . قدح جعة من أجل المزيد من البكاء ، من أجل المزيد من الحزن الغامق اللون ، الأزرق السماوي أو الأسود . قدح جعة من أجل الموت والانتحار في طشت الاغتسال فيما عواطف تمسد العري الكامل ببودرة الاشتهاء المخصي والفظ وأغشية البكاء الرجولية . كريات مايسنر تتدحرج على بوق التموضع الذاتي . إبك بطريقة مغايرة ، إبك يارياض من أجل طيور الخضيري وهي تندثر في رمس البلوى التي نغرق فيها . ينهش الطائر اجسادنا . ينهش الباراستن سوءاتنا في عري التحقيقات السياسية ، تعيش تحت رعب التماهي مع هواء زاخو ، تمخر بحر الظلمة المتكدر والسماء الحزينة . لامقاهيَ في زاخو تتسع لقدح شاي أسود مليء بحبات الوزغ والتقاطر الأيدلوجي . محايثة مستمرة ، تلاحقك نوبات البكاء ، توسل استدراكي للمحقق السياسي وهو يمارس عليك شوفينيته الكردية . تنتظر في غرفة العري اللغوي أريكة مائلة نحو التحطم ، أسلحة جديدة ، عيون غارقة في انتظار قتلك ، كلاب جائعة من أجل أوقات أفضل . ديك الصلاة لا يقبع خلف صواري السفن الهادرة في فمك . ابتئاس اللمحة الشعرية أمام المحقق مع كتلة متطاولة من الإهانات لعروبتك . هاهم يريدون أخذك إلى معسكر الاعتقال الجماعي حيث يحقق معك أعضاء الموساد بمعونة كردية . تنتهي من التحقيقات الغريبة . ها أنت أمام هروبك من النظام الصدامي لتصطدم بما هو أكثر شناعة . يكتشف ابني قوميته وعروبته من مناداة الأطفال عليه ب ، هيه هيه عربة عربة . اكتشاف العروبة شيء ملفت للنظر ، شيء رومانسي بالنسبة لي ، لكن لابني شيء مغاير تماما . الحقد على العروبة يضطرم في صدور الكرد .

هاهو التماثل قائم على كره العروبة بين الاسرائيليين والفرس ورعاتهم الأكراد . هاهي الضغائن تلوك الوقت ، تلوك الإنسانية . فوجئنا أنا ورياض بمديات الحقد على العروبة الذي يصل إلى حدوده القصوى . كان كرها غريبا ، كرها مدويا وملفتا للنظر . اشتراك الأكراد مع الفرس واليهود في الحقد المقدس علينا ليس له إلا تبرير واحد ، هو وحدانية أصلهم المشترك . الكرد فعلا ، وهذا ماكتشفته ، أنهم حقيقة رعاة ماعز الفرس واليهود ، خدمهم ، عبيدهم . حقدهم المتضخم عميقا باتجاه العروبة ينشطر ، يتناثر على مساحات هائلة . العبودية المختارة تتجذر عميقا في نفسية الكردي تجاه الفارسي ، والفرس من جهتهم يعتبرون الأكراد إرثهم المتبقي من المجوسية ، نيران سفوح الجبال ، حلقات هائمة ورقصات على ألسنة لهب الزرادشتية . طقوس سرية لزرادشت ونيران فارسية تعم جبال العراق . هذا الحقد الدفين منذ سقوط دولة المجوس يستمر بأشكال وألوان مختلفة . نحن أمام ابتلاع كبير . فتحة في أنبوب الخراء تريد ابتلاعنا إلى الأبد . الفرس يمسكون بنا أو يحاولون الإمساك بنا في جنوب العراق بعد أن أمسكونا في الشمال عبر رعاتهم . هناك لغز دفين من أجل قتل العروبة ، ولا مناص من قتل العراق لتنهض أمة زرادشت . نحن نعيش دوامة القتل ، دوامة الابتئاس ، دوامة الاحتمالات القائمة على إلغاء الذات . هذه الذات المفبركة التي يريد الآخرون نبشها ، ماهذا الحقد على شيئيتنا . هناك ثلاثة اضطرابات ذهنية تريد مسخنا من الحاضر . هل هي ثلاثة أو أربعة احتمالات ؟ إنها ليست احتمالات لفكرة مجردة ، إنما تأكيدات فظة ، تأكيدات حيثية وزمكانية ، الزمن كراقص ميثالوجي والمكان كبؤرة تسور ذوات الآخرين ، أما نحن ففي الوسط . كل الأشياء ضدنا . كل الأشياء ضد عروبتنا حتى التراب الكوني ، وحده الرب معنا وإن كان قد خذلنا في

بعض الأوقات . هل تسمع ياتموز نحيب العروبة ؟ هل تسمع الأموات عبر انتقالاتك وضجيج الأفاعي والعرابيد المتربصة بنا . من قال إن موسى كان عبرانيا . ومن قال إن اليهودية لم تكن عروبية حتى النخاع الهش . هل إبراهيم كان ثملا حقا وغارقاً في تناهي المكان ؟ نحن نكتشف سلاسل من الأمكنة والأزمنة المتداخلة . كلهم يكذبون في أغلفة الوقت والساعة والدقيقة . الثواني علقمية الطعم . الدم بصحبة الأعصاب كائن خرافي مليء بالعقد الذنبية . اشتهاء الوردة ليس كقضمها إنما المكان هو الذي يمارس تأثيثا ديالكتيكيا . القسمة الزمنية عارية من تأملات شخصية وطشت الغسل والرغبة الدفينة تملأ الفراغ الفيزيائي وكتلة التعجيل الأرضي . هذا هو الوتر في زاخو . هوذا تموز يسير أعرجَ فيما الحبيبة تداس في اروقة المعابد . الزمن يشتهي هو الآخر ، لكن ليس اشتهاء جنسيا إنما قضميا . الكل يقضمنا ، الغرب ، رجال الدين الذين كفروا حب العروبة ، العاهرات ، الأكراد ، الفرس ، وآخرون لا نعلمهم ، السيد فقط يعلمهم . إنني أتفجر كما حامض الكبريتيك المركز حينما تفض بكارته قطرة ماء عارية من الفهم . هاهي زاخو تشبه العاهرة الغالية الثمن ، بؤرة للانحطاط الأخلاقي والانحطاط الزمني . الشيئية في زاخو تفقد ستائرها الشفافة ، لكن الباراستن والأسايش يعيدون للعبودية أشياءها المفقودة . على سفوح زاخو ، وتحديدا في شوارعها ، ثمة التماس للسقوط ، للعهر السياسي الذي لم يسقطه حتى الرفاق في الحزب الشيوعي الكردستاني . الرفاق تائهون في كرديتهم وأمميتهم ، حائرون حتى في اسم حزبهم الأممي الذي يحمل اسما قوميا . لا أدري لم لم يكن هناك حزب شيوعي للعرب طالما أن للأكراد حزبهم الشيوعي الخاص . الرفاق يأكلون خراء الأرض ، براز النفايات الملقاة لهم من قبل جلال ومسعود وهم يبتسمون دائما ويقبلون

غائط الأحزاب الشوفينية . اللعنة على الاستلاب الضميري والمكان والزمان الخطأ . . في الفعل المضطرب ، بوابات الانفلات الخرائي تضرب أعناقهم الملتوية ، أعناقهم المشرئبة دائما لشغل المناصب والافتئات والعيش على ضروق الآخرين . الكلبية شيء متداخل مع الذات المعوزة ، اللوغوس والتمظهرات الذهنية متشابكة ، متداخلة ، متوارية في شبكة معقدة من الرغبات الذهنية والزمانية . ماهو ديالكتيك الكلبية ، ثم ما هو الشيء الروحي للاستلاب ورفع المؤخرات عاليا من أجل ممارسة جنسية كاملة . هناك رغبة دفينة ، رغبة متداخلة مع الروح بخصوص الانحناءات والتتنيح وكشف المؤخرة ، هذا القائم منذ الملكية وعبر كل العصور السياسية . الانتهازية عارمة ، الانتهازية شيء غير منته في فينومينولوجية الروح . المسافة البدئية بين الفكرة والروح والذات هي مسافة مموهة ونسبية . كشف المؤخرة على مصراعيها ومن ثم السماح بإدخال العضو ممارسة تنطوي على وجة نظر . والقيادات ، قياداتهم ، ليست إلا عبارة عن نسخ مشوهة للإنسان ، نسخ عائمة على بحر من السفسطائية والخرائية والكره للعروبة . ماهو التنائي الحاصل لهذه القيادات ؟ ماهي الشيئية التي تحرك غرائزهم الحيوانية باتجاه تحطيم شكل العروبة وذاتها المتلألئة . هناك اشتباهات ، هناك ثيمات وفايروسات حقدية ، فايروسات مرضية في الناقلات العصبية لهم تجعلهم يصفون أي كان بالشوفينية لمجرد أن تذكر العروبة . هم مستلبو الإرادة دائما ، تحركهم الشهوات والاعتداء على أعراض الرفيقات وشرفهم . نحن أمام هلوسة غريزية ماركسية ، هلوسة المأفون في فيومينولوجيا التقيؤ الفكري . في شقلاوة التقيت بسامي قبوط الذي كان يعيش أحلك ساعات حياته ، حيث كان جائعا جدا ولم يأكل طيلة يومين كاملين . كان ينام قبل ان التقيه في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي

العراقي في شقلاوة ، وكان يأكل جيدا هناك . في أحد الايام لبس سامي عقاله العربي وغترته ، فما كان من الرفاق أعضاء المكتب السياسي إلا أن حذروه من لبس العقال والغترة والدشداشة ، ثم اتهموه بالشوفينية . لم يستمر الحال طويلا حيث تم طرد سامي من مقر الحزب حينما أصر على ارتداء هذه الملابس . عاش سامي الذي هو ابن أخت شاعر شيوعي قديم يعيش في لندن ، أحلك أيام حياته بعد طرده من المقر . أمام الجوع قبل سامي قبوط أن أقدم له وجبة من الخبز التهمها على عجل ، وبعد ذلك أرسل له خاله الشيوعي مبلغا من المال تمكن بواسطته من السفر إلى زاخو وشراء كمية من علب السجائر لكي يبيعها في الطرقات ويحصل على بعض المال . هكذا تأمن لسامي لقمة عيشه في اضطراب زاخو . في بعض الأحيان كنت أدعو سامي لشرب استكانة شاي عابرة بصحبة رياض إبراهيم . كان سامي إنسانا مثقفا ، وكان يعمل سابقا مدرسا في البصرة قبل هروبه إلى شمال العراق والالتحاق بالمعارضة . بقي الحقد على سامي مشتعلا في رؤوس الرفاق أعضاء اللجنة المركزية والمكتب السياسي ؛ فحاولوا مرارا تخريب مشروعه للدخول إلى سوريا . في أيام البرد القارص كان سامي يلتحف معطفه الذي اشتراه من البالة ويجلس ليبيع سجائره الرطبة بفعل الأمطار والوقت الطويل الذي يقضيه في البرد . في أحيان كثيرة كنت أجلس معه لنتذكر الأيام السوداء والمرة التي صاحبت دخول الجيش إلى أربيل بصحبة أتباع مسعود . كنا نستذكر المغامرات المؤلمة ، وفي أحيان أخرى كان سامي يتذكر سواد الأيام في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، وكيف كان الرفاق يبتزون الرفيقات من أجل مضاجعتهن . كانت الرفيقات يستسلمن للرغبات الحيوانية للرفاق القادة خوفا من تحطيمهن أو اتهامهن بالعمالة لنظام صدام . روى سامي في

جلسات البرد وحول النار التي كان يوقدها في صفيحة متهرئة ، قصصا محزنة ومؤلمة ، قصصاً عن أنطلوجيا العهر السياسي والحقد على العروبة المتجذرة في عقول الرفاق . لم يفهم سامي ماعلاقة دشداشته وعقاله بالشوفينية ، رغم أن الرفاق الأكراد كانوا يلبسون شراويلهم وأزياءهم الكردية . كان مطلوبا من سامي الانسلاخ عن طبيعته وعروبته وكان هذا شيئا صعبا . في شقلاوة كان يعيش معنا أحد الأدباء العراقيين من الذين التحقوا بالمعارضة ، وبعد دخول الجيش العراقي إلى أربيل هرب وجاء إلى شقلاوة . كان هذا الأديب على علاقة ما بالحزب الشيوعي ، لم أفهم بشكل واضح طبيعة هذه العلاقة ولا مدياتها ، لكنه كان يزور مقرهم باستمرار ويجلب من هناك بعض الكتب أو الروايات النادرة الوجود في أربيل . حاولت في إحدى المرات استعارة هذه الكتب منه ، لكنه لم يكن يقبل إعارتي اياها ، لم أفكر في الموضوع طويلا . بعد دخول الجيش إلى أربيل وهروبي إلى شقلاوة فوجئت به هناك ، حيث كان ينام ويأكل في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . استطاع هذا الأديب في تلك المحنة المخيفة تأمين معيشته وثمن قناني الويسكي التي كان الحزب الشيوعي يدفعها له بامتنان . أثناء وجودنا في جريدة الاتحاد الأسبوعية والناطقة بالعربية والصادرة عن الاتحاد الوطني الكردستاني ، كان هذا الأديب مدافعا شرسا عن الفيدرالية . وفي جلسات السكر والعربدة في نادي المعلمين بصحبة مثقفين أكراد ، كان ينبري للدفاع عن الفيدرالية وانفصال الأكراد ، أضف إلى هذا كان يتهجم على العروبة . كنت في بعض الأحيان أزور النادي بدعوة من أحد الكتاب الأكراد أو بدعوة من قبل مستشار جلال طالباني للشؤون العشائرية . وكنت أشاهد أديبنا في تعتعات السكر وهو يبجل الكرد ويطعن في عروبة العراق ، ويصف الفكرة

القومية العربية بأنها فكرة شوفينية قذرة . كانت الكؤوس بعد كل صولة جـهـادية - من هذا الأديب في تفكيك العـراق وأن العـراق لـم يكن في تاريخه دولة أبدا - تدور ، وبعد انتهاء دروسه وحفلة التشريح المجانية هذه كان هذا الأديب ينحني ويلتهم أسياخ التكة والكباب في نهـم حيواني . كان الأدباء الكرد من الذين حضروا هذه الجلسات يستمتعون بكلام أديبنا وينتـشون حين يدغـدغ صاحـبنا مـشـاعـرهم الانفـصاليـة ومـشاعـرهم الزرادشتية ، ويؤجج نزعات الحقد على القذارة العربية حسب زعمه . كنت في أحيان كثيرة أنظر باستغراب واستنكار لهذا الأديب وهو يتملق مسؤول الإعلام ورئيس تحرير الجريدة من أجل وجبة طعام أو دعوة إلى الشرب . وفي أحيان كثيرة كان يدفع دعوة عشائه مقدما عبر مقالة تمجد الغرائز الكردية . كان هذا الأديب من سكنة مدينة كركوك ، وكان في الأصل من جنوب العراق قدم إلى كركوك واستولى على أحد بيوت الأكراد عنوة ، وكان بالإضافة إلى هذا ممجدا لصدام حسين ويعتبره إلها عبر مجموعة كبيرة من كتبه التي كتبها في مدحه . حالة غريبة جدا ، حيث لم أصادف في حياتي سابقا شخصا يكره العراق والعروبة بمثل هذا الشكل الغريب والعنيف ، كما لم أعرف سر هذا الانقلاب المفاجئ . كنت أتصور أنه ربما بسبب وجوده بين الأكراد الذين يستمتعون بكره العروبة والعراق ، ومن أجل حصوله على وجبات طعام وويسكي مجاني . لكن هذا الاعتقاد تبدل حينما كنا بمفردنا وبقي مصرا على حقارة العرب وشوفينيتهم وتشكيكه بالعراق . كان يدافع عن آرائه بشكل غريب ومذهل ، وحينما لم تنفع المناقشة معه تركته ولم أحاول الاصطدام معه مستقبلا . وجدت هذا الأديب أمامي حينما فررت من أربيل إلى شقلاوة ، وكانت النعمة بادية عليه بفعل الويسكي الاسكتلندي الذي كان الحزب الشيوعي العراقي

يدفع ثمنه من تبرعات الرفاق . بعد فترة من وجوده في مقر الحزب الشيوعي بصحبة عائلته ، استأجر غرفة في شقلاوة وأخذ الحزب الشيوعي يدفع له ثمن الإيجار مضافا إليه مصروف جيب وقنينة ويسكي كان يشاركه فيها في بعض الأحيان مفيد الجزائري .

في أمسية من أماسي شقلاوة ، جاء صاحبنا الأديب وقال إن الرفاق في الحزب الشيوعي العراقي يشكون في كوني مدسوساً من قبل المخابرات العراقية . كان الكذب والدسيسة بادين في عينيه ، وخمنت انه لعب دورا قذرا في محاولة إبعادي عن الحزب الشيوعي ليتسنى له وحده التمتع بالويسكي ووجبات اللحم المشوي ، وكذلك لتزكية الدخول إلى سوريا . شعرت بالبؤس أمام الانهمام البائس والسخيف وأخذت أعصابي تنشد اكثر والتوتر بدا واضحا على وجهي . كان الوقت يمضي سريعا ولم اعد أملك مالا كافيا . وأمام نقص المال هذا اضطررنا أنا وزوجتي أن نقلل من استهلاكنا للخبز إلى الحد الأدنى من أجل توفيره للأطفال . كان صاحبنا الأديب يأتيني بين مساء وآخر متخما بالويسكي ، واللحم المشوي عالق بين أسنانه ؛ ليقول لي إنه يبذل مابوسعه من أجل إصلاح ذات البين بيني وبين الحزب الشيوعي . وكنت أدرك جيدا أنه يكذب ، لا بل يزيد الأمور سوءا . في إحدى الأمسيات لم أعد أتحمل كذبه ، فطلبت منه التوقف عن إعادة طرح هذا الموضوع نهائيا . كان الجوع كافرا بكل معنى الكلمة ، وكان حزنا كبيرا بالنسبة لي أن يوجه لي هكذا اتهام ، خاصة أني لم أكتب للنظام أية قصة أو مقالة تمجده ، وكان بإمكاني أن أكتب وأن اتمتع بمزايا السلطة ، ومنها نقلي من جبهات القتال إلى جريدة القادسية في بغداد بدل الموت في الجبهات . كان هذا الطريق ، طريق تملق السلطة ، مسلكا بائسا لم أحبذ السير فيه . للأسف اكتشفت أني كنت مغفلا كبيرا ، وأني

كنت أعيش أحلاما فنطازية وغرائبية . لقد احتضن الحزب الشيوعي ، على سبيل المثال ، كل مرتزقة النظام من الأدباء الذين كتبوا للوحشية والدكتاتورية . أما الذين بقوا في صف الشعب وقاوموا كل مغريات الحياة ، فكانت حياتهم على الجبهتين ، المعارضة والنظام ، حياة سيئة ، وتعرضوا للتشهير والمحاربة والتسقيط . كان رياض إبراهيم حزينا من أجلي ، لكنني لم أكن حزينا من أجل نفسي ، لم أكن حزينا أمام صورة العهر السياسي والفكري وحرق الأصحاب من أجل (سيخ) تكة مشوي على جمر النميمة والدسيسة . كنا رياض وأنا نحاول أن نمضي بالأحلام نحو مديات أوسع . عناوين للتأمل كنا نرتبها بالتسلسل من أجل خلاص روحي ومعرفي وإنساني . كانت قصصاً ضائعة في البحث عن متون الأشياء حيث كنا نرتحل في سبخات الهوس الإلهي ونحن نرتقي جبل شقلاوة ، الذي يشبه قواداً بجثة ضخمة متمددا على فرج امراة شهوانية . ماهي الالتباسات التي كنا نغرق فيها ؟ لم نكن نعرف ولم تكن لدينا أجوبة للكثير من التساؤلات . أين السماء أيها الإله الرابض فوق شقلاوة ؟ في صباحات الوجد السماوي وأمام سماء صافية ، كنا نلتقي أنا ورياض ثم ننحدر نحو تخوم الاستلاب الذهني . تعرفنا في الطريق على نصابين كبار في المعارضة ، أحد هؤلاء يسمى بالقفاص ، فيما الآخر يدعى بـ حسن العبيدي أو أبو آية . وبالطبع فان الأسماء والألقاب كلها مزيفة . في شمال العراق لم أستعمل اسما مزيفا أو اسما حركيا . أبقيت على اسمي وكذلك فعل رياض إبراهيم . كنت أشعر أن تغيير الاسم هو موتي المحقق وأني أعيش باسمي فقط . ماالذي فقدناه في صباحات التظلم ؟ ماالذي خسرناه في رحلتنا المدوية؟ بؤس الأسئلة وبؤس الإجابة . ينتظرني رياض في الباحة الخارجية للفندق . نلتقي تحت سماء مروعة ثم نسير ارتفاعا

نحو جبل الإله . في الطريق المزدحم نسبيا نشاهد قدور اللبن الناصع ودجاج الوجبات الشهية يركض تحت أقدامنا البائسة . بيئة مثالية للنوم وبيئة مثالية للتمدد والاسترخاء وتأمل الوجع المزدهر . كانت شقلاوة مدينة ميتة الآن ، وأتذكر كيف كانت تعج بالحياة سابقا حينما كان المصطافون يأتونها من كل أنحاء العراق . في درب شقلاوة الرئيسي والمتجه نحو قمة الجبل ، وتحديدا في الوادي المسكون بهدوء البحار والعيون المائية ، تربض مكتبة عصرية ، كتب للذين لا يقرأون . دخلنا المكتبة المزدحمة بالكتب والقرطاسية ، كان انجذابنا للكتب مخبولا ، كأننا مصابون بعصاب مزمن ، غرقنا ساعة كاملة بين العناوين والأوراق والغبار ، وتذكرنا مكتبة أبو داود في شارع الرشيد .

عهر الاستلاب والجوع هو ذاته . مرة أخرى نلتقي مع فقرنا المادي ، فقرنا المزمن والمستمر . جوع القراءة يئن مولولا . أنا أعرف عشقك للورق ولحبر المطابع وللأغلفة الملونة ، وفي أحيان كثيرة للأسماء التي تمنحك رحلة سوداوية ومؤجلة إلى عوالم الخرافة . نقترب بطهرانية غريبة من الأغلفة ، بتموضعات ذاتية وكأننا نمتطي صهوة المجد المظفر . مع الاقتراب تتحرك فينا النوازع ، كريات مايسنر ، الهرمونات ، الانتحار البطيء ، غددنا اللمفاوية والميتة ، ماهيتنا . عصابنا الثنائي يجرجرنا مع اللوغوس نحو الموت العصي على الفهم . يحتفظ رياض بميلان كونديرا ولم أزل أحتفظ بغرف نصف مضاءة لموسى كريدي . في تلك المكتبة المجهولة التي لم يدخلها كردي ، أعدت اكتشاف عبد الستار ناصر ، العالم لعبة همجية والكون لعبة الإله الصغير الذي يلعب بنا دون اهتمام . هل كان الإله صغيرا في يوم ما وأنه مع تطور الزمن وسيرورته أصبح شائخا . في بعض الأحيان يعود الشيخ إلى صباه فيلعب بلعبته الكونية ، فتضطرب العلاقات وينزو

الاغنياء على الفقراء محطمين أغشية بكارتهم الملونة والفقيرة . فراشات النزو والاغتصاب تتموضع في الذات ، تحفر لها مسارب وملاجئ للوقاية من العادة السرية للإله اللاهي بالمصائر . لبن القدور الصغيرة يضيع في (الماستاو) والشنينة ، أما عريان السيد خلف فيتموضع في الجزء الشيئي من الذاكرة ، وتحديدا بالقرب من الغدة الصنوبرية حيث السمت أقرب إلى الموت . ماذا يفعل عريان السيد خلف في هاجس التذكر هذا . نجلس في مقهى عار من الدبق . في تيار الهواء الشمالي القادم من جهة الجبل ، نشرب استكانة الشاي الكردية ونفكر مليا في المكتبة التي غادرناها للتو . بعض الكتب لم نقرأها سابقا ، وشكل هذا بالنسبة لنا أمنيات مؤجلة ومؤلمة كوننا لانستطيع شراءها . اقترحنا على صاحب المكتبة أن يؤجر لنا كتبا فاستنكر الفكرة ، ورفسنا إلى الشارع الهمجي حيث الدجاج يركض تحت أرجلنا العارية ، وحيث قدور الماستاو تضيئ جوعنا المتوقد . في المقهى نتلذذ بطعم الشاي الحلو للغاية ، حيث يفضل الأكراد شربه على الطريقة الفارسية (الدشلمة) . ندور الملعقة الصغيرة ونفكر مبهورين في الدوائر الحلزونية للمتاهة التي نضيع فيها . بالقرب من المقهى تنتصب حسينية جديدة ، شيء غريب ومضحك ، حسينية في بلدة كل أهلها من السنة . أثارت الحسينية فينا قلق الفضول ، وعرفنا في يوم آخر من كاوة عامل الفندق وهو كردي فيلي ومقاتل سابق في قوات أنصار الحزب الشيوعي ، التي تركها بعدما شاهد تفجر الاغتصابات الجنسية في الحزب ، إن هذه الحسينية هي أحد مراكز المخابرات الإيرانية (الاطلاعات) . كان أعضاء الحسينية أو القائمون عليها عراقيين ، وفي أحد الأيام أرادوا الإيقاع بعميد ركن هارب من النظام ، فذهب هذا الأخير إلى مصيف صلاح الدين لكي يستنجد بجماعة مسعود الذين قالوا له ليس لنا دخل ، دبر نفسك

بمفردك . فهرب العميد الركن مع عائلته إلى زاخو .

في شمال العراق تنتشر هذه المراكز بشكل مخيف ، أضف إليها مراكز أخرى لمخابرات دول ثانية تحت مسميات المساعدات الإنسانية ، ومنها المخابرات الاسرائيلية التي تنتشر في كل الأمكنة وتقاد من مركزهم الرئيس في مصيف صلاح الدين ، أما في دهوك فيوجد أيضاً مركز آخر يستخدم للتجسس على العراق وسوريا . يضحك كاوة وهو يقول لنا كل هذه المعلومات التي هي ليست سرية بالنسبة له وللأكراد في المنطقة الذين يعرفون مركز الموساد الاسرائيلي والاطلاعات ، حيث يقوم الجهازان بتجنيد العناصر الكردية ودفعها إلى داخل العراق لغرض التجسس . بعد أن تركنا المقهى والمكتبة المقابلة للحسينية ، صعدنا حافات جبل شقلاوة . الجبل الذي يفيض بأشجار الكروم والجوز الأخضر وابتئاسنا . مررنا في طريقنا على مقر الحزب الشيوعي العراقي الذي يغيب في أجمة الأشجار ، ويعيش في هدوء عارم مع مراكز المخابرات الإيرانية والاسرائيلية . الصعود إلى الجبل يشبه رحلة الحج الطويلة . السناجب تتقافز على جذوع الأشجار والأغصان فيما البعوض والذباب حاضران أبديان في رحلتنا الجبلية . مياه كثيرة ومياه عارمة تتدفق من مسامات الجبل باتجاه الوادي . في تلك الفوضى الخضراء كانت أمنياتنا تنحصر في محاولات الهروب والدخول إلى سوريا . مع الارتقاء وتسلق الجبل ، تصطدم أرجلنا بشجيرات الكروم ، فيما خمر الكروم يفوح من البيوتات المنزوية والذائبة في الأجمة الشجرية . أين هي التمثلات المجنونة في رحلة حجنا تلك باتجاه القمة . لم نكن نعرف ولن يقيض لنا أن نفهم سر البتلات الوسنانة وأشجار الجوز الهائلة الحجم ، والتي تشبه أعضاء تناسلية ذكورية . في رحلت الحج هذه باتجاه مناطق الصقور العراقية ، يبتلعنا الوهج الحاد للنور ، الوهج الحاد

للشمس وهي تنسرب باتجاه قبلة المسلمين الأبدية في مكة . كنا نفكر في الطريق بصوت عال ، السفر ، الهروب ، الغثيان ، التأليه المستمر لذواتنا ، ومكتبة عائمة في بحر الخضرة المتوحشة . . أيام طويلة مرت علينا ونحن نكابد الوجع الذي يشبه وجع القبور ووجع البؤس والجوع قبل أن نترك شقلاوة إلى زاخو . البتلات الخضراء ، أشجار الحور ، النباتات المتسلقة على حياتنا الماضية . في الطريق إلى القمة توقفنا بعد أن شاهدنا أبو آية ، الذي دعانا إلى النزل الذي يسكن فيه . لم نعترض وتركنا الشارع الرئيسي واقتحمنا مسالك وردية اللون وخفية باتجاه المكان . بعد مسيرة نصف ساعة بين أجمات ملتهبة بالخضرة وصلنا النزل الذي كان عبارة عن منزل يؤدي إليه ممر حجري صغير وملتو مغطى بالطحالب والعليقات المتوجسة . كان إحساسي وأنا أنزلق في تلك الدروب الخفية عن الأعين ، أننا نذوب في روايات السحر الماورائي و الأجمات والأشجار والعليقات وذؤابات الفروع الصغيرة المتشابكة . أشياء كانت تتوهج سريعا بمجرد تعرضها للشمس ، لكنه سرعان ما ينطفئ ذلك التوهج حينما تمر غيمة عابرة لتحجب أشعة النور المنفلت والمتفجر . نسير بتمهل ونفض بكارة الأشجار والأمكنة ، وكأننا نمخر في يباب شاسع الامتداد . من أمام بوابة النزل الصغير كانت صقور عارمة تطوح في الأعالي بترانيم وجع مكتوم في الأنفس الغائمة . عصاب هستيري مائع في زرقة السماء واضطراب الفهم الفيزيائي للحدث . بعد دقائق من الانتظار أمام النزل دعانا أبو آية للدخول . كان المنزل الصغير جنة صغيرة أو فردوساً سماوياً يشبه القدس القديمة ، والنازلة من السماء باتجاه انثيلاتنا . هاهو الصقر ينشد أغنيات الرغبة الدفينة ، وها هي أنثى الصقر ترقص رقصة المضاجعات المؤاتية تحديا للسماء ولشياطينها . جلسنا داخل النزل الملائكي ، وكانت أم آية سحراً مجنوناً

عارماً يتلظى على جمر الاشتهاء الوسنان والهمجي . شهوة عارمة اجتاحت مفاصلي وشعرت بتنمل الخصية المتنامي يكتسحني . وقفت أم آية أمام رجولتي الكسيرة ، وفيما أنثى الصقر تطارد ذكرها ، كانت ذكورتي محل تساؤل خفي أمام التنمل الحاصل فيها . شربنا الشاي المعد على فحم الشواء ، وتبادل رياض وأبو آية حكايات الدروب السرية للتهريب ، أو الكلف الإجمالية مضروبة بالدولار الأمريكي ، أيضاً دار الحديث عن الدخول إلى سوريا بشكل رسمي ، وعن طريق كفالة أحدهم هناك . مر اسم محمد مظلوم الساكن في غوطة دمشق مرات عديدة . كان الحديث يستمر ، يتطاول ، ولم أكن أعبأ بما يجري . كانت عيناي لا تفارقان سوسنة الأودية ، الشارون ، المغنوليا ، النرجس المتلظي والسائر أمامي (كالتفاح بين شجر الوعي) كذلك أم آية تحت ظلها (اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي ، أدخلني إلى بيت الخمر وعلمه فوقي ، أسندوني بأقراص الزبيب ، أنعشوني بالتفاح) فأنا مريض لموضع البؤرة وشعر العانة وزغب الليالي السوداء المنتشر بين حقويها . كانت ايروتيكية أم آية تروح وتجيء أمامي مثل غصن يانع لشجرة تبيت في رمس الظلمة . عيناي تطاردان العطر الخفي للأنوثة ، فيما يداي ترتعشان للمس الاهتياج المتناثر في المكان . لم أفهم من الأحاديث شيئاً ، لم يصلني منها غير النزر القليل ، فيما الطقس السماوي المزين بأقداح الشاي يخيم على البؤرة الروحية لي . في تلك اللحظات المنزوعة من الزمن المر أتحول إلى شيء مائع ، ذائب ، مسرنم وضائع في أبدية الأشجار والضوء والعطر والأفخاذ التي تريد تمزيق الملابس . لم أعرف ولم أقل لرياض عن سر التسرنم هذا . هذه الكرازة والاقتراب من حافات العقل والحلم . الاقتراب من مساحة الرؤية الفعلية لممارسة جنسية معلقة على ستائر المكان والزمان . لم أقل لرياض عن

الشبق ، ولم أقل له عن الأحلام التي سفكت دمي المملوء بالهرمونات ، فيما أم آية تجلس بنزق الأنثى فوق جروحي وجروح جسدي . لم أعرف لماذا هذه الثورة الجنسية وهذه الأيروسية المدمرة التي حطت فوق شبقي فجأة ، فيما مصائرنا معلقة على حبال الوقت والانتظار والتوسل ، أو معلقة على عين أهورا مزدا وهو يدفع المياه الآسنة في الروح إلى الخروج . طاردتني الأحلام السيامية ولم أستطع غير مرة واحدة زيارة النزل بعد المرة السابقة . ابتدعت حججا مختلفة لزيارتهم ، للمس استكانة الشاي الملتهبة والتفجر الاكلينكي للعادة السرية ، وانفجار الحيمن في بؤرة الحدث الحلمي . نوع من الرهاب ، نوع من الشيزفرينيا ومن العصاب الوسواسي داهمني . ألق الاكتئاب لم أكن أعرفه بعد ، و لكن الهوس سيطر على ذهني ، تقدم بخطى واثقة نحو الذهن فيما اهورا مزدا لم يزل يلعب مع القرود والضوء المبهر لسماويته المتأنية . اشعاع من الابتئاس يدمر كل الحياة مرة واحدة . أثناء سيرنا شعرت بتورم الخصية ، وبعد أحلام متوالية شعرت بالبلل والرغبة في القذف ، فقذفت حياتي بأحاسيس الملامسات غير المؤاتية حينما تقدم استكانة الشاي ، فيصطدم الخنصر بالبنصر فتدب رعشة هيولية في جسمي المرهق من الاحتلامات الليلية المتوالية .

كانت ام آية شبحاً مسكوناً بملايين الغدد الصماء والنكراء . غدد التورم البروستاتي والناقلات العصبية . أنحني على استكانة الشاي ، أنتفض وأمتص شبق زهرة الرائحة التي يخلفها الخنصر والبنصر والإبهام والسبابة حينما تضغط أم آية إبهامك في انسيابية مذهلة . ما هذا الانسلال السحري لبظرها نحو متن حياتي الجافة والآيلة للركام والسقوط . لا سفر في الأفق المسدود والمغلق بمغاليق الاجتراحات المتعددة . لا موت هنا غير الموت الأول لفرجها الناري المشتعل مثل الفسفور الأبيض . هاهو

شذى فرجها الحامضي يغرق في الإفرازات المهبلية ويتطاير نحو انحناءات الذكورة . قال احدهم إنها كانت تدعو كل مسؤول في المعارضة إلى حفلة تنتهي دائما برقص وانبطاح عرضي على سياج النيران المشتعلة والمتورمة . بعد حفلة الرقص واحتساء قناني الويسكي (يخرط) المسؤول كل معلوماته السرية عن المعارضة إليها ، وتقوم هي بتسجيل هذه الاعترافات وتسلم إلى المنظومة الشمالية للاستخبارات . لم ينج مسؤول من سحرها . لم يبق مسؤول في المعارضة لم يمتص نهديها ويلحس بقايا الويسكي المدلوق على فرجها بثبات وتأن كبيرين . استطاعت أم آية أن تقيم لها شبكة واسعة من المخبرات ، وأن تضم لها أم أماني التي لا تقل عنها نزقا وعنفوانا جنسيا . لم يدخل مسؤول إلى المنطقة الشمالية ، لم يسهر في حفلات أم آية وأم أماني ، بمن فيهم أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ، وحزب المجلس الأعلى ، وأعضاء جماعة مسعود بارزاني . لا أعرف لم تحطمني المرأة المشاعية ، أتحطم مثل بلورة مسكينة حينما أقف إزاء القحبة ، أية قحبة . شبق متوال ، متتال ، متراص ، متدافع ، فوضوي . . ولد زرادشت في أتون النار وولدت أنا في عمق السماء الخالية من السائل السيبيائي .كانت الولادة عرضية ، حدثية بشكل رومانتيكي . حدث مثلوم الذاكرة ، فخرجت من العقل كما هو اهورا مزدا نحو آفاق مجهولة . . توسلت أصابعها التي تلمس بها الأعضاء الذكورية ، توسلت فمها الذي يمتص كل الانتعاض دفعة واحدة . توسلتها كي أقبلها وأمتصها بالرغم من أنها كانت هي التي تمتص أعضاء الذكورة في نهم شيطاني ، لكني سأمتصها جزءا جزءا . سنتمترا بعد آخر دون أن أستثني منها شيئا واحداً . في إحدى الليالي حلمت بأني أمتص خرائها الخارج من دبرها ، وكنت أغرق في الغائط فيما البراز على فمي . كنت أجفل مثل كلب

وأتشمم خرائها ثم ألحس انثيالات المماحكة الجنسية وهي تسيل من جوانب المهبل . لم أكتف بالغرق في الغائط ولم أكتف بالزهرة والسائل الحامضي الذي يبلل ما بين فتحة الدبر وفرجها . كنت أحلم من سريري بإشتهاء الخراء ، فكنت كلما أشم غائطا أشعر بتنمل خصيتي ، وتندفع صورتها أمامي في استحضار ذهني مشع وفوضوي . أكلنا الفالوذج في الحلم ثم أكلنا الغدد الصماء ، ثم امتصصت أصابع قدميها الراعشتين إصبعا بعد إصبع ، وحينما وصلت البظر صليت في محرابه رغم رائحة البول النبوية ، والتي أشعرتني بانثيال وإزاحة نحو حلم آخر ، حلم مبطن هو أيضاً برائحة غريبة فيما جدرانه من الأحماض الأمينية . كانت تجلس أمامي القرفصاء لتشعل الفحم ، ذئبة متوحشة ، عري كامل وسماوي ، حينها نهضت مرتعشا وإيري يكاد يفتق السروال . امتصصتها ثم توسلت أصابعها التي تلاعب أعضاء الرجال ، أن تؤخر رعشة خرائي المترافقة مع تنمل الخصية . قبلتها لفترة طويلة ، عميقة وشعرت بالرغبة في عضها ولم أتمالك نفسي حين اكتشفت أني الوك لحمها قطعة قطعة . كان شعرها المائل إلى الصفرة ، أرجوانياً الآن ويتناثر مثل وصايا الحكماء (لماذا تحجب وجهك وتحسبني عدوا لك) (لماذا تطاردونني كما الله ولا تشبعون من لحمي) . كنت أشعر بشيء خفي يدفعني لالتهامها ، شيء عميق ورغبة ذئبية في تمزيق لحمها قطعة قطعة ومن ثم التهامها . كان الوجه أمامي وشعرت بانتشاء كلبي فيما رأسها اختفى تحت بطني . كنت أرتعش من المطر المنهمر ، ولكن السماء صافية وغيمة واحدة فقط تشبه خيمة الاجتماع تظللنا . كان الرب يحمينا وأحسست برغبة عارمة في الصراخ أو في العواء . كانت هي تذوب فيما أسناني تصطك ، وحينما وصلت إلى عجيزتها ، رحت أتشمم دبرها ثم أتحسسه دون أن أعرف المسافات

والمساحات والمتوازيات والأضلاع المتأرجحة لقانون الموت والحلم . تناولت استكانة الشاي الثانية من يدها ثم تجرعته بصعوبة ، ثم عدت مرة أخرى للدم الفائر والمستوفز والمضطرب ، ورحت ألحس مثل كلب آثار الوجبة الشهية بلساني الذئبي . انتهت الوليمة ونظرت إلى عينيها ، ثم بحثت في المكان عن بيت الخلاء . أرشدني أبو آية إليه و كنت أقشعر من ملمس أصابعها ، وفي بيت الخلاء رحت أفتش بارتعاش عن برازها أو ما تبقى منه ، وحين وجدت بعض الآثار انكببت عليها بالبكاء والتمسح بها ثم التهامها . كنت آكل أشياءها مثل تين بري ، مثل بلحة تستطيل على الروح ، فأستطيل أنا أيضاً من بكائي . كانت ليلة غبية ، ليلة غريبة . حينما استفقت وجدت ذنبي مبلولا وفراشي مليئاً بالقيح والذي فيما عرقي يتصبب . جوع كبير كان يحطمني . تلتوي أمعائي ثم أهرب من الوجع نحو مساحات خالية من الشجر والبشر ، نحو صحراء عارمة . أهرب من الوجع المحفور أسفل بطني ، لكن الوجع لا يفارقني ، فأستمني حياتي كلها وأشاهدها تتبرز في موضع قبلتي وصلاتي ، فأستجيب لداعي السماء وأصلي على غائطها الملائكي والمعطر ، غائطها اللزج والمليئ بالأملاح وهرمونات التستوستيرون المهربة من الدم . كان النمل الأرجنتيني يحث الخطى لاستحصال أجزاء صغيرة من غائطها المقدس ، كنت أتعرف في تيه الصحراء و . . . ثم أركض أسبق النمل الذي لا يعرف أهمية ذلك البراز بالنسبة لي . لا يفهم أن هذا الخراء السماوي يشكل بالنسبة لي معبودا واحدا ، وحدة النموذج ووحدة العقل والعاقل والمعقول . يالها من تراتبية مفجعة ، تراتبية صماء وجرداء تنمو مثل الطحلب البحري على صفائح وجهي البلاستيكي . هرموناتي تذوب ، تتشتت ثم تنهمر مثل مطر قصديري نحو الأرض . أتنفس بقايا الخراء ، بقايا الجنادب الملتوية على

سيقانها على أنساخ اللوعة المفجوعة . أي نباتات وأطعمة مقدسة كانت تلتهمها ، فيغدو للخراء رائحة نبوية ، رائحة ملائكية . أحمل الخراء والبراز والغائط في راحة يدي ثم أستنطق هرمونات التستوستيرون . انتعض أيها النعل البلاستيكي الأسود المعاد . انتعض أيها البق البري في ساحة الطنين وشمعة متقدة وحيدة في بيت الخلاء . كانوا يدردشون عن السفر ، عن آخر حكاياه المؤلة والمضمخة باللوعة والاشتهاء الحيواني .

تركت الالتهاب اللغوي والعتمة المذهلة واللانهائية لأحاديث رياض وأبي آية ، لأغرق في سحر أم آية ، الذئبة البرية والمتوحشة وهي تنفث دخان السجائر على وجهي . كنت ألتهب ، أضطجع على مخيلتي الواهية . الجنون والموت ، العاصفة أو الرحمة القادمة من مجمع الآلهة . رحماك ياذا المتون ، رحماك ياغرانيقنا الشاهقة وأنت تتلين أخبار السماء على مسامعنا العاهرة . تجلس الذئبة البرية القرفصاء أمامي ، فأحاول استنباط ملامح فرجها الطاهر ، أحاول أن ألملم شعثي وخيالي . أستعين بالمنظور الأفقي والجانبي والأمامي للفرج ، انحناءاته والتواءاته ثم الخمر المسكوب على الشفاه المشتعلة بالشعر الأسود الداكن . أمنا مناة ، الرحمة بعبادك التائهين في شفاه المغاور والمفازات . هاهو الجب والشق ، أتلمس عمائي فيما الربة مناة تأخذ سحري وأصابعي لالتماس الشفرين الناتئين من أحازيز السروال المطاطي . أتذوق خراءك وأهرب إلى الجب حيث عظمة الغصن الممزوج بالبول . أين أنتن أيتها الإلهات في هذه الساعة العارمة . أتنفس دخان السجائر فيما نهض أبو آية وجاء بعد دقائق بقنينة عرق . كنت أغرق دون أن اشرب في وحول هزيمتي المنكرة . دارت الكؤوس فيما الذئبة تستوحش الناقلات العصبية التي لا تنقل إحساسي لها . أنزلق مرة أخرى إلى بيت خلاء النزل وأوقد الشمعة الموضوعة على رف معمول لهذا الغرض . أتكئ

على جدار الطهارة ثم أغرق في استمناء دموي إلى الا بد . الصمت في بيت الخلاء سماوي ، إلهي ، رباني . الشمعة الموضوعة على الرف تلتمس طهر المكان ، تلوح بالذبالة العاتية نحو سماوات العته والشوك البري والحشائش الملائكية . تقفز الجنادب المصدومة بالضوء وتحترق في الذبالة ، بضع ذبابات تائهة في وحشة المكان تنهار أمام الضوء . أتخيل الذئبة ، ألتمس المخيلة المنهكة أن تحوك صدف الصورة وتدمجها بالأحلام . أنحني على خاصرتي وأستفرغ مافي معدتي من عرق رخيص وقذر إلى حد الموت . بقيت في بيت الطهارة أكثر من نصف ساعة وأنا اتقيأ الخراء واللوعة . كانت صورة الذئبة تمزقني بسكاكين الرغبة الجامحة . كانت تسألني (دعوت شياطينك لاغتصابي ، ثم بم عرفت فرجي ، هل باللوعة أم بالتلمس أم بإدراك عقلي خالص ؟) جنادب الليل وضوء الشمعة وحشائش الجوار تلتئم كلها في موسيقى حادة . موسيقى ترتيلية وكأننا في جنازة بلا نهايات . كنت أتذكر سمفونيات الألم ، الأصوات الملائكية لموسيقى فاجنر وكاظم الساهر ثم أصوات الجوقة الموسيقية وأصوات المرددين . وحشة الليل كانت تغرقني فأبدأ اللحس بدءا من الصرة ونزولا إلى شعر العانة . كان شعر عانتها أشبه بحدائق نورانية يطل منها الرب في مشهد عاصف ومرعب . غابات سوداء كثيفة مطهمة برائحة البلل ، هل الجنة مصنوعة من شعر عانة النساء . هل الغابات السيبرية مثال حي لوحشة المكان . كان شعر عانتها ، ربانياً ، طهرياً . أنحني أكثر وألصق أنفي وشفتي على الشعر النابت بصرخات عالية : بنهم جنائزي ألتهم الشعر ، أجعل رؤوسه الحادة تنغرس عميقا في جفني وحنكي وفمي . أبحث في الغابة السوداء عن حبة البركة وعن سماوية اللحظة الهاربة . كنت في غرقي أسجل في الزمن مذكرات الجنوح نحو الاستطالة ، التثليث . لو

كنت الله لأعدت اغتصاب هذه المرأة عشرات المرات، مثل عبد افريقي قادم من أفريقيا العذراء نحو مداخل المدن الملهمة والوحشية. ينتعض البظر، يتمدد الشفران، يسترخي النهدان وتبرز الحلمات مستفزة ناتئة، مثل صرخة مريم العذراء حينما اغتصبها الرب في وحشة جبال فلسطين. أين أنت ايها الرب من رغبتك الدفينة باغتصاب عذرائي. تنزلق أرنبة أنفي عميقا في اللزوجة، في الطهر المرتعش ثم أنام على الوهاد المستفزة.. ثم أمزق حنجرتي بفعل صراخي الهائل بلا نهاية. كانت عواطف تخرج من الحمام متلفعة ببرنصها الأزرق الغامق، أما عيون الليل فكانت تنتشر على جسدها. كنت أختبئ تحت سماوات السلم في نهاية الرواق، بين الصالة وغرفة الطعام، مثل فأرة تنتظر الخروج المريمي للطهر من صحراء الحمام. كان الضوء القادم من الشارع هزيلا مصفرا ومتقيئا على الجوانب، وحينما أرتقي السلم كنت أنظر إلى الارتقاء فيما سواد كثيف يغطي مابين فخذيها. أهرب إلى عرش الله وأدخل الحمام بتلقائية القط، وعلى عجل أتشمم سروالها الداخلي. كانت الإفرازات المهبلية كثيفة وحامضة. وكنت أشعر باللزوجة في سروالي. كانت الرائحة متوهجة وتشبه رائحة البخور، وحمض نفاذ لم اكتشف سره إلا بعد سنين طويلة، لكن الرائحة بقيت عالقة في الذهن. قداسة السروال الداخلي كانت تطاردني في الأحلام. أشياء كثيرة تفر مع تلك الروئ. أحلام وكوابيس سوداء مطهمة مثل أحصنة الغبش السماوي. أمتطي أسرجة فضفاضة ثم أحلق مع سروالها الداخلي في رحلة تشبه رحلة محمد مع البراق إلى السماوات السبع. كان الفرق بيني وبين محمد أن أحلامي حقيقية فيما أحلام محمد كانت عبارة عن وهم ممض وصادر عن ذاكرة متعبة وسادية وماسوشية وهي ترى العذاب في النار. كنت أبكي وفيما السروال أمامي

حقيقة أبدية ، وفي غالب الأحيان كنت أتنشق رائحة الالتهابات القمرية المزمنة ثم أنهار باكيا بعد ممارسة استمناء مضطربة خوفا من أن تقحتم جدتي الحمام فتشاهدني أتشمم السروال ، وأبكي في عري متوحش فيما المني يلتصق بالحائط في كتل ضوئية باهرة . كنت أتمدد على الأرضية لأحلم بفرجها عاري الذهن ومستفزاً غالبا . مع رائحة البول الذي عشقته ،كنت أحلم بشفريها وأحلم بالبقعة السوداء بين فخذيها وهي تتسلق السلم . كنت أشاهد حتى مهبلها الرطب واللزج دون أن أعرف من أين ياتي هذا التواصل العقلي والاجتياح الشعري لشعر عانتها . كنت اجثو على الركبة في صلاة طويلة ، صلاة مستمرة مثل صلاة الصوفي في محراب الفرج . أتلو تراتيلي وأقرا أوراد الرغبة التي تحطمني وتنثر أحشائي الملتهبة على الأرض . يوم مجنون ، ليلية قمرية قادمة من تخوم الذاكرة . لم اعرف استهلالات القمر ، لكنني عرفت دورته الملثومة بالدم . كنت أبحث عندما لا تستحم في ماء الله ، في النفايات عن (السانتي) الغارق بدم الدورة الشهرية . وحينما أجد واحدا كنت أخفيه وراء ظهري وأهرول به إلى خلف سكة القطار ، حيث كنت أدفن هناك كل المحارم النسائية التابع لها . في كثير من الأحيان أو دائما كنت آخذه إلى المخبأ في أوقات الظهيرة ، وحينما يأخذ الناس قيلولتهم ، لأنشر قطع السانتي وأدرس كل خيوط الدم المتناثر على اللفائف ، وحينما تصل درجة الحرارة لما فوق الخمسين ، كنت أتشمم الدم القلوي وأرتعش من شدة البرودة التي تضرب جسمي كله من قمة الرأس وحتى الساقين .

تجلس أم آية تداعب خصلات شعرها . أتلصص من فتحة هاربة من الباب . ادخن سجائري في المرحاض وأتحطم في هروب متصل . أخذوا ينادون علي ، فاطفأت السجارة على عجل ، واقتحمني الهواء حينما

فتحت الباب . كانت الفوانيس موقدة . خط من ضوء يمتزج مع الليل وأصوات الحشرات والعليقات الداكنة في الأعلى . من الجهة المقابلة ينتصب جبل شقلاوة في دكنة مرعبة ، وفي الجهة المقابلة ينحدر الوادي أكثر نحو الظلام . اقترح أبو آية أن نتصل بأصدقاء في سورية لإيجاد حل لمشكلتنا ووافقنا رغم اليأس . في اليوم التالي شربنا الشاي الداكن في انبهار النهار ووجه أم آية يرسم ملامح الزمن الغادي . أعدت في فترة شرب الشاي ترتيب أحلامي ، ، الليلة الداكنة مع الضوء المرتعش للفوانيس . أطراف أصابعها وهي تدس الخدر في سبابتي وإبهامي . اللوعة الهاربة والخانقة مثل المكان ، الغصص المرتفعة إلى الحلقوم . انتهينا من شرب الشاي ، وحينما هممنا بالذهاب ، خرج أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي من غرفة قصية في المنزل وهو بسرواله الداخلي .

رحلة سريعة إلى زاخو

كان رياض وطيلة طريق السفر إلى زاخو ، كئيبا ، صامتاً . كنا نسافر الآن لنستكشف الوضع في زاخو قبل أن نأخذ عوائلنا . . في الطريق لم نتحدث إلا بأشياء سخيفة وقليلة واكتفينا بالتدخين . كان خروج عضو المكتب السياسي من الغرفة القصية ، وهو بسرواله الداخلي ، قد شكل لي صدمة مدوية بالرغم من سرعته ، وبالرغم من أني كنت أعرف أن محفل أم آية كان ضاجا بالمناضلين وقناني العرق والويسكي المشترى من أموال المخابرات الأمريكية وتبرعات أبناء الخايبة . كانت الصورة توخز ذهني وكأنها دبوس شيطاني . فتحت النافذة وبصقت على الجبال والتاريخ المشرف كله . كانت السيارة تسير بعجالة كبيرة وتقطع الطريق المائلة ثم تنحدر تدريجيا نحو سهل كبير يقع بعد شقلاوة . نظرت إلى الخلف ، فقط كتلة من الأشجار بين انثيالين حجريين كبيرين . أين النزل الذي يضيع الآن فيما وجه أم آية يرتعش أمامي ، وكأنما كنت أضاجعها مثلي مثل الرفاق بقوة عشرة رجال أو أقبل فرجها فترتعش ملتوية ، فيما أنفي ينزلق في متاهات الإفرازات الدبقة . التقينا قبل سفرنا إلى زاخو بساعات

بجماعة الخلاص الوطني . كان مسؤولهم يحاول هو أيضاً الاتصال بسوريا وترتيب أمر دخولهم . علمنا منهم أنهم منشقون عن الحركة أو أن الحركة هي التي انشقت عنهم . كان أبو إبراهيم ، وهو مسؤول هذه الجماعة الآن ، ضابطا سابقا في الجيش العراقي ، والذين معه كانوا أيضاً ضباطا سابقين ، كان محمد كاواني مسؤول الحركة (الرسمي) قد تآمر عليهم وتم إيداعهم السجن بتنسيق مباشر مع جلال الطالباني ليستولي على القيادة ، ويقود أكبر عملية احتيال بالتعاون مع طالباني لابتزاز عز الدين الجيد وإيهامه بأنه يقوم بعمليات داخل العراق ، ويقبض الأموال لتنزل في حساباته الخاصة . وبالطبع فإن النسبة الكبيرة كانت لجلال طالباني . كان رياض وبعد وصوله إلى أربيل قد انضم إلى الحركة ، وكان من المقرر أن يكون مسؤولها الإعلامي ، لكن دخول الجيش السريع خرب كل شيء . التقى رياض بأبي إبراهيم الذي خرج من السجن بعد هروب جماعة الاتحاد من أربيل كأنهم فئران ضاحكة ، ثم التحقت به مجموعته التي كانت مجموعة رائعة ومنسجمة فيما بينها ، إذ إنها كانت تؤمن بالتسلسل العسكري ، وكان أبو إبراهيم هو أكبرهم رتبة . . بعد أن عرفني رياض على أبي إبراهيم عرض الأخير علي مساعدتنا للوصول إلى سوريا ، فوافقنا بسرعة . وبالفعل وضعوا أسماءنا في قوائمهم ، واقترح أبو إبراهيم أن يسافر مندوبه معنا إلى زاخو ليقوم بإرسال القائمة من هناك إلى السوريين . كانت المجموعة قد بذلت جهودا قبل لقائنا بهم للدخول ، لكن المحاولات الأولى فشلت ، وهاهم يحاولون الآن مرة أخرى . سلمنا على المجموعة وتصافحنا معهم ثم غادرنا إلى زاخو بعد ساعة بصحبة المندوب . كان الطريق طويلا ويمتاز بمنحنيات كثيرة ومتعرجة ، بعد ذلك وصلنا إلى السهل المنبسط حيث الإغفاءات المتوالية لطيور مهاجرة لم نعرف تسمياتها ، بالرغم من أننا

حاولنا . كان السهل شاسعا للغاية ، وعلى جانبه الأيمن تنتصب سلسلة جبلية عملاقة رائعة . أخذت أفكر في أن هذا المكان يصلح أن يكون مكانا للوحدة والتصوف والتفكير في الله . في السكون الصباحي والشمس ، ووفق مواقيت غير معروفة ، تتفجر من أكواخ بعيدة خيوط براقة لدخان أبيض شبحي . لم نستطع ممارسة الأحلام . الهدوء متناثر مثل طين بري غير مشكل بعد . كان إحساسنا أن الرب قد غير اتجاهات الرمس والموت ، وغير كل شيء في هذا الكون إلى الأبد . في الطريق اقتربنا إلى مسافة بعيدة نسبيا من شارع يوصل إلى سيطرة حكومية . قال السائق هذا ، فشعرنا بهلع ورعب كبيرين . كل شيء كان ممكنا . كنا نفكر بأنه ربما كان السائق مخبرا أو عميلا لجماعة النظام وأنه سوف يسلمنا اليهم لقاء مبلغ من المال كما يفعل الأكراد عادة . أخذت أدخن بشراهة وكانت السجائر تنفد بسرعة مذهلة من علبتي ، خاصة أننا لم نكن نملك سلاحا لنقاوم به فيما إذا ما حاول السائق تسليمنا أو أن تكون نقطة سيطرة حكومية نصبت على عجل . رياض في تلك اللحظات كان مستسلما على مايبدو إلى أحلام مغايرة ، لم يكن يشعر بالقلق مثلي . عندما استدار السائق بسيارته إلى جهة الشمال مبتعدا عن الطريق القريب من السيطرة الحكومية وباتجاه الجبل ، شعرت براحة عميقة ، واستطعت التخلص من الأفكار الجهنمية التي تسلطت علي . كان كل شيء ممكنا في هذه الأمكنة السرية . وشخصيا لم أستبعد أية نميمة أو خيانة أو سمسرة ممكنة . أخذت اشعر الآن بأمان أكبر لكن جسدي تحول إلى جثة مرتعشة ، كل شيء في جسمي كان يهتز لكن وجهي بقي صامتا وراكدا مثل بركة مائية صامتة . كنت أشعر بالاستسلام وقتها إلى المصير الكائن على مقربة . لكن مع اقترابنا من الجبل تحررت من الارتعاش ، واستطعت امتصاص سيجارتي

بهدوء وانتصار أكبر . صرت الآن أمارس أحلامي بشكل أكثر سلاسة . وبعد ساعة من الصمت تكلم المندوب بخفوت عن بعض الأشياء غير المتصلة . لم أستوعب في البدء ما قال فأعاد تكرار حديثه . كان يتكلم في تلك الفسحة الضيقة عن محاولة اغتيال أبي إبراهيم من قبل الموساد الاسرائيلي . شعرت بصدمة للحديث ، وكان الموضوع مفاجئا لي لا بل شكل صدمة بالغة . هاهي السوسنة البرية تشتعل ، لماذا أرادوا اغتيال أبي ابراهيم ، ثم كيف تؤاتيهم الجرأة بأن يتحركوا على أرضك . أوقدت شعلة الجمر ، الجمر الخائف والمرتعش . حلاوة الأشياء فاقدة الطعم . فنجان قهوة بيروتية ضائع في السهول الملائكية . هاهي الحكاية تتفجر مثل كيس من الهيلوم . يركض أبو إبراهيم في حلبة الركض . إنسان متسارع مع اللحظة . أصبت بالذهول ، كلمة الموساد حطمتني ، أشعرتني بالخزي والعار كون الحدث كان يجري فيما أنا في المدينة ، في أربيل . ابتهالات الخيانة وابتهالات العمالة والسفالة . يمتص المندوب نفسا عميقا . هكذا هي الحكاية ، أراد الموساد اغتياله . كانوا يريدون أن يعمل معهم وأن يبدأ بتشكيل تنظيم تابع لهم يمد يده إلى بغداد للتجسس والاتصال بضباط الجيش العراقي . لم يكتف الموساد بالأجهزة المسيرة من قبلهم ، مثل جهاز الباراستن التابع لمسعود وجهاز زانياري التابع لجلال طالباني ، وكانوا يريدون تشكيل أجهزة وتنظيمات جديدة . كان الأكراد أو تنظيمات الزانياري والباراستن تمد أذرعها الاخطبوطية في جميع أرجاء العراق ، وتعتمد على الأكراد الموجودين في بغداد وباقي أجزاء العراق في الحصول على المعلومات المطلوبة من الموساد . كانت المعلومات تصل بسرعة ودقة عاليتين ، وقد درب الموساد الكثير من المسؤولين الأكراد على طرق الاتصال والتجنيد ، وأصبح كل من زانياري والباراستن أذرع الموساد الطويلة والقوية

والمنشرة في كل أرجاء العراق . كان هدف الموساد بشكل كبير يتحدد بهدفين ؛ الأول ، الإطاحة بصدام حسين ، أما الثاني فكان الحصول على معلومات دقيقة عن التسلح العراقي واتفاقيات التعاون العسكري مع الدول العربية ، كذلك تقييم قدرات التصنيع العسكري وكشف خطط الإنتاج العسكري . كان الموساد يريد من أبي إبراهيم العمل معه ، وحينما رفض ، وهو الضابط العراقي ، ضربوه بمسدساتهم وبإطلاقات العوزي وبأيد كردية ، بعد ذلك اعتقله جهاز الزانياري التابع لجلال وتم دفنه في معتقلاتهم السرية . كنت مبهورا لحديث المندوب ، وشعرت بالحقد يتفجر من وجهي وأنا اسمع تراتيل الحكايا المريرة ، ومنها أن النزل الذي يقيم فيه أبو آية مع رائعته يقع مقابل مركز للموساد ، والذي يبعد أمتارا عن مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، وأمتارا أخرى عن مركز الاطلاعات الإيرانية . أية خرائيات تتموج في الذهن المعطوب . تنام مقرات الخيانة جنبا إلى جنب في تآلفات غريبة . شعرت بقشعريرة دامية . السوسنات البرية المنتشرة على جوانب الطريق تموت من اللعنة ، من الدنس ، من القذارة المذهلة وهي تنداح على أرضك أيها الرافديني المندهش من هول الصدمة . ها هي أقدامهم أمامك ، خلفك ، فوقك ، يدوسون الأرض المليئة بالشهداء . ها هو الوطء القذر للأرض يعلن انبثاقه ، رقصة الأرض التي ترتعش في انبلاج البحر والزنبقات البحرية تموت على أرض الرافدين . كيف كنا ننام ، كيف نمنا فيما الموساد على مبعدة أمتار منا . ياللهول ، لم أكن أتصور أن يشاركني في أرضي زائر غريب وملعون ، يشاركني التربة والهواء ووحشة الأزهار البرية . ها هي السوسنات تلفظني مثل عاهرة نحو متون الاشتباهات . ألم تحس بوجع الأرض ؟ ألم تحس بالهمسات والزفرات والآهات ؟ لم تكن ابن الأرض الناعب المشتهى ، المتريث ،

الصامت ، المرتعش ، الرحمن ، الرحيم على ذرات تربتي . بلى يا قشرة الأرض . بلى أيتها الأشجار السامقة . بلى يا دفلة الرغبات المؤجلة وغير المعلنة . بلى يا أشجار الجوز . بلى أيتها السمانات الهاربة من أمام عيني . لقد نمت وغفوت واستهلكتني الأحلام ولم أعرف أن فوق أرضي مجوسياً وصهيونياً يردد تراتيل الموت وتراتيل الاشتهاء الشبقي للأرض . آسف أيتها الأرض والزهرات وطائر السمان القلق والمرتبك . هاهي عصافير الوجع تهزني فأعتذر منك أيتها الطيور الحزينة ، وأيتها الأرض ، وأعدك أنها لن تتكرر ، لن تتكرر نجاسة الأنجاس وهم يلوثون ترابك ببرازهم ويتغوطون على هذه الأرض المليئة بالشهداء ، الأرض المتخمة بالدم العبق والملائكي ، الدم المقدس وهو ينزف من قلب مقاتل ليسيل بين الوهاد ، بين الصخر ، بين التوحد في لحظة الموت والتوحد في التصاق الدم بالصخر والتراب ، بالامتصاص بجذور العليقات البرية وأشجار الجوز السحري . هذا الدم المتبل بالعطر يمتلك وحدانية الروح . ثمة روح خفية فيه ، بين كريات الدم الحمر والبيض ، بين البلازما وصفائح الدم ، بين المستقبلات والرافضات ، شبه ابتهالات للدم وهي تراه يسيح ، يسير ، يتمدد ، يتمظهر ، ينفلت ، يتوهج ، يتمرد على ذاته وعلى انطفائه ، فيشتعل أكثر رفضا للانطفاء الهمجي . التراب يشعر ، يرتعش تحت سيلان الدم . قطرات الدم تلتصق ضمن قانون اللزوجة بجزيئات المطر والتراب . الأقنية السرية للنرجسات البرية تمتص عطر الدم ، تمتص ليونة التربة المشبعة بالطهارة وهي تتدفق في تموجات هائمة بلا حدود غير حدود الدفق . ماذا تقرأ الصخرة في عرس التوحد هذا ، في الانبهار الأسطوري والضوئي للدم حينما يقترب خيطه من الصخرة فترتعش ثم سرعان مايجذب قانون اللزوجة الدم إلى الصخرة في توحد غريب ، توحد ملائكي ، رباني ، إلهي . في اللحظة الشعرية

لغانيات المعبد وهن يرتلن أناشيد سومرية وبابلية لأنكيدو المجروح ولكلكامش المكلوم . ها هو الجرح ، قداسة الفراشات وإلهية السيلان العارم للدم المتوحش والإنساني في الوقت ذاته . دم الجندي وهو ينظر إلى جرحه والى تقمصات الدم ، ثم يسمع صوت دمه وصوت التراب وصوت الامتزاج والشهوة العارمة . الأرض تستمني الدم فيما هو يرتعش لطهارته السماوية وفي انبثاقه الملتهب والفوضوي . هكذا ينظر الجندي في متاهة الموت نحو أبديته الدموية . الدم ، العِرق ، العرق ، التلذذ بطعم السماوات العبق ، السحر ، الصمت والارتباك الأولي لدخول عوالم جديدة مبهرة متأملة . التماهي بين الدم والصخر والتراب ، وأشجار الدفلة واللوز والنرجس البري . السوسنات وطائر السماني الهارب من مغارات الخيانة الكردية الاسرائيلية إلى متون وسفوح الجبال البابلية والسومرية والآشورية . الطين المتشرب بالدم تكتسب صفائحه الدموية طعم حامض الكبريتيك المكز ومذاقه . يمتلك الدم روحاً ليمنحها للأرض المنتشية والنائحة والباكية من نجاسة العصابات . الأرض المشربة بالسائل الفوضوي الأحمر تترشح بالخجل ، بالحمرة المتلألئة على وجهها البلوري والقمري . الوجه المتموضع خلف متاريس الاستشهاد وحفره العميقة في الأرض . المواضع الشقية ، الربايا ، الأسلحة الملائكية حيث يقف كل ملاك خلف سلاح يحركه ، أما الجندي فواجبه الاستشهاد ، الذوبان في الأرض ، في الخطوط الملتهبة بالنار ، بالمواضع الشقية وأرتال الزكه والزكه المفرد والانفتاح على المعركة والصولة . هاهي ابتهالات الأرض مرحبة بقديسها الملائكي حيث تنتظر الملائكة قرب رأس الجندي بانتظار انتهاء النزف ، بهروب آخر وأروع نقطة دم لتلتصق بالأرض ، تنحفر فيها ، تمزقها ، توحدها ، تباركها . هوذا الأمين ، الروح ، جبريل ، يقرأ أناشيده بكل اللغات على روح جندينا ،

على الأرض العراقية المقدسة . هوذا ميكائيل يمطر عقب المعركة ريحه وعاصفته ورماله وصخره ومطره . ماذا تقولين أيتها الزهرات وأنت ترتعشين في سيلان الدم ، الطهر الميازبي ، في الأتون الجهنمي ، الأتون الموقد في قعر الرغبة والاشتهاء . الامتصاص المتراجع ، الامتصاص الفيزيقي ، حتى الآلهة تنظر إليك أيها الشهيد ، تنظر إلى دمك برعب وبنظرات غريبة ملؤها الخوف . كيف إذن يطأ الغرباء أرضك ؟ كيف ترتطم العليقات بسيقانهم . عليقاتنا الغريقة والمتشربة بالدم الميكائيلي والاسرافيلي . آه منكن أيتها العاهرات اللواتي يبكين فروجهن في حومة حامض الكبريتيك المركز وهو يتحلل ليكون فلزات حمضية على الأرض . التشققات ، الوهم ، الاستعادة ، الدم يرتعش ، الشهيد النازف يرتعش ، السماء ترتجف ، حجر البازلت الذي صنع منه كلكامش تماثيل الصقور والآلهة ومعبد الدم . الدم المسفوك منذ ألآف السنين دفاعا عن الأرض . طائر القبج يغفو على بريق سماوي والسماء تغفو على تأوهات الجندي الشهيد . هوذا دمه يهرق ، يسفح ، يتمدد ، يتطاول ، لكن الأنجاس يدوسونه بأرجلهم . أين أنت يا إسرافيل أيها الإله المقدس ، إجلب معك مجموعة الآلهة لنباركك في معبد روحي هائم بلا جدران ولا سقف من الإسمنت ، إنما جدران من الأثل وسقف من الحشائش البرية . أمتص زهرة التورد ، أتنشق عطر الشهادة المتوهج مثل كوكب الزهرة السماوي ، أضيع في حزن شفيف ، حزن متتال حينما سمعت بالإسرائيليين هنا . أية اضطرابات عشتها ، أية موسيقى مرتبكة تتلبسني أيها القوادون . انتبهوا لصرخة الدم ولارتعاشة ونحيب التربة والحجر والأثل ، والصفصاف البري ، وشجر اللوز الغافي في تهويمات أجران الرغبة الدموية . (ارجعي ياعشتار ، ارجعي فننظر إليك) هكذا هم يردونك ياعشتار من أجل حفلة عهر جديدة . أرتعش ، أتلظى ،

تنتقل إلي برودة قمم الجبال . أي ملمس خشن وصوت مقزز يقفز إلى أذني . الموساد كان على مبعدة خطوات مني . يا لعنة الرب ، كنت أنام غارقا في ملكوت الأحلام فيما الطهر يدنس . بكيت في السيارة تحت نوبة حزن محطم ، ارتعشت ، تلجلجت في الكلام وطلبت من آلهة العراقيين أن تمنحني القوة ، أن تمنحني صباحات مليئة بأزهار القداح المتوحش على فرج الزنبق البيروتي ، نابتا في دير القمر وعلى الضفاف الغافية لدجلة عند الفجر . لماذا لا تحركين ساكنا أيتها الآلهة المقدسة حينما رأيت الموساد برفقة الدخلاء الكرد يدوسون دم ابنك . آلهتهم الملعونة ، آلهتهم المصنوعة من خشب الدردار فيما آلهتنا مصنوعة من دم الجندي الشهيد ، النابت كالصوان فوق ربيئات الابتهالات السماوية . ها هو رسول الآلهة ميكائيل أمام جبل الخيانات مصاب بالاكتئاب المزمن ، أما إسرافيل فمصاب بدوره بالرعب من الافتئات على الدم ، من فض بكارة الدم السائح والسائل مثل زيت بابلي على صفحة من الصخر . لا تعميد اليوم اذهبوا أيها الفريسيون ، لا ارتعاشات لمرأى الخيانة وهي تقدم بركاتها إلى الأدنياء والمحتلين . ماذا أيتها الأرض المرتعشة في إغفاءات السطوح المتلجلجة في بحر الموت . ها أنت تداسين بجزمات الموساد والأكراد الذين يحتلون شمال العراق ، الموساد الذي يريد افتضاض بكارتك العائمة على بحر التحريمات المقدسة . كنت أنام فيما كنت ترتعشين ، تتقلبين في تيهك السماوي ، تيه غائم بأجنحة الموت والافتضاض النهم لقداستك المضطربة . إحساسك بالافتضاض يتضاعف ، يستصرخ الدم ويستصرخ الضمائر النائحة وهي تفتح أذرعها للاشتهاء الخياني ، للاشتهاء المجبول على تقبيل أيور الموساد . ها هم يلوكون خراء الخيانة ، يلوكون صفد الدم وصفائحه الدموية . أما أنت أيها المسربل بالأنا العالية ، بالليغانية ، فكنت تغرق في صفد العرق الناتئ

من فخذ أم آية وهي ترتعش تحتك على ضوء الفوانيس . كنت مثل الكلب حينما تمتطي صهوة المجد ، الأثل ، الصوان ، البرقوق ، اللوز المقشر ، التفاحة المتوهجة وفرجها يبتلع نعليك والوادي المقدس طوى . هاهي الخيانات مثل عاهرة الحيدر خانة ، تلوك إيرك في امتصاص الشهوة وفي امتصاص الغيم الاثل على مربط الاحتران الفظ . يتكلم المندوب وأسمع أنا في دوران الجبل الأصم ، الدروب الشوهاء وهي تنحني ذات اليمين وذات الشمال في توصيف غريب وأبدي . وصلنا إلى دهوك وجسمي لم يزل يرتعش مثل من مسته نوبة برد قاتلة . لا اشتهاءات ولا انثيالات ولا أحلام غير دهشة القرب من الموساد التي حطمتني . كان هذا القرب مخيفا لي وأداة لتفجر أشياء جديدة في ذهني . ومن هذه الأشياء أني شعرت بالندم الحقيقي من هروبي إلى شمال العراق ، حيث أبناء القحبة رؤساء الأحزاب المعارضة يقيمون صلاتهم ويتمسحون بمؤخرات الموساد . كانت تنداح في ذهني وأنا أخطو أولى الخطوات في دهوك ، توسلات الكردي بعنصر الموساد أن يعمل في خدمته ، فيما شلومو يرفضه ويرفسه لأنه ليس برشاقة الكلاب البوليسية . يرمي شلومو العظمة في تدريب أبدي ويركض الكردي سريعا مهرولا لالتقاطها ، يضحك شلومو من لهاث مسعود وجلال ، الكل . . . البائسين وهم يهزون أذنابهم فرحا ويلحسون نعلك ياشلومو . أبناء العهر والغواني والقوادون الغافون على قبة المرأة العارية في ابتهاج السديم . تتكرر اللعبة في متواليات عددية ، متواليات طقوس اللحس والتمرغل تحت قدم شلومو . فيما الأخير يضحك ضحكاته الكبيرة والموسادية . إلى متى سوف تبقون كلابي المخلصة . يلوي مسعود وجلال رقابهم ويهزون أذنابهم ، إلى آبد الآبدين أيها السيد نبقى خدمك المطيعين ونقبل تراب رجليك طالما تقتل العرب والتركمان والآشوريين . نسير في

طرقات دهوك ثم ندخل الطرقات الملتوية للسوق . رائحة الكباب كانت مثل وحش خرافي وهو يهاجمنا من كل الأماكن . المطاعم في كل الأرجاء وجوعنا كان مذهلا ومحطما للقلب . دعانا مندوب أبي إبراهيم إلى أحد المطاعم ، أصبت بالذهول من الدعوة . كانت في الحقيقة شيئاً خرافياً ، كيف سأكل اللحم بعد أن ودعته منذ ما يقارب الأسبوعين . دخلنا المطعم وكنت أشعر بالارتباك ، حيث لم أكن أعرف ما أريد ، في النهاية طلبنا قلية موصلية وقوزي الشام . وحينما وصل الطعام كنت ضائعا وتائها ، ولم أستطع إخفاء جوعي القاتل . فأكلت كل شيء أمامي . أعادت لي هذه الوجبة بعضا من توازني النفسي ، ولم أكن أعرف السبب الحقيقي سواء أكان بإطفاء الجوع أم بسبب اللحم . في تلك اللحظات تذكرت ، ويبدو أن الدماغ قد استعاد عافيته ، نصيف الناصري وعلي السوداني وأيام الجوع المشابهة في الأردن ، حين كان الحصول على سندويج فلافل هو قمة الأماني ، أما اللحم فقد غادرنا وقتها إلى غير رجعة .

خرجنا من المطعم ودخلنا احد المقاهي حيث استمتعنا بشرب الشاي خاصة بعد وجبة عظيمة . اتفقنا بعد شرب الشاي أن نواصل السفر إلى زاخو ، وبصعوبة عرفنا الطريق إلى كراج النقليات . كانت دهوك مدينة أكثر برجوازية من مدينة أربيل الفلاحية ، التي هي عبارة عن قرية كبيرة . دهوك كانت واضحة العمران ، وكانت واضحة فيها لمسات النظام الذي جعلها مدينة كبيرة ومترامية الأطراف ، وذلك بجلب الأكراد من القرى للسكن فيها . كانت هذه الزيارة هي الثالثة لهذه المدينة ، أما الزيارة الأولى فكانت قبل عشرين عاما أو أكثر بقليل ، وذلك حينما زرناها كوفد كشفي قادم من مدينة الموصل ، حيث كان معسكرنا الكشفي في الغابات الموصلية . كانت

دهوك وقتها عبارة عن شارع واحد يزحم فيه كل شيء . من باعة الكالات وحتى باعة الباقلاء ، مرورا بفصائل علي شيش وهي تقطع الشوارع وخلفها صبيان بعصي صغيرة . لقد أذهلتني دهوك الآن بشوارعها ومنازلها ، وخاصة منازل قادة البشمركة الفخمة على الطراز الصدامي . أثناء سيرنا باتجاه الكراج صادفتنا مكتبة ، فشعرنا بنوع من الجنون حيث لم ننتظر ودخلناها وعيوننا تقرأ كل شيء . كانت الكتب الموجودة وكلها بالعربية تمتد على رفوف طويلة ، ولم نلاحظ أية كتب جديدة باستثناء كتب دار المدى . وعلى العموم ، فحتى بغداد أصبحت فيها الكتب الجديدة ومن اصدار العراق شيئاً نادر الحدوث بسبب الحصار الكلب . كانت أسعار الكتب في هذه المكتبة مرتفعة ولا أعرف السبب ، وربما كان هذا بسبب إفلاسنا . شعرت بالأسف كوني لا أستطيع شراء أي كتاب ، خاصة أننا نعيش منذ فترة بلا قراءة ، عكس إسماعيل شاكر الذي كان يوفر له مفيد الجزائري آخر ماتنشره دور الكتب في بيروت ، ودار المدى بشكل خاص ، وبطل ويسكي مقابل ان يكتب في جريدتهم . غادرنا المكتبة ونحن في حالة نفسية سيئة واتجهنا إلى كراج النقليات . في الطريق التقينا بأحد الأشخاص الذي عرفنا عليه مندوب أبي إبراهيم ، وكان اسمه (أبو سيف) ويعمل في المؤتمر الوطني العراقي . كان أبو سيف مقيما في دهوك أو أنه الآن مقيم في دهوك ، وفي أحد فنادقها . دعانا إلى شرب الشاي وذهبنا بالفعل إلى مقهى قريب . بعد أن جلسنا في المقهى قال مندوب أبي إبراهيم إن أبا سيف احد كوادر المؤتمر الشريفة والمغضوب عليهم ، وهو موسوعة كاملة عن المعارضة العراقية ، بالإضافة إلى أنه يعيش في شمال العراق منذ فترة طويلة . استفسر مندوب أبي إبراهيم عن أحوال سوريا وعن أحوال الأصدقاء هناك ، كذلك استفسر عن طرق دخول سوريا ، وأننا

هنا عالقون ولم نستطع الحصول على الموافقة السورية حتى الآن . اوضح أبو سيف أن الدخول إلى سوريا الآن صعب ، لكنه سوف يساعدنا ويتصل بالعميد محمد منصورة على الجانب السوري ويطلب منه إدخالنا . شعرت أنا ، ومن خلال حديث أبو سيف الواثق ، أنه سوف يحصل لنا بالفعل على الموافقة السورية . وحتى وإن لم نحصل قال معقبا فإنه يستطيع تدبير دخولنا بطريقة (القجغ) التهريب . فعلا بدت الآفاق أمامي مفتوحة ، واتفقت مع أبي سيف أنه من الضروري أن نلتقي مستقبلا . بابتسامة متواضعة وخجولة أكد أبو سيف حتمية لقاءات قادمة . في الطريق التقيت بالشاعر محمد البدري . كان وضعه بائسا تماما ، وكان بالكاد يتكلم ، وقد وصل لتوه من الموصل . فرح بنا محمد كثيرا ، وطيلة الطريق المؤدي إلى كراج النقليات كانت أحاديثنا تنتقل من جانب إلى جانب ونحن نستذكر أصدقاءنا في الموصل . عرفت من محمد أنه قد طلق كولالة نوري ، وكان هذا شيئا مؤسفا ، ولم يقل لي لماذا انتهت علاقتهما بهذا الشكل السريع . حينما وصلنا إلى الكراج ودعت محمد الذي كان يفكر بالسفر إلى مصيف صلاح الدين ، ومن الكراج أخذنا سيارة الكوستر إلى زاخو . في الطريق كانت الأحاديث السابقة عن الموساد ، لم تزل تدور في ذهني . ماهي خطط الموساد ثم ما علاقة الحزب الشيوعي العراقي بها ، وأيضا لماذا يستقر مكتب الموساد بالقرب من مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . أحاديث كثيرة ، ومنها كذلك عن طبيعة العلاقة بين مسعود وجلال من جهة ، وبين الموساد الذي كان قبل اجتياح الجيش العراقي لأربيل يقوم بأكبر عملية تهويد للأكراد ، ونقلهم بالتعاون مع جلال ومسعود إلى اسرائيل . كان جهاز الباراستن وجهاز الزانياري هي الأجهزة الأكثر ارتباطا بالموساد ، حيث بنى الموساد أجهزة هذين الحزبين ودرب الكثير من الكوادر

الكردية على عمليات المخابرات وبالارتباط به ، حيث يجلب الأكراد المعلومات ويقوم الموساد بتحليلها ، ناهيك عن قيام الموساد وبواسطة الأكراد ، بالاتصال بالعديد من قيادات صدام حسين ، وقد تمت عمليات ناجحة . كان المسؤولون العراقيون يعتقدون انهم يتعاملون مع المعارضة ولا يعرفون أنهم كانوا يعملون لصالح الموساد الإسرائيلي . سألت مندوب أبي إبراهيم إن كان المواطنون الأكراد يعرفون أنهم يتعاملون مع الموساد ، فقال إن كل أهل شقلاوة يعرفون مكتب الموساد في صلاح الدين ، حيث مقر قيادة مسعود ، كما يعرفون مكتب شقلاوة الذي يقوم بتجنيدهم بسهولة أو أحيانا بترهيب من قبل جماعة مسعود . يضحك مندوب أبي إبراهيم ويقول فقط أنت الذي لا تعرف ، أما الأكراد وحتى الطفل الصغير فهم يعرفون المكتب ويعرفون ضباطه ، وهم على علاقة طيبة بهم . كان هذا الشيء يدعو إلى القرف والتقيؤ . إذ كيف تنفلت الأمور على هذا الشكل ، لكنني استرجعت تاريخ أعوان مسعود وجلال في ذهني ، ووجدت أن التعامل مع اسرائيل مسألة طبيعية ولاينظر الكردي اليها على أنها فعل خياني . إذ يُعدّ الموساد صديقهم ، وهم محقون في هذا ، فقد بذل الموساد جهودا حثيثة في بناء كوادر جماعة مسعود وجلال ، لا بل إن المسألة تأخذ أبعادا أخرى وهي أن السبب الحقيقي لاستمرار الأكراد في حملهم السلاح هو إشغال العراق واستنزافه ، وأنهم يعرفون أن هذا فقط هو دورهم ، وكلا الطرفين راغب في لعب هذا الدور ، الموساد كسيد والأكراد كعبيد أو كلاب حراسة وعض ونهش دون إماتة الضحية . لقد علم مسعود وجلال وباقي قادة الأحزاب الكردية مواطنيهم على الخيانة ، وأصبح الإنسان الكردي عبارة عن خائن بالسليقة ، والسبب أنه يرى قادته وهم يجمعون أموال الخيانة ويكدسونها في البنوك الخارجية ، فولد هذا عند المواطن

الكردي اللاانتماء ، ليس للوطن العراقي فقط إنما لما يسمى بكردستان ، حيث يهرب كل يوم العشرات من الأكراد إلى المنافي وهم لا يحلمون بالعودة أبدا إلى قراهم . كنت أستغرب هذا الزخم على الهروب ، وكنت أتساءل لماذا أصبح الكردي مشروع هجرة دائمة ، فيما لا تحكمه الآن سلطة صدام إنما سلطة الأحزاب الكردية . سألت مندوب أبي إبراهيم إن كان الحزب الشيوعي يعرف بمقر الموساد القريب من مقر اللجنة المركزية ، فهز رأسه بالإيجاب ، ثم أردف أن لديهم علاقة بهم ، لا بل إن جزءاً كبيراً من تمويل الحزب هو من مصادر الموساد . . تذكرت في تلك اللحظة حادثة مضحكة تتعلق بهذا الحزب عندما أوقف عضويته في قيادة المؤتمر الوطني بحجة التمويل المشبوه (الأمريكي) للمؤتمر . شعرت بضحكة تتصاعد من جوفي ، ضحكة كبيرة ارتسمت على وجهي . لا إراديا ابتسم مندوب أبي إبراهيم هو الآخر . وبقينا ننظر إلى الطريق الموصل إلى زاخو . كان الطريق مليئا بالربايا العسكرية التي تركتها الدولة واحتلتها عصابات مسعود . لم يتغير شيء على الإطلاق ، كل ما هناك أن الدولة انسحبت ليشغل مكانها أتباع مسعود وجلال ، وبقيت المظاهر المسلحة وأشكال الحرب لتشي لك ولتقول إن شيئا لم يتغير ، وسيظل الأكراد يعيشون وهما خرافيا بالسلام . أخذ المندوب يتحدث لنا عن تفاصيل عمل المعارضة العراقية ليكشف لنا حجم التورط الذي دخل فيه قادة المعارضة في خيانة الوطن . كان الباراستن ورجاله يعتقدون ، وهم على صحة مما يعتقدون به ، أنه طالما الإنسان كان معارضا لصدام فإنه من المؤكد أن يتعاون مع إسرائيل . كانت تلك حقيقة وشيئاً أثبت صحته ، إذ عمل مع الموساد غالبية قادة المعارضة ، وعملوا بالتنسيق مع الإسرائيليين على بناء خطوط تجسس داخل العراق ، تنطلق من مقرهم الرئيس في محافظة دهوك الواقعة ضمن منطقة مسعود

بارزاني . كان من الأشياء المضحكة أنه إذا علم الكردي أنك لا تعمل مع جهاز مخابرات معين ، فإنه يفرح ويطلب منك أن تعمل معه ، فالجهاز الذي ينتمي اليه يدفع أكثر وله امتيازات أفضل من بقية الأجهزة الأخرى . كان الجميع يعمل في الأجهزة المخابراتية المختلفة والمنتشرة بكثرة ، وكان هناك تفاخر بين الأكراد عن أي من الأجهزة أفضل . كان ملا رزكار الساكن في روناكي ، على سبيل المثال ، يستقبل الضيوف في داره ، وبعد أن يشرب الجميع الشاي وتبتدىء حفلة التدخين ، التي يشترك فيها الصغار الذين لاتتجاوز أعمارهم خمس سنوات ، تبدأ الاحاديث (الشيقة) ويروي كل واحد منهم مأثره في الحصول على المعلومات وبكم باعها ، وفي النهاية يساعد الأشخاص الذين لديهم كم هائل من المعلومات الأشخاص الذين معلوماتهم بسيطة ، من باب المساعدة في الحصول على مورد مالي أكثر . كان كل شيخ عشيرة يجلس في صدر الصالة متكئا على يمناه ، ويتفاخر أمام زواره بأنه يتعامل مع أكثر من جهة ، وهذا العمل لدى أكثر من جهة كان يمنح شيخ العشيرة أو كبير العائلة احتراما متزايدا من لدن زواره . كان هذا مقرفا لكنه هنا يكتسب معاني جديدة ، معاني غاية في الاختلاف ، حيث يقشعر بدنك حينما تعرف أن هذا الشخص أو ذاك يعمل كجاسوس ، الكلمة المرعبة التي تقترن دائما في الذهن بالجواسيس الذين تم إعدامهم في ساحة التحرير في سبعينات القرن الماضي . كل شيء ممكن ، كل شيء جائز ، لكن أن تكون جاسوسا فهذا يعني الموت الإنساني والأخلاقي والروحي . دائما ترتبط الخيانة في ذهني بحادثة اغتصاب الأم ، إنها شيء مشابه تماما لهذا . لذا فإن أبناء القحبة الذين عملوا كجواسيس كلهم خانوا أمهاتهم ، وكلهم اغتصبوا أمهاتهم ، وليس بالضرورة الأم الفسيولوجية إنما الأم المعنوية

-الأرض أو الوطن . أمام كثرة الخيانات والعمالة والتجسس المنتشرة في شمال الوطن ، أصبح التجسس شيئا عاديا للغاية يمارسه الجميع مثل الأكل والشرب وتدخين السجائر والنكاح . يقول مندوب أبي إبراهيم ، إنها عمليات نكاح مزدوج ، نكاح متصل له بداية وليست له نهاية ، وكل إنسان في الشمال ينكح الآخر ، أما الناكح الأكبر الذي ينيك الجميع فهو المخابرات الاسرائيلية والأمريكية والبريطانية والإيرانية . الاحزاب الكردية هنا عبارة عن قواد كبير ، أما الضحية فهو الإنسان الكردي المستلب الإرادة ، والغارق في زحام المؤامرات الكبيرة والمخططات الشيطانية .

دائما في شمال العراق يحلو للأكراد في جلساتهم الخاصة أن يضعوا مسعود ضمن نطاق المخابرات الأمريكية ، أما جلال فيضعونه ضمن نطاق المخابرات البريطانية . وبالاضافة إلى هذا ، فهنا يحلو للجميع أن يفسر أي شيء بعلاقة الصراع بين المخابرات البريطانية والأمريكية ، وحتى لو كان هذا يتعلق بصراع مجموعتين من أجل قحبة . في إحدى الجلسات في بيت أحد الأغوات ، قلت للآغا إن هذا غير صحيح ، وأن ليس هناك صراع بين البريطانيين والأمريكان ، فقال لي الآغا بعد أن صفن بوجهي دقائق ، كاك سلاح أنت جديد على المنطقة . شعرت بالحيرة وأردت أن أوضح أكثر ، لكن الآغا انشغل بتنظيف مسدسه البكرة ، وشرب استكانة الشاي التي جاءت بها زوجته والتي كان يناديها بالقحبة . فوجئت في البداية من صيغة النداء هذه ، وتصورت أن زوجة الآغا سوف تضربه بالنعال على رأسه ، لكنها انسحبت دون أن تقول شيئا . ومع مرور الأيام اكتشفت أن هذا شيء عادي للغاية ، إذ غالبا ماينادي الكردي زوجته أو ابنته بالقحبة . ظللت ساكتا في هذه الجلسة ولم أعقب على ماقاله الآغا ، إذ إني كنت أعرف ان الكردي حينما يقال له من قبل مسؤوله أو شيخ عشيرته إن هذه

الصخرة قنفذ فسيظل يؤمن طيلة حياته بأن هذه الصخرة قنفذ ، وليست هناك قوة في العالم يمكن لها أن تغير ما آمن به ، وربما يستمر هذا الايمان إلى أبد الآبدين ، وليس مستبعدا إنما مؤكد أن هذا الايمان يبقى ينتقل من جيل إلى جيل ، حتى يحدث الله أمرا كان مفعولا . هذا الايمان الخرافي هو مشكلة كبيرة وهو يواجهنا في كركوك ، التي يدعي الأكراد عائديتها لهم ، أو يواجهنا في مايسمى بكردستان حيث يؤمن الأكراد أن كردستان كانت في يوم ما دولة واحدة ، ولم أفلح في إيجاد تلك الدولة بالرغم من أني قلبت العديد من الكتب في مكتبة أربيل المركزية ، ومكتبة زاخو المركزية أيضا . مما لا شك فيه ، في خصوص كركوك وعائديتها إلى الأكراد ، أن أحدهم قد أقنع الملا مصطفى بأن كركوك كردية ، وهو بدوره قال للأكراد إن كركوك كردية . وبهذا الشكل آمن الأكراد أن كركوك كردية ، بالرغم من أنهم لم يسكنوا كركوك إلا في ثلاثينات القرن الماضي ، وبدافع العمل في الحقول النفطية الناشئة حديثا وقتذاك . أتذكر هنا إحدى المحاورات التي جرت بين وفد الحزب الديمقراطي الكردستاني برئاسة ملا مصطفى البارزاني ووفد الحكومة العراقية ، حينما قال الملا مصطفى إن كركوك كردية ، فسأله أحد أعضاء الوفد الحكومي عن دليله على كردية كركوك ، وهل هناك على سبيل المثال آثار تدل على كردية كركوك ؟ فقال البارزاني مرة أخرى كركوك كردية دون أن يبين الأسباب التي دعت إلى كردية كركوك ، وظل البارزاني طوال جلسة المفاوضات يقول إن كركوك كردية هكذا ، دون أن يبين لماذا كركوك كردية . وهو لن يستطيع في الواقع أن يقول لماذا كركوك كردية ، وذلك لأن المخابرات الأجنبية ، وتحديدا الإسرائيلية والأمريكية ، قالت له إن كركوك كردية ، وظل يؤمن حتى آخر يوم في حياته بكردية كركوك . لا أحاول هنا تبيان أسباب عدم كردية

كركوك ، ولكن ما أردت قوله إن الكثير من الأشياء التي يؤمن بها الأكراد هي عبارة عن أوهام يريدون تصديقها ، ولا يفتحون عيونهم على الحقائق التي تفند الكثير مما يؤمنون به . كان أحد الذين تعرفت عليهم في شمال العراق ، وهو من الذين سبقوني في الوصول إلى شمال العراق ، يقول لي حينما كنا نتحادث حول عقلية الكردي ، إن الكردي إنسان قطيعي ، بمعنى أنه لا يستطيع أن يعيش بدون أن يكون فوق رأسه شيخ أو آغا لقيادته . هكذا هو منذ أن كان وسيبقى إلى أمد غير منظور ، يقاد من الشيخ إلى المهالك دون أن يكون قادرا على التفكير واتخاذ قراره . كان صاحبي هذا قد عاشر الأكراد لمدة طويلة ، وعمل وهو العربي ضمن قوات جلال الطالباني ، وتعرف بشكل دقيق على شخصية الكردي ، وعلى المآسي والمهالك التي دفع فيها القادة الأكراد أتباعهم إلى الموت ، دون أن يستطيع هؤلاء الأتباع محاسبة المسؤولين عن أفعالهم .

في أثناء لقائي بأحد اليزيديين من أتباع العميد نجيب الصالحي ، والذي كان ضابطا سابقا في الجيش العراقي ، سألت هذا الشخص بعد أن تكررت زيارتي له وتوثقت العلاقة بيننا ، عن سر إيمان الأكراد بأن كردستان كانت واحدة وكردية كركوك . ضحك هذا الضابط السابق وقال إن هناك مبشراً أوربياً وعلى الأرجح أن جنسيته بريطانية ، ومن الذين كانوا يمارسون التنصير أيام الدولة العثمانية ، هذا المبشر كان يحمل أفكاراً استعمارية بريطانية ، ويبيت السوء للدولة العثمانية . أقنع هذا المبشر أغوات الأكراد أن يطالبوا بالانفصال ، وأقنعهم بأن كردستان كانت بلدا موحدا ، وأن الفرس والعثمانيين احتلوها وقسموها بينهم . دفع هذا المبشر الأموال الكثيرة للأكراد وقاموا هم من جهتهم ببث أفكار هذا المبشر بين أتباعهم ، وبعد ذلك بدأت المشاكل والمطالبات بالانفصال عن جسد الدولة

العثمانية . وبالإضافة إلى هذا المبشر البريطاني ، كانت هناك جهود روسيا القيصرية في محاولاتها الانتصار على الدولة العثمانية ، حيث أخذت تبث بين القبائل الكردية الدعايات عن كردستان وضرورة الانفصال ، وكان الروس يبغون ضم المناطق التي تسمى كردستان الآن إلى أملاك الدولة الروسية . وحسب هذا الضابط ، فإن جهودا وأموالا وأسلحة كثيرة تم توزيعها على الأكراد من أجل إشعال الثورة ضد الحكم العثماني . منذ ذلك اليوم ، أصبح الإيمان بكردستان شيئاً مبهراً للكردي ، وأصبح الأكراد مقتنعين أن كردستان دولة تم تقسيمها بين العثمانيين والفرس ، والمشكلة أن مسألة إقناعهم بهذه الكذبة أصبح شيئا مستحيلا ، وهم من جهتهم يؤمنون بما يقوله قادتهم الذين يتاجرون بهذه الكذبة ، التي يعرفون مسبقا أنها مجرد كذبة لا أكثر ولا أقل . لقد لعب الروس لعبتهم القذرة ، ولعب البريطانيون ، ومن ثم الأمريكان بعد ذلك ، أدواراً قذرة من أجل التأثير على الدول التي يوجد فيها الأكراد ولمصالحهم الخاصة . يستمر صديقي اليزيدي ليصل إلى أن يشرح لي أن الأكراد ليسوا إلا عبارة عن خليط من مجموعة أقوام فارسية وهندية وأرمنية وعربية ، وإذا لاحظت ، والكلام لم يزل لصاحبي ، أن أشكال الكرد تختلف عن بعضها البعض ، ويمكن تمييز المجموعات العرقية المختلفة بكل سهولة ، ناهيك عن الاختلاف اللغوي ، والكردية ليست لغة واحدة إنما لغات ، ولا يمكن في كل الأحوال أن نقول لهجات كردية لأنه ليست هناك لغة واحدة ، والأكراد وأنا باعتباري أعيش في هذه المنطقة ، والتي ولدت فيها أيضاً ، أعرف بحكم أني أتكلم اللغة الكردية ، أن لكل لغة اسمها ، فهناك الزازا والبهديناني والسوراني ، وأيضاً توجد أربع لغات أخرى . لا يمكن في كل الأحوال حتى أن نقول لغات كردية ، وذلك لأن كل لغة تختلف عن الأخرى اختلاف الصينية عن

العربية . الأصح أن نقول اللغة البهدينانية واللغة السورانية واللغة الزازية والخانقينية وهكذا . تذكرت هنا ، وفيما كان صاحبي يشرح لي هذه الخريطة اللغوية المتشعبة ، التي كنا نغفلها في بغداد وباقي العراق ، أحلام منصور ، الأديبة الكردية والإنسانة الرائعة ، التي كانت تحمل هما متواصلا هو الهم اللغوي ، إذ كانت تعتقد أن اللغة الخانقينية هي الكردية الأجدى بالتدريس في الجامعات العراقية ، وأن هناك خطأ كبيراً ارتكب باعتبار السورانية هي اللغة الأولى .

كان صاحبي اليزيدي موسوعة كبيرة ومتابعاً لما يجري على الساحة الكردية . سألته عن حقيقة المقولة التي تتحدث عن أصل الأكراد أو عن وجودهم في العراق الشمالي . فقال إنه اهتم بهذا الأمر بشكل مكثف فيما مضى ، وتابع تلك المقولات التي تقال أو التي يروجها جلال الطالباني من أن الأكراد هم أحفاد الميديين . أتصدق هذا ، إنهم تائهون ، هم أنفسهم يعرفون أنهم ليسوا أحفاد الميديين ، هم يقولون هذا لإيجاد مبرر تاريخي على أنهم أصلاء في تواجدهم في العراق . هم ليسوا ميديين ، تلك الأقوام التي أشادت حضارة فيما مضى . لاحظ معي أنهم كل يوم يقولون في إعلامهم أنهم أتباع جماعة معينة . وبالفعل ، فقد لاحظت في أربيل قبل اجتياح الجيش العراقي لها ، الكثير من المقالات المختلفة التي تبحث في أصل الأكراد . مرة قالوا إنهم سومريون ، ومرة أخرى قالوا إنهم ميديون ، ومرة ثالثة قالوا إن اصلهم يرجع إلى النبي سليمان ، وهكذا دواليك . لقد بهرت من هذا التيه المرجعي في الأصول . ابتسم صاحبي وقال : شيء جيد أنك تابعت هذه المقالات لكنها لا شيء . هم لا يعرفون أصلهم ، لكنهم بحاجة إلى أن يثبتوا أنهم أصلاء في المنطقة . يجب عليك أن تلاحظ أن العديد من الجبال لم تزل تسميتها آشورية ، كما أن المعابد

الآشورية والبابلية لم تزل قائمة كما في قلعة أربيل ، حيث القلعة التي تتوسط أربيل ، والتي هي معبد للآلهة عشتار . الخلاصة أنهم ليسوا أصلاء في المنطقة وأنهم وافدون اليها . لقد أبادوا قرى آشورية بالكامل ، وقضوا على أصحاب الأرض الحقيقيين . هكذا هو ديدنهم ، يأتون بعشائرهم ثم يسكنون بالقرب من القرية الآشورية ، وبمرور الزمن ، يزيحون أصحاب الأرض ثم يستولون على الأرض . أما البشر من الآشوريين فإما أن يقتلوا أو يرحلوا . هكذا احتلوا مساحات هائلة من الأرض . الآشوريون والكلدان بطبيعتهم أناس حضاريون ودعاة سلام . لقد حدثت مجازر عديدة واستولت العشائر الكردية على الكثير من القرى بالقوة . خذ شقلاوة ، على سبيل المثال ، حيث لم يكن يسكنها من الأكراد إلا العدد البسيط الذي لم يكن يتجاوز في كل الأحوال سوى ١٢٪ من السكان ، أما الغالبية فكانوا من الآشوريين والكلدان . وبفعل الزحف الكردي والاعتداءات المتواصلة على السكان الأصليين ، فإن أعدادهم تقلصت في المدينة وأصبحت الغالبية من الأكراد . وبالرغم من النسبة القليلة الآن من الآشوريين وتكريد المدينة بالكامل ، فإن الزحف الكردي الطامح على الاستيلاء على المدينة لم يتوقف ، ولم تزل عمليات القتل واختطاف النساء الآشوريات يجري على قدم وساق في محاولة لتكريد المدينة بالكامل . عند التطلع إلى خارطة المنطقة الشمالية ، يمكنك فعلا الانتباه إلى الكثير من الأسماء الآشورية للأمكنة التي لم يجر تغييرها بعد ، أما السكان الأصليون فقد هجروا منها إلى المنافي خارج العراق ، كما أن نسبة كبيرة منهم نزحت واستقرت في بغداد وباقي المدن الأخرى هروبا من اضطهاد الأكراد واعتداءاتهم . الشيء نفسه حصل مع مدينة كركوك . اليوم وبفعل الدعاية السياسية ، يؤمن الأكراد بشيء اسمه كردستان ، ولن

تجد شخصا واحداً يقول للأكراد : أيها الأكراد توقفوا عن الحلم الكاذب والخديعة . لقد شاهدت شخصيا إيمان الكردي بخارطته وبكردستان ، ولم أناقش أي كردي بخصوص هذا الموضوع ، إذ إني أدرك مدى حساسيتة ، ويمكن متى ماحاولت إفهام الكردي ، أن يقتلك دون إحساس بتأنيب الضمير . لقد دفع الشعب الكردي العشرات من الضحايا لوهم وتسلية المستشرقين من الغربيين والروس . .

عدت مرة ثانية إلى أحلام الكردي . صيغة إجابة الضابط السابق اليزيدي حلقت بي في مجاهل الكردي الذي يهفو في أحلامه ، يتماهى في ذاته . الاعتوار والشبق لذات متمثلة في الواقع هو مايبحث فيه الكردي . كان دلاور ابن الشيخ تحسين واحداً من الكرد الذين ترعرعوا في الحلم - الوهم - . كان يتماهى في صورة الجبال والوديان ، يتماهى في تلاحق أحلامه . في إحدى المرات في مصيف صلاح الدين وفيما كنا ننتظر أبا ابراهيم ، قال دلاور وبدون مقدمات ، إن جده كان صقرا يحلق فوق قمم الجبال وإنهم انحدروا من هذا الجد ، الطوطم . في تلك المحادثة قال دلاور إنه أراد تجريب الطيران ، التحليق كما فعل جده ، لكنه وقع على الأرض الصلبة وانكسر مفصله . بقي دلاور يتحدث ، فيما كنا ننتظر على أحر من الجمر أبا إبراهيم ، عن جده الصقر وعن الرحلات الوهمية فوق الجبال وفي الوديان الشائهة . لم يكن دلاور يعرف كيف تحول جده بعد ذلك إلى إنسان وأنجب كل هذه الذرية والسلالة الطويلة من الأبناء والأحفاد . دلاور كان قد عاش فترة من الزمن في بغداد ، لكن هذه الفترة لم تجعله يرفض المنطق الذي نشأ عليه ، وبقي شائها في أحلامه عن جده الصقر . الميزة الوحيدة التي اكتسبها من بغداد ، أنه حينما عرف بأننا من بغداد ، انحاز إلينا وراح يتحدث لنا عن أحلامه التي لم يبح بها لأحد

سابقا . المعيشة في بغداد منحت دلاور أفقاً أوسع في الحياة نوعا ما ، وفتحت في ذهنه آفاقاً رحبة بالضد من الانغلاق الذي تفرضه الأحزاب الكردية على الأكراد وإدامة عزلتهم بشكل مقصود . أخذ دلاور يبوح بالأسرار وسرد لنا حكايته التي تقلقه من انخفاض التسترون في جسده الممتلئ والغض . الكردي لا يتحدث لك مطلقا عن أحلامه ، لا يتحدث البتة عن نوازعه وإغفاءاته ، وعن ديمومة عته السكر في الأحلام الفضفاضة . لا أدري هل هو خجل داخلي أم نزعة الشعور بالدونية ، أم أنها أسرار مقدسة لا يستطيع البوح بها لأي كان . من جهتي ، أعتقد أنها أسرار مقدسة . ولفهم الكردي بشكل أوضح ، تجب علينا دراسة الإنسان الفارسي - الايراني - وعمل إسقاط على شخصية الكردي من أجل فهم هذا الإنسان . في الذات الكردية فنطازيا خرافية مملوءة بقصص الجان والعفاريت وطرق الجبال والرعي ، كذلك في هذه الذات قصص وأحاديث عن النسور والطيور الجارحة ودواب الأرض . الكردي يجيد التحدث والاستماع إلى الصخور لذا لن يشعر بالحاجة إلى الثرثرة ، لن يثرثر مع الغريب ، وإن تحدث فباقتضاب شديد وموجز . تحسه كأنه مصاب بأعراض الاكتئاب ، لكنه ليس مكتئبا . أثناء خدمتي في الجيش العراقي كان رفيقي في السلاح كرديا من مدينة دهوك . بقينا سوية ثلاثة أعوام عشنا فيها بشكل مشترك . نأكل سوية ونحصر في خندق شقي واحد . ننام متلاصقين ، لكن هذه السنوات لم تجعله يتحدث لي عن أساطير الكرد ، أساطير الملك الضحاك الفارسي وكيف توالد الكرد من نساء جنيات وأصبحوا بالملايين . كذلك لم يتحدث لي رفيقي هذا عن الدين الكردي السري ، الدين القائم على اسم (خوا) الإله الكردي الخاص ، والذي لن يبوح لك أي كردي آخر بتعاليمه ، ولن يرشدك عن تعاليمه التي يحملها

الكردي في قلبه ووعيه . يعيش الكردي أحلامه وآلامه وهواجسه بشكل متوحد ، أسطوري ميتافيزيقي ، بربري ، خرافي . يعتقد أن (خوا) سوف ينتصر له في النهاية وذلك لأنه إله الكرد وهو أخ الأكراد وأبوهم الخفي . . . مسارات كثيرة أمام عيون الكردي . مسارات الزمن والوقت ومسارات المكان ، وعيون الأنهار والمياه السحرية التي تقطر تقطيرا من بين شقوق الجبال . الكردي يشبه الحقل اللانهائي من الأحلام والتورمات الداخلية . خلية تتكاثر بصمت الدهور ، تتناسل وتتوالد مثل حقول الفطر في مساحة خالية وفي ساعة سماوية ، ساعة مجهولة لا يعرف إلا الكردي توقيتاتها . ينفجر الحقل من تحت دثار الثلج لتفاجأ بعوالم لامتناهية من الفطر والأجسام وحيدة الخلية . هل هناك تشابه قسري بين الكردي وربه ، أو هل هناك تمثلات بين الكردي وعوالم الخفاء . هذه العوالم المصنوعة من الظلمة والجبل وقطعان الجداء والماعز المتناثرة مثل الوهم على سفوح الصخر . لن يقول لك الكردي أحلامه ، لن يحدثك عن مايراه في تلابيب الليل وفي ليالي النهار الأبنوسي وهو ينفلت مثل طائر القبج في مروج الذاكرة . للكردي ذاكرة عظيمة ، ذاكرة انسيابية وعزم مدمر على تحقيق أحلامه ، حتى وإن كانت هذه الأحلام عبارة عن مزحة أو ضحكة أو دسيسة . المهم لديه هو الحلم وتحقيقه حتى لو خسر كل أبنائه وبناته الحوريات ، واللاتي يشبهن الجنيات في روايات خيالية . ها هو الكردي معك أو خلفك وأمامك . إنه الآن هنا وأنت قريب إليه تستمع إلى فوضوية أحلامه السحرية ، وإلى التطويبات المراسمية للإله (خوا) هذا الرب الغريب والحميم في علاقته مع الكردي ، وليس مثل ربنا أو الرب الإسرائيلي المتشنج دائما . (خوا) هو إله خاص جدا بالرعاة الكرد ، وهم يتداحون بعيداً في شقوق المغاور والجبال وانفلات الوهاد والوديان . شيء

يستعصي على البوح ، ولكن إذا ما باح لك الكردي بشيء فتلك هي المعجزة السماوية التي لن تتكرر دائما وأبدا . الكردي سليل الملك الضحاك والجنيات المسحورة في عقول تنتهي دائما بأسطرة الأشياء والأبعاد والزمان والمكان ، وكأن كل الحياة هي عبارة عن وهم يخوض الكردي فيه وحيدا مع كيس التبغ الحاد وبندقية أبدية بماسورة تمتد إلى مالانهاية . من هو الكردي؟ من هو صاحب الأطالس الممزقة والمنثورة على سهل شهرزور وجبال آرارات وزاكروس وأرمينستان ؟ هل الكردي هو ذلك الإنسان الدموي والمتعطش للدم ؟ أم ذلك الإنسان الفوضوي والتائه بين نجوم المجرات المتوالدة . أو هل هو الظل بأصابع ممدودة إلى مستقبلك ومستقبل الوطن لتنهشه في الوقت والزمان الملائمين . يعرف الكردي ذاته ، أنه الأسطورة المتنقلة بين أحجار الجبال وعصا ملتوية في اليد وعين تلاحظ (خوا) أينما يرتحل في متاهات الأكوان . لذا فإنه شائه ، مجنون في تطفله على الآخرين من أجل استرقاق الآخر ودفنه في تلك المجرات السماوية التي يعرفها تمام المعرفة . الرب (خوا) هو جزء من فكرة الاستكراد ، وحتى حينما يصلي الكردي صلاته الإسلامية ، فإن قلبه وعقله وروحه مع ذلك الإله الغامض غموض الكردي . كلمة (خوا) تعني في أحد معانيها الصديق ، فالكردي دائما بحاجة إلى صديق ، والمشكلة التي يقع فيها أنه لا يعرف أن يختار الأصدقاء ، لذا فحينما اختار أصدقاءه أو هم اختاروه ، خدعوه بالأحلام والنجوم المتلألئة وأسطورة الجان ، ونساء الليل الوحشي على أكتاف الملك الضحاك . هاهي الكذبة تكبر ، تطير مثل شعر امرأة مجنونة لتتناثر على الجبال ، أمة تريد التكوين ، يراد تلصيق أجزائها بغراء الكذب والدسيسة الذي بثه أهل التبشير المسيحي في مسامع الكردي ، ولأن الكردي يحب صديقه فإنه صدق الكذبة إلى الأبد .

من هو الكردي ؟ هل هو المتماثل مع الإله (خوا) ، الإله الغامض الذي يعيش بلا طقوس غير طقوس الاخبات والموسيقى المتوهجة في صدر الكردي وعينه ، أم هو الشبح المسكون في طرقات الجبال السرية ومساملها المتعرجة والواصلة إلى حافات الغيم . ليس للكردي إله غير خوا يناجيه حينما ينفرد بنفسه ، لذلك فإنه دائما يتستر بالصوفية الإسلامية من أجل الانطلاق نحو متاهات الإله الدموي والمتعصب ، الإله الغاضب ، لكن الحنين دائما على الكردي . هل هناك فعلا غضب من (خوا) تجاه عبيده ورعاته ومريديه الأكراد . لا أعتقد فالرب الكردي محصور بين تنويهات وتعديدات قليلة . حاولت في كثير من الأحيان ، حينما حدثت لي صداقة عميقة مع كردي ، أن أسأله عن هذا الرب المتستر ، رب الرعاة في فلواتهم وهجراتهم ؛ فقال بعد تلعثم ، وحينما شاهد أني أعرف عن هذا الإله السري أشياء عديدة ، أو أني اوهمته بأني أعرف ، قال ان للعرب إلها وللإيرانيين إلها ونحن لنا إله ايضا . فكرة الإله فكرة قديمة لدى الكردي ، وهو يمارس طقوسه التعبدية بشكل خفي للغاية ، ويعتقد دائما أن هذا الإله - خوا - مرتبط به بعرى وثيقة ، حتى وإن عبد الكردي إلهاً آخر في العلن . خوا دائما لا يعترض ولا يعاقب ، ليس لديه قيامة ولا جهنم ، كما ليس لديه إبليس أو شيطان أو ترميز إثني ، وهو قائم على تقاسيم جبال آرارت التي انحدر منها الأكراد باتجاه ميزوبتيميا في زمن غير معروف ، لكنه لا يتعدى المائة سنة أو أكثر بقليل . دائما كانت ميزيوبتميا الأرض الطيبة ، الأرض التي تستقبل العراة والرعاة والمضطهدين ، وتمنحهم الدفء والطعام والامل في حياة جديدة ، ودائما كان القادمون يستعملون أسلحتهم المخادعة والسرية لطعن هذه الأرض . الأكراد ، على سبيل المثال ، أنموذج عملي وواضح وقريب على هذه الفنطازيا . منذ البداية عرض

الأكراد الذين هاجروا إلى ميزيوبتيميا صداقتهم مع أعدائها ، ومن أجل هذا كانت هناك حروب مستمرة ومتصلة . الأرض ، أرض ميزيوبتيميا دائما كانت محل أطماع للدول المجاورة ، فهي الأرض التي تفيض لبنا وعسلا وأمانا ورأفة ، وهي ذات صفات أهلها المسالمين المشتغلين بعبادة الإله الواحد - الله - والتأمل في طرقه ومسالكه الدنيوية والسماوية . الإله الخفي (خوا) هو صفة للقتل وتشريد الآخرين ، هكذا انحدر الأكراد ، رعاة أغنام الفرس ، إلى هذه الأرض وعاثوا فيها قتلا وتدميراً ، شردوا الآشوريين والسريان والكلدان ثم العرب والتركمان من أجل إقامة مجد (خوا) السري والعصي على الانفتاح للآخرين . حينما يصل الكردي إلى دول اللجوء مثل أمريكا وكندا والدول الاسكندنافية والمانيا ، فإن أول شيء يعمله ، أنه ينتزع براثن الله منه ويعود إلى خوا الرؤوف بعلنية كبيرة . وفيما يخص خوا فإنه يقبل التوبة ويمارس تطويبه لمريديه من أجل الاستمرار في الحياة . هكذا يغفو الكردي على حلم غامض ، حلم مجهول ، ينتظره من أجل التحقيق ، حتى وإن صبر مائة عام . هذا الكردي . . الدولة الكردية التي يحلم بها الكردي ، هي تفسير آخر عن خوا ، بحث عن الحرية في عبادته ، في التماثل والتحايث معه والذوبان في عرشه . لم أستطع أن أعرف من صديقي دلاور ، إن كان لخوا ملائكة أو معاونون ، لقد كان مترددا للغاية في الحديث في هذا الموضوع السري والعصي على الإفصاح . الأم الكردية تعلم طفلها منذ بدايات وعيه الأول أن يحب شيئاً واحداً هو خوا ، وأن يكره شيئاً واحداً هم العرب . تعلمه أن يخفي قداسته لخوا وأن يظهر كرهه للعرب . هكذا ينشأ الطفل الكردي والى الكبر يعيش في هذه الثنائية المريرة ، ثنائية الحب والكره ، وكأن المعادل الموضوعي لحب خوا هو كره العرب . في هذه الثنائية البسيطة ظاهراً والعميقة خفية ، هناك مشوار

طويل من الحوار الداخلي بين الأم والطفل الكردي ، من مثل أن كره العرب مرده إلى خوا الذي حطم العرب مجده الكبير ، وأنهم مسلمون فقط بالهوية وظاهرا فقط من أجل عدم التعرض إلى الاضطهاد . اليوم ، كما تقول الأم الكردية لطفلها ، أن الدولة الكردية هي صنو لعبادة خوا . في الدولة الكردية سنتمكن من عبادة خوا كما يحلو لنا وكما يحب هو أن يعبد . في الدولة الكردية سنتخلص من الله إلى الأبد ، هذا الرب العربي الذي يفكر بالعربية ويتصرف بها ، كما أنه يحاور ملائكته بها ، الله العربي يفهم كل اللغات إلا الكردية التي لا يفهم منها شيئا إطلاقا . يتعلم الطفل الكردي منذ ولادته الكتمان الشديد في كل أمور حياته ، فهذا الكتمان هو سبيله الوحيد للحفاظ على حياته ، ولعل التعلق بالديانة السرية لخوا هو الذي يجعل من الكردي إنسانا إنطوائيا رافضا الاختلاط والبوح والتفكير الإيجابي أو التفكير بصوت عال .

كان دلاور يدخن بشراهة وهو يهتك الأسرار ويتفوه ببعض كلمات متناثرة عن خوا ، عن الطقوس السرية والأبدية . يتحرك فاه دلاور دون أن يحرك يداه لوصف إلهه الميتافيزيقي ، ليقول إن خوا هو الصديق الوحيد والوفي للكردي ، هو الذي يسير مع الكردي في الجبال والمضائق وبين الوديان ، هو إله النور حينما ينبلج من خلف جبال آررات والمضائق الحجرية القاتلة . هو السلوى للرعاة المبثوثين في السهول وعلى حواف الجبال . خوا سحر وطقوس لا يفهمها إلا الكردي حينما يتوجه بصلاته السرية له ، وخوا يقبل تصوف الكردي وصلاته السرية تلك . خوا إله مختلف عن إلهكم أنتم العرب ، فهو لا يعاقب وهو عبارة عن نور مشتق عن النار ، لذلك نقدس النار الأبدية ، ففيها الترميز والرمز والحب والرقص ، فنحن نرقص دائما لأن خوا عبارة عن آصرة وثيقة بين كل المعاني والأمكنة .

خوا يقبع في موسيقى الكردي البدائية ، وهو اشتقاق حقيقي من آلهة الفرس أبناء عمومتنا وإخوتنا . نحن نشترك معهم في النار ، وهم غادروا واختلطوا بقوة السيف بالإسلام ، فيما بقينا نحن على الدين الحقيقي نقيا . الفرس تعرضوا لتحطيم دولتهم أيام خليفتكم عمر ، لذلك هم يكرهون العرب ويكرهون الخلفاء الراشدين ، وتحديداً عمر ، أما نحن فلم نكره العرب لتحطيمهم دولتنا لأنه ليس لنا دولة أصلا ، لكننا تعرضنا لتغيير ديانتنا بالقوة ، وتعرضنا لاضطهاد السيف العربي الذي أبعدنا عن إلهنا الجميل الفنان والملهم ، لذلك نكره العرب ، ولهذا السبب نحن مستعدون أن نعمل أي شيء من أجل تحطيم العرب . هناك نقاط التقاء كثيرة بيننا وبين الفرس ، لكن الأبرز بين نقاط الالتقاء هذه هو عشقنا وحقدنا المقدس على العرب الذين غيروا العالم بربهم الجديد .

خوا إله مهاجر ، مثله مثل الكردي ، بإمكانك وأنت تتنقل مابين الجبال أن تلقاه هنا أو هناك ، مبثوثا في سحر الغروب أو متأثرا في وهج الصباح الثري . الهم والحزن هما الد أعدائه ، لذلك لا يحزن الكردي ويواصل ، بالرغم من كل شيء ، اشتهاء الحياة حتى وإن غرق في بحيرات القتل والدم . لخوا ضحكة وابتسامة سرمدية ، ابتسامة ممدودة من أقصى الكون وحتى أقصاه ، وعبر مجرات الحب والالتهاث المتواصل في نفس الكردي . خوا لا شيء يشبهه ولا أحد يفهمه غير الكردي الضائع بين وديان الانفلات السرمدي والأبدي . خوا ليس صانع الكون مثل رب العرب ، خوا سيطر على العالم بالحب فذابت أمامه الأشياء وأعلنت الولاء له ، وهو من جهته يقر بمادية العالم ، لذلك تنتعش عند الأكراد النظرية الاشتراكية والماركسية واللينينية ، لأن لا خلاف بين خوا وبين ماركس في أساسيات تكون العالم من المادة ، وأن المادة هي الشيء الأول والأخير في

الكون . وجد الأكراد صعوبة بالغة في تقبل الإسلام ، ولعل الصعوبة مردها إلى مادية الفكرة الدينية عند الأكراد ، وعلى عكس العرب الذين يقول ربهم إنه الأول والآخر ، وإنه موجود قبل وجود المادة ، وإنه ليس كمثله شيء . الرب الكردي يقول لأتباعه أنه ولد بعد ولادة الكون ، فهو ليس مسؤولا عن خلق الكون ، إنما هو ولد من النور والنور فقط ، شيء نوراني للغاية متلالئ ينداح في سهوب أرمينيا حيث ولد هناك هو والأكراد ، وحيث وجد كل من الكردي وربه أحدهما الآخر ؛ فتشكلت بينهما علاقة وثيقة وأبدية . الرب خوا لا ينظر للمرأة مثلما تنظر المسيحية واليهودية والإسلام لها . يقول صاحبي خوا ينظر إلى المرأة الكردية نظرة كلها إجلال ، فهي الكلمة الأولى ومنها انبثق خوا نفسه . بالإضافة إلى هذا ، فإن إظهار محاسن المرأة ليس عيبا ، كما أن رقص المرأة الكردية مع الرجل ليس عيبا أيضاً وليس محرما ، بل مطلوبا . فلسفة خوا للمرأة انعكست في ملابس المرأة الكردية . فهذه الملابس تظهر على نحو صريح مفاتن الجسد المغرية ، وخاصة منطقة الصدر والبطن والمؤخرة ، وهي أكثر الأشياء التي يقدسها الأكراد ، حيث تنساب من الأذرع قطعة طويلة من القماش تنعقد عند مؤخرة المرأة فتبدو ، المؤخرة بارزة ومحصورة بهذه القطعة . وكلما كبرت المؤخرة ، كانت المرأة أشهى لعيون الرجال . أما فيما يخص منطقة الصدر ، فيصمم الثوب الكردي بحيث تبرز النهود عبر خيط يرفع هذه النهود إلى الأعلى ، مضافا لهذا فتحة كبيرة في منطقة الصدر تبرز النهد . المنطقة الثالثة المميزة في الثوب الكردي هي منطقة البطن ، حيث يربط الثوب بحيث تبرز منطقة البطن ، وكلما كانت البطن كبيرة كان هذا مدعاة للاعتزاز والمفاخرة . المرأة الكردية لا تهتم كثيرا باخفاء النهد ، بل تبرزه بشكل مغر واضح للعيان ، وهو شيء أو جزء من ديانة خوا

الجنسية وتعاليمه إلى المرأة الكردية . المرأة الكردية ومنذ طفولتها تلقن تعاليم خوا ، وتلقن بالإضافة إلى هذا كيف تكون امرأة مثيرة ومشتهاة ونداً للرجل ؛ ففي مجتمع خوا ليس هناك تفرقة بين الرجل والمرأة فكلاهما أحباب خوا ، وخوا من جانبه حبيبهم الأبدي . في المجتمع الكردي نادرا ما تسمع بالطلاق ، وهو شيء يكرهه خوا بالإضافة إلى كرهه السحر ، حيث لا تصادف في المجتمع الكردي قارئاً لفنجان أو مبصرا أو ساحرا . يعتقد رجال الدين الإسلامي أن المجتمع الكردي لم يزل مجتمعاً فطرياً حينما لا يمارس السحر والتبصير . لكن هذه في الحقيقة تعاليم خوا في الابتعاد عن الروحانيات الإسلامية واليهودية . فخوا في الواقع إله فطري أو إله طبيعي لا يؤمن بالقدر إنما يؤمن بحقيقة المادة ، وأنها الفكرة التي انبثقت منها كل الأشياء . فالسحر اذن ليس إلا شيئا متعلقا بماورائيات وعالم غيبي ، وهو مالا يدعو اليه خوا نفسه ، كما أنه يتعارض مع التعاليم التي نقشها في قلب الكردي . لخوا حب خرافي للغناء ، حب مطوق بالكثير من الألحان ، فلا تستغرب إن لم تجد كردياً لا يجيد الرقص أو الغناء ، كما أن خوا لا يعير ما يطلق عليه العرب فحش الكلام ، حيث تجد الأغاني الكردية كلها فاحشة ، وفق المنظور الإسلامي ، وكلها تتحدث عن الجنس والمضاجعة ، ويردد كل من الرجل الكردي أو المرأة الكردية هذه الأغنيات دون خجل .
هذه الديانة السرية والأغنيات لا يغنيها الكردي أمام الغرباء ، إنها جزء من طقوس الصمت والتورية التي يحافظ عليها الرجل والمرأة الكرديان ، ويحرصان أن لا يسمعها أحد غيرهما . إما إذا تكلم أحد بهذه الأسرار أمام الغرباء فإنه يستحق لعنة العائلة ، أما خوا فيبقى ذلك الرب الرحيم الذي يقبل بتوبة مريديه متى ما شعروا بالحنين إليه ، لكن لن يقبل توبة الذي يفشي الأسرار الكردية في كل الأحوال . خوا لا شيء يشبهه ولا أحد

يفهمه غير الكردي الضائع بين الجبال السرمدية ، التي هي بجبروتها تشبه خوا من حيث تداخله المتشعب في حياة الكردي . لكن هذا الإله لا يمارس سلطة القتل ولا سلطة الإبعاد ولا سلطة الجحيم ، وليس له ملائكة أو رسل موت مثل عزرائيل في الميثولوجيا الإسلامية . عندما يموت الكردي فإن خوا يستقبله بالأحضان ، وإذا كان الشخص متصوفا في حبه ، فإن خوا سيدعوه إلى تناول اللبن الرائب ومضاجعة أجمل الجميلات ، وسينعم عليه بنور أبدي هو نور الشمس الأخرى التي لا تغيب . أما المرأة فيحدث الشيء ذاته معها ، حيث ستتحرر من أعباء الحياة الأرضية لتنعم بغناء ودبكة كردية لا تنتهي ، وتكون جميلة جدا ومطلوبة من الشباب الكردي ، الذين يتفاخرون بقوة مضاجعتهم الجنسية . الجنة بالنسبة لخوا ، هي إكمال المشروع الأرضي ، فما لم تستطع في الحياة الأرضية تحقيقه ستحققه في العالم النوراني ، حيث الغناء المتواصل والدبكات والطبل الكردي الذي سيظل يضرب ، وسيظل الراقصون يرقصون مع الجميلات في أبدية لا تنتهي . في عالم خوا ، سواء كان الأرضي أو النوراني ، لا يوجد شيطان . خوا يضحك من فكرة الشيطان ، يعتبرها محض افكار من إبداع الإنسان نفسه . الشيء الوحيد الذي يحض خوا على الابتعاد عنه هو القتل للكردي . أما الأشياء الأخرى ، كالزنا مثلا ، فإنه لا يعاقب عليها ، ويعتبرها مجرد نزوة لا أكثر ولا أقل . الحياة بالنسبة لخوا رقصة وغناء طويل ودبكة على أنغام الطبل الكردي . لذا ، فإن الكردي لا يحزن وذلك لأن خوا أيضاً لا يعرف الحزن ولا الجفاء ولا القطيعة . يوصي خوا أتباعه بإطاعة الشيوخ والأغوات ، حيث يعتبر الأغوات هم أنبياءه وعن طريقهم يوصل تعاليمه لأتباعه ، أما المسائل أو القضايا التي نسمع بها ، من مثل القتل لدواعي غسل العار ، فهي في الحقيقة لا تتم من أجل الشرف

كقاعدة أخلاقية محرمة ، إنما من أجل سماح الفتاة للآخر بالاستحواذ على شيء دون مقابل مادي . في المجتمع الكردي لا يمكنك أن تصادف عاهرة أو قحبة ؛ فالعهر أمر يتأتى من الانغلاق أو العطش الجنسي ، وكلاهما لا يوجدان في المجتمع الكردي ، فمجتمع النساء ليس محرما على مجتمع الذكور كما في المجتمعات الإسلامية ، أيضاً تتوافر للكردي ، سواء أكان فتاة أم شاباً ، فرص عديدة للقاء ، وفرصة عظيمة للشاب من أجل اكتشاف مجاهل الجسد الأنثوي دون خوف من عقوبة ، سواء دينية أو دنيوية . للمرأ ة الكردية أو للفتاة الكردية غير المتزوجة حرية كبيرة في اختيار الزوج ، وعلى العكس من المجتمعات الإسلامية ، فالفتاة الكردية لها الحق في اختيار شريكها ، حتى وإن كان متزوجا ، وغالبا ما تلجأ الفتاة الكردية إلى عرض نفسها على الرجل الغني أو الجميل أو البطل ، حتى وان كان متزوجا بثلاث نساء ، فهي لا تهتم بهذا . المهم بالنسبة لها أن تشبع رغباتها ، سواء كانت مادية أو جنسية . في حواضر المدن التي يبيع فيها الكردي نتاجه من اللبن وخبز الرقاق وحبة الخضرا ، ثمة ابتسامة ملغزة تعيد تسمية الأشياء . الكردي إنسان يشبه إلهه ، فهو غير متطلب . ذلك أن إلهه هو الآخر إله متسامح ، ليس لعبادته طقس أسطوري مثلما عند المسيحيين أو اليهود أو المسلمين ، عقائد ممجوجة وملوثة بالخراء والفتاوى والاجتهادات . خوا كرب لا يحتاج إلى ذبائح وإهراق الدماء ، كما أنه أيضاً لا يحتاج إلى معابد وجوامع وزقورات ولا إلى النذور . كل مايحتاجه فعلا هو خيمة فقط ، وحتى هذه فهي ليست ضرورية ولم يطالب بها أصلا ، لكن الناس ارتأت ان تضع تلك الخيمة . خوا يكره الرموز ولا يحرم الأطعمة . خوا لا ينظر إلى الكردي باعتباره عبدا ، إنما كإنسان وفق ما يستحق الإنسان من تكريم . خوا ليس إلها اعتباطيا مثل

الآلهة الأخرى التي فرضت وجودها على الآخرين بالقوة ، وفرضت بالتالي حتى طرق عبادتها وصلواتها وقرابينها . خوا لا يحب القرابين وأكثر الأشياء التي يكرهها هي الدماء ، أيا كانت هذه الدماء ، حيوانية أم إنسانية . خوا لا يحتاج إلى فتاوى ، بل إنه يضحك حينما ينظر إلى العالم من ثقب نوراني . يرى خوا العالم الشيطاني ، العالم الغارق في التأويلات والمماحكات والحروب والقتل . يجري خوا مقارنات بائسة بينه وبين أتباع الديانات الأخرى ، فيقهقه ، هكذا يتكلم دلاور عبر مضائق بلورية ومياه سحرية يخرجها خوا إلى أبنائه الرعاة ونسائه الجميلات الراقصات في أحضان الجن الهارب من سجون سليمان في ليلة أبدية كان القمر فيها منشطراً حد الخواء .

آه ياخوا ، إسمع غناء الكردي وهو يتلو على صفحة الزمن الخرائبي ، فيما أنت تبكي عالم الإنسان الوحشي ، وانثيالات اليهود والنصارى والمسلمين . الزمن المفقود والضائع ، الزمن الكردي الخاص بملذات الاشتهاء المنفلت وراء عقابيل الموت . خوا له أجنحة تشبه ملائكتكم ، يقول دلاور ، وهو يضلل بها الكردي حينما تلهب الشمس رأسه ، أو حينما يهبط الثلج في ندف كبيرة . لا يحتاج خوا إلى الابتهالات من أجل استنزال شآبيب الرحمة ، فالرحمة بالنسبة إليه مبذولة للكردي . يكره خوا التوسل به ، إذ يعدّه نوعا من العبودية ، عبودية الإنسان إلى ربه . يكفي أن يصمت الكردي على البلية ليهرع خوا بعد ذلك ويحل الرزية ويرفع الحزن . هل شاهدت كرديا حزينا ؟ يقول دلاور ثم يجيب لا لن تشاهد . . . لا يحتاج خوا إلى الحزن ، يكفيه غذاء الكردي الملفوف بجلد الماعز ، وصفيحة يضرب عليها ليرقص الكردي ويميز رقصته ودبكته عن دبكات الآخرين ورقصهم . يمضي خوا في عقل الكردي ، فيجري الكردي ألعابه وبهلوانياته

التي تعلمها من الآلهة . ذلك أن خوا يجيد اللعب دائما على الحبال ، لذلك فإن الكردي لا يتحالف دائما مع المغلوب ، إنما تجده دائما مع القوي والمستكبر من أجل حكم العالم . ينثر دلاور وروده في كل الأمكنة ، وفي كل أحجار الجبال الوسنانة ، وينظر إلى ربه في ابتهال متواصل وصلاة . يسر دلاور في أذني ، أن كل كردي يقدس خوا حتى العلمانيين ، وبضحكة كبيرة يقول إنهم هم أيضاً يتطلعون إلى خوا ، المخلص والمسيح الكردي من دربكة الدروب الإسلامية ، وهو الوحيد الذي سيخلصهم من لعنة محمد الأبدية ، تلك اللعنة المحيطة بهم والراغبة في القضاء عليهم . ينام الكردي في فجوات الجبال منفردا وهو يعرف أن خوا يحميه ، ليس ذلك سحرا أو استعمالا لرموز سحرية ،لكن بكل بساطة فإن خوا رحيم جدا بالكردي ، وهو يسير معه وينام قربه ويداعبه في الأحلام . كل كردي ، يقول دلاور ، متوحد ومتماثل مع خوا ، ورغم أن الإسلام قد سيطر بحد السيف على الكردي ، فإن الكردي لم ولن ينسى خوا وصار محرابه في قلوب الكرد . بين خوا والكردي تضيع المسافات وتتحطم المساحات . يصبح الوقت صفرا ولن ينسى الكردي إلهه الجميل ، ذلك أن هذا الاله هويته ودينه وسر حياته الذي ينقله إلى أطفاله وأجياله ، مثلما تنقل الخلية أسرارها إلى التراكيب الانشطارية الجديدة . كل شمس تشرق وكل قمر كردي يبزغ ، يكون خوا متخفيا خلفه وراصدا أبناءه البررة وهم يضيعون في ملكوت الجبال وزحمة الأدغال ، والعيون المائية المتسربة من شقوق الصخر .

ليس للكردي إذن من صديق غير خوا . هكذا يفكر ، ويقول دلاور بانتباهة عارمة واستيقاظ مفاجئ للواعج الاحتراق الإلهي . لقد حطمنا محمد العربي ونحن نكره كل شي فيه وعنه ، حتى قرآنه المكتوب بحروف

عربية . محمد حطم ديانة خوا وكان يعتقد أن حد السيف كفيل بنا . لكننا حفظنا عهدنا لخوا . وها هو الآن في صدورنا ونحن نعود إليه الآن بشكل علني . . بهرني دلاور ، بهرني حديثه المرير ومقدار الحزن العميق الذي يشعر به الكردي . شعور الإنسان المحطم والمستلب من ديانته وطقوسه التي مارسها سابقاً بحرية وهو يذرع الجبال والوديان والقمم الشاهقة للأرض التي يسميها كردستان . هذه الكردستان هي أي أرض وطأتها أقدام الكردي ، ومن أجل هذه الأرض يريد أن يموت الكردي أكثر من مرة من أجل انتزاعها من الآخرين .

لا تتحدث مع الكردي ولا تنصحه بالحقيقة ، لأنه ببساطة سوف يحقد عليك ويريد تحطيمك . إكذب فالكذب هو الشيء الجميل الذي يلتذ به ، لا تأمن الكردي فإذا ما أمنته فسيغدر بك بسرعة ، إنه مثل الثعلب الماكر الذي يصيد الطيور بنفخ نفسه . هكذا يقول أبو آية ونحن نسير بصحبته نزولا من بيته باتجاه سيارة الأجرة إلى دهوك ، لنسافر أنا ورياض بصحبة مندوب أبي إبراهيم في رحلة سريعة . فجأة تحول العالم إلى اضطراب مزمن ، أحسست في تلك اللحظة ، وأنا أستمع إلى كلام أبي آية ، اني أنحدر عميقا إلى أمكنة سحيقة . كل مشاعري تتحول إلى أوراق محترقة ، العالم أسود ، السماء سوداء ، الموت أقرب الأشياء لي ، صرت أعيش غابة حياتي الحيوانية بشكل مفاجئ ، كل شيء يتحول إلى غائط بلا نهاية ، روحي هائمة ومنفلتة . في هدوء المكان ، في الصخب الداخلي لروحي ، في الاجتثاث المر الذي أعيشه وأنا أبتلع حبات التافرانيل التي لم يتبق لي منها الكثير . كانت تلك الحبات هي صلتي بالعالم . في بعض الأحيان كنت أغامر بعدم ابتلاعها ، فيرتعش العالم ويصبح شيئا غبيا لا يستحق الحياة . حتى الرب ، الله ، كنت أتصوره

فكرة غبية هو الآخر . كانت حبات التافرانيل شيئاً مهولاً وخفياً . لكنها فكرة سخيفة أن ترى العالم وتعيشه بمشاعر مختلفة . حينما كنت أغامر بعدم ابتلاع تلك الأقراص ، كان العالم يتحول إلى وحش مرعب كنت أريد تحطيمه ، حتى الزوجة والأطفال ، كنت أتصورهم عبارة عن حلم أو كابوس ثقيل يجب التحرر منه إلى الأبد . كنت أريد التخلص من الزوجة وهذه الحثالة البدائية لحياتي . كان الله هو الآخر فكرة مجنونة ومجهولة ، فكرة أسطورية يجب التخلص منها . لم أكن أعرف تحديدا لماذا كان غضبي يتجه إلى الله حينما ينقص مفعول الدواء في دمي . حاولت في الكثير من المرات إيجاد المعادل الموضوعي بين الدواء أو الاكتئاب وبين الله ، لكني لم أكتشف إلا أن المكتئب يزداد كرها لله كلما كانت شدة الاكتئاب أكبر وأفظع . هناك علاقة جدلية وإيجابية بين الإحساس بالاكتئاب والنفور من العالم ، أو اكتشاف حيوانية العالم . في بعض الأحيان كنت أبكي أو أصاب بالهلع حينما أشاهد جثث الحيوانات معلقة عند القصابين . كنت أكره الله الذي جعل من هذه الحيوانات ضرورة معيشية . الأكل والخراء والتقيؤ والعرق والمذي والمني والإفرازات المهبلية ، أية جيفة شنيعة نحن نعيشها ، أية سخافة أن يلتهم النمر ضحيته من الغزلان الأليفة . إن جسمي يرتعش وأنا أشاهد حيوانية حياتنا التي منّ الله علينا بها . كنت أكره الله لأنه صنع العالم على هذه الشاكلة . لم أكن قادرا على تصور كولالة نوري على سبيل المثال وهي تنسحق تحت جسد محمد البدري القذر في فنادق بغداد الرخيصة . كما أني لم أستطع تصور أن تعيش أحلام منصور في هذا الهلع المستمر من دون مبرر أخلاقي ومعرفي . مادة التستورين مادة خطيرة في الدماغ ، وحينما تقل كميتها يتحول العالم إلى خرافة وهمية ، خرافة تنكشف فيها وضاعة الحياة ورخصها وأنانية الله

الذي يعذبنا من أجل أن نعبده ، وينتشي بمحارق التقدمات الدموية والدم . كانت حبات التافرانيل شيئاً مهولاً وجهنمياً ، لكنها أيضاً فكرة سخيفة أن ترى العالم وتعيشه بمشاعر مختلفة . بيينا وبين عدم رؤية التوحش والمأساة التي نعيشها هو مقدار التستورين في الدماغ الكلب . في بعض الأوقات كنت أغامر بعدم ابتلاع الأقراص ، لكن وحوشاً وذئاباً عارمة ودموية كانت تلقي بي إلى سواحل مدن بعيدة ، مدن خرافية ومجهولة الأشكال وبألوان واحدة هي الأسود ومشتقاته . أين هي جهنمك ياالله التي وعدتنا بها . ها أنا الآن أعيش في الدرك الأسفل من هذا الجحيم المضبب بكتل النار الهابطة والمركبة من حامض الفسفوريك المركز ونترات الغلسرين الصاعقة ، أعيش جهنمي الخاصة ، والمكونة من حوامض غير مكتشفة بعد ، لكنها حوامض مميته ، حتى أنت غير قادر على إعادة اكتشافها بالرغم من أنك تمتلك جبرائيل وعزرائيل وباقي فريق العمل الذي يثير الفوضى في العالم . أتوسل إليك أن تمنحني قيادة العالم دقائق حسب لتشاهد كيف أدير العالم بصورة جميلة . امنحني الصلاحيات وسوف أنصب كولالة نوري على العرش السماوي ، وأجعل العالم أكثر سلما وإنسانية منك . أنت المتوحش الدامي الغارق في ظلمات العبادة المستهترة ونقص الاندروجينات . . محاولاتي البدائية للتملص من سحر الدواء كانت فاشلة . وفي كل مرة كنت أرجع ذليلا خائر القوى إلى الدواء ، فأبتلع الحبات ويبتسم العالم لي وأتصالح مع الله . كانت زوجتي تبكي في أحيان كثيرة لتلك المرارة البائسة . الوجع والألم الممض المنبعثان من عيني المتوسلة بأن أغدو شيئا مختلفا ، ذئبا محطما ينثال على قوس الصياد ليتذوق الموت بقطرات الألم الممض .

وصلنا إلى دهوك وجلسنا في مقهى على الشارع ندخن السجائر . بعد

ربع ساعة دخل شخص يرتدي قبعة مائلة إلى جهة اليمين . عرفني رياض على هذا الشخص الذي كان ينتعل حذاءً رياضيا وقميصا فاقع اللون . اقترب الشاب مني ونهض رياض لمصافحته ، ثم عرفني عليه . كان اسمه أبي سيف وهو بوجه بشوش ولم يدر حديث طويل معه . قال أبو سيف إنه سوف يسافر أيضاً إلى زاخو ليلتقي جماعة المؤتمر الوطني . تناولنا الشاي ثم ذهبنا إلى مرآب السيارات ولننطلق من هناك إلى زاخو . أخذنا نتحدث مع أبو سيف عن دخول الجيش إلى أربيل وتجمع العرب في زاخو ، حيث كانوا يأملون بأن يجدوا سبلا للهروب . كان في زاخو أيضاً أكراد بأعداد هائلة من مدن أربيل والسليمانية ، من الذين كانوا يعملون مع المنظمات التجسسية الأجنبية ، حيث قررت هذه المنظمات سحبهم إلى خارج العراق بعد دخول الجيش . كان أبو سيف يريد السفر إلى خارج العراق ، وحدثنا عن جهوده للدخول إلى سوريا . بدا أن أبا سيف يعرف أفراد الحدود السورية ، ومنهم ضابط الأمن في تلك المنطقة العميد محمد منصورة . وكان أبو سيف ودوداً ويبدو إنسانا ملتزما ، وقد سبق وأن عمل مع جماعة المؤتمر الوطني (جماعة الجلبي) . كان تاريخ عمله عبارة عن تاريخ طويل من التشرد والغربة . لم يقل لنا أين كان قبل التحاقه بجماعة المؤتمر ولا ما الدرجة السياسية أو المنصب الذي كان يشغله . كانت ذاكرة أبو سيف ذاكرة طرية ومليئة بالأحداث والشخصيات والمواقف ، وفي طرق ترحالاته المتعددة زار لبنان وسوريا وإيران والأردن . وقضى في كل دولة من هذه الدول ردحا من الزمن . وبالرغم من زيارته لتلك الدول إلا أنه يحتفظ لسوريا بذاكرة متوهجة ومؤلمة . حيث التقى هناك بالكثير من أفراد المعارضة العراقية السيئة التي وشت به إلى السلطات السورية ، التي سجنته في زنزانات فرع فلسطين . كانت مشكلة أبو سيف الرئيسية ، أنه إنسان صريح

للغاية . هكذا يقول عن نفسه ، وكانت عيناه حينما يتحدث تعكس ذلك المقدار من الألم الخفي . بعد وصولنا إلى زاخو عرض علينا أبو سيف عرضا مغريا للغاية ، وهو دعوتنا لتناول الكباب في مطعم كنا نعدّه الأقذر في زاخو . كانت جموع العرب والأكراد القادمين من مختلف المحافظات ، وأعني بها أربيل والسليمانية ، تدور مثل التائهة في الشوارع . وحينما جلسنا إلى طاولة المطعم المحطمة كانت رائحة الكباب قد فتكت بنا تماما ، وجعلتنا مثل السحالي وهي تمد ألسنها من أجل التهام الذباب . هجمنا على الكباب الذي كان صاحبه يفرمه أمامنا دون تنظيف ، بالرغم من أن اللحم كان مليئا بالقيح والأكياس المائية والدماء . ولم نتحدث كثيرا أثناء الأكل . كانت تجري في زاخو طقوس غريبة وحالات محزنة للقلب ، حيث قال أبو سيف ، حينما اقترحنا عليه أن نأكل الدجاج المشوي الأرخص بدل الكباب ، إن الدجاج الموجود في السوق ، والذي يباع بسعر رخيص للغاية ، تستورده من اسرائيل شخصيات مقربة من مسعود بارزاني ، وهو مصاب بأمراض ومعالج بمواد مسرطنة . شكل هذا بالنسبة لنا صدمة حقيقية ، وصرنا نشعر أن كل شيء يجري هنا مرتبط بمافيا تنتشر مثل السرطان ، ورأس هذه المافيا يرتبط بالقيادات المناضلة والثورية الكردستانية . قلت لأبي سيف كيف عرفت بهذا الأمر ، خاصة أنه لا توجد هنا مختبرات لفحص المواد المستوردة . فقال إنه في إحدى زياراته لسوريا أخذ معه كمية من الدجاج بعد أن لفت نظره رخصه وحجمه الكبير . وهناك تم تحليله ليكتشف اللعنة الموجودة به . منذ ذلك اليوم لم يقرب هذا الدجاج وكل المواد المستوردة وخاصة الغذائية . في إحدى المرات ، والكلام لم يزل له ، حاول أن ينصح بعض أصدقائه الأكراد بعدم تناول هذا الدجاج ، فتم اعتقاله وتعذيبه وتهديده بتسليمه إلى النظام . استسلم أبو سيف

للتهديدات ، ولم يتحدث مرة ثانية عن هذا الدجاج وعن أشياء أخرى كان يراها تحدث أمامه . شكرنا أبو سيف لنصيحته وواصلنا التهام الكباب بلا تمهل ، صحيح أن هذا الكباب صنع بطريقة قذرة ، وأن المواد الأولية له وهو اللحم قادم من أبقار مريضة ، لكنه يبقى في كل الأحوال أنظف من الدجاج الإسرائيلي . واصلنا التهام الكباب بلا تمهل نتيجة الجوع المزمن الذي أناخ علي وعلى رياض . كان مندوب أبي إبراهيم يدردش مع أبو سيف في أشياء خاصة بالمعارضة لم نكن نعرفها أنا ورياض ، إذ إننا كنا في كل الأحوال لا نعرف الأسماء ولا الوقائع ولا الأحداث .كان أبو سيف عبارة عن بنك للمعلومات ، واستطاع بأسلوبه اللطيف كسب الكثير من الأصدقاء الأكراد الذين يتسلمون مسؤوليات مهمة في حزب مسعود بارزاني . وكان هذا الحزب ، يشبه في كثير من الأشياء ، حزب البعث في بغداد ، حيث تسلط الأجهزة الأمنية على حياة ، الناس والتقليد الأعمى للمسؤولين بنظرائهم في حزب البعث . استطاع أبو سيف ، بفعل علاقاته التي كونها ، تأمين جانب مهم من حياته من بطش الأجهزة الأمنية البارزانية . وبالرغم من هذه العلاقات ، إلا أنه تم اعتقاله أكثر من مرة ، خاصة بعد خروج المؤتمر الوطني من شمال العراق ، واستقرار أبي سيف في مدينة دهوك . لا أعرف كيف بنى أبو سيف علاقاته تلك ، إلا أنه كان يعرف كل شيء تقريبا ولا يحدث شيء في المدينة لم يكن يعرفه ، بالإضافة إلى معرفته بكل أسماء المسؤولين وتاريخهم السياسي والخياني . كنا أنا ورياض إبراهيم مثل الفراخ البريئة وسط الجو القاتم هذا ، وبمرور الوقت أصبح أبو سيف ملاكنا الحارس ، حيث كان ينبهنا إلى الكثير من الأشياء ، ويجنبنا بنصائحه المآزق الكثيرة ، ومنها المآزق المتعلقة بالسقوط في قبضة الأجهزة الأمنية التابعة لعصابات مسعود . مع مرور الوقت ،

وبعد استقرارنا في زاخو ، أصبحت علاقتنا بأبي سيف وثيقة ، حيث كنا نزوره باستمرار في دهوك .كان رياض في بعض الأحيان يتثاقل من القيام بهذه الزيارة ، فكنت أذهب بمفردي للقاء أبي سيف ، حيث كان يقيم في فندق بائس قريبا من شورجة دهوك . . في بعض الأحيان كان صديقي هذا يدعوني إلى تناول الغداء ، فكنا ننحدر إلى اقرب مطعم بائس ونتناول (القلية) التي هي أكلة موصلية عريقة تصنع من قطع اللحم الصغيرة المحمرة بالسمنة . كان الذباب في المطعم الصغير هذا يطير مسرورا للغاية ، ولا أدري لماذا ،لكنه على أية حال ذباب كردستاني ، وبالرغم من أن الشتاء على الأبواب ،لكن كثرة الذباب كانت محيرة فعلا . كنت أتذكر في رحلات السندباد البحري ،لواعج اللهب والعرق المتصبب وأنا أدور في حارات البتاوين أو الأزرملي أو علاوي الحلة ، بحثا عن مطعم متميز لا تعرفه الدهماء ، كنت أجد دائما خلف كوى الظلام والذوبان في العراق والدروب الخلفية ، تلك المطاعم المتخفية عن الأعين ، سواء في علاوي الحلة أو عميقا في طرقات الأزرملي حيث يقبع مطعم بائس ، متطرف ، وحيد ، ودموي . فألفي اليه كما يلفي الحمام على مآذن الإمام الكاظم . أندس مع صديقي ماجد شاكر خلف طاولة ثم نتناول أكلتنا المتميزة ، والتي غالبا ما تكون مرقة الباذنجان . كانت تلك المطاعم البعيدة عن الأعين ، تشكل لي أمكنة متميزة ، فلم أكن أبحث عن مطاعم تقع على الشارع العام أو في الواجهات ، وذلك لاعتقادي أن هذه المطاعم تفتقر إلى الخصوصية التي يمكن إيجادها في المطاعم الصغيرة ، والمنزوية في الطرقات الغارقة في النسيان . كنت أبحث عن المطاعم المختفية مثل متصوف يبحث عن الله ، وغالبا ماكانت هذه المطاعم خارج الزمن النظيف ، حيث تشاهد الفوضى العارمة ، وحيث يفاجئك جرذ جائع وأنت تاكل أسياخ الكباب ،

فتطلب منه أن يهرب أو يبتعد ، لكنه لا يرضى رغم محاولاتك السخيفة لإخافته بنعال تصنيع عسكري .

الكرد ربما أخذوا يعملون بهذه النظرية ، لكنهم نسوا ثمة أشياء أخرى . فهم اكتفوا بالذباب في الطعام ولم يجيدوا الطبخ ، وبالنتيجة فهم خسروا كعادتهم دائما كما في الثورات والانتفاضات . تناولنا طعامنا ، وقال أبو سيف إنه سوف يريني مفاجأة بعد الانتهاء من الغداء . كنت أعرف نتيجة العلاقة الحميمية مع أبي سيف ، حيث بدأت أشعر بألفة نحوه . كان إنسانا صادقا ودمث الأخلاق وحذراً في الوقت ذاته ، ويتكلم بشكل موزون . دفع أبو سيف ثمن الأكل وانحدرنا إلى الشارع المزدحم بالبشر والسيارات والحيوانات والأسلحة . كانت الشوارع مملوءة بفضلات الحيوانات التي تشبه شوارع أربيل . الوقت المسلوب كان نائما مرتكما على ابتئاسات اللوثة الخطيرة لموت غير معلن . شوارع دهوك بخرائياتها تشبه شوارع أربيل ، وشوارع أربيل مثل طرقات زاخو ، كلها مملوءة بالأسلحة والقتل وبحب التباهي الدموي . القتل ، النحر ، الاشتهاء من زوايا مسارب الدم المتنمر والطافح على أطوال الشوارع . ابتهاج الكردي ، والبيشمركة بالذات ، بسلاحه . ثمة (جنجلوتية) طويلة بين الاثنين ؛ الكردي والسلاح ، ويمكن أن نضيف لهما التبعثر . هكذا يتولد لدينا المثلث الدموي ويستقيم الأمر بينهما . في أواخر العام ١٩٨٤ ، أخذونا من الجامعة إلى ساحات التدريب العسكري . كونونا جيشا شعبيا وارتحلنا إلى روابي معزستان في شمال العراق . كانت مجموعتنا في شرق دهوك ، وحينما تنمرنا الربيئة المعلقة وسط الغيوم ، أخذنا الجنود بالأحضان . في ليلة ماقبل رحيل الجنود واستلامنا المسؤولية ، حكى لنا الجنود عن افتتان الكردي بسلاحه ، عن تعطشه الشائه للدم ، وعن ممارسته القتل من أجل

الهواية . لهذا السبب كان الجنود قساة عليهم من أجل تعليمهم أن الحياة ليست القتل ، وأن الحياة أيضاً ليست تأجير البندقية للآخرين . . حدثنا الجنود عن قصص الدم المرتعش والمنفلت في مساحات الاشتهاء ، كذلك روي لنا عن منظر الدم وهو يتدفق من جثث الجنود ، وشهوة التمثيل القاتل بالأموات . كان الكردي يعشق فصل الرؤوس عن الجثث ، ويعشق الحرية في القتل . كان الجنود صغارا في السن ، لكنه كتب عليهم أن يواجهوا شهوة الموت المتدفقة بلمساتهم ، وكانوا يواجهون في الغالب عصابات الأكراد الهائمة والباحثة عن القتل من أجل الاستيلاء على السلاح والمتاع ومن ثم بيعه . يحب الكردي سلاحه ، فهو متعته الوحيدة في هذا العالم . كان الكردي في السابق وحتى الآن عبارة عن شيئين لا ثالث لهما ، إما قاطع طريق أو قاتل مأجور . تذكرت هنا ما كتبه ديفيد مكدول وتصورت أنه قد مر بالظروف ذاتها التي مررت بها فتكون لديه هذا الإحساس . ماذا يفعل الفلاح الكردي في الأيام التي لا يوجد فيها عمل في الحقل . ببساطة يحمل بندقيته ويقتعد مضيقا أو قمة مشرفة على طريق ، ويمارس هوايته في التدخين وقتل المارة أو سلبهم . حاول صدام حسين وقبله سياسيون وطنيون . أن يغيروا هذه التركيبة ، أن يمنحوا الكردي سببا آخر للحياة غير القتل وتأجير البندقية . لكن كل المحاولات فشلت ، وبقي الكردي يمارس القتل إما للهواية وإما للتسليب ، وإما خدمة لعدو خارجي . لماذا يحب الكردي القتل ؟ مر هذا السؤال سريعا في ذهني . هل الحب للقتل جزء من التركيب الداخلي له ، أم أن القتل رغبة في إشباع المكونات الداخلية له ، أو ربما هي بقايا الحيوانية البشرية التي لم تزل مغروزة به ولم يستطع التحرر منها بعد . هناك بالتأكيد مراحل في حياة الإنسان ، لكن هذا الكردي لم يصل حتما إلى مرحلة العي الروحي والاجتماعي . العالم

بالنسبة للكردي شيء واحد ، هو بندقيته وأقراص جبنة الماعز ، وخبز الرقاق . ويجب أن لا ننسى التبغ الحاد والأموال التي يعشقها بشكل جنوني . لذا فالكردي يحول دائما كل أمواله إلى ذهب يحمله في حله وترحاله . لم يستطع الكردي ، رغم محاولات صدام حسين ، أن يتحول إلى إنسان مديني . في إحدى مراحل التاريخ جمع صدام مجموعات كبيرة من الأكراد وأسكنهم في دهوك ، جنبا إلى جنب الآشوريين . كانت الحكمة من هذا أن يؤثر الآشوريون على الأكراد فيحولوا البداوة إلى روح مدينية ، لكن هذا لم يحصل . الآن تشاهد في مدينة دهوك انفلات الاسلحة . الكل مسلحون ببنادقهم . حولوا المدينة الجميلة إلى غابة من البنادق برغم تمتعهم بالحماية الأمريكية التي تمنع صدام حسين من إعادة المدينة إلى الوطن . في إحدى المرات حاول جلال الطالباني إزالة المظاهر المسلحة المنفلتة في أربيل حيث الجميع يتمنطق بالسلاح . لكنه فشل فشلا ذريعا ، وبقيت الأسلحة مشاعة بشكل فوضوي . من هنا استنتجت أن الكردي إنسان مسلح بالفطرة ، ويحب القتل والتمرد ، وليس هذا مرده إلى اضطهاد السلطات والحكومات له ، إنما هي نزعة متأصله فيه إلى يوم القيامة . الذاكرة الشعبية تحتفظ عن تسلح الكردي بالشيء الكثير . فبالرغم من عدم وجود سلطة صدام حسين في المحافظات الشمالية ، إلا أن التسلح لم يتغير ، الجميع يحمل سلاحه ، سواء كان البيشمركة أو الأهالي . أما الصراعات المسلحة بين الأحزاب الكردية فبقيت مستمرة ، وكأنما مكتوب على البسطاء من الشعب الكردي أن يبقوا تحت رحمة الاضطهاد وقوة السلاح . لم يتغير أي شيء إذن . ذهبت سلطة صدام لكن سلطة جديدة انبثقت ، هي أشد هولا من سلطة صدام . كان صدام حينما يستعمل القوة ضد الأكراد فإنه لم يكن يستعملها بشكل اعتباطي ، إنما

لأسباب وجيهة ، منها استئصال شأفة المتعاونين مع الموساد والإيرانيين . أما اليوم فإن الأكراد وأحزابهم يتصارعون حول الأموال والنفوذ . من هنا تسقط حجج الأحزاب الكردية من أن سبب حمل الكردي للسلاح هو اضطهاد الحكومات المتعاقبة له . الآن يعيش الأكراد تجربتهم الخاصة ، لكن الاضطهاد لم يزل مستمرا وربما بشكل أعتى من السابق . كما أن الحروب الداخلية والسرقات والفساد المالي والإداري وصل إلى مراحل متقدمة للغاية . لن يمر شهر دونما صراع مسلح بين مجموعة أحزاب . أما القانون فهو نكتة كبيرة يضحك الأكراد منها بشكل مثير للشفقة .

عندما اقتحم صدام حسين مدينة أربيل من أجل إعادتها إلى مسعود مقابل ثمن ، هو رأس المعارضة العراقية ، شعر اهل أربيل بنوع من التحرر الخفي يسري في عروقهم . وهذه الحالة مصاحبة للفترة الأولى من التحرر من سيطرة حزب معين . أخذت ربة البيت التي نسكن عندها بالدعاء لعودة صدام حسين ليخلصهم من هذه الأحزاب الحقيرة . التقيت في تلك الفترة بالعديد من أهالي أربيل ، وكان شعورهم أنهم يتمنون بقاء صدام حسين ونظامه ، الذي هو أرحم مائة مرة من هذه الأحزاب . كان هذا شيئاً مفاجئاً بالنسبة لي ، لكنه كان الحقيقة . بعد سيطرة جماعة مسعود على المدينة وخروج الجيش ، بدأت سلطة مسعود في قتل المعارضين من جماعة جلال ، وكان بالإمكان رؤية الجثث في الشوارع وهي تجمع لتوضع في شاحنات . في تلك الفترة انفلتت غرائز الكردي في القتل ، حيث كان اصطياد الضحية يتم بدم بارد للغاية . غريزة القتل والتدمير التي تتوهج في الكردي متأتية من شعور عميق بلا انتماء له إلى المكان ، وهو المتحدر من الجبال والسهول الأرمنية إلى هذا المكان . التاريخ الكردي يدور في متوالية طرد السكان الأصليين والاستيلاء على الأراضي . إنهم أقوام تريد أن تولد

لتكون شيئاً مشابهاً للأمة ، لكن مرحلة تكون الأم قد انتهت من أمد بعيد ، والمرحلة الحالية هي ليست الفترة المناسبة لمثل هذا الشيء ، إنها مرحلة العولمة وضياع الخصوصة القومية في سياقات السوق واقتصاده . العالم تغير الآن كثيرا ، ولكل مرحلة عناوينها وسياقاتها ، لكن الكردي دائما مصاب بعاهة الحساب الخطأ . تماهي الكردي مع القتل غريزة بدائية لا زالت تروض صاحبها وتدفعه إلى الشروع بالتهام الأجساد والعظام . ربما آلهة الكردي الخفية هي التي تطلب منه هذا الشيء ، وربما هذه الآلهة الوثنية وغير الواضحة هي التي تعشش في عقل الكردي ، فتمنحه طمأنينة القتل والتخلص من الأعداء ، أو ربما هي بنية الكردي ذاتها هي التي تمارس انعكاسا فيزيقيا عليه . لكن أين هي بيئة الكردي ؟ أين ملامح الأرض وحدودها ؟ الأرض الكردية عبارة عن وهم ، إذ لا أرض للكردي ولا تاريخ في الأصول . هو مصاب بنزعة استئثارية وتحطيمية لكل المجموعات البشرية التي يقابلها في طريقة . هكذا تعمل خاصية غموض الأصل الكردي في الدفع إلى الانتقام من الشعوب التي وصلها . إنه نوع من الشعور بالغبن أو الشعور بالغيرة من الشعوب التي تمتلك معرفة لأصولها ، وتمتلك تأريخا ودولا في المراحل التاريخية المختلفة . هكذا تفجر الحقد التاريخي تحت زخم عدم وجود أصول حضارية للكردي ، باتجاه ارتكاب مجازر دموية بحق التركمان ، الذين تسامحوا معهم وأسكنوهم في مدينتهم كركوك . وهكذا اشترك الأكراد وكان لهم قصب السبق في مذابح الأرمن . وهكذا فعلوا مع العرب ومع الحلفاء من الاحزاب العربية حينما هاجموهم في بشتاشان ، وقتلوا كل الشيوعيين العرب واغتصبوا النساء . وهكذا هم أيضاً مع الآشوريين ، أهل الأرض الأصليين ، حينما ارتكبوا بحقهم المجازر . ومثل ذلك عندما ذبحوا المعارضة العراقية في أربيل . إنهم

اقوام عبثية بربرية تعيش في عصور غابرة بعيدا عن الحضارة والتمدن . الكردي ، عبر تاريخه القصير في الذاكرة الحضارية للمنطقة ، لم يهتم بالبناء ولا الإعمار ولا تطوير المدن . إنه يشبه أسراب الجراد التي تجتاح الحواضر والمزارع لتحيلها إلى ركام . محاولات صدام في أنسنة الكردي باءت بالفشل ، وفشلت معه فكرة تحويل الكردي إلى عنصر إيجابي في المعادلة العراقية . كان صدام يفكر أن يجعل الكردي صاحب أرض ومزارع ، وأن يحرره من سلطة الآغا رئيس العشيرة ، إلا أن الكردي كان يتمرد على هذا التحرير بالعودة أكثر إلى جذوره الهمجية ، مؤججا في نفسه رغبة القتل والتدمير . لم تنفع مجاورة الكردي للآشوري في تعلم الحضارة . كما لم تنفع مجاورته للعربي في الانغماس في الأرض والدفاع عنها ، وعدم مد اليد إلى العدو الخارجي . عبد الكريم قاسم حاول هو ، أيضاً ، أن يجعل للكردي كينونة خاصة به ، لكنه فشل أيضاً بالرغم من أنه سمح بتجنيس مئات الأكراد القادمين إلى العراق من مناطق إيرانية وتركية واعتبارهم عراقيين . كانت تلك بادرة حسن نية للقيادات الكردية ، التي لم تكتف بكل مافعله معها عبد الكريم قاسم ، فحملت السلاح بوجهه وحاربته ليس من أجل سبب محدد ، إنما بإيعاز من الغرب ومن الاسرائيليين تحديدا ، وبعد تبين اتجاهات عبد الكريم قاسم السياسية وميله إلى المعسكر السوفياتي .

قلت لأبو سيف ما هي المفاجأة التي وعدتني بها؟ فضحك وقال في الحال . انحدرنا إلى شارع جانبي ثم صعدنا سيارة أجرة وطلب أبو سيف من السائق باللغة الكردية أن ينقلنا إلى شارع مجهول بالنسبة لي . بعد نصف ساعة من التخبط في الأزقة الجانبية وصلنا إلى أمام منزل متواضع . كانت الشمس قد بدأت في الميلان باتجاه الغروب . في تلك الدروب

الفرعية والجانبية والملوثة بفضلات الحيوانات ، بدأت أشعر بقلق يسري في عروقي ، حيث كنت أكره الخروج من مكاني في أوقات مغيب الشمس أو الليل . كانت تلك هي بقايا المخاوف التي انزرعت في ذهني يوم كنت في عمان ، حيث اعتدت علي مجموعة من (الزعران) فكسرت يدي وأصابتني برضوض متعددة في جسمي . توقف أبو سيف ليستطلع المكان بشكل جيد ثم طرق أحد أبواب البيوت الفقيرة . بعد دقائق علا صوت من داخل البيت ، وما إن فتح الباب حتى تلقف رجل أبا سيف وضمه إلى صدره . دخلنا البيت حيث كانت حقائب سفر موزعة في المكان ، وبعد دقائق عرفني أبو سيف على العائلة الموجودة في المنزل . كانت هذه العائلة مكونة من أم وأب وجدة وأربعة أبناء وفتاة في مقتبل العمر ، تعرف أبو سيف على هذه العائلة في أربيل حيث كانت تمر بأزمة مالية وقتها ، وكانت الحالة المادية لأبي سيف جيدة ، حيث مكنته من مساعدة رب الأسرة ، وبهذا الشكل توثقت العلاقة بين هذه الأسرة وبين أبي سيف الذي سكن معهم في المنزل ذاته لأكثر من عام بعد ذلك . لاحظ أبو سيف اهتمامي بحقائب السفر ، وقال إنهم سوف يسافرون إلى تركيا بعد غد ثم إلى إسرائيل . أصابني ماقاله أبو سيف بصدمة ، خاصة أنه قال ماقاله ببرود أعصاب يحسد عليه . لم أستطع أن اتكلم بحرف واحد ، لكن عينيّ كانتا تنتقلان بين صاحب البيت وبين أبي سيف . ابتسم أبو سيف ودعانا رجل البيت إلى الجلوس وتناول الشاي المعد على (السماور) . جلسنا على البسط الكردية المفروشة ، ثم صبت ربة البيت لنا استكانات الشاي . تكلم أبو سيف بالكردية مع صاحب البيت ، ثم اضاف بالعربية أنه سوف يسرد لي القصة كاملة . أية قصة ، لم أفهم على وجه التحديد ، وسرت في نفسي شكوك وتقزز من أبي سيف الذي عاجلني بطعنة أخرى

عندما قال : لقد هاجر إلى اسرائيل ١٥٠ ألف كردي بعد تحولهم إلى الديانة اليهودية . بدا مضيفنا متضايقا بعض الشيء . لكن أبا سيف قال له إن كاكه سلاح صديق مخلص . فانفرجت أسارير الرجل على الفور وبدأ بشرب الشاي بصوت مسموع . قلت لأبي سيف ، حسب علمي أنه لا يوجد يهود في شمال العراق ، فمن أين جاء هذا العدد ؟ أجاب أبو سيف : فعلا انه لا يوجد يهود بهذا العدد ولا أقل منه . إنها حكاية طويلة سأرويها لك الآن . كنت متحمسا فعلا لسماع هذه الحتوتة كما يقول أهلنا في مصر ، خاصة أني شاهدت مكتب الموساد في شقلاوة ومصيف صلاح الدين ، وكنت أتصور أن الموضوع لا يزيد على مسألة تجسس وتحطيم سلطة صدام حسين والدولة العراقية بمساعدة الأحزاب الكردية والحزب الشيوعي العراقي ، لكن يبدو أن الموضوع له تبعات أخرى وزوايا بحاجة إلى الإضاءة . دارت صينية الشاي مرة أخرى ، وبدا مضيفنا محرجا نوعا ما حينما بدأ أبو سيف في الحديث . في أواخر العام ١٩٩٢ ، قال أبو سيف موجها كلامه إلي وهو يرتشف الشاي : جاء إلى أربيل شخص يهودي عبر منظمة إنسانية واسمه بنيامين إيلون . كان هذا الشخص ، وبرغم أنه لا يشغل منصبا مهما في هذه المنظمة الإنسانية إلا أن الاهتمام الذي لقيه من لدن جماعة مسعود وجلال كان كبيرا ، حيث وفروا له الحماية الكاملة ، كما أنه وضعت تحت تصرفه سيارات هذين الحزبين . وبعد استقراره في أربيل ، وبعد اجتماعات مطولة وعديدة مع مسعود وجلال ، تقرر بدء العمل ، حيث استلم كلا الحزبين مبالغ مالية كبيرة ، وراحوا يتصلون من جهتهم بالعديد من العائلات الكردية بغرض تهويدهم وإرسالهم إلى إسرائيل مع دفع مبالغ مالية كبيرة لهم . ولأن الكردي ضعيف الالتزام بالديانة الإسلامية ، فقد نجح كلا الحزبين في تسجيل

العشرات من العوائل الراغبة في الهجرة إلى اسرائيل . بدأت أعداد العوائل بالازدياد ، خاصة أنه تم إعلامهم أنهم سوف يستلمون في اسرائيل راتباً شهرياً مقداره خمسة آلاف دولار ، مضافا لهذا منحة مالية كبيرة لغرض شراء أغراض المنزل . كانت الصفقة بين جماعة جلال ومسعود وبين الموفد لاسرائيلي أن الحزبين سوف يقبضان على الرأس . ونتيجة لهذه ، عملت أجهزة الحزبين والحزب الشيوعي العراقي وباقي الأحزاب الكردية الأخرى ، على الاستفادة القصوى من هذه العملية . وتم تحويل الأموال إلى حسابات خارجية . بدأت أعداد العوائل المسجلة للهجرة إلى اسرائيل في ازدياد ، وأمام هذا الزخم تم فتح مكاتب إضافية ضمن مكاتب جماعة مسعود وجلال لتنظيم عملية الهجرة ، وأشيع أن الهجرة هي إلى المانيا والدول الاسكندنافية ، وطلب من المهاجرين الجدد عدم التحدث بمسألة السفر إلى اسرائيل . ومن أجل إخفاء العملية ، تم تقسيم العوائل إلى وجبات ، حيث بوشر بتسفير الوجبة الأولى في بدايات العام ١٩٩٣ .
بعد اكتساح الجيش العراقي لمدينة أربيل عام ١٩٩٦ توقفت عملية الهجرة مؤقتاً ، وذلك لهروب المندوب الاسرائيلي ، بعد أشهر من الاكتساح عاد المندوب بعد أن قام حزب مسعود بالاتصال به وتقديمه لضمانات تتعلق بالأمن الشخصي له . توسعت العملية بعد اكتساح الجيش ، وبوشر بتسفير وجبات متعددة في وقت واحد على أمل الانتهاء من العملية في أسرع وقت . كان حزب الطالباني قد استفاد من العملية بشكل أوسع من حليفه البارزاني ، وذلك أن مركز ثقل عملية التسفيرات كان في مدينة السليمانية ، وقد جر هذا الأمر إلى مشاكل على العملية برمتها ، نتيجة اعتراض البارزاني على قلة المسفرين من منطقته . ونتيجة لهذا ، اتخذ المركز الاسرائيلي إجراءات أوسع من أجل زيادة أعداد المتهودين في مناطق

بادينان التي يسيطر عليها حزب البارزاني . كما قام الاسرائيليون بفتح مراكز تعلم الديانة اليهودية للجاهزين للسفر ، وهذه المراكز موجودة فقط في مناطق البارزاني ، حيث عمل المركز اليهودي على تقسيم العمل بين مراكزه المختلفة الواقعة بين منطقتي الحزبين . أثناء عملية التسفيرات كانت تحدث بعض المشاكل المتعلقة بانتقال المسفرين بين مناطق الحزبين ، وذلك على خلفية الصراع بين الحزبين . ومن أجل تلافي هذه المشاكل ، شكلت لجنة من الحزبين ، رغم الصراع بينهما ، من أجل تنسيق عبور المسفرين بسلاسة بينهما . وهكذا يا صديقي وصلنا إلى النهاية في هذا الموضوع . لم أحر جوابا عن كل ما سمعت ، ولم أفاجأ بشكل كبير إلا في حالة الاعداد الكبيرة من الذين أعلنوا تهويدهم . كان الرقم ضخما للغاية ، واستطعت التشبت مما فكرت به سابقاً ، من أن الرابطة الإسلامية ، أو النزوع الإسلامي عند الأكراد ضعيف ؛ لأنهم بالأساس غير مهتمين بهذه الديانة ، وأن إيمانهم بالإسلام ليس إلا تغطية على ديانتهم السابقة المتجذرة عميقا في أنفسهم . كانت حالة التهويد تجري في المجتمع الكردي على قدم وساق ، بالإضافة إلى التنصير الذي أخذ يستشري في هذا المجتمع ، حيث بدأت طلائع المبشرين بالوصول إلى المنطقة ابتداء من العام ١٩٩٢ أو تحديدا بعد خروج المنطقة من قبضة السلطة المركزية . كنت شاهدت العديد من مراكز التنصير وهي تعمل بشكل علني ، عكس مراكز التهويد التي كان عملها سريا . كانت مراكز التنصير تعمل بشكل متواصل وحثيث ، وكانت هناك دورات تأهيلية للذين يتم تنصيرهم . وتشير إحصائيات غير رسمية إلى أن الحركة التنصيرية استطاعت تنصير مامجموعه ٢٥٠ ألف عائلة في مناطق سوران وبادينان . كانت عملية التنصير مثل التهويد ، تعمل بموافقة جماعة البارزاني والطالباني ودعمها ،

وتقبض مقابل السماح للمبشرين بالعمل أموالاً يتم احتسابها على عدد الرؤوس المنصرة . كانت أربيل هي المركز الرئيسي للجمعيات التنصيرية ، ومن هذه المدينة كانت تنطلق الوفود التبشيرية إلى المناطق الكردية كافة . كما أن كل أمور الطباعة وغيرها كانت تتم في مطابع المدينة ، التي سيطر عليها حزب البارزاني بعد طرد جماعة الطالباني . كان البارزاني والطالباني يتعاملان مع الجماهير الكردية على اعتبارها قطعان ماعز ، وكان هذا واضحا في تجريد المنطقة بالكامل ، سواء الخاضعة إلى الطالباني أو البارزاني ، من البنية التحتية وبيعها إلى إيران ، من مثل المصانع التي تشغل أبناء المنطقة ، وخطوط الضغط العالي الكهربائية ، ومراصد الأنواء الجوية ، والشاحنات ، ووصل الأمر بأحد الأحزاب أن باع حديد أحد الجسور إلى التجار الإيرانيين . كان كل شيء معروضاً للبيع ، حتى الضمائر والشرف ، وكنت أشك كثيرا في وجودهما أصلا . كانت أجهزة المخابرات الدولية ، وتحديدا الأمريكية والاسرائيلية والإيرانية ، تسرح وتمرح في المنطقة ، وكان شيئا عاديا جدا أن تجد الحسينيات الفارسية ، التي هي مراكز للمخابرات الإيرانية (الاطلاعات) جنبا إلى جنب مقرات المخابرات الإسرائيلية في تناغم عجيب ومدهش . ومن المحتمل ، بل من المؤكد ، أنه كان يجري بين الطرفين تنسيق في أعمالهما (التبشيرية) . كان إسقاط صدام ونظامه الهدف المشترك بين الطرفين ، وكانت الإدارة الأمريكية ، بوجودها قريبا ، تراقب المشهد السريالي هذا . في أواخر العام ١٩٩٢ ، وعشية تأسيس المؤتمر الوطني العراقي ، جاء مندوبو المخابرات الأمريكية والإسرائيلية إلى مصيف صلاح الدين ، وطلبوا من الجلبي ترشيح عناصر للعمل للمخابرات الاسرائيلية والأمريكية . كان اللقاء في صلاح الدين يضم البارزاني وأحمد الجلبي وممثلاً لأحد الأحزاب الشيوعية العراقية ،

بالإضافة طبعا إلى ممثلين للمخابرات الأمريكية والإسرائيلية وجماعة جلال الطالباني . في هذا الاجتماع ، تم تنسيق خطط العمل واتجاهاته ، وعرض البارزاني وممثل الحزب الشيوعي والجلبي ترشيح عناصر تابعة لهم . وبالفعل تم اتخاذ الاجراءات الكاملة وترشيح العناصر . وكان من المثير هنا أن معظم العناصر ، التي رشحها الجلبي وحصلت على موافقة الأحزاب المشتركة في الاجتماع ، هي عناصر المخابرات الإيرانية . كان الاسرائيليون يعرفون خلفية هذه العناصر ، أما الأمريكان فمن غير المحتمل أنهم كانوا على دراية بالذي يجري ، وكانت ثقتهم عالية للغاية بممثلي هذه الأحزاب . كانت الخطط هي أن يتم اتخاذ المؤتمر الوطني كمظلة لنشاطات الموساد والاطلاعات الإيرانية . وبالفعل ، فقد تم نصب مواقع تنصت إسرائيلية وأمريكية في مقر المؤتمر الوطني ، على أن يتولى هذه المهمة مرشح الجلبي والبارزاني ، آراس حبيب ، الذي سافر إلى اسرائيل من أجل التدرب على وسائل الاتصال الحديثة وإدارة الشبكات والتعامل مع المعلومات . كان مكتب البارزاني في إسرائيل قد أعد قائمة أخرى لمرشحيه ، الذين تم تدريبهم أيضاً في إسرائيل على أمور الاتصال وإدارة المعلومات وتداولها ، لكن المكتب الرئيسي للمؤتمر كان بإدارة آراس حبيب الكردي الفيلي والإيراني الجنسية . كانت خطة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية هي إنشاء شبكة تجسس تعمل تحت مظلة المؤتمر الذي دعي للانضمام اليه كل أطراف المعارضة السياسية ، وكان في مجلسه المركزي ممثلون عن كل الأحزاب التي وافقت على الانضمام للمؤتمر . كان تمويل المؤتمر في تلك الفترة يتم بواسطة المخابرات الإسرائيلية والأمريكية ، ونصت خطة العمل على الإسراع بإنشاء الشبكات التجسسية . وبالفعل قام آراس حبيب ومجموعة العمل التابعة له بمد الاتصال وإنشاء الشبكات ، وتقصي

المعلومات عن العراق ونظامه ، وبشكل خاص القوة الجوية والصواريخ وأسلحة الدمار الشامل ، وهي الأشياء التي كانت تشكل الأهمية القصوى بالنسبة للاسرائيليين .

أصر مضيفنا اليهودي الجديد على تناول العشاء معه . وبالفعل مد السماط وكنت جائعا بالفعل بعد مفاجآت أبو سيف المتعددة . وصل الطعام وكان يتكون من جبن الماعز والخبز الرقاق والشاي . وبعد الانتهاء ودعنا مضيفنا ، وتمنى له أبو سيف رحلة موفقة في الوطن الجديد . انزلقنا من البوابة باتجاه الشارع ، ومن هناك عدت إلى زاخو حيث الفندق الذي نسكن فيه .

في صباح اليوم التالي اتفقنا أنا ورياض على أنه من الأفضل أن نجلب عوائلنا إلى زاخو ، فهي أفضل من الناحية الأمنية . قلت لرياض إنه من الصعب علينا إبقاءهم في شقلاوة ، ومن الأفضل أن نأتي بهم إلى هنا ، فإذا ماحدث شيء ما مثل دخول الجيش إلى أربيل نستطيع أن نهرب بهم إلى تركيا . كانت زاخو مدينة ملاصقة للحدود العراقية التركية . وكنت أعرف إلى حد ما ، جغرافية المنطقة التي خدمت فيها سابقا أثناء وجودي في الجيش الشعبي ، كانت ربئتنا سابقا قريبة من منطقة إبراهيم الخليل ، وهي النقطة الحدودية بين العراق وتركيا ، وبهذا الشكل استطعت التعرف على السهول والتلال الفاصلة بيننا وبين الجانب التركي . وافق رياض على اقتراحي . وبعد أن أجرى مندوب أبو إبراهيم اتصاله بالجانب السوري بدون نتيجة واضحة ، أخذنا قرارنا وذهبنا إلى شقلاوة من أجل جلب عوائلنا .

في شقلاوة استطعنا بسرعة لملمة أشيائنا ، وهي كانت أشياء بسيطة لا تتعدى حقيبة سفر واحدة ، واتفقنا أن نرحل في اليوم التالي إلى زاخو . كان إسماعيل شاكر موجوداً أيضاً في شقلاوة ، وقد رتب أمره مع الحزب

الشيوعي الذي أخذ يساعده ماديا ، ولهذا لم يفكر بالسفر معنا في الوقت الحاضر . كان إسماعيل يعتقد أن علاقته الجديدة بالحزب الشيوعي سوف تفسح له المجال من أجل الدخول إلى سوريا ، عبر تزكية الحزب ، وهذا ما تبين أنه لم يتحقق بعد ذلك . فاضطر إلى الاستعانة بأحد الأحزاب الدينية من أجل دخول سورية . . تحركنا من شقلاوة في فجر اليوم التالي أنا ورياض وأبو آية وعوائلنا ، حيث كان الطقس في قمة روعته . وبعد سبع ساعات وصلنا زاخو المنهكة بأعداد الأكراد القادمين من كل الأرجاء للسفر إلى خارج البلد ، خاصة بعد أن أعلنت المنظمات سحب العاملين فيها وتسفيرهم إلى أمريكا . كانت زاخو في تلك الأوقات والأزمنة الخرافية تشبه مدينة بابلية بلا بدايات ولا نهايات لخطوط أسوارها الشاهقة . استطعنا في الليلة الأولى إيجاد غرفة في فندق بصعوبة ، وفي اليوم التالي حملنا حقائبنا وذهبنا إلى فندق آخر أرخص سعراً اسمه فندق اسطنبول ، شاهدنا في الفندق أبو أماني شريك أبو آية . أصبح الفندق عالماً خاصاً أو مدينة لها كيانها وأحاديثها السرية والمعلنة والفوضوية .كان الفندق عبارة عن طرقات متنوعة للهروب من الوطن . جماعات تفكر بالحصول على التزكية السورية ، وآخرون يفكرون بدخول سورية عن طريق التهريب ، وآخرون يخططون لدخول تركيا بشكل علني أو عن طريق التهريب أيضا . كنا وحدنا أنا ورياض نعيش أحلاما أخرى ، أحلام الكتابة والسفر وانتظار ما ستسفر عنه محاولاتنا لدخول سورية ، التي تبين أنها كانت فاشلة . لم نعرف لم لم يوافق السوريون على دخولنا رغم الوساطات المتعددة التي بذلها نجيب الصالحي ومحمود ومندوب أبي ابراهيم . أخذنا نشعر بالعزلة يوما بعد آخر ، خاصة بعد أن باءت كل محاولاتنا بالفشل للخروج من هذا المستنقع الآسن . كنا ننظر إلى الأكراد العاملين في المنظمات الدولية وهم

يجهزون حالهم للسفر بعين الحسد ، ولم نفكر في أنهم ليسوا أكثر من جواسيس . كان الوضع صعبا جدا ، وكان الفندق يستنزف آخر ماكنا نملكه من مال . لم تبق لدينا غير اسورة واحدة ، وماذا سيكون الحال بعدها . كان ذلك شيئا مخيفا ومرعبا . كانت هناك خيارات أخرى ، منها العودة إلى السليمانية والعمل في جريدة الاتحاد التابعة لجلال الطالباني ، إلا أن موضوعة أن يكون ملاذ هروبنا إذا ماحدث شيء إلى إيران هو الكارثة بعينها . أما الخيار الآخر فهو العمل في جريدة خبات العربية . كنت أشعر بالتقزز من أن أكون مرتزقا . فسابقا كنت أعمل في جريدة الاتحاد ، وإذا ما أردت العمل مرة أخرى في الصحافة فإنه لن يكون إلا في جريدة الاتحاد ، حيث يجعلني هذا أكثر مصداقية مع نفسي . التقينا في الفندق بأحد العراقيين الذين هربوا من إيران ويدعى طالب ، الذي أخذ يحكي لنا قصصا مأساوية عن أوضاع العراقيين هناك ، وخاصة الأسرى منهم ، وكيف كانت جماعة المجلس الأعلى تشرف على تعذيب الأسرى . كان هذا الشخص قد هرب من الجيش العراقي إلى الجانب الإيراني حيث وضع ضمن أقفاص الأسرى ثم أفرج عنه مقابل الانضمام إلى قوات بدر . أضف إلى هذا أنه ليس أسيرا أصلا ، فهو هرب إلى الإيرانيين بقدمه . كانت قصص السجون الإيرانية مرعبة ، كذلك حال العراقيين في معسكرات اللجوء . كان العراقيون في إيران عدة أقسام ، منهم بعض العشائر التي هربت إلى إيران وتم وضعها في معسكرات اللجوء . والقسم الآخر هم الأسرى ، أما القسم الثالث فهم المسفرون الذين حصلوا على الجنسية الإيرانية بسهولة ، كونهم من أصول إيرانية أصلا ، وبقي قسم آخر وهم المسقطون أو التوابون كما يسميهم الإيرانيون . وهؤلاء هم الذين تساقطوا أمام التعذيب الوحشي للمجلس الأعلى ، أو الذين يفضلون انتماءهم الطائفي على انتمائهم

الوطني . فيتحولون إلى أدوات بأيدي الإيرانيين ، ويقومون بتعذيب أقرانهم . يروي طالب ويقول ، التوابون هم أشد تنكيلا بالعراقيين في إيران ، وهم أعضاء في المجلس الأعلى والمخابرات الإيرانية . بتوجع واضح كان يرتسم على وجهه ، أخذ يروي لي كيف شارك أثناء الانتفاضة عام ١٩٩١ بتسلله هو وقوات المجلس الأعلى إلى داخل الأراضي العراقية ، حيث استولوا على المدن والقصبات ، وارتكبوا المذابح بحق الأهالي بدعوى أنهم موالون للنظام . كان إحساسه يتدفق بألم ممض وهو يتحدث عن الإعدامات الجماعية لكل من لم يلتزم بأوامرهم ويخرج لمقاومة النظام . ما زالت هذه الذكرى طرية في عقله الحاضر والباطن ، وهو يروي كيف ارتكب المجلس الأعلى والمخابرات الإيرانية المجازر والإعدامات الجماعية ، ودفن القتلى في قبور جماعية ، ومن ثم اتهام النظام العراقي بارتكاب هذه المجازر . كان الحقد على العراق يلف العيون ، وكان ضباط المخابرات الإيرانية يحثون جماعة المجلس على المزيد من القتل وتدمير الدولة العراقية ، ممثلة بدوائر الدولة وكل البنية التحتية العراقية . كانت قوائم الاغتيالات بأيدي هؤلاء الضباط وهم يوعزون لجماعة المجلس بتوزيع القتل المجاني على العراقيين .

لم أعد استطيع التحمل . . حكايات . . حكايات ، عن الزمن الملعون والقذر الذي أدار ظهره للعراقيين . في أثناء الحديث الطويل والشائك مع هذا الشخص ، كنت ألاحظ الغصص وهي تتصاعد إلى فمه ، فيتوقف عن الكلام ، ثم يشهق بقوة وكأنه يريد المزيد من الأوكسجين ، بعد ذلك يستمر في رواية كوابيسه . حينما سمع بإمكانية العودة إلى العراق تهريبا ، قرر العودة بسرعة وبأي ثمن ، ولكن ليس إلى مناطق السلطة والدولة ، إنما إلى السليمانية . يقول ، بالرغم من أنه ليس كرديا ، لكن السليمانية هي أرض عراقية . أشعر أني عدت إلى الوطن في كل الأحوال ، بالرغم من

أني لا أستطيع مشاهدة أهلي . المجلس الأعلى ، يقول صاحبي ونحن نتمشى بالقرب من الفندق وبمحاذاة الخابور والجسر العباسي ، هم مجندون للمخابرات الإيرانية - الاطلاعات - التي دربتهم ، وبعد أساليب غسل الدماغ المركزة على عمليات التفجيرات والاغتيالات والتجنيد ، وغيرها الكثير مما في جعبة هذه الأجهزة ، وقد ضم المجلس ضباطا من الإيرانيين للإشراف على عمل المجلس . لكن المثير ، والكلام لصاحبي ، هو غسل الأدمغة حيث تحول هؤلاء إلى أعداء للوطن ، ليس لهم غير رب واحد هو إيران . انحدرنا من ضفة النهر باتجاه الشارع العام . وبعد مسيرة قصيرة وصلنا إلى فرن صمون ، حيث ابتعنا لأنفسنا كمية منه ، وعدنا أدراجنا إلى الفندق . وجدت رياض بانتظاري ليدعوني إلى غرفته ، حيث افترشنا الاحشية العتيقة ، وجلسنا نقرأ أشعار عريان السيد خلف بصوت رياض الجميل . كنا نضحك ، وكان هذا الضحك فسحة صغيرة في جسد الحزن واللاأمل والضياع . قال رياض ، بعد جلسة الشعر المتناثر بين عريان وكوكب حمزة وأغاني الحزن العراقي ، إن اسماعيل سوف يصل مع عائلته إلى زاخو . لم أعلق ، لكني فرحت . كنت أشعر أن إسماعيل جزء من الثراء الروحي لي هو ورياض إبراهيم . في اليوم التالي وصل إسماعيل واستقر في مقر لجنة الحزب الشيوعي الكردستاني . أعطوه غرفة الاجتماعات ، واستطاع هو أن يغطي نوافذها المحطمة ببطانيات قديمة ، بعد أن وصل الشتاء مبكرا . كانت الغرفة صغيرة لكنها أفضل من أن تؤجر غرفة في فندق في كل الأحوال . أعلن المؤتمر الوطني أنهم سوف يرحلون غدا مساء . انتشر الخبر مثل الصاعقة وزلزل كل شيء . كانت الشخصية الأكثر بروزا وقتها هو نبيل الموسوي ، القادر وحده فقط على إدراج أي اسم في قوائم التسفيرات . قال أبو آية حينما التقيته في الفندق ، وبعد أن

عدت من رحلة تسكع ، إنه سوف يذهب إلى معبر إبراهيم الخليل بصحبة أبو أماني ، دعاني للذهاب أيضاً . قلت له إني لست عضوا في المؤتمر الوطني ولا في حركة الوفاق ، ولا في الجمعيات الأجنبية ، فلماذا أذهب . من الأفضل أن تذهب ، لا أحد يعرف ما يحدث هناك . قال . ووجدت كلامه معقولا . حضرنا أنا وزوجتي حقيبتنا وكذلك فعل رياض . وفي الغد ذهبنا إلى معبر إبراهيم الخليل . كان المعبر مزدحما بشدة ، والناس تنتظر أن تذاع الأسماء . كان القلق هو سيد الموقف . ووصلت عوائل من لبنان لها علاقة بنبيل الموسوي ، وأخذت مكانها في ساحة الانتظار . كنت أشعر بالتعب واللاجدوى من الوقوف . إلا أن أبا آية حثني على الانتظار . لن تخسر شيئاً ، قال . حدث هرج واضطراب ، تدافع الناس إلى البوابة حيث منعهم من الدخول أعضاء البشمركة الكردية . بدأت قراءة الأسماء . وبدأ الناس بالتدافع . كان مشهدا مأساويا اضطربت فيه أعصابي على نحو متغاير . كان السفر إلى أمريكا شيء كبير وغير مصدق ، وكنت أقول للآخرين إن السفر عبارة عن كذبة . لكن يبدو أني كنت مخطئا . وها هو ما يفصل بينك وبين أمريكا ، بضعة عشرات من الحرس ليس إلا . أخذ من يذاع اسمه بدفع الناس المتراصين بثبات . وكنت أسمع صيحات هذا البعض وهو يسب ويلعن . بعض الذين أذيعت أسماؤهم مزقت ملابسهم وهم يخترقون الصفوف . عوائل كاملة ، أطفال ، نساء بدا التعب والإرهاق واللاجدوى على وجوههن . صراخ الأطفال كان يأتي من كل جانب . فوضى الأشياء تتمرد على كل شيء . أخذت أعداد الواقفين تتناقص . لم يكن هناك غير أصوات الأطفال . عند منتصف الليل انتهى كل شيء . عبر كل الذين أذيعت أسماؤهم . وأخذ الصياح يتعالى من الذين لم تُتلَ أسماؤهم . أخذت النساء يقبلن أحذية المسؤولين عن دخول

البوابة . البكاء ، صرخات الاستغاثة ، الهلع ، اللامعنى في كل مكان ، لا بل في كل ذرة تراب كانت تتصاعد من حلبة مصارعة الثيران هذه . أغلق المسؤولون دفاترهم ورفعت الصحف . بقي هناك العشرات من الذين لم تذع أسماؤهم في هلع وعدم تصديق . شعرت بالتقيؤ يتصاعد إلى حنجرتي . أخذتني زوجتي إلى جنب وهناك تقيأت كل شيء ، كل شيء تقريبا . الدوار كان ينتشر في الواقفين مثل سيقان أشجار عارية من الورق . شاهدت أم آية تبكي بحرقة ، تتوسل اللامعنى واللامكان واللاجدوى . بعد ساعات من الوقوف المشدوه وغير المصدق ، ترك الحاضرون أمكنتهم . البعض من العرب انسحب إلى داخل مسجد إبراهيم الخليل . أما القسم الآخر فإنهم انسحبوا إلى زاخو بوجع ولوعة وغصص متصاعدة . انهارت أعصاب بعض النساء وافترشن الأرض بوجوه متربة . الأزواج كانوا لايحركون نأمة وينظرون إلى الهلع واللامصير الذي ينتظرهم بعيون فارغة مستوحشة . قلت لزوجتي إن الأوان قد حان للعودة . نظرت إلى أم آية وأم اماني . نظراتهن كانت هلعة ، تائهة ، مكبلة بأشياء غامضة لكنها سوداوية في كل الأحوال .

بدأت رياح الشتاء تعبر الطرقات وهي تكتسح القاذورات والأوراق وتدحرجها إلى أماكن سرية غير معروفة لنا . كنت أتحسس طعم رياح الشتاء الأولى وشكلها ومذاقها ، إذ إنها ترتبط بالنسبة لي دائما ببدء الدراسة التي كنت أكرهها . كان طعم رياح الشتاء يذكرني بعصا المعلم ويذكرني بأيام البرد القارص ، ونحن نجلس في الفصل الدراسي نرتجف من البرد ، فيما معلم الحساب يسلخ جلودنا المنكمشة أصلا . كنت أشعر بالخوف من طعم هذه الرياح ، أشعر بالرعب يسيطر على جميع أنحاء جسمي ، لكنني كنت أخرج إلى اللامكان . هدأت عاصفة السفر جزئيا .

أخذ البعض يحاول إيجاد مخرج جماعي للعرب الذين تبقوا . كانت أياماً سوداء بكل مافي هذه الكلمة من معنى . دخل حزب البارزاني على الخط وبدأت لعبة ثانية بالدوران . أخذت بعض العوائل بالتسول . عائلات أخرى أخذت تسرق طعامها . تحول جامع إبراهيم الخليل إلى ملجأ مؤقت سرعان ماطردت منه العوائل التي ذابت في زاخو مثل الرمل حينما تعصف به ريح متوهجة . بقينا في الفندق أياماً أخرى ريثما نجد غرفة نستأجرها في بيت . كان تأجير غرفة ضمن بيت هو حل مناسب جدا للتخلص من الفندق واستنزافه المتصل لما تبقى لنا من نقود .

هاقد ذاب الأمل . لم نعد نفكر بالحصول على الموافقة السورية . أخذنا نبحث عن مهربين ، عن طريقة ثانية لدخول سورية ومن هناك إلى لبنان . آه لبنان الذي أصبح الآن الملجأ الآخر الذي أزاح سوريا . من هناك ، من لبنان يمكن أن نقدم أوراقنا إلى الأمم المتحدة للحصول على اللجوء . كانت فكرة السفر إلى تركيا مستحيلة ، وذلك كون الحصول على الفيزة التركية يتطلب ٦٠٠ دولار للزائر الواحد ، وهو مبلغ كبير جدا في وضعنا هذا . طرق التهريب إلى تركيا هي الأخرى محفوفة بالمخاطر وغير مضمونة بسبب وجود الجيش التركي المكثف على الحدود ، وبسبب عمليات جماعة أوجلان ، إضافة إلى أن كلفة التهريب إلى تركيا هي أكثر من كلفة التهريب إلى سوريا . الكثير من العوائل العربية أخذت تفكر جديا بالهروب إلى سوريا . من يملك المال اتفق مع المهربين . أما الذين لا يملكون الأموال ، وهم الغالبية ، فقد بقوا في زاخو على أمل أن يأتي فرج ما .

أخذت تتطور عملية تسجيل الأسماء في زاخو للذين لم يتم تسفيرهم في المرة الأولى ، وأخذ أحد الأشخاص ، ويدعى أبو تراب ، وهو القادم من إيران وأحد التوابين ، في تسجيل الأسماء ، ثم أسس حركة

سياسية ، بمعونة جماعة مسعود ، الذين دخلوا في اللعبة أو هم من صمم اللعبة أصلا . بقيت أنا خارج اللعبة ولم أنضم إلى جماعة أبي تراب . شكل أبو تراب قيادة وأعضاء لجنة مركزية ، وقام البارتي بتزويدهم بسلاح لحماية المكان الذي يبيت فيه أعضاء الحركة وهو نادي المعلمين . زرت النادي مرة واحدة ثم خرجت بانطباع سيء عنه ، ليس بسبب الأشخاص إنما بسبب أبي تراب هذا وعصابته .

عدت إلى عادة التسكع في زاخو . وقبل أن نحمل أغراضنا من الفندق إلى الغرفة التي استأجرناها ، اتصل بي مسؤول الجبهة التركمانية في زاخو ، وطلب الحديث معي تحت في الشارع وليس في الفندق . كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا ، وكان هذا الامر غريباً جدا . كان موضوعا حساسا ومهما كما قال ولا يحتمل التأجيل . فكرت أنها ربما خدعة لاستدراجي خارج الفندق ومن ثم قتلي أو اختطافي . أقلقني هذا الأمر ، خاصة أني لا أمتلك سلاحاً للدفاع عن نفسي . كان هذا استسلاماً طوعيا . هبطت إلى الشارع ، كان مسؤول الجبهة برفقتي حينما شاهدت أحد أعضاء الجبهة ومعه شخص آخر يرتجف ، كانت الإضاءة ضعيفة وتأتي من أضواء الشارع العام الذي يزنر الفندق . خير ، ما هو الأمر الخاص والسري ، قلت . إنتظر لترى بأم عينك . قال مسؤول الجبهة ، ثم وجه كلامه إلى الشخص الذي كان يرتجف . تحدث الآن . اسمي يلماز وأعمل عضوا في الجبهة التركمانية . سوف أسافر غدا إلى تركيا في دورة تدريبية . لكنني سوف أهرب من هناك إلى اوربا . أريد ان أبوح بشيء يتعلق بك . نظرت إلى الشخص ثم إلى مسؤول الجبهة التركمانية . لم أفهم ماعلاقتي بذهابه إلى تركيا . قال الشاب ، لقد استدعاني جهاز الباراستن وطلب مني تحت التهديد أن أسجل كل تحركاتك ، وأن أبلغهم

بالأوقات المناسبة لاغتيالك ، على أن يبدو الأمر أنه من فعل النظام . وقفت مسمراً وأنا أشاهد بانوراما قتلي تتلى علي . توسل يلماز أن أصفح عنه ، وأن يبقى هذا الأمر سرا . التفت إلي مسؤول الجبهة التركمانية دون أن أمتلك القدرة على النطق . شعرت وقتها أني أمام فوضى تضيع فيها المسميات والوجوه والأشياء كلها . كان يمكن أن تجدني زوجتي مرميا ومخترقا بالرصاص ومرميا على رصيف بائس . وكان يمكن لها أن تفقد أثري إلى الأبد ، وحينما تراجع المسؤولين في عصابات مسعود يقولون لها إن الذي قتله أو خطفه هم جماعة النظام . تفو عليهم . قلت ليلماز إني أشكره وإني أسامحه . سرت على عجل وارتقيت سلم الفندق . في الغرفة وجدت زوجتي تنتظرني بقلق كبير . لم أحكِ لها القصة الجميلة لمشروع موتي . قدرت انها سوف تبقى قلقة . وطالما أن الأمر لم يحدث فلا داعي إذن لإزعاجها . لم أنم تلك الليلة . كنت أفكر بتوجع بالمصير الذي سوف تلقاه زوجتي فيما إذا تمت تصفيتي على أيدي هؤلاء الكلاب ، الذين ليس لديهم إحساس بالحياة ولا يؤتمن جانبهم دائما ، لأنهم ليسوا إلا مافيا وقطاع طرق محترفين ، همهم الأول أن يقبضوا الأموال وليس شيئاً آخر . القتل لديهم عبارة عن تسلية ، وتذكرت المجرم عيسى سوار حينما قتل أعضاء الحزب الشيوعي العراقي بدم بارد . كذلك تذكرت أنهم ليسوا أكثر من حيوانات مفترسة تمارس القتل وفق قانون الغابة ، كان هذا واضحاً في طريقة معيشتهم ، وفي طريقة حروبهم ، وفي طريقة تعاملهم مع الأسرى . الحروب الداخلية بين الأكراد كدليل مادي ، كان يفضح عنفهم الداخلي المتأسس على نزعة التماهي بالقتل . الذين سقطوا من الأكراد نتيجة حروبهم الداخلية على الزعامة أكثر مما خسروه في صراعهم مع الحكومات المتعاقبة في كل بلدان وجودهم . كانت أفكار القتل وطرقها تسيطر على

ذهني . ويبدو أني استسلمت إلى إغفاءة قصيرة لأستيقظ مذعورا من كوابيس مزعجة ، كانت تدور في الغالب عن الانتقام الوحشي لجماعة مسعود من عشيرة السورجية ، وكيف عروا النساء واغتصبوهم لمجرد أن فكر السورجية بشق عصا الطاعة على مسعود بارزاني . انبثق الفجر ولم أستطع النوم ، فقررت النزول وشراء اللبن للفطور . حينما نزلت السلم وأصبحت في الشارع ، كان أحد أعضاء الباراستن يقف على الرصيف المقابل ، وما إن شاهدني حتى أدار وجهه إلى الجهة المقابلة . عرفت من طريقة تصرفه أنه كان بانتظاري . لم أعرف ماذا أعمل للتخلص من هذا الموقف ، هل أعود أدراجي إلى الفندق أم أستمر في مشواري . وفي النهاية قررت العودة إلى الفندق وفكرت أنه من الأفضل أن لا أخرج بمفردي في مثل هذا الظرف غير الملائم . كان الباراستن ، وهو الجهاز الأمني لمسعود ، أو ما يمكن أن يطلق عليه المخابرات ، جهازاً واسعاً ، مخصصاً في الغالب للاغتيالات . كان هذا الجهاز وبالتعاون مع الأسايش ، وهو جهاز الأمن الداخلي ، يمارس سلطات واسعة جدا ، وهو يسيطر على حياة الأكراد بقوة . كان كل كردي ، بشكل ما ، مرتبطاً بأحد هذين الجهازين ، سواء بالقوة أم بالاختيار ، وبالنتيجة تحول الوضع في مناطق الأكراد إلى نسخة أخرى من نظام صدام حسين في السيطرة على أفكار الناس وهواجسهم . لكن صدام حسين حينما أعطى لأجهزة الأمن صلاحيات واسعة ، فإنه كان تحت تأثير العمل المعادي للوطن ، وكثرة الأجهزة والدول المتآمرة على العراق . أما رعاة الماعز هؤلاء فإنهم يسخرون مجتمعاتهم ، وعبر سلطة هذه الأجهزة الأمنية ، للتعاون مع مخابرات الدول الأجنبية وليس لحماية المواطن الكردي .

رياض يتجه إلى السرمدية

مرت الأيام في زاخو ثقيلة . كنا أنا ورياض ، الذي ازدادت آلام صدره ، غالبا ما نتذكر ، وبعد أن تنتهي الأحاديث اليومية عن الوضع الحالي ، حميد المختار وشوقي كريم ، وكنت أرسم في مخيلتي الوجه الإنساني لحميد المختار ونحن ننزلق في متاهات الشوارع والدروب الخلفية ؛ لنجلس في مقاهي غير معرفة . استكانة الشاي كانت بالنسبة لنا نوعا من الجو المقدس ، خاصة أننا لم نكن نحب العرق ، ولسنا مهووسين بالهالة التي يمنحها السكر لشاربه . كانت قنينة التوسيرام بالنسبة لي أكثر جدوى من أي مشروب آخر ، وكان أمير الحلاج ، ملك التوسيرام ، الذي يزودنا قدر الإمكان بأعداد منها لنفهم شعره الرائع . وجوه الأصدقاء ، مثل محمد الأحمد ومصعب أمير وكريم حسن علو وأمير الحلاج وإبراهيم البهرزي وحسن النواب وصلاح زنكنة وسعد جاسم وضياء سالم وجمال السوداني وحسين محروق وآخرين ، تمثل في الذهن ملجأ للهروب من الأزمات النفسية وأزمات انخفاض الاندروجينات في الجسم والذهن . هذه الصور كانت أشبه باللوغوس المحسوس به عن بعد لتدارك وعورة الحياة وتمظهراتها

المؤلمة . هنا يقترب الكائن السماوي من الغايات التي خلق من أجلها ، وكنت في أحيان كثيرة أتأمل حكمة الآلهة الهندية وهي تضعني في افتآت بلا نهاية . بعد جولة التسكع اليومي وارتشاف الشاي في مقاه عابرة ، كنت أعود من الأحلام إلى الأحلام . بعد صعودي للسلالم فوجئت بوجود مسؤول الباراستن في غرفة أبي آية . كان هذا شيئا مثيرا ، ووجدت نزلاء الفندق من العرب يجلسون في صالة الفندق فيما الهمز واللمز يتفجران . لم أفهم الذي يجري . وقررت الجلوس أنا أيضاً ومحاولة الاستفسار عما يحدث . بعد فترة من الوقت خرج أبي آية من الغرفة ، وبقيت أم آية بصحبة مسؤول البارستن . لم أشأ سؤال أبو آية لكنني لاحظت بعض الإشارات التي اخذ يتناقلها الجالسون في الصالة . تكرر المشهد هذا لثلاثة أيام متصلة . . خمنت من جهتي أنهم الان بصدد استخراج معلومات من أبي وأم آية عن الموجودين من المعارضة . آخرون فسروا الموضوع أنه لا يعدو أن يكون إعجاب مسؤول الباراستن بأم آية . لكني أخذت أستعيد في ذهني تلك المشاهد المثيرة للشك في شقلاوة ، والمتعلقة بوجود أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي في غرفة أم آية ، اضف إلى هذا أخذت أتذكر بشكل مقزز الأدوار المشبوهة التي كان يقوم بها أبو وأم آية في اتصالهم بمسؤولي المعارضة ، وإقامتهم جلسات السكر والرقص في بيتهم . أخذت الشكوك تزداد في ذهني أن أبي وأم آية يعملان لجهة ما ، وهما بحفلاتهما هذه اللتين يقيمانها لكل مسؤول على حدة ، إنما يحصلون فيها على معلومات سرية لتسريبها للجهة التي يعملان لها . كان أبو آية إنسانا لبقا وأخذت تتكشف لي احتمالات أنه كان يعمل لصالح جماعة مسعود ، وإلا لما أقام في شقلاوة فيما كانت كل مقرات المعارضة في أربيل ، وغالبية أعضاء المعارضة يسكنون في أربيل أيضا . كان

أبو آية يعرف كل مسؤولي جماعة مسعود ، وأخذ يتردد على مقراتهم في دهوك وزاخو بعد استقراره في زاخو ، بعيد وصول جماعة المؤتمر إلى زاخو للسفر إلى أمريكا . أخذت تتجمع في ذهني الخيوط ، وقدرت أن أبا آية متورط في علاقات سرية مع الباراستن . في إحدى الجلسات الخاصة معهم اعترفت أم آية بشكل غير مباشر أن مسؤول الباراستن طلب منهما السفر إلى السليمانية لغرض التجسس على جماعة الطالباني . فوجئت في الحقيقة بهذا الاعتراف المتأخر . لكن هذا الاعتراف أثبت ما كنت قد توصلت إليه من أن أم آية كانت عبارة عن فخ لإيقاع قادة المعارضة فيه ، من أجل الحصول على المعلومات السرية عن المعارضة العراقية ، وعن أي مسؤول يريد البارتي التعرف على آرائه بشكل واضح وصريح .

انتقلت من الفندق اخيرا إلى غرفة في منزل ، وكذلك فعل رياض حينما وجد هو الآخر غرفة في منزل يبعد عني مسافة كبيرة . أصبحنا الآن لا نلتقي إلا عن طريق الصدفة ، وغالبا مايكون هذا في مقهى أو على قارعة الطريق . فنذهب وقتها إلى أي مقهى جانبي لنتبادل الحديث والأشجان والمرارة .

جاء الشتاء سريعا ، وأخذنا نحس بهوس البرد . هذا هو الشتاء الأول لنا في شمال العراق . وكانت ملابسنا صيفية في معظمها . ذهبنا أنا ورياض إلى البالة واشترينا سُتَراً قديمة وبالية وأكبر من مقاساتنا . أخذ أحدنا يضحك على الآخر وهو بالهيئة الجديدة . لكنا بعد ذلك اعتدنا على مظهرنا الجديد والبائس والمتهرئ ، خاصة أن هذا المظهر أضيف له أحذية بالية ومسحوقة وبدون كعب أصلا . كان الأطفال لديهم ملابس شتائية كافية وهو ما أفرحني ، بقيت زوجتي بلا ملابس شتائية ، فاشتريت لها معطفاً تبين بعد ذلك أنه روب محاماة . أشياء عديدة

تستوجب الضحك ، الضحك على حالة الابتئاس والمرارة . هل وصل الحال بنا إلى مرحلة الضحك والسخرية . نعم ، ويعد هذا مؤشرا إلى أن الحال أصبح مأساويا بشكل خرافي ، لكني في كل الأحوال أفضل حالا من العوائل التي كانت تبيت لياليها في مقبرة زاخو القديمة . انتقل إسماعيل شاكر هو الآخر إلى غرفة في بيت لا يبعد كثيرا عن غرفتي ، سمح لنا هذا القرب أن نلتقي بين الحين والآخر . وفي زيارتي الأخيرة له وجدت شخصا يطلق عليه أبو عماد ، كان أبو عماد هذا يعمل شحاذا على طريق زاخو-إبراهيم الخليل ، ويأتي بما يحصل عليه من نقود إلى إسماعيل شاكر مقابل أن يسمح له إسماعيل بالمبيت معهم ، والتخلص من ملاحقة الشرطة السرية لجماعة مسعود . كل ليلة بعد أن ينتهي أبو عماد من عمله ، كان يمر على دكان المشروبات الروحية ليشتري قنينة العرق لكي يشربها هو وإسماعيل شاكر .كان إسماعيل محظوظا للغاية ، حيث لم تنقطع عنه إمدادات الشراب إطلاقا . في أربيل كان دائما مدعواً على مائدة الأدباء الأكراد ، حيث كان يداعب مشاعرهم دائما بالحديث عن الفدرالية والكردايتي . وفي شقلاوة كان يلامس الحزب الشيوعي العراقي بشفافية كبيرة ، فكان يكتب لهم المقالات مقابل قنينة الويسكي وبعض المال الذي يأتيه به الرفيق مفيد الجزائري . أما في زاخو فإنه أخذ يتقرب من العناصر الإسلامية عسى أن تفتح له طريق السفر إلى سوريا ، بعد أن يئس من الحزب الشيوعي ومن الحصول على تزكية . كانت كل الطرق مشروعة للخروج من المأزق الكبير الذي وجدنا أنفسنا فيه بدون إرادتنا ، وخاصة بعد اكتساح الجيش العراقي لأربيل ، وفي ظل عدم سماح مسعود للعمل المعارض بالانطلاق من المناطق الواقعة تحت سيطرته . دعاني إسماعيل أكثر من مرة لتناول العرق ، لكني كنت في تلك الفترة مكتئبا

للغاية وأشعر بالاختناق . خاصة أن ما لدي من النقود لن يكفيني إلا لأيام فقط . شاهدت رياض فيما كنت أسير بلا هدف في شوارع زاخو . لاحظت أنه كان قلقا ومرتبكا .كان يشد على يد كل من يراه بحرارة . لم أشأ إزعاجه في مهمته . كان سريعا ومتلهفا للسلام على كل من يعرفه . كان يسير أشبه بالمسرنم ، وكان في وجهه أثر غير واضح المعالم لخوف أو اللاجدوى التي اعتدنا عليها . راقبته من على ناصية الشارع ، وحينما وصل قريبا مني اندفع لمصافحتي . كانت عيناه تبحثان عن شيء مفقود . لم أشاهد هذه النظرة من قبل ، لكنني شعرت بالحزن العميق . كانت عيناه تنقل لك مأساة تسير على قدمين ، وكانت عيناه تنقلان إليك أيضاً إحساسا بالضياع الأبدي والاستسلام لقدر مجهول ، وبلا طائل . كم هي الأيام التي مرت علينا هنا ، عام ، أعوام ، عقود ، دهور ، لم أكن أدري . ولم يكن رياض يدري هو الآخر . سرت معه خطوات فقط ثم تركته شائها في لجة الشتاء والبرد والعدم ، عدمه هو وعدمي أنا وعدم الآخرين الممتنعين على الزمن الخرائي والغرائبي . تركني رياض وتركته منحدرا إلى مقهاي المفضل على ضفة الفيش خابور . كان الجو باردا ، لكنني لم أشأ الجلوس في الداخل ، واخترت مكانا قصيا حيث كنت أرى من مكاني الضفة الأخرى للمدينة . ثمة طعم كان للريح ، ثمة مذاق خاص للعاصفة التي لم تهب حتى هذه الساعة ولم تقتلعنا من أمكنتنا السرية والمعلنة . صورة رياض لم تفارقني في تلك اللحظة المرتبكة والغارقة في وحدانيتها . دخل أحد الذين أعرفهم ، ودهش من وحدتي المتلازمة مع البرد . لم أشعر بمزاج للحديث . شعر هذا الصديق بلا رغبة الكلام ، فانسحب إلى الداخل بهدوء . مرت أمام عيني الأيام الماضية الشوهاء والعرجاء ، الأيام الملوثة بغربة قاسية مضافا لها تشتت في الذهن والفكر . الأحلام كانت تتراقص

أمامي . في الواقع أنها ماكانت أحلاما ، إنما كوابيس مريرة ، ضفادع الربيع وأفاع عرجاء وأطفال تبدو عليهم الشيخوخة ، نساء مصنوعات من حديد أسود وأفواه تصرخ بلا جدوى . كنت أهرب باتجاه الشمس ، لكنني انتبهت في النهاية أنها لم تكن شمسا أصلا ، إنما هالة هلامية من خراء القطط والدم السائل من فرج امرأة تتلوى على الأسرة . كانت الأحلام تهرب بعجالة مخيفة لتخلف وراءها فزع الكوابيس . نظرات رياض الفارغة إلى الأمكنة كانت تطاردني بشكل لحوح ، ولا أعرف منها خلاصا . النهر يتدفق بقوة جارفا أفرعاً مقتطفة من أشجار ، لكن الحصى - حتى الضئيل الحجم - لم يكن يتحرك ، كان يعاند تيار المياه المتمرد والفوضوي ، كان يتمرد عليه وعلى سلطته الغاشمة . ترى لماذا هربنا نحن ولم نكن على الأقل مثل هذه الأحجار والحصى الصغيرة ؟ لا بد أنه لهذه حياتها الخاصة . كان مفروضا أن نبقى وأن لا نرتمي على برميل الخراء هذا . نظرة عينه لم تزل تشغلني ، أحاول الهروب منها إلى الحصى والأحجار ، لكن عينه تراقب كل الأشياء بما فيها حياتنا البائسة . يجلس جاسم نصيف على أول طاولة في فندق المنصور ميليا . أقترب منه وهو لا يعرف أني لم أجد أحدا يشتري تولستوي ، فاضطررت إلى تخليع الورق وعملت منه أكياس (حب) بعتها لأمير الحلاج الذي كان يشتريها مني ويرميها بعد ذلك إلى سلة الزبالة . كانت نفاية كبيرة ومزبلة لم أشاهد مثيلا لها في العالم ، حتى بين فردتي مؤخرة عاهرة . بصقت في النهر . شعرت باهتزاز جسمي ، كانت لحظات تذكر عارمة من الوله ومن الجنون ومن الكفر حتى بالقدرة السماوية . كانت جدتي تقول ان مصائبنا في العراق تتأتى من أننا شعب كافر ، في أية مشكلة تصادفنا كنا نكفر بالله ونلعنه . اكتشفت في عمان وفي بيروت أننا لم نكن الشعب الوحيد الذي يكفر بالله ، إنما كل

العرب يكفرون بالله ، وكأنه ليس الرب ، إنما آلهة وثنية . لم أر في مقولة جدتي أية صحة لما نحن عليه في العراق من مصائب . هناك لغز آخر غير معروف وغير مفهوم ، لغز مدجج بالأحجية والإحاطات الصوفية . ربما أيضاً أن سبب مصائبنا ليس الله إنما مجاورتنا لشعوب حيوانية مثل الفرس الطامعين فينا أبدا أكثر من غيرهم ، اليهود ربما ، أو لا أعتقد ، فاليهود بالرغم من أنهم تآمروا على بابل ، إلا أن الذي تآمر ربما بعض كهنتهم . وبالرغم من عودة أقسام كبيرة من اليهود إلى فلسطين ، إلا أن الغالبية العظمى منهم فضلت البقاء في أرض الرافدين . إنهم جزء من الكينونة العربية الرافدينية . هل هذا صحيح ؟ لا أدري ، إلا أن الفرس هم المأساة الأولى في حياتنا . إنهم أقوام تعيش على نهب أرض الرافدين أبدا ، ونحن دائما نصدر الدين اليهم ، منذ ماني البابلي وحتى الآن ، إلا أنهم غالبا ما يتخذون الدين وسيلة لمهاجمتنا على اعتبار أننا كفار . أشياء مغلفة بالكذب والعهر التاريخي والخراء الأزلي . المشكلة ، كنت أفكر أنها كل الاحتلالات للعراق كانت قد جاءت من الشرق اللعين هذا . .
انتهيت من تناول استكانة الشاي ، وأبعدتني مأساتنا مع الفرس عن التفكير في رياض . سرت في الشوارع التائهة . أنا تائه أبدي في ظل البرد واللوعة والاحتياج المحموم إلى معجزة سماوية ، أو وثنية تلملم شتاتي المضطرب والمائع مثل قطعة من السمنة الذائبة . كنت أشعر بالجوع ، ولذلك أخذت أفكاري تتخذ طابعا حيوانيا ، وبقريا على وجه التحديد . نصحني أبو فيصل ، وهو من المسفرين إلى إيران ، والذي حصل على الجنسية الإيرانية بمجرد وصوله إلى إيران ، باستغلال عظام البقر المقشرة من اللحم لعمل حساء . كان يسميها الكسور . دخلت سوق اللحم واشتريت عظمة كبيرة طلبت من القصاب أن يحطمها لي . كان القصاب ابن القحبة

قد قشر العظم تماما من اللحم . حملت العظام بفرح طفولي واشتريت أربعة اقراص من الخبز . لم يكلفني هذا إلا القليل جدا من النقود . وصلت البيت وطلبت من زوجتي أن تهتم بالعظام وتعدها على أفضل ما يكون . وضعت المسكينة العظام في القدر وانتظرنا أربع ساعات طويلة من أجل أن يخرج الدهن من العظم ، لكن العملية فشلت تماما . لعنت أبو فيصل والساعة الجهنمية التي تعرفت فيها عليه ، تناولنا ماء العظام بدون أي طعم للحم . كان هذا بوريا عظيما ، لكن على أية حال سددنا فيه رمقنا ، وأسكتنا الماكنة الحيوانية التي تصرخ من الجوع . نمت تلك الليلة على نحو مشوش . كانت صور الأصدقاء وشوارع بغداد تنهمر في تلاحق مذهل . صورة أم آية كانت تقفز من بين الأحلام لتقول لي ، وهي تقف على مذبح مشابه لمذبح مريم العذراء ، إنها تود أن تضاجعني ، وحينما أهم بنزع لباسها الداخلي كانت تذوب في عجالة ، ليفاجؤني صوت طرق مذهل ، ثم تقتحم الباب مجاميع للبشمركة الكردية ليقيدوني ويسلموني إلى رجال أمن النظام . لم أفهم لم كانت صورة أم آية تظهر في هذه الأرجاء الفارغة من الحياة في قاحل روحي . شعرت عندما رأيت أم آية أن روحي تكاد تفر إلى شوارع بغداد والدرابين الرطبة وهي تبتزني بأفخاذها ، والنهود العارمة المتوثبة الخارجة من فتحات الأبواب . في الساعة السادسة صباحا كان يمكن لي أن أنام بعد أن أحسست أن موتي أصبح قريبا . نظرت إلى زوجتي ثم أدرت نظري إلى الأطفال ، بعد ذلك شعرت باستسلام لمصير لا أعرف منه إلا الموت .

في الساعة السابعة صباحا جاءتني صاحبة النزل وهي تقول لي بالكردية التي أفهم منها بعض الكلمات إن أحداً ما يطلبني في الباب . نهضت مثل المجنون ، وجسدي لم يزل يرتعش . أعضائي كلها ترتجف ، ولم

أستطيع السيطرة عليها ، وأن أنظر إلى الشخص الواقف أمامي . كان أحد العرب ، وقال لي حينما شاهدني إنه من الضروري أن أذهب معه لأمر مستعجل . لم أكن اعرف هذا الشخص شخصيا ، رغم أني رأيته مرارا في زاخو ، وكان أحد أعضاء المعارضة العراقية قبل هروبها من شمال العراق إلى أمريكا . وجدت حلوم صاحبة المنزل وهي تتنصت على الحديث خلف الباب مباشرة ، بالرغم من أنها لا تفهم العربية . قلت لصاحبي انتظرني خمس دقائق لأخبر زوجتي وألبس سترتي . وصلت إلى الغرفة وكانت زوجتي قد استيقظت وفاجأها عدم وجودي . كانت تنظر من النافذة حينما قلت لها إن أحدهم يريد الحديث معي لأمر مهم . قالت باستغراب ، في هذه الساعة ؟ ناولتني السترة وأشعلت سيجارة وأنا أهم بالخروج من الغرفة . في الباحة كانت حليمة صاحبة النزل تجهز الماعز للراعي الذي يرعى معزاتها ، والذي سيأتي الآن . بعد خروجي إلى الشارع قال لي صاحبي إن رياض إبراهيم مات . ماهذه النكته السخيفة . قلت . لم يسمع صاحبي ماقلت على الأرجح واستمر في الحديث . البارحة ليلا نقل إلى المستشفى وتوفي هناك . الآن هو في الجامع الكبير من أجل التغسيل . نريدك أن تحضر . لم أستطع استجماع قوتي . شعرت بفوضى عارمة تجتاحني ، لكني لم أستوعب ماقاله هذا الأخير . حثثت الخطى ، بدأت أهرول في بعض الأحيان . من أبلغني الخبر كان هو الآخر مرتبكا ويبدو على وجهه تجهم واضح . بدا الطريق طويلا لاينتهي وكأننا ندور في لعبة حلزونية . أحسست بالتقيؤ . لم أفهم مايدور حولي . وصلنا أخيرا إلى الجامع . دخلت إلى المغيسل . كان رياض ممددا بوجه شمعي باهت وثمة كدمة زرقاء تغطي صدره . بكاء عائلته كان قويا . كنت أسمعه رغم الفوضى العارمة التي كانت تضرب رأسي ووجهي . قلبي كان يخفق بشدة

لم أجربها من قبل . كانت الشمس تتسلل من نافذة مرتفعة تشبه نوافذ التوقيف في العهد الملكي . لكني لم أشاهد الشمس . أين الشمس ، قلت . لكني لم أسمع أية إجابة . كانت الشمس مثل الله مختفية وغير مرئية ، ولم نكن نرى منها إلا أشباح الضوء المتسلل بقوة إلى جسد رياض المسجى . اقتربت من وجهه وأخذت أنظر اليه . كان نائما بعمق متوحش . الملة الذي كان يقوم بالتغسيل ، كان يقلب رياض إلى هذه الجهة وتلك بدون أن يبدو عليه التاثر . كانت أحاسيسي وقتها ميتة أو أني لا أحس بأي شيء . صدمة كبيرة لم أستطع الإفاقة منها إلى الأبد . لم أستطع منع الصور المتعددة التي كانت تقفز إلى الذهن بعجالة واضحة من التكرار المتتابع . كنت أشعر أنه سيستيقظ الآن وذلك لأنه نائم حسب . وأن الأمر كله خدعة ومداعبة منه . أنا أعرفه أكثر من أي إنسان آخر ، أعرفه منذ أن بدأنا نشرب الشاي سوية في مقهى حسن عجمي .كما أني أعرفه عندما كان يتشاجر شوقي كريم مع حميد المختار على تولي مسؤولية نادي القصة في اتحاد الادباء . شوقي المتنرفز دائما والفوضوي كان يميل إلى رياض من أجل أن يؤيده ويسانده بوجه حميد . لكن رياض في تلك اللحظة كان يغفو وذاهبا في أحلام العصافير غير المرئية . كنا نشاهد أحلامه واحداً إثر آخر . ولم نكن نرى في تلك الأحلام إلا أطياف المباني والشناشيل وبيوتات البصرة والعشار ، وجوقة طويلة عريضة من وجوه الأصدقاء . نعم اعتدنا على رياض وهو يغفو ويستل له لحظات من النوم في غمرة الرطوبة العاهرة في مقهى حسن عجمي ، وعندما كان ينزوي وينام على أريكة . ساعتها كان أبو داود لا يوقظه تكرما منه . أية اشياء تحدث الآن . أية صور سريعة وكأنما هي شريط سينمائي طويل نشاهده في سينما الرشيد ، فيما فرخجي يتحرش بطفل صغير . أزمنة مشتهاة ، أزمنة يتكالب فيها العهر

ونحن نقتحم محلة أبو السيفين والكفاح من أجل تناول وجبة رخيصة مع ضياء سالم ، الذي يشتغل خبازا في فرن مجاور . ها هي القحاب في أسطح الدور ، وهاهم النياجة في الدرابين التي حطمها رفاق الحزب وهم يبحثون عن متطوعين للجيش الشعبي ، أيها الأوغاد وأصحاب العمائم واللحى ، موتوا بغيظكم إن كنتم صادقين ، ياقحاب العالم اتحدوا من أجل درء خطر الحروب النووية ، اتحدوا من أجل مضاجعات أرخص من أجل الكادحين والجياع والمنهوبين ، من أجلنا نحن المستضعفين والفقراء . أيها الفرخجية ، اتحدوا من أجل عالم أكثر جمالا ومليئا بأطفال ذوي مؤخرات ملهمة . لماذا الاستغراب ، أليس في الجنة حور العين وولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ منثور . هاهي كولالة نوري تقف على المذبح السماوي ، وها هو رياض الآن ينام في أبدية مخيفة . لماذا لا تستيقظ أيها النائم . لماذا لا ترتعش فيك نبضات القلب وأنا أمسح جسمك بمياه الأنهار والمطر المتساقط عجولا . هل تنام الآن بدون أمل ، هل تنام الآن بدون أغطية ، إلا أغطية الشعر ، أين قصائدك الدامية والإلهية ، أين شناشيل البصرة وهي تغفو على ضفاف الأنهار . أحس خطواتك تأكلني مثل نار نمرود وأنا مثل إبراهيم الخليل ، لكنني لست صديقا لله . ها أنت قربه الآن . تنعم بلذة الوقت والمأساة المتحصلة بدون أشعار الآخرين بمقدار العالم . أطفو على الضفاف الخضر مثل بالونة سحرية وأنا اقرأك متناغما مع اللوثة المتوحشة لجنوني وصمتي الأبدي . هكذا كنت في حضرتك أيها الرافديني الجميل . مثل زهرة متفاقمة كانت قامتك وهي تكتسح غبار الحروب . مثل سوسنة العهد القديم والجديد كانت روحك تسلك دروب الله المتوحش والهمجي حينما اختارك لصلواته الماكرة . مر المسيح ويوشع بن نون ورامبو على محمد ليدعوه إلى حفلة عاهرة ، أما أنت فكنت ترفض الهزء

بالأشياء ،كنت ترفض الصلوات المتشحة بدماء الحروب . فكنت تقول لمحمد إني ماكنت أهيم في الوديان لأني حداثي ومستوحد في صومعة الشعر ، أي شعر الآن وأنت مسجى على صليب الأشياء . مصلوب أنت من أجل عيون الجميلات اللاتي ينمن في أحواض الورد الفيزيقي . يهرب التستورين ، يهرب البغض حينما يرى قامتك المديدة وأنت في زهو الأيام . هل حقا أنت لا تتحرك . لا أصدقك أيها الجميل وأنت مثل إله الومبي أو مثل إله بابلي . أمسس جسدك النائم ولا أكاد أصدق إلا أنها نكتة سمجة أن تموت الآن . لم أفهم الموت ، لم أفهم لماذا كان ضروريا أن تذهب إلى الله كما يقولون . لو كان هناك رب فعلا لأيقظك من إغفاءتك الجهنمية تلك . ليس هناك معنى لأن تموت ، أيها الجميل الذي كان يبصق دائما في وجه شوقي كريم حينما يستلف منه الدنانير الذهبية الثمينة . ها هو أبو داود الآن وحيدا بعد إغفاءتك هذه . ها هو الانفلات السحري وأنت تذرع الطرقات وحيدا . ولماذا كنت وحيدا أيها الجميل . أوجه سؤالي لوجهك ، لعينك التي تنام الآن غير مكترثة بشيء ، لكن دون طائل ، إذ لم تكن تتكلم وأنت تنام هكذا أو تأخذ قيلولتك الإجبارية تلك أو هذه . كما الصور الآن هي قيد التحقيق . كل الأشياء الآن هي قيد الاختبار . حتى صورتك أنت بالذات وهي ترتسم في مخيلتي الجامحة والمحطمة مثل خراء حطمته الطيور بمناقيرها إلى الأبد . ماذا سأقول لأحلام منصور الآن ، ماذا سأقول لحميد المختار حينما يزورني في الأحلام . هل أقول إني ضيعته إلى الأبد مثلما ضيعت من قبل يوسف وعيسى ومن قبل موسى حينما تركته في الساقية البحر ، أيها الجميل ، عهري وصلاتي ومنفاي متأتية من أنني كنت أصرخ في البرية ، لكن لم يكن يسمعني أحد أو أن الذين كانوا يسمعونني كانوا عبارة عن لصوص للزمن المتهالك . هكذا حطمت أصنام

توحدي وانطلقت أبحث عنك في ليالي النمرود ، أو في هضاب فلسطين في رحلة سماوية ، كان حصاني فيها البراق وسيفي هو الرغبة المنزوعة الشهية . حينما فتشت السماوات السبع لم ألتقيك ، وكان هذا شيئا مخيفا ، فأين كنت تقيم إذا لم تكن في السماوات . هل كنت تقيم في جلباب ابيض ام في بوتقة الوطن المتنفس في شعلة متلجلجة . لا أفهمك اليوم كما لم أفهمك من قبل ، وأقسم إنهم كلهم ، بمن فيهم بابا الفاتيكان ، لم يكن يفهمك . أيها الجميل المتراقص كمدا كما الطير . ماذا سأقول للحواريين من أتباعي . أأقول إنك صلبت على مذبح الله . أم أن أبناء القحبة أماتوك بخفقان مضطرب للقلب . لا يمكن لك أن تتركنا بسهولة أو صعوبة وأنت تتوسد هذا السطح الاسمنتي الهائل ، أيها الجميل الغارق في متاهة النوم المبكر وقبل الأوان . هاهي الملائكة المنتوفة الريش تسألني بإلحاح شديد ، لكني لا أمتلك الإجابة المثلى للبوح غير المعرف . البوح المجنون لجنوننا المخبول وهو يسفح على مائدة الوقت . هكذا يقلبونك ذات اليمين وذات الشمال ، فيما الملا يصب الماء وأدعية النهاية تقرأ بصوت مسموع بالكاد لأذني العاهرة . من يفسر لي الأحلام بعد الآن ، ومن يفسر لي هذه الفوضى الهمجية وهي تكتسحنا نحن الاثنين ، أنا وانت بمفردنا دون وجود الآخرين الفوضوي . أين الرفاق ، كنت تتساءل وكنت أقول لك كلهم أبناء قحبة من شيطانهم الكبير وحتى أصغر عاهرة في مسلسل القوادة هذا . لم أكن أريدك أن تأتي ، وحينما أتيت متحملا تخاريف الزمن وقسوته المرة ، تموت هكذا بسهولة عجيبة دون أن تكمل المشوار . أيها الجميل ، أيها الوسنان وأنت في نومتك الجميلة هذه والأبدية . ها أنا أقلب وجهي في السماء ، أقلبه في جو الغرفة المفتوح النوافذ ، فيما الآخرون ينتظرون خروجك الميمون من المغيسل ، مثل عروس

نائحة على منضدة الوقت . ها هي الدكة وها هي بقايا الملائكة ، البعض منهم وهم يزنرون الوقت بسلسلة الاشتهاء . لم أستطع أن أمد يدي إلى طهرك ، وذلك كون جبني منعني من التصديق . لا أصدق ، ونحن نخرج من المغيسل ، أنك في رحلة الأبدية التي ابتدأتها بأوقات غير مناسبة نهائيا ، أوقات من غير المفروض أن يموت الواحد فيها . . خرجت من غرفة التغسيل مطهما باللوثة المبتكرة للأشياء . الآخرون كانوا في الخارج ، في الاشتهاء الدموي لمناحة الزمن وهو يذوب كما الزبدة على شمس الاحتراق . أزنر ذراعي بموتك ، بالملائكة التي أسرعت بجنونها وهي تنقل طهرك السماوي إلى الرب . لم أستطع أن أبكي رغم أني كنت محطما تماما . لكن الدموع كانت تأبى أن تفر . ألم أقل لك إني غير مصدق موتك والكلمة السحرية التي جعلت الأشياء تبدو غير متوازنة وغير حقيقية . لم يزل نائما ،كنت أقول للعهر المتشبث ببوابات التحريم المنطقي للأشياء . الجميع كانوا صامتين ، وحين أخرجوك من غرفة التغسيل ملفوفا بالأقمشة البيضاء مثل طفل في قماطه ، ناحت بعض نساء العرب ، وكبر الرجال في تسليم أزلي للزمن وللحكمة المبطنة باللامعنى . كنت أذوب وأنت تفترش تلك الأشياء ، تفترش بؤسنا الأبدي . لماذا لم تكمل الرحلة أيها الجميل ؟ لماذا يتحول الزمن إلى حسب أشياء بلا معنى لها . أضعك على سيارة الرحلة الأخيرة ، آخر ما ستركبه في هذا الزمن النكرة ، الزمن الملعون الذي تربص بك الوقت . لا أفهم ولا أعرف كم من الأيادي امتدت لطهرك في ذلك الوقت ، طهرك السماوي المتلجلج بين ضفاف الوقت وبين حواف الزمن المقتول . لماذا خانك الحظ والوقت والزمن والقلب في تلك العشية ولم تستطع إكمال مشوار الاغتراب الملهم لعظايا الهروب نحو الممكن الأزلي . أيها الجميل الملوث بهاجس الوردة المبتلة فوق كفن العهر .

استمر الصراخ والعويل طويلا من قبل عائلة رياض . كنت ألمح السخافة المبتلة ببول الأرض . فأبكي دون دمع ، فقط ألم ممض يتربصني بشهوة الخصاء اللعين . أنزح افتراءاتي . أقشط نجماتي الذابلات فوق مذبحة الأنفس . التقيك ياجبرائيل على ناصية الشارع ، فأهرب منك كونك لا تفهم الملكوت الصرف تمام المعرفة . الخصاء النتن فوق بيضة الفكر المتلبد بانزياح القلب ، والكبد العجول في مسرح التمثيل الأبدي . نخرج من خيمة الأموات التي لا افهم سرها . الموت الملعون الذي لم أكتشف سره ومعناه . هل نحن مجرد آلات أم مخلوقات ذاتية الانطلاق والدفع ، أم ماذا أيها الرب المتخفي فيما وراء خلايا المنشأ المتربص بنا . أكره اللوثة التي تدفعنا بها إلى عهر الأيام وثمالة اللحظة المتجذرة عميقا في سماواتك . لم تميته أيها البهاء الأجل ، أيها المخضب بلح الأمل واشتهاء الجسد المتواكل إلى الدود . ها هي الأرض في موكب التمرد ، خصية التيه ، أطروحة الحناء المؤجلة من فيافي البصرة نحو تخوم زاخو . نقترب من الأرض المكر ، الأرض المبتلاة بطعم مذاق الإله الغض فوق زقوراته الزنبقية . نضع التابوت على الأرض ونبدأ الحفر ، التوثب ، اللعنات ، عانة الملائكة المرتعشة في مسلخ اللحظة ، عري الشهوة المبتلاة ، حروب المائة من السنين الخطل . أيها الجميل المتمايز بين ملائكة الخطم الطويل والسفود المشوية على فرن الوقت . تتجاسر الأيادي لتلمس جسدك ، فأتحرق لوعة ، أتذوق الخطل ، المطر ، التشوه ، الرغبة ، الكذب ، السماء ، الملائكة الواقفين صفوفا لتسلم روحك . هاهي الكلاب الشوهاء ، الكلاب المجردة من حس الملائكة وهي تعض روحك لتهرب بها إلى الرب ، القناص ، الصقر ، الوتد ، القوس ، النشاب ، الساعة المرة مثل سمكة القرش الوحشي يأكل رأسي ثم أجلس القرفصاء بلا قوة . لقد حطمتني بصمتك اللاهبة؟ صمتك المجنون

والعبثي . هلا قلت لهم من أنت ايها الجميل . في غرفة التغسيل -المغيسل- كنت أقرأ عينيك قبل إغماضهما . كانتا منطفئتين ، وحينما حدقت فيهما رأيت العوالم اللوثة ، العوالم الصفر ، العوالم المنزوعة والمتمردة على الذات . قرأت في عينك المتوقفة عن النظر إلى الأشياء ، تعلق روحك بروحك ، تعلق النظر إلى السماء اللانهائية ، وكأنك ترفض هذا العهر المتمرد على الإرادة ، التمرد الهمجي على استلال الروح ، سنتمترا إثر آخر ، وبوصة بعد آخرى . أيها الجميل المتكالب الأعضاء على أشيائنا التافهة؟ ها أنت لا تحتاج شيئا الآن ، تحررت من قذارة المسفوح والمكتوب والملعون . إلى سماوات اللازورد ترتحل لتحل علينا اللعنة فيما أنت ترفل مع الذين ذهبوا قبلك إلى اللامكان . هاهنا الرب ، يقول الملاك الأعرج الذي سفح روحك في مملكة الله الوثني . أقول للرب أنا الوثني الأول ، أنا السوسنة الشهية في مجزرة الرعب . أحسبك أنت الله ، أحسبك أنت الرب الوثني ، للطهر غير العادي في فوتونات الاستلاب المر . هجرت أيها الرب كل الحروب لتنام في ساحة حربي ، ساحة حربي الأبدية وأنت تقشر البرتقال ، فيما أنام أنا مع اللصوص والقوادين . أيها الجميل ، اللب ، الزهر ، الدفلة ، النخلة ، أقحوانة الرمز الإلهي وقناني العرق المركون في أحد زوايا خيمة الاجتماع . لماذا تقتله بشفرتك المرهفة أيها الرب الذي أخضعني لأوتار الحزن المرشوف علقما في الحلق . أعرج هو ملاكك المطهم بالدم ، أنت الذي لم تسمح للآخرين بفوضويتك اللئيمة فخلقت الدماء والحروب واللوعة والموت . الرب المستأنس بهتك أعراض النساء ، اللوحة الزيتية التي تكشف كل عهرك وانت في الأعالي المدلهمة . أنكر صحوك وأنكر عبثيتك . الصنو ، الدهر ، التعاسة ، الألم ، اللعنة ، نار الاحتراق ورغبة الإدخال المهبلي في فرج الوقت . أيها الرب

الجالس تحت سماء عبد القادر الجنابي ونصيف الناصري وسعد جاسم وعبد الستار ناصر وإبراهيم البهرزيس ، أمنحك الإذن ايها الرب لكي تنتحر وتحل المسألة سلميا ، أمحضك الابتلاء ، الجنون ، الوحدة العارمة وأنت في سماواتك البرية حينما تنفض عن وجهك غبار الحروب اليهودية التي أغرقتنا فيها إلى الأبد وكأننا عبيد ، لعبة وثنية ، ضحايا نزواتك العامرة بحب الدم ، بحب الموت . أيها الجميل الهارب منا إلينا . في حقلك الموسيقي وفي احتفالات توليك العرش ، كنت أهرب من نورك المسود بسخام الحروب . كل الطغاة أنت جلبتهم وكل القوادين أنت صنعتهم . في عرشك الكهرومغناطيسي ألتف على فوتوناتك المذهبة مثلما يلتف جان دمو على قنينة العرق . ألتف على الأشياء التي راكمتها عبر العصور منذ أن وجدت نفسك . أريد أن أسألك ؟ ألم تشبع غريزتك بعد ؟ حسنٌ قل لي متى سوف تشبع ، أليس للأمر نهاية . لا أعتقد ، فحتى نهايتك دامية أيها الماسوشي الكبير ، أيها الوثن المتحد في جسد الأقاليم . في صبغة النهار الموسق إجباريا ، أرى ملائكتك التي تضاجعها في أوقات القيلولة وأنت ترسم الحروب من على فخذي عاهرة أعجبتك ، فتلهفت لها وكأنك كائن أرضي . لقد ملئت القبور ، بقرت الأرض بمحراب صوانك لتدمي الجراح أكثر مما هي مدماة أصلا . أيها الجميل ، ها نحن الآن نحملك من الأرض ونضعك في التابوت . أية نهاية سخيفة لحلم مدمر والكتروني في نزعته الغريبة تلك . كانوا يولولون . أبهة الحاضر ولوعة الهجر وحراب القتل العتل في المزراب . نضعك في التابوت أيها السماوي ، وجهك ، بدنك ، قدمك ، كلها طهر بعد أن دعكك الملا بزهر الاغتراب والموسيقا ، ثم مسح جسدك بطهرك الذاتي ، أيها الجميل ، ها أنت الآن لست إلا أنت أو أنت لست إلا ذلك الشاعر الرقيق ، العفوي ،

البعيد عن المماحكات الشعرية وسخافات حسين الصعلوك وكل الوسط الأدبي . . نترجل من سيارة الأجرة ، ثم نحملك على الأكتاف في موكب مهيب يشبه موكب آخر البابوات العظام في هذا الكون السخيف . نضعك على الأرض فيما يتبرع أحد العرب بحفر القبر بهمة شديدة ، على اعتبار أن إكرام الميت هو سرعة دفنه . لا أفهم لماذا ولا أفهم السر الغريب في دفنك العجالة . ها أنت أمامي الآن فقط ، شيء أبيض مترامي الأزمان والأكوان . حطمني الموت . مزقتني الطيور الناعقة فوق القبر والمتحدرة من الجبال المحيطة بنا . سترقد هنا ياابن العشار وشناشيل البصرة المتفيئة بسعف الاغتراب . أمام الجبل وخلفك زهرات حجرية ، والسوسنات النابتة في أشهر قمرية مضيئة . نخرج الجسد من التابوت فيما التراب يغطي وجه حفار القبور . لم أستطع مسكك . لم أستطع تصور أنك أعلنت إلى الأبد النهاية دون مواجيد حسين الحلاج ، وقراءات الطواسين . أيها الجميل . . أتقرفص على ذاتي المتكدرة . أتقرفص مثل كولالة نوري على حفنات التراب وهي تتناثر منزلقة إلى اللحد . ضوء الشمس شكل خلفيات مظللة من اللاجدوى والعجز الكبير ، فاعترفت وقتها بأولى تباشير الاكتئاب الذي دمرني مثل نعجة برية أو ملاك يعاني من انفصام الشخصية . أقتعد مثل أعرابي أمام مجموعته الهزيلة من النعاج . فألمس الطهر بكفي ثم أتجمد حينما يصيحون بي ، أن أمسك الكفن ، فأرتعش متولولا ثم أمسك قدميك . ننهض لننزلك في اللحد المترب . هل هذه هي النهاية ، القبر ، اللحد ، النقرة ، الوثبة ، الارتعاش ، الجب . أنت وردة مقسومة على حبل التذكر ، أقحوانة متعطشة لملمس الزهرة . سماوات تواقة للفعل المحرم . وبهدوء تام دون صخب وولولة ننزلك إلى العالم الآخر . فلا أستطيع أن أمسك روحي عن الاختناق . إذ لم أزل أتصور أنك تغفو حسب ، وأن الأمر

ليس إلا مداعبة سماوية . حينها كنت أتصور أنك ستستيقظ في كل لحظة لتنهي فصلا خرائيا من المأساة المعقدة هذه . لا يمكن أن ينتهي كل شيء بمثل محدودية الحياة هذا . لكن كل شيء يبدو أنه قد انتهى . فأمسك ساقيك وبهدوء غريب ننزل الرأس ثم البدن ثم الساق إلى النهاية ؛ لتنتهي مأساة حياتك ولتنهي آخر فصل من المناكدات ، وتتخلص إلى الأبد من حسين الصعلوك وشوقي كريم ومني ، ومن حسن النواب وكل شلة المعوقين أدبيا إلى الأبد ، أيها الجميل . .

خرائيات الأيام

بغير اشتهاء مرت الأيام بعد رحيل رياض الذي دمرني . كنت أشاهد في أحـلامي المضطربة أصـلا ، اناخـة الروح وتبلبلهـا ، لا بل اشـتـهـاءها الرحيل إلى عوالم غير معرفة . أخذت أسير في أزقة زاخو وحيدا ، نوع من التيه كان يضرب ارجائي المتناقصة المساحة والكثافة والكتلة ، لا بل إن قـوانين اللزوجـة كـانت تدفع بي إلى الأرض . زرت قـبـر رياض وأخـذت أتأمل اللامـعنى وفـوضى الكون في جنوح عـارم . لـم أكن أدري مـا أقـوله لرياض . كـان هناك صـمت مـذهل عند القـبر ، ولم أفكر بأنه الذي يغـفـو الآن قادر حتى في الأحـلام على محادثتي ، ولو بإشـارات الرمز أو الايحاء عن بعـد مثلما يفـعل جبـريل . لـم أشـاهد في الأحـلام رياضاً . لـم أشـاهد الهـبـاء العـمـيـم وهو يلفني بمعطفـه النتن والمعـرق . كـانت تلك نـوعـا من الأمنيـات لم أكن اسـتـحـقـهـا . أيام طويلة مـرت كنت أنتظر فـيـهـا رياض ليزورني في الأحـلام وليتحدث لي عن تجربة الخروج من الجسـد . كانت نظريات الموت الاكلينيكي أو الخـروج الروحي من الجـسـد الأرض ، على المحك الآن . لكن رياض لم يأت ، ففسرت بطوية سليمة أنه مشغول الآن

بعالمه الجديد حيث الله ، وحيث النور السماوي ، وحيث أيضاً العوالم الأبنوسية واللازوردية التي يغرق فيها المرء ، وكل هذا كان يمنع رياض من أن ينزل إلى مستوياتنا الرخيصة ، الى الأرض والعالم الغارق بالدماء والجوع . لم أكن أعرف كيف أخرج من الصدمة . كانت مناسبة خروجي المبكر كل صباح لشراء طاسة اللبن وقطع الصمون ، للتفكير بالحقائق الكونية . وكنت أتساءل بكثير من الشك أو أن الشك كان يقفز إلى ذهني : ماذا لو لم يكن هناك الله . ماذا لو لم يكن هناك عالم آخر . كان هذا التساؤل والشك يحطمني ، يقضي على فسحة الراحة التي يبحث عنها الإنسان لتبرير حياته الأرضية . ربما كنت أفكر ، أن العالم الآخر ليس إلا اختراعاً إنسانياً كبيراً للتخفيف من صدمة الموت . كنت أفكر وأنا أحمل طاسة اللبن ، أن الله كان يقول في القرآن باعتراف نادر : ماذا لو أصابتكم مصيبة الموت . حيث يعترف بأن الموت مصيبة . وكنت أفكر أنه لو كان هناك عالم آخر لما كان الله قد قال إن الموت مصيبة . لو أن هناك الله فعلا لما كان يحكم آيته بعد أن يقولها . قد يغرقنا رجال الدين الأفذاذ بتفسيراتهم الجهنمية ، لكنني لم أعد اؤمن من أمد بعيد بتفاسير هؤلاء الناس ، الذين يقودون العالم بالمقلوب هم ورجال السياسة . لا بد ، كنت أقول لنفسي ، أن هناك تفسيرا آخر للعالم بعيداً عن سفسطات رجال الدين وصراخهم المسعور في الجوامع والكنائس والمعابد مثل الكلاب . لكن من سينقذ العالم ، من سيقدم التفسير الصحيح لما يجري . تلك كانت محنتي المخيفة . كنت أتصارع مع شك كبير في كل الأشياء ، ثم جاء موت رياض أمامي ليزيدني بؤسا . كنت أسير في شوارع زاخو تائها . أين أنت ياالله . أين سمواتك وقوتك المخيفة والسرمدية . ها أنا أناديك بكل قوة الروح المزروعة فينا ، أن تظهر لنا ولو على جبل شقلاوة أو جبل بخير . هناك

عندما تظهر سوف يكون بإمكاننا أن نصاب بالهلع ، بالجبروت المتجذر والظاهر أمامنا . لا أفهمك وهذه حقيقة . سيقول الأنذال من كهنتك إني لست إلا إنساناً ضعيفاً وقاصر الفهم ، وإلى نهاية السلسلة من الغباء البشري . لكن هذا هو السبب الجوهري لكي ترينا روحك ، وجهك ، سلطانك ، قوتك المدمرة ، رحمتك التي نتخيلها . كنت أسير في طرقات زاخو جاهلا جهلي ، أو أشعر بالورطة الكبيرة التي أحياها ، وهي أني كائن ذكي يسير على هذه الأرض . في بعض الأحيان ، حينما أتذكر صور الحيوانات وهي تفترس حيوانات أخرى أشعر بالخجل أن تجعل مخلوقاتك تعيش بمثل هذه الطريقة المعمدة بالدم من أجل الحصول على طعامها . أتذكر الآن أني كنت دائما أبحث عن الحقيقة . بهذا الشكل دخلت خلوات المتصوفة ، سرت في دروبهم . نمت في مقابر عبد القادر الكيلاني والسهروردي ، بكيت في الجنيد البغدادي . صليت في مقام علي ابن أبي طالب . نزعت روحي عند الحسين بن علي . كبرت وسبحت في مساجد الكوفة . رحلت حافياً إلى مقام خضر إلياس . تذوقت ماء الدجلة ، وتعمدت في محراب الصابئة وكنائس عيسى . كنت أريد اكتشافك مرة ثانية وبطريقة مغايرة ، لكني اكتشفت أن السريلانكيين والهنود توصلوا لك بالرغم من أنهم يعبدون أهورا مزدا والنسانيس . كان الرب ، ربهم يتجلى لهم في الأحلام ، في أشكال القرود ، في النور ، في الظلمة ، في الحياة نفسها . إذن أين الحقيقة . هل أنت أهورا مزدا أم الله أم شيء آخر . لا تغضب أيها السيد ، هكذا يقول المسيحيون في الغرب بعدما أضافوا لك بعدا فيزيقيا وإسقاطات من الديانة اليونانية القديمة . أين أنت وما هي حقيقتك . ينبري رجال الدين في تفسيرات شتى ومتعددة ، لكني من أمد بعيد لم أعد أؤمن بما يقولونه . كنت أريد شيئا جديدا ، طهرانيا ، شيئا

يروي هذا الظمأ المخيف للحقيقة . حقيقة كل شيء . وأي شيء . هذه الحقيقة التي أفكر فيها في كل الأوقات . والموت جزء تخيلي منها . كنت أشاهد رياض وهو يلف بقطعة القماش ثم يغيب في الجب . في الحفرة المستطيلة مثل شيء زائد عن الحاجة ، أو شيء انتهت صلاحيته ، والآن حان وقته لنضعه في المخزن الكبير ، الأرض . شيء غير مقنع تماما . أحيانا كان يطرأ إلى ذهني أننا لسنا إلا مخلوقات من صنع أناس من كوكب آخر . شيء مثل هذا يؤمن به آخرون في بلدان أخرى . أحيانا كنت أميل إلى هذا الرأي في رحلة البحث عن الحقيقة . كنت قرأت في السابق كتب أنيس منصور التي أدخلتني إلى عوالم أخرى ، قرأت فيما بعد كتبا عن الروح والحياة مابعد الموت . ثم انحرفت إلى زاوية أخرى ودربا آخر فالتهمت كتب ماركس مثلما يلتهم حمار وجبته الحشيشية . لا أنكر أني وجدت بعض الإجابات عن تطور الإنسان وآلية تكونه ، ثم انتقلت إلى أصل العائلة واكتشفت إجابات متعددة عن أصولنا ، وعن الطبيعة البرجوازية والاستحواذية للإنسان . وبالرغم من أن الماركسية قد أجابت عن تساؤلات ، لكن الكم الهائل الآخر من الأسئلة بقي دون إجابة ، فكان هذا يشكل بالنسبة لي وضعا مؤلما ، لم أستطع الخلاص منه وهو من نحن . ولماذا نعيش ثم لماذا نموت أصلا . أما الله فيبقى لغزا محيرا خاصة بعد اكتشافاتي الهندية واليهودية ، ثم اكتشافي لثمة مغالطات في القرآن تدعوني إلى الشك أكثر في حقيقة الأديان نفسها . فهذا موسى قد قتل على أيدي أتباعه فيما القران لم يذكر شيئا عنه ، إلا أن القرآن استشهد بالتوراة واعتبرها كتاباً سماوياً ، فيما الاكتشافات المعاصرة أثبتت أن التوراة لم تنزل من السماء ، إنما كتبت وفي عصور وسنوات بعد موسى ، خاصة في المرحلة الآشورية . يعتبر القران أيضاً أن المسيحية أو الإنجيل كتاباً

سماوياً أنزل على عيسى ، لكن أيضاً اكتشف أن الإنجيل كتبه الحواريون بعد موت عيسى . هناك الكثير الكثير من التناقضات ، كلها شكلت بالنسبة لي أدوات لعدم تصديق الكتب السماوية المفترضة . ناهيك عن أن زمن محمد لم يعرف الناس فيه حقيقة التوراة والإنجيل ، وكانوا يعتقدون أنها كتب منزلة . أما اليوم فإن البحوث أثبتت أشياء عديدة خاطئة ومفاهيم ثبت أنها غير صحيحة بالمرة ، ومرة ثانية كنت أتساءل : إذن أين الحقيقة ؟ هل الحقيقة أننا لسنا إلا نتاج الطبيعة وأن العالم ليس إلا مادة حسب . أم أننا وباقي المخلوقات ليس إلا نماذج وضعتها كائنات عاقلة قادمة من كواكب أخرى لغرض التجربة . كنت أمزج في بعض الاحيان بين فكرتين ، الأولى أننا لسنا إلا حقل تجارب ، والفكرة الثانية المرتبطة بالأولى ، هي أن الله ليس إلا رئيساً أو ملكاً للكائنات العاقلة الأخرى في هذا الكون ، وأنهم وضعونا هنا بغرض إجراء تطوير للأنواع الحياتية . هذه الفكرة أدهشتني لبعض الوقت ، ووجدت أنها ربما تقدم لي تفسيراً معقولاً لسر حياتنا الخفي . لكن كل شيء يبقى ضمن حدود الاحتمال وليس هناك من حقيقة واضحة وقطعية .

أسئلة . . أسئلة . . إجابات . . إجابات . . قلق . كله تفجر عقب موت رياض إبراهيم . سابقا مرت علي تجربة مريرة أخرى ، وأنا اشاهد الموت وهو يلوك أحد اقربائي . فهزني المشهد . دمرني ذلك المرأى العنيف لاستلال الروح من الجسد ، ثم تحول هذا الإنسان إلى زبالة من الضروري التخلص منها . المسلمون يرون أن الروح هي الأساس وهي الجوهرة التي يحتفظ بها الله . لكني وجدت أن الروح ليست حكرا على البشر إنما نشترك بها مع باقي الحيوانات الأخرى في الطبيعة . لكننا نقتل الحيوانات دون إعارة لاهتمام ما بروحها . وكان ذلك بداية الشك . الشك بكل شيء في هذا

الوجود . لكن لم أكن أجد من أجوبة على مايدور في ذهني . بحثت مثل بحار في كتب الأديان الأخرى . قرأت القرآن وقرأت الأناجيل والتوراة ، ثم عرجت على ديانات المجوس والفرس والهنود وأهل الصين . وجدت هناك تقاطعات مهمة ، ووجدت أيضاً شبه اتفاق على وجود كائنات أسمى من البشر أسموها الآلهة . هناك تعلق غريب من الإنسان بالآلهة . هوس غريب وجنوني أرجعته ضمن مفاهيم الغناء العراقي الحزين ، إلى خوف الإنسان من المجهول وحبه وتماهيه في ذات أكبر منه لدرء المخاوف والجوع . هكذا ربما ولدت فكرة الإله . إنها هوس الإنسان بالأم ، بالعودة إلى الرحم حيث الأمان . لكن في مرحلة عمرية يتحول الحب إلى الرحم والعودة اليه إلى غريزة ذكورية . ربما هذا هو السبب في تحول المجتمعات من الديانة الأمومية إلى الديانة الذكورية . بهذا الشكل تحولت الآلهة الأنثوية إلى آلهة ذكورية وسيطر الرجل ومفاهيمه على الحياة . لكن الله حتى في القران لم يذكر هذه المرحلة من تأريخ البشرية ، إذ يبدأ تاريخ الله مع مرحلة السلطة الذكورية . بهذا الشكل خلق الله آدم الذكر لتبدأ بعد ذلك مرحلة الذكورة والعبادات المذكرة . ربما لهذا السبب كنت أعتقد أن الله ليس شيئا خارقا وخارجا عن الوعي البشري ، إنما هو نتاج للوعي البشري ذاته .كيف يفكر الأنبياء في الله ، محمد إذ يمتلك هو شخصيا تصورًا خاصاً عن الله يختلف عن التصور الذي أظهره لنا . إذ نجده يتزوج بطفلة في التاسعة من عمرها على اعتبار أن هذا شيئا إلهيا أو أنه يرغم ربيبه على طلاق زوجته ليتزوج منها . كل الانبياء هم عبارة عن اناس شبقين ويحبون الاستيلاء على نساء الآخرين بدعاوى سماوية . إنه صراع الذكورة البدائي من أجل الحصول على النساء . ربما هناك الكثير من القصص الخافية والتي لا نعلمها عن تصرفات الأنبياء ولكن المؤرخين دفنوها عن اعين الناس . إن

هذه القصص ربما تمنحنا لو وجدت سبيلا إلى معرفة الله عن حق . هل هو بدعة إنسانية أم أنه حقيقة واقعة أم أن هناك أمرا آخر لا نعرفه . لا أنكر أن موت رياض إبراهيم قد حطم والى الأبد تراتبية كانت أصلا مهزوزة . سخافة الموت وسخافة الحياة ذاتها ، وذلك التشبث الهمجي بها ، وفي النهاية نتحول إلى جيفة ليس إلا . تموت اللغات وتموت الثقافة وتموت النوازع القومية ، ونتحول إلى جثة عفنة سرعان ما يوارى الثرى حتى لا يرى الآخرون تفسخها النتن . . كم قضيت من الوقت وأنا أفكر في الله ، في الآلهة . في عشتار وأنانا واللات والعزى . تلك الآلهة التي غابت الآن لكنها موجودة حتما في وعينا الباطن . من هم الملائكة ؟ وهل هناك مجلس سماوي للتباحث في المصائر . إن يوتيبيا الله تؤشر بهذا الاتجاه حينما قال للملائكة إنه خالق الإنسان فاعترضت الملائكة تحت مسميات متعددة ، لكن إبليس كان الأكثر رفضا ، وقتها أسس الله ثنائية العالم كما أسس ، بخطوته تلك ، عوالم النور والظلمة في الفهم الهندي للعالم . لماذا نستعيذ بالشيطان قبل البسلمة ، ألا يعني هذا أننا نقر بأن الشيطان هو نصف العالم . العالم المقسوم بالضبط بين الله وبين الشيطان . ربما سنواجه هنا مايقوله رجال الدين ، من أننا نستعيذ منه فقط . أية سخافة ، فنحن لا نستعيذ ، إنما نقر بسلطة الشيطان حتى على كلام الله ، لأنه فعلا قوة حيوية في إدارة العالم المقسوم أصلا بينه وبين الشيطان . يشكل ابليس في القراءات الإسلامية نوعاً من الخوف ، وهو بهذا الاتجاه يمثل عالم الظلمة فيما يمثل الله عالم النور . وحتى في خاتمة الحياة الأرضية ، فإن الله يبقي على الثنائية في الجنة والنار . إنه استمرار حقيقي لديمومة الحياة التي أساسها القطب السالب والقطب الموجب . إن عبادة الشيطان ربما هي ليست عبادة سيئة .

في تجوالي وترحالاتي في مدينة زاخو ، وأمام الهباء الذي نعيشه ، اكتشفت مكتبة زاخو العامة المنزوية في أحد الدروب الجانبية . كان هذا اكتشافا مذهلا تحررت فيه من مكتبة مقر الحزب الشيوعي الكردستاني . . كان الموظف المسؤول عن المكتبة لا يحضر بحجة أن لا أحد يقرأ . ولكن هاهو زبون جديد وطازج أيها السيد . بحثت عن الموظف في دروب زاخو ووجدت بيته وجاء الرجل وفتح لي المغاليق . كانت أبواباً تشبه أبواب الملكوت حينما تفتح لمؤمن ليدلف إلى العبق الفردوسي . هكذا تحدث أرميا وهو يصف الجنود المعلقة رقابهم على أعواد وأشجار المشانق . نخلات تزهر بطلع متورد لتحتضن أفقاً مدراراً من الكتب والقراءة الفذة . غرقت في المكتبة مثلما غرق الله في حب مريم فمحضها يسوع . لكن لا يسوع لدي ولا محمد ولا موسى المضطرب والأخرس . كانت الأبواب حينما فتحت فإنما فتحت على مشهد الفراديس ، فيما الشياطين الرائعة تحلق فوق رأسي مثل ملائكة وسنانة . أيها العبء المتكتل مثل صخرة بائسة . رفوف ، رفوف من حديد ولهج متواصل وحمحمة أحصنة مضطربة وهي تحوم حول السبات الشتوي . أين أنت ياحزقيل ويا أرميا النبي ، ها هم جنود الرب المتكاسل بعد مطالعات بريخت ونتيشة وسلفادور دالي . الصرخة في تشكيلة الرسم ، كانت صرختي التي لم أستطع إخراجها للوهلة الأولى فوقعت متكئاً على الرفوف المتربة ، لأن لا أحد يقرأ . الأعجوبة السحرية تتقافز أمامي مثل هرة ، فيما السموات تفتح آفاقها . أنا الشيطان الحبيب وهذه لذة القراءة الشيطانية تتلبسني مثل مسوح موسوي ، فأدخل المحراب وأجد عندي رزقاً لا أعرف من أين . إنه حبيبي وصديقي الشيطان الذي دفعني نحو هوة الوقت وهوة الدروب الخلفية لاكتشاف المكتبة . فشكرا لك أيها الشيطان . العالم النوراني الذي يفقد قيمته لولاك أيها الصديق الوفي .

دخلت المكتبة ، نائحا يا موسى ، نواحي الكبير والمضطرب وأنا أرخي الستر عن مكنون عطري المتألق في سماوات الرغبة الجنينية . لم أشاهد أحدا في المكتبة ولم يأت أحد بعدي . في محراب الشيطان أستجدي رحمة متداخلة مع بيوض الحيات والجنان والعقارب المتمسحة بالحيطان . كانت الفرحة عظيمة ، فرحة بإيجاد اللقية المتأسية في حكايات ألف ليلة وليلة . من القاهرة إلى بيروت ثم من بيروت إلى بغداد . كل الكتب كانت باللغة العربية . تمسحت بالأوثان ، أوثاني ثم انحنيت إلى كبير الآلهة لأشكره على عطاياه المتعددة ، والتي لا أستطيع إحصاءها . فردوسك يا إبليس ليس مثله فردوس آخر حيث المقل واللبان والمر والزيوت الطيارة التي يمسح الجسد بها فيغدو سماويا مثلك ياابليس . أتصفح الكتب مثل عاشق ، مثل متيم ، مثل معتوه . أينك يارازي ، أينك ياجاحظ . ها هي شياطيني تمحضني لوعة القراءة ولوعة الذوبان المر على رفوف الكتب . أذوب مثل قطعة من السكر ، مثل زبدة دنماركية . مثل أبنوسة يهودية ، مثل امرأة مسيحية ومثل باكر في التاسعة من عمرها وهي تذوب بين أفخاذ عبد اللات . أغرق في الرفوف ، أتماهى في الصفحات . أي ذنب أرتكبه الآن لا يعد ذنباً . جالت في عقلي الأفكار . مزقت السكون تباريح الألم الممض وأنا أشاهد الرفوف الطويلة الغارقة في الورق الحائل اللون بفعل التخزين . أي كتاب أسرق يا شيطاني . أي أوراق أنتزعها من عانة المكتبة هنا . لم أستطع في بغداد أن أسرق الكثير ، خاصة من المكتبة العامة ، لكني سرقت من محلات بيع الكتب ، وذلك كون أني لم أكن أمتلك الكثير من الأموال ، أو القليل منها . في إحدى المرات اشتريت كتابا بأجرة الغداء والباص ، فرجعت إلى البيت سيرا على الأقدام . وقتها لم احس بالتعب . لم أحس بعشرات الكيلومترات والفراسخ التي قطعتها . كانت اللذة

عارمة ، متوهجة . وعرفت وقتها أن اللذة صنو الشيطان ليست سيئة دائما ، إنما هي غالبا مفيدة . لم أمارس الجنس مع النساء ولم أمارس اللواط مع الولدان ، توفيرا لثمن الكتب . لكنني مارست الجنس مع الحمير ، وتحديدا مع حمار الحطابات اللاتي يمررن من أمام بيتنا في طريقهن لحي العامل . أية شهوة قطعتني إياها أيها الشيطان الحبيب ، أية لذة منحتني إياها بسعر التراب ، ومقابل طاسة ماء بارد ، كانت الحطابة تسمح لي وتعلمني ألف باء الجنس مع الحمار . كنا اثنان غيبتنا اللوعة ، أنا وهي . هي تمارس الجنس مع الحمار حينما يغيب الزوج ، وأنا أمارس الجنس مع أنثى الحمار حينما تغيب عني الكتب . كلانا كان يقدس الشهوة غير المترابطة ، والتي تفتك فينا مثلما يفتك الله بعباده المؤمنين . لم أزل أقلب الكتب في المكتبة . كان صديقي علي الشطري في بغداد ، يعلمني أساليب السرقة وأساليب الفتك بالكتب . وحينما شعر أني قد بلغت شأوا كبيرا في هذا المضمار الرحب ، تركني لمصيري . كان الشيطان رفيقي ، يختار لي العناوين . يختار لي أنسب الطرق ثم يدلني على الدروب السرية لإخراج الكتاب من المحل دون أن يرانا صاحب المكتبة . في أوقات الصيف ، وحينما تصل درجة الحرارة في الظل لما فوق الخمسين ، كنت أحلم وأنا امارس العادة السرية بعد اختفاء الحطابات وحميرهن بهجمات أخرى لمكتبات شخصية . لكن لم يعد هناك المزيد منها . فكنت أفكر في المكتبات العامة التي شعرت بتفجر روحي كبير يمنعني من سرقتها . بحثت في المكتبات العامة عن الروح ، عن التماثل ، عن الانشطار ، عن التلبس والتقمص . سحر الكتاب كنت أحلم به وأنا أضعه على رفوف مكتبتي التي ضجت بعناوين شتى . لم يكن هناك شيء محدد ؛ فبجانب ماركس كان أنيس منصور ، وبجانب أنيس كان البحث عن الحقيقة . ثم

عشرات العناوين المختلفة وغير المترابطة . لم يكن هناك من ترابط ، تشابك ، تلاحك . تلاصص . لكن الترابط الوحيد كان في روحي وعقلي الذي خرب قبل الأوان وما بعد الأوان . كنت أتباهى بنوع المعرفة التي حصلتها ، المعرفة المسروقة من المكتبات ، لكن هذا لم يكن عيبا . هل سئل غني عن مصدر غناه . لم يحدث في التاريخ أن سئل مثقف عن مصدر ثقافته . وكانت الثقافة الشيء الوحيد في الكون الذي كلما زاد غناك منه ، زاد عذابك الدنيوي والأخروي . مع الكتب تعيش مأساة روحك لوحدك ، خاصة إذا كان الوسط الذي تعيش فيه وسطا خرائيا بكل معنى الكلمة . الغني يكنز الأموال عبر تجميعها فيشار له بالبنان والاحترام والحسد ، أما المثقف فكلما زادت ثقافه ، زادت مأساته وضحك الآخرون عليه ، أي علاقة كونية بين الاثنين ، المال والكتب . لم أستطع إيجاد العلاقة ، لكن ما اكتشفته أن العلاقة بشكل بسيط هي علاقة متعارضة وسلبية . لكن الكاتب بحاجة إلى الجنس والى الحياة ، وهذه لا توفرها الكتب إنما الأموال والغنى . . في كل الأحوال يختلف المثقف عن التاجر ، فالأول يجمع الأموال ، أما الثاني فلا يحتاج إلا إلى الجزء اليسير من أجل استمرار الحياة دائما وغالبا من أجل موتها . أي مأساة يعيشها المثقف ، الكاتب ، المفكر . كل واحد يسخر من الآخر . الغني والناس من المثقف ، والمثقف مع شياطينه ، ومن الغني والناس . رحماك يا إبليس كيف وضعتنا في هذه المعادلة السخيفة والمؤلمة ، معادلة الربح والخسارة ، فربحنا أنفسنا فيما خسر الآخرون أنفسهم . كنت أتصور أنه كلما قرأ الإنسان فإن عقله الباطن سوف يترجم القراءة إلى استنتاجات ويدخلها في الشفرات الوراثية . والأعمق من هذا أن القراءة سوف تدخل في محفوظات العقل الكلي ، الذي سوف يحيا بعد الموت ، وبفعل القراءة تتحول إلى شيء آخر

غير إنساني البتة ، وربما تتحول إلى ملاك بفعل ثروتك المعرفية . لكن هذا مجرد استنتاج واحد من آلاف الاستنتاجات التي كنت أغذي الروح فيها . مع كل كتاب ، كنت أركب المشحوف لأواصل الرحلة وحيدا مثل اتونبشتم ، أو مثل إله صغير في دنيا الأرباب الكبير والكلي الهيمنة . فوجدت عبر هذا الغرق المتشائل حلولا لمعاناتي الكونية ، ووجدت عبر القراءة سببا وحيدا للبقاء على هذه الأرض وفي خضم الحياة . فكنت أتلصص على بيوت العاهرات ، وحينما تكون الرغبة متأججة كنت أذهب إلى أي تواليت لأستمني بكل روحي وبكل شهوتي المقتولة . نساء . . نساء . . كتب . . كتب . . أوراق مهملة في كارثة الزمن الخرائي . يستمر الهوس بالقراءة لينقلب إلى صور شتى . فأخذت أجمع الأقلام وأكدسها أمامي ، كذلك الورق . كنت أتشمم الورق فأعرف من أي نوع هو ومن أي صنف . ذلك قادم عبر البحار والآخر يأتينا عبر مهاد الموج من الأماكن القصية للأرض . رائحة الورق كانت تعرفني على السحر البدائي للغابات المسكونة بالأرواح الشجرية ، تلك الأرواح القادمة من مجاهل القطب ، ومن غابات الرمس الأخير للموت المتشاجر مع أيقونات النارنج . أحببت وعشقت لحاء الأشجار القطبية ، وأشجار المسرات الضائعة من أيام الهنود الحمر وأيام الهنود والسريلانكيين . رائحة الكتب كانت تحرقني ، تدخلني إلى متاهات الانفعال الجنسي والشبقي . فحتى بعد الزواج ، كنت أتشمم رائحة الإبط للمرأة وأقارن بين انفعالاتي وبين رائحة الورق الشميم . الورق الأبيض والأسمر وورق التواليت وورق الدورة الشهرية للنساء كلما كان القمر بدرا . أحببت كل أنواع الورق . السحر الموجود فيه كان يحطمني مثل آنية رقعاء منزوية في ركن بيت عتيق . . أسحب كتابا من الرف . أقلب الصفحات على عجل ، فأمين المكتبة يريد الخروج ويريد الهروب من

زائر الغفلة هذا الذي يقلب الأوراق ويقفز بين الرفوف على عجل ، وكأنه نسناس سيرلانكي . لكنني كنت أغض الطرف . أسمع هسهسته ورطنه بكرديته التي لا أفهمها . لكنني أعرف أنه يريد أن يذهب ، أن يفر من هذه اللعنة غير المتوقعة . لا أعيرك الاهتمام أيها الوغد . كنت أقول لنفسي . لا أعيرك حتى الزهرات السوسن التي تنبت في جمر الأرض . سأتركك تتلظى في ذاتك المدمرة . ولن أهرب حتى لو وقفت إزائي لتقول لي إن الدوام انتهى بالرغم من أنه لم ينته . شرب أمين المكتبة شايه الذي أعده على (جولة) حياته ، فيما أنا أغرق في استهلالات الكتب ؛ فأختار أحدها ، أقربه مني ، أدخله الخباء القطر . أرتمي على الطاولة مثل مفجوع بدهره . ماذا تقول أيها الكتاب . ماذا يبكيك وأنت بين يدي الرحمن . . أقلب الكتاب ، أغرق فيه وكأنني ثمل من عرق بعشيقي جبار . تتمرد في داخلي الصور . تنثال ونحن نتداول الكتب ، من أيدي مصعب أمير إلى الحلاج إلى محمد الأحمد ، إلى سالم قنديل . عهر متشاظٍ ، برد يلم جنباتنا الفقيرة فيترك محمد الأحمد عوالمه الجنونية ويندثر بين أكداس الكتب . كان الكتاب أكثر الأشياء اشتهاء . لا ننام حينما نحصل على أحدها فيدمينا وندميه قراءة . وفي صباحات الفقر ذي الدم الأزرق ، كنا نعيش آخر هلوسات التوسيرام الذي يغرقنا به الحلاج ، فيكون الكتاب قد اكتمل عرسه الوحشي ، ونامت غرائز القراءة بانتظار كتاب جديد . . سوف أميتك يا أمين المكتبة العجول ، المتأفف ، الذي يلعنني الآن بكرديته العجيبة . لكنني سوف أقرأ ، أستمر بالقراءة المجنونة التي لم أتذوقها منذ أن غزا إسماعيل شاكر مكتبة الحزب الشيوعي العراقي في أربيل ولم يجعلني أستعير كتابا واحدا بفعل الدسيسة . لا أعرف كم قضيت من الوقت في المكتبة ، ساعات أم أشهراً أم سنوات . لكنني لمحت أمين المكتبة نائما فيما

الحارس يرتكن على حائط يلف سجائره من كيس التبغ الكبير . شعرت بالإشفاق على أمين المكتبة . إنسانيتي علمتني أن لا أعذب الآخرين . أن لا أشتهي رؤية العذاب وهو يضطرم على الوجوه والأجساد . قلت لأمين المكتبة : ها أنا أنهي ترحالاتي في البطون والأفئدة والعقول . فيبتسم الرجل واطلب منه استعارة بعض الكتب . يتململ الرجل . يحدق في وجهي ليقول لي ألم تكفيك ساعات القيظ والبرد والرعونة النزقة التي رحلت فيها بين الرفوف .لا يا سيدي أنت لا تعرف الاشتهاء ، ومثلي لا يعرف مثلك . ومثلهم لا يعرفون أمثالنا . ها أنا مثل زهرة السوسن والقبرات الجبلية المتعلقة بحواف الكون الأرعن . نزق حتى الثمالة ومتهيب حد اللعنة . فامنحني صلواتك البرية وصلوات الطيور والقبرات المتعجلة لأرتفع إلى المتون . ها أنا أمامك يا سيدي مثل كلب مقطوع الذنب ، ومثل كلب أجرب لاحقته لعنات الدهر ، فأستسلم للأحجار وقطع الورد الذابل على مزابل الرغبة . امنحني صلواتك . امحضني موافقتك . وبكردية جميلة تشبه ملامح امرأة تغتسل في واد مجهول ، يقول أمين المكتبة : سأعيرك ماتشتهي . صلواتي ونسكي ومحياي معك . احمل الكتب التي تفاجأ أني أريدها ، إذ كانت أكثر من عشرة ، فاعترض وأبقى لي خمسة فقط . لم أتوسل ، وحملت زهرة الورد ، باقة الشهوة المتأججة في وذبت في الطرقات بين صرخات الباعة وبين الاحتشاء القلبي وأنا أحمل أثمن ما أعتز به .

الرب أخيراً

في أواخر الزمن المر ، اتصل بي أحد أعضاء جماعة إياد علاوي وقال لي إن العميد الركن نجيب الصالحي يريدك أن تتصل به ، كان هذا الشيء مفاجئاً لي . أخبرت زوجتي بالأمر واتفقنا على إجراء الاتصال بعد أن زودني هذا الشخص بهاتف نجيب الصالحي . لم أكن أعرف ولم أستطع التخمين ماذا يريد الصالحي . لكنني شعرت بفرحة خفية أخذت تتصاعد إلى روحي . حسبت مالدينا من نقود ، وذهبت في اليوم نفسه إلى أحد مكاتب الاتصالات . كانت التساؤلات تجري في ذهني سريعا . صحيح أني قد اتصلت سابقا بالصالحي ، الذي تربطني به علاقة أسرية ، وكان هذا فيما يخص سفرنا إلى سوريا . لكن هذا الأمر انتهى . أضف إلى هذا أن جماعة المؤتمر وقسماً كبيراً من جماعة الوفاق قد سافر إلى أمريكا . دخنت الكثير من السجائر . ولم أستطع أن أفكر أن بالإمكان طلب مساعدة ثانية من الصالحي بعد محاولاته السابقة لإدخالنا إلى سوريا . شعرت بالضيق يأكل قلبي . كانت أحوالنا المادية على وشك الانهيار . إذ لم أعد أملك في نهاية الشهر ما سأدفع به إيجار الغرفة . فكرت في السفر

إلى السليمانية ،لكن هذا كان يتطلب الكثير من الأموال ، وهو ما ليس متوافراً ، أضف إلى هذا كنت أكره أن أخرج من زاخو . زاخو هي الأقرب إلى الحدود ، لا بل ملاصقة لتركيا . وإذا ما حدث شيء فلن يستغرق الأمر ساعة واحدة وتكون داخل تركيا . بعد دقائق من الانتظار وتدخين العديد من السجائر ، أعطيت رقم التلفون إلى صاحب المكتب . أدار هذا الرقم ، ودقائق وكان فيها نجيب الصالحي على الجانب الآخر . جرى مع العميد الصالحي حديث طويل وشائك ، وطلب مني أن احدد موعدا للقاء مشترك بيننا في تركيا . ذكرت له أني لا أمتلك الأموال الكافية للسفر . فقال إنه سوف يزودني بما احتاجه ، أضف إلى هذا أنه سوف يبعث لي كل شهر بمائة دولار مع محمد خورشيد ، ممثل الوفاق في شمال العراق . شعرت بأن هما كبيرا انزاح عن صدري . لم أكن أصدق أن حلا بدأ الآن يلوح لي وأنقذني من العوز ، والاضطرار إلى العمل في جريدة جماعة مسعود وهو ما أكرهه . بقيت في محل الاتصالات دقائق أدخن دعاني فيها صاحب المحل إلى استكان شاي . كان صاحب المحل الكردي من أصل عربي ، وتحديدا من عشيرة الدليم ، إلا أنه استكرد هو وعائلته من أمد بعيد . كانت هذه القضية تشغل ذهني ، خاصة بعد تعرفي على العديد من العوائل من أصل عربي ، وتحديدا من عشائر طي والجبور والدليم ، التي سكنت زاخو وأطرافها واستكردت بمرور الأيام . كانت هذه العشائر تشكل غالبية سكان زاخو ، ومثل هذا الشيء حدث في العديد من المناطق التي أصبحت كردية الآن ، إلا أن أصول سكانها تعود إلى العرب . نقلت هذا الاكتشاف إلى إسماعيل شاكر بعد أن حدثني صاحب محل الاتصالات عن انتشار العشائر العربية وتشكيلها لغالبية سكان منطقة بادنان . انتفض إسماعيل شاكر واتهمني بسرعة وعلى الفور

بأني عربي شوفيني . واستغربت هذا الجواب منه ، إذ إني أنقل له ما سمعت فقط دون تعليق . لم أكن أعرف أن إسماعيل شاكر من مدينة الرفاعي الجنوبية - كان ذا أصول فارسية - إلا بعد وقت طويل ، وهذا كان السبب الوحيد الذي فسر لي بعد ذلك ، لماذا كان يصر دائما أن العراق ليس له وجود تاريخي على الإطلاق ، وأن ليس هناك عراق ، بالرغم من أني ذكرت له العديد من الحقائق التي تقر بأن العراق موجود كتسمية وكبلد منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة ، ناهيك عن الحضارات العراقية القديمة التي نشأت في هذه البقعة ، وكانت حضارات سامية حيث يتحدر العرب منها . لكن إسماعيل كان يصم أذنه عن كل ما أقوله ، وكان يذهب إلى مداعبة مشاعر الكرد المتعصبين من المثقفين وأنصافهم ، بأن العراق ليس إلا كياناً مفتعلاً . كنت أشعر بالحنق والحقد على مايقوله إسماعيل ، لكن هذا الحقد زال بعد ان عرفت بأصول إسماعيل الفارسية . كانت مسائل العشائر العربية قد لفتت نظري أثناء وجودي في أربيل ، حيث تعرفت في جريدة الاتحاد التابعة لحزب جلال الطالباني على عامل المونتاج الذي توثقت علاقتي به ، وهو الذي اعترف لي في إحدى الأماسي ، وبعد أن انتهى عملنا بالجريدة ، أنه من عشيرة الصالحي العربية . دار حديث طويل بيني وبين هذا الشخص عن العشائر التي تسكن المنطقة الشمالية . فأكد لي أن العديد من العشائر الكردية الحالية هي عشائر عربية في الأصل ، واستكردت بعد ذلك ، واستشهد لي بالكثير من هذه العشائر ، منها عشيرة الجباريين والبرزنجة وغيرها من العشائر المشهورة . أيضاً أكد لي أن صلاح الدين الأيوبي ، وهو ما يعرفه الجميع هنا ، ليس كرديا إنما عربياً استكردت عشيرته ، حالها حال عشيرة الزيباريين . هناك الكثير من اللغط في أصول العشائر الكردية . لكني وبعد انتقالي إلى منطقة بادنان ،

اكتشفت أن معظم العشائر الكردية البادنانية هي ليست إلا عشائر عربية في أصولها . البعض من هذه العشائر استكرد منذ مايقرب المائة عام ، ومنها ما استكرد قبل هذا التاريخ ، ومنها ما استكرد قبل سنوات ليست طويلة . كنت في السابق أنظر بعين الشك إلى المقولات الحكومية التي تتحدث عن الأصول العربية للعشائر الكردية . لكنني شاهدت الآن على الأرض ، الحقائق كما هي ، وكما اعترف بها الأكراد أنفسهم .

أنهيت استكانة الشاي في محل الاتصالات ، وخرجت إلى الشارع المكتظ بباعة الأرصفة . بشكل سريع اشتريت لي علبة سجائر جديدة ، ثم أخذت أدور في شوارع المدينة بلا هدف . لم تزل المكالمة مع الصالحي تسيطر على تفكيري الذي أخذ يستقر الآن . شعرت براحة عميقة إذ تخلصت من هم الإيجار وإطعام الزوجة والأطفال . في الطريق إلى البيت ، التقيت بأحد أعضاء الوفاق وسألته عن موعد قدوم محمد خورشيد من تركيا . فأكد لي أنه سيصل في غضون أيام قليلة . شعرت براحة أكبر ، كان عقلي قد تخلص من شحنة التفكير في المال وتدبير الأمور ، ثم إن هذا خلصني من فكرة الذهاب إلى السليمانية التي كانت ترين على صدري مثل صخرة كبيرة . . وصلت إلى البيت بعد أن اشتريت قطعة لحم لأول مرة منذ أشهر ، ثم طلبت من زوجتي أن تعدها بشكل سريع . تمددت على الأبسطة الموضوعة بجانب الحائط وتناولت كتابا من التي استعرتها من المكتبة . الآن ، قلت في سري ، يستطيع المرء التفكير بشكل مريح والقراءة بشكل أفضل ودون منغصات . بعد قراءة نصف ساعة متصلة ، وضعت الكتاب جانبا ، إذ ارتفعت رائحة اللحم المحمص على نار الأوجاع . عدت مرة أخرى للتفكير في كلام نجيب الصالحي عن ضرورة الالتقاء في تركيا لبحث بعض الأمور ، أية امور ؟ لم أكن أعرف على وجه

التحديد ، لكني خمنت أنه ربما يريد أن يبدأ تأسيس حزب أو فتح مقر لحزبه . لكن أي حزب هذا ولم أسمع عنه سابقا ، فيما أكد لي أعضاء من الوفاق أن الصالحي بصدد إنشاء حركة أو حزب . علي أن أفكر في هذا الاتجاه . قلت في نفسي ، وصرت أنظر إلى الوضع الحالي وأقيس إمكانيات العمل وغيرها ، بما يتطلبه تأسيس الحزب أو فتح مقر له . لم أكن سعيدا بمسألة تأسيس حزب ، خاصة في هذه المنطقة التي يسيطر عليها مسعود وجلال ، وذلك لأني أعرف مقدار القذارة التي تنطوي عليها عملية بمثل هذا الشكل ، أضف إلى هذا فإني شاهدت مقدار الخيانة التي غرقت فيها أحزاب المعارضة من أجل تغيير النظام في بغداد . كانت حركات وأحزاب المعارضة في الغالب هي عبارة عن مزود معلومات للدول الأجنبية ، والذي يعني هذا بشكل بسيط أنه تجسس ليس إلا . لقد أخطأ صدام كثيراً ، وأعتقد أن الحاشية التي تحيطه تتحمل مسؤولية عن عدم تكون أحزاب وزعامات سياسية بشكل صحي ، زعامات وأحزاب يكون الوطن والشعب هو همها الأساسي . لا أدري فإني ألوم الحاشية بكل ما آل اليه الحال . لكن هذا لا ينفي مسؤولية صدام عن التدهور الذي شمل الماكنة السياسية للبلد . قبل هروبي إلى شمال العراق ، حدث لغط يتعلق بسماح الدولة لتأسيس أحزاب وطنية . كان هذا يجري فيما يسمى بعملية الانتقال من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية . التقيت في تلك الفترة كصحفي ، بالسياسي العراقي والأستاذ بجامعة بغداد ، الدكتور ماجد عبد الرضا . كان الرجل متحمساً فعليا للتجربة السياسية ، وكان يرى ، بعين مراقب عميق الأثر ، أن تدهورا سوف يحصل بالبلد نكون غير قادرين على لجمه . كنت أفكر في كلامه بشكل متأن ، بشكل متفحص للأمراض العديدة التي أخذت تضرب البنيان الاجتماعي للناس . فكنت أعتقد

بصواب رأيه . إذ لا يمكن أن يبقى البلد إلى الأبد يسير بهذا الشكل غير المتوازن ، خاصة أن العقوبات الاقتصادية قد حطمت البلد وغيرت من النسيج الاجتماعي للناس . كان لا بد من ربيع لبغداد على غرار ربيع براغ ، وكان يمكن للقيادة السياسية المحيطة بصدام أن تقنعه أن البلد بحاجة ماسة إلى تأسيس أحزاب سياسية تأخذ على عاتقها تطوير التجربة السياسية . للأسف لم يستمر العمل من أجل إتمام الانتقال من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية . وفي لقاء عابر مع الدكتور ماجد رأيته وقد (غللس) على الموضوع ولم يشأ الحديث عن تأسيس الحزب المفترض إلى الأبد .

ها أنا اشاهد هنا الآن أحزاباً عراقية وقد تأسست في المنطقة الشمالية الخارجة عن سلطة الحكومة ، وبلا ضوابط تتعلق بالتمويل المشبوه ، ووطنيتها مشكوك فيها إلى حد اللعنة . إذ تشكلت هذه الأحزاب على خلفيات عرقية وقومية وطائفية ، ولو قدر لهذه الأحزاب أن تحكم في يوم ما فإنها ستكون كارثة حقيقية . بالتأكيد سوف يضيع الوطن ويصبح العراق شيئا منسيا ، أضف إلى هذا أن هذه الأحزاب مخترقة تماما هي وقياداتها من قبل الدول المعادية للعراق . إنه شيء محزن حقاً أن يحدث كل شيء بمثل هذه السخافة ، ومرة أخرى أحمل النظام مسؤولية كبيرة حينما لم يسمح بتأسيس الأحزاب مما عرض الوطن إلى حالة ما هو موجود في الشمال من أحزاب عميلة ومشكوك في وطنيتها ، وليس هناك استثناء لأحد معين من هذه الأحزاب .

لهذه الأسباب كنت أخشى أن يطلب مني نجيب الصالحي العمل على تأسيس حزب أو فتح مقر لحزبه الذي لم أكن أعلم عنه ، كان أعضاء الوفاق يستغربون هذا أو لايصدقون ما أقول . جرت الأيام بطيئة حتى جاء

محمد خورشيد واستلمت منه مبلغ المائة دولار ، التي أرسلها نجيب الصالحي ، والذي قال إنه سيرسل هذا المبلغ نفسه كل شهر . الاستقرار النفسي شيء رائع ، هذا ماشعرت به . صرت حينما أتمشى في طرقات زاخو أشعر بلذة الاستمتاع ، ولأول مرة منذ وصولي إلى شمال العراق ، اشتريت علبة دخان روثمان ودخلت أحد مطاعم الكباب الكبيرة والمشهورة في زاخو بصحبة عائلتي ، حيث استمتعنا بالوجبة المعتبرة من الكباب المشوي . أخذت أذهب بشكل مستمر إلى دهوك لأزور أبا سيف في الفندق ، ثم نذهب سوية إلى أكبر مكتبة في دهوك ، والتي كنت سابقاً أزورها دون أن أستطيع شراء كتاب منها . كانت مكتبة كبيرة إلا أن الكتب التي تحويها كلها قديمة من إصدارات المطابع الحكومية أو من استيراد الدار الوطنية . لا بأس قلت أنا وأبو سيف . لكنني وجدت لدى صاحب المكتبة رواية جديدة من إصدار دار المدى بعنوان (المريض الانكليزي) فاشتريتها منه بالرغم من سعرها المرتفع قياسا لباقي الكتب . في دهوك أخذنا أنا وأبو سيف نفر مُثل عصافير إلى الطرقات والحواري الجانبية والأسواق . دهوك مدينة حديثة ليس فيها طرقات جانبية مثل بغداد أو مدن العراق الأخرى ، وذلك لأن صدام أنشأها حديثا وجلب الكرد اليها للسكن من أجل أن يجعلهم مدينيين . فقط هناك حي قديم وهو أصل المدينة ، يضم حواري داخلية وبيوتاً بنيت من الصخر والحصى . هذا الحي هو حي المسيحيين من الآشوريين والكلدان ، وهو أصل المدينة التي استكردها الأكراد فيما بعد ، وهي على شاكلة زاخو حيث أن الأخيرة أيضاً استولى عليها الأكراد وكردوها رغما عن انوف المسيحيين من سكانها الأصليين . للأسف لم يهتم صدام بهذه المسألة ، وأعني مسألة استيلاء الأكراد على القرى والقصبات والمدن وتكريدها . كذلك لم تهتم الحكومات السابقة

بهذا الأمر . لقد خلف هذا العمل الكثير من الألم والمآسي بحق الآشوريين والكلدان ، إذ فقدوا تدريجيا قراهم وقصباتهم ومدنهم .

باستمتاع كبير أخذنا أنا وأبو سيف نتحدث عن أمورنا ، وسألته رأيه في ماقاله لي نجيب الصالحي وتوقعاتي عن العمل السياسي . فنصحني أبو سيف بالحيطة التامة والحذر ، كون مسعود متحالفاً مع سلطة بغداد . تذكرت في تلك اللحظة جلسات التحقيق التي أجراها الباراستن لكل أعضاء المعارضة العراقية ، والتي تضمنت كل شيء عن حياة الشخص . وكانت هذه التحقيقات المطولة تشمل كل العرب الموجودين في زاخو ، سواء أكانوا يعملون مع المعارضة أم كونهم مجرد هاربين من النظام ليس أكثر ، سواء لأسباب سياسية أم لأسباب اقتصادية تتعلق بواقع المعيشة المتعب ، أو حتى القادمين إلى المنطقة الآمنة لغرض السفر إلى تركيا . كانت الأسئلة تفصيلية ، وكنت استغربت لماذا كان يريد المحقق الكردي الاسم الصريح وعنوان الأهل في الداخل ، وحتى اسم المختار في المنطقة . كنت أدرك بخبرتي ومما تعلمناه من النظام أن ما يطلبه المحقق الكردي ليس إلا طلب معلومات من تلك التي تبعثها المنظمات الحزبية عن شخص معين ، وفيها كل المعلومات التفصيلية عن الشخص . كنت بالرغم من غضبي أثناء التحقيق ، أضحك في سري من هذا الاستنساخ المطابق مائة بالمائة عن أجهزة السلطة في بغداد . بالخبرة المتراكمة تعلمت أن أحتفظ بعناوين وهمية عن سكني وعن وحدتي العسكرية ، وهو ما أعطيته للمحقق ، لكني أعطيته اسمي الصريح ، لكنه أخذ يعتقد ويحاول معي أن يعرف اسمي الصريح ، معتقدا أنه اسم حركي . لم أقل هذه المعلومات أو نصفها لأبي سيف ، وهي تلك المتعلقة بعنواني في بغداد ، وأعطيته فقط ما أعطيته للمحقق الكردي وهو بيت جدتي الذي لم يعد فيه أحد وكان

المنزل فارغا . وقلت في نفسي وقتها فليحققوا مع البلاط والحيطان إن شاؤوا . لا أدري لم استعملت هذه الطريقة في إخفاء نفسي ، بالرغم من أني لم اكن مطارداً سياسيا ، ولم أكن متهما بأية تهمة . كنت أحفظ على سبيل المثال عنواناً آخر في الزعفرانية واسم المختار وأقرب نقطة دالة . أيضاً كنت أحفظ أماكن عمل وهمية كنت أعمل بها سابقا وهي معلومات كاذبة . هذا الخلط الكبير في عنواني ، استفدت منه كثيرا . إذ تخلصت بواسطته من قبضة عدي حينما أصدر أمر إلقاء القبض علي وعلى فيصل عبد الحسن ، بتهمة نشرنا قصصاً ذات إشارات ومدلولات معادية للسلطة . جن الأمن وأعضاء الحزب وقتها وهم يبحثون عني . وفي النهاية لم يستطيعوا معرفة عنواني ولا أماكن وجودي . ولا من هم أصدقائي ليتم الوصول إلي . لا أعرف على وجه التحديد ، لكني استفدت كثيرا من إخفاء المعلومات الشخصية عن الآخرين وعن أقرب أصدقائي . تلك كانت أشياء ضرورية في زمن بوليسي شرس لا يأمن المرء فيه على نفسه من أي تهمة باطلة قد تلحق به ، نتيجة وشاية أو شيء من هذا القبيل . لم أتحدث لأبي سيف عن هواجسي ، واستلمت تحذيره عن مسعود وأجهزته القمعية بشكل هادئ . كنت أفكر بأساليب العمل كمقترحات ربما يسألني عنها نجيب الصالحي ، وكنت أدرك من خلال مشاهداتي أن العمل في هذا المستنقع لا بد أن يصيب المرء بلوثة تتعلق بوطنيته . إذ كيف يمكن أن يبدأ تنظيم بالعمل دون إمكانات مادية ، وتأمين مصادر للتمويل ، وفي ظرف فيه العراقي في أشد الحاجة للفلس الواحد من أجل استمراره بالحياة . ولهذا السبب فإن تأسيس الحزب في مثل هذه الظروف هو أول خطوة نحو الخيانة والتمويل الخارجي . أذكر أني التقيت في أربيل ، قبل دخول الجيش ، بشخص يدعى ثائر . كنت وقتها أنا والدكتور البصري

أحد اعضاء الحركة الاشتراكية نجلس في مقهى نحتسي الشاي . جاء ثائر وسلم على الدكتور الذي نهض وصافحه . بعد التعرف بي وبأني وصلت قبل فترة بسيطة ، جلس ثائر ثم دار حديث طويل عن وضع المعارضة البائس وضرورة تفعيل العمل . شرح لي ثائر تجربته الشخصية المؤلمة في هذا الموضوع . كان قد وصل إلى أربيل ، والحديث له ، وكله أمل بأن يجد الجو السياسي النظيف الذي حلم به . لكنه فوجئ بمستوى عال من القذارة والخراء السياسي وفساد المسؤولين ، كذلك تنوع انتماءات الحركات المعارضة وارتباطاتها بالدوائر المخابراتية . يقول ثائر إنه فكر في تأسيس حزب وطني بعيد عن هذا الخراء والخيانات . لا يريد ان يكون جاسوسا ، لكن في الوقت ذاته يريد العمل السياسي باعتباره ضرورة وطنية . اتصل بعد أن تعرف على بعض الأغوات ليضمن لحزبه موردا ماليا وطنيا . لكن في ليلة سوداء اعتقلته مخابرات جلال الطالباني التي تدعى (زانياري) وهناك في الأقسام السرية لهذا الجهاز جرى تعذيبه حتى الموت ، دون أن يقول له أحد لماذا ولأي سبب تم الاعتقال ، أو لماذا يعذب الآن . يقول ثائر الذي اعتقل في بغداد سابقا ، أيضا ، إنه رغم الجو المأساوي للنظام في بغداد ، لكنك هناك تعرف لماذا أنت في الزنزانة ، أما هنا فالأمر مضحك جدا ، بالرغم من أنه تقليد أعمى لأجهزة صدام حسين الأمنية . قضى ثائر في السجن عاماً كاملاً وخرج دون أن يعرف لماذا اعتقل ولماذا عذب أصلا بأساليب فاقت ما هو موجود في سجون صدام حسين . كان ثائر من الأشخاص الذين يحولون المأساة إلى سخرية مضحكة . توقف قليلا ليشعل سيجارته وينفث الدخان إلى جانبه . انه منذ ذلك اليوم شعر باليأس من أن يكون الإنسان وطنياً مع هذه الأحزاب الخراء . ذكرى وحديث ثائر لم يزالا طريين في ذهني ، هذا ما أردت التوصل له ؛ أن

العمل ضد صدام حسين للأسف يتطلب منك التعاون مع الأمريكان والاسرائيليين والايرانيين ، وهم الجهات الوحيدة التي تستفيد من إسقاط أو إضعاف صدام حسين . هل أنت نادم على خروجك من بغداد ؟ كثيرة هي المرات التي سألت نفسي فيها هذا السؤال . ووجدت الإجابة أن الحرية ثمينة لكن ليست على حساب الوطن . الآخر صدام حسين لم يفهم ما أخذ يحدث في العراق ، وكأنه يعيش في عالم آخر فيما أقرباؤه أخذوا يحتكرون البلد لهم ، أضف إلى هذا أخذت عصابة الأقرباء تستولي على البلد قطعة إثر قطعة ، مضافا لهذا فساد هذه الشلة . أيضاً هناك عدي صدام حسين المجنون ، والذي انتهك الأعراض واستخف بكرامة العراقيين . إنه شيء محزن وكأن البلد انتهى ، وهو انتهى فعلا بسبب الحصار وتغير كل شيء . لا يمكن أن يحدث كل هذا الفساد واغتصاب الأعراض وانتهاك الحرمات ولا تتحدث بكلمة ، لا بل إن هذه الكلمة ستؤدي بك إلى الموت أنت وعائلتك . كان شيئا مستحيلا أن تبقى ساكتا وكأنك مواطن درجة ثانية ، فيما العصابة هم المواطنون من الدرجة الأولى . الإحساس بالظلم والإحساس بالعبودية شيئان لا يمكن للعراقي القبول بهما . العراقي إنسان حر التفكير ، هكذا هو منذ فجر التاريخ ، وهكذا كان العرب الأقحاح . إذن هل كنت على خطأ حينما قررت الخروج ؟ يبقى هذا السؤال يتماوج في ذهني . لكنني أعتقد أن قراري بالخروج كان سليما وصحيحا . أما أن يكون الوضع هنا بمثل هذا السوء والخيانة الوطنية فهو أمر يجب الانتباه له ، وعدم التورط في العمل مع هذه الأحزاب المشبوهة مثل المؤتمر الوطني وما شاكل من الدكاكين والبقالين وسراق البنوك والقصابين . الغريب هنا أن أحزابا لها تاريخ نضالي طويل قد انساقت هي الأخرى مع ردح الخيانة وبيع الوطن بثمن بخس . لم أستغرب أن يخون أصحاب

الدكاكين ، لكن ما أثار استغرابي هو هذه الأحزاب القديمة في ذاكرة الشعب العراقي ، والتي مات الكثير تحت راية نضالها ، تتحول اليوم إلى شحاذ مساعدات وخائن للوطنية العراقية ، وعميل يتستر على الاختراقات الامبريالية والصهيونية لصفوفه . لماذا يجري كل هذا ؟ ولماذا جرى كل هذا وبهذا الشكل السخيف من بيع المبادئ ، والتحول إلى صف الاعداء . هل يستحق صدام حسين أن نخون الوطن من أجله ؟ ليس هناك مبرر إطلاقا لأن تخون الوطن بحجة قمع السلطة لك ، وتتخذ من هذا مبررا لشناعتك . كان صدام حسين يتهاوى ولا بد أن يسقط ، وذلك لأنه لن يستطيع في النهاية الاستمرار إلى الأبد في حكم البلد بقبضة من حديد . دائما الأنظمة التي تعتمد على الشخصية الواحدة لا بد أن تنهار . أما الأنظمة القائمة على تداول السلطة سلميا فهي التي تستمر . ليست هذه حكمة ، لكنها مبررات شخصية كانت تدفعني أن لا أتورط في نشاطات الأحزاب الموجودة في شمال العراق . غدا همي الأول بعدما شاهدت هذا الخراء السياسي ، أن أهرب ، أن أحاول في كل الأحوال الخروج من هذا المستنقع دون أن يصيبني بالتلوث . كنت حزيناً جدا كون عملية دخولنا إلى سوريا لم تتم برغم المحاولات العديدة . أما السفر إلى تركيا فيتطلب مبالغ كبيرة ليست متوفرة لي . لم أكن أمتلك خمسين دولارا . فكيف أسافر إلى تركيا بصحبة عائلتي . اتصلت بأحد الأقرباء في ألمانيا لكنه اعتذر عن المساعدة ، إذ كان المبلغ المطلوب كبيرا قياسا إلى إمكانياته . هل أستسلم ؟ لم أكن أدري ، لكن الخروج إلى خارج المنطقة يحتاج فعلا إلى معجزة . زوجتي لم تكن تشعر باليأس ، كانت متفائلة دائما ، هكذا يقول قلبي ، كانت تقول : سوف نخرج من هنا بوسيلة ما لنصل إلى الحرية . أحسدها كنت ، وكانت هي دائما ترى في أحلامها أبوابا مفتوحة لمناطق خضراء

على امتداد البصر . لكن أين هذه الأبواب ؟ كنت أقول بحيرة ، بتساؤل محزن وإطراقات ساهمة وأنا افكر بالوضع الذي بت فيه .

سرنا أنا وأبو سيف ساعات طويلة في أسواق دهوك ، بعد ذلك أخذني إلى منطقة جبلية ليريني هناك مقر الموساد الإسرائيلي . عجبت من هذه التلقائية والبساطة التي أشار فيها إلى المقر ، وذلك على افتراض أن المقر يجب أن يكون سريا . قال ، ونحن ننحدر إلى الوادي : كل الأكراد في دهوك يعرفون هذا المقر . وأنا شخصيا دلني عليه صديقي الحلاق ، حيث أن ابن عمه يعمل حارسا فيه . فعلا ، فلقد شاهدت مقر الموساد وهو محاط بحراسات مشددة من قبل بيشمركة مسعود . والى جانب المقر كان هناك بيت آخر بحراسة أقل هو مقر الجمعية اليهودية التي تشرف على تسفير الأكراد إلى إسرائيل على اعتبار أنهم يهود . كان هذا محزنا أو مستغربا في الحقيقة ، وهو لماذا يغير الأكراد دينهم إلى اليهودية . لقد وجدت السر الذي لم يكن خافيا . وهذا السبب يرجع إلى الأحزاب الكردية ، وتحديدا إلى جماعة مسعود وجلال ، ومن خلال تثقيفهم للأكراد بكره الدين الإسلامي كونه عربيا ، والنبي محمد عربيا . لقد أوصل الحقد الأعمى على العروبة إلى التنصل من دين الإسلام والهروب إلى اليهودية والمسيحية خلاصا من القرآن العربي . كيف يفكر قادة الأحزاب الكردية أو كيف يفكر جلال الطالباني ومسعود البارزاني . لم أشك لحظة أن طريقة تفكيرهم هي طريقة غبية وطفولية . ماذا يستفيد مسعود من تأجيج الحقد على العرب والإسلام؟ الاستفادة الوحيدة هي أن يبقى الأكراد بعيدا عن الاندماج مع مجتمعهم العراقي ليضمن سلطته ، هذه السلطة القائمة على نزع الوطنية العراقية من عقل المواطن الكردي . يخدع مسعود وجلال وباقي قادة العصابات الشعب الكردي ، بأنهم سوف

يحررون كردستان ويجعلونها دولة كاملة السيادة . هم يعرفون استحالة هذا الأمر ، ويعرفون أنهم ليسوا إلا أدلاء خيانة ، واجبهم طعن العراق فقط وإعاقته عن تنفيذ دوره القومي . الهدف الأساسي لوجود العصابات الكردية هو إضعاف العراق الذي يشكل بثرواته لولب المنطقة ومحرك الاقتصاد العربي خاصة في المشرق . لكن هل فعلا لا يعرف الأكراد حقيقة مسعود وجلال وباقي العصابة ؟ إنهم يعرفون ، وهذه حقيقة يمكن لك أن تلمسها بقليل من الجهد ، يعرفون تاريخ البارزانيين وتاريخ كل العصابات ، لكن الأكراد صاغرون ، وهناك شبه استسلام لمشيئة هذه الأحزاب ، أو الأكراد مغلوب على أمرهم وهذا احتمال ضعيف . فالكردي الذي يهرب من منطقة مسعود إلى خارج العراق ، ويصل إلى دول اللجوء يبقى مؤيدا لمسعود على سبيل المثال ، بالرغم من أنه هارب من سلطة مسعود وجلال والآخرين . إنها الروح القطيعية التي تسير الكردي ، وغير القادر على التخلص منها ليرى العالم كما هو لا كما يصور له . في إحدى المرات سألت أحد الأكراد الذين تعرفت عليهم في أحد المقاهي ، وكان قد وصل زاخو ليسافر إلى تركيا ، ومن هناك تهريبا إلى دول اللجوء . قلت له ، لماذا تهرب إلى الخارج ، أليست المنطقة تحت الحماية الأمريكية وتحكمها أحزابكم ؟ قال الكردي ، لا أثق باالوضع . نحن تعلمنا من الزمن أن هذه الأشياء لا تدوم . هكذا هم الأكراد ، أردف مع تنهيدة عميقة : هل تدري أن كل عوائل القادة في الخارج . لم أعلق على كلامه . شرب استكانة الشاي ثم نهض لأن عليه أن يذهب إلى الفندق ويجهز حاله للسفر . تخرج من زاخو كل يوم العشرات من العوائل ، سواء عن الطريق الرسمي أو تهريباً للوصول إلى دول اللجوء . أضف إلى هذا خرجت وتخرج المئات من العوائل المتهودة إلى إسرائيل . ويجب أن لا ننسى المئات

الأخرى من العوائل التي تخرج بعد إعلان مسيحيتها . هذا الخروج اليومي بالعشرات مستمر منذ العام ١٩٩١ وحتى الآن . فمن بقي إذن وكم هي أعداد من تبقى؟ هذا إذا استثنينا المئات من العوائل الأخرى التي نزحت إلى مناطق العراق الأخرى ، والآلاف من المقاتلين الذين قتلوا في معارك جلال ومسعود . إن أعداد من تبقى من الكرد ستبقى قليلة جدا وهي لا تتعدى المليوني شخص في أحسن الأحوال .

ودعت أبا سيف بعد رحلتنا في طرقات دهوك ، وقفلت راجعا إلى زاخو . قبل اقترابي من سيطرة زاخو شعرت بانقباض روحي ، وأخذت كآبة حادة تعتصرني ، إذ في كل مرة أخرج من زاخو أو أقدم إليها أتعرض في السيطرة إلى الكثير من الأسئلة السخيفة للبشمركة ، الذين لا يعرفون القراءة وهم ينظرون في بطاقتي الشخصية . في كثير من الأحيان يضع رجل البشمركة هويتي في جرار المنضدة ويسكت . حسنا ماذا بعد ، كنت أقول له . لكنه لا يجيب . هل أذهب ام أبقى . وأيضا لا يجيب ، وكأنك تحاور حمارا . وفيما الحمار جالس إلى المنضدة تكون سيارة النقل متوقفة وفي داخلها البشر ينتظرون بلا طائل . فأتصرف بشكل شخصي وأشير للسائق أن يذهب ريثما أنتهي من حماري الذي حرن كالعادة . وصلت إلى سيطرة زاخو . وكان الشخص نفسه الذي أنزلني من السيارة في طريق خروجي من زاخو ؛ فأشار لي أن أنزل أيضا . ودون انتظار قلت للسائق أن يذهب . مرة أخرى نظر الحمار إلى بطاقة هويتي بالمقلوب ، ثم تحرك ووضع الهوية في درج الطاولة . لم أتحدث معه إطلاقا ولم أقل له إنه أنزلني من السيارة هذا الصباح . فحماري لا يحب أن يحدثه أحد ، وهو مثل أي حمار آخر في الدنيا لايفعل شيئاً إلا إذا اقتنع به . لهذا السبب لم أتحدث معه ، ووقفت أنتظر الفرج الذي لا أعرف إن كان سيتأخر أو يأتي سريعا .

في وقت انتظاري هذا لم أكن منزعجا البتة ، لا بل إن مزاجي أخذ يتبدل من الاكتئاب إلى عدم الاهتمام ، ورحت أتخيل وصول محمد خورشيد وهو يسلمني المائة دولار الثانية . كان شيئاً مسلياً . فكرت بالكتب التي جلبتها من المكتبة العامة ، ورتبت في ذهني جدول القراءة ، على أن أبدأ كل يوم عصرا وأستمر حتى المساء ، وبذلك سوف أنتهي من هذه المجموعة بأسرع وقت . الوضع مثالي الآن للقراءة ، لا بل للتأمل . صحيح أن لا أمل من الخروج من زاخو إلى تركيا أو سوريا . لكني عقدت العزم على أن أوفر من المائة دولار نصفها للحالات الطارئة ، أو كبداية لمشروع توفير أجور المهرب الذي سيهربني وعائلتي إلى سوريا للوصول من هناك إلى مكتب الأمم المتحدة . صار هذا الموضوع يشكل أهمية تعلو وتتجاوز أهمية مواضيع أخرى . وصرت بعد وصول المائة دولار الثانية قليل الخروج من الغرفة ، واذا خرجت فإني أذهب بشكل سريع إلى المقهى المحاذي للخابور ؛ لأجلس وحدي أتأمل أشياء عديدة في حياتي ، منها سفري إلى الأردن وإقامتي في عمان لمدة عامين . كنت أتذكر تلك الأيام المليئة بالمرارة والجوع والبرد . أتذكر علي السوداني وكيف كنا نشترك في أكل بيضة واحدة لأننا لم نكن نملك أن نشتري بيضتين . الخبز كان الشيء الوحيد الذي نستطيع شراءه وهو الوجبة الرئيسية لنا . محمد تركي النصار كان جزء آخر من محيط الدائرة الهلامية التي كنا نغرق فيها ، وكان كثير المشاكل ، خاصة فيما يتعلق بالتهام حصة علي السوداني من الطعام . أكثر من مرة اشتكى علي حينما كان يقيم مع محمد ، أن محمدا يصحو في الليل ويتسلل إلى كيس الخبز ليلتهمه بصمت . في إحدى المرات اكتشفه علي وقرر عدم البقاء معه إلى الابد . حميد المختار هو الآخر كان من ضمن دائرة الوجع والألم ، لكن هناك من البعض كان يعيش عيشة مريحة بفعل إمدادات الدولارات

التي تهطل من شآبيب سعد البزاز . استطاع هذا البعض أن يجمع ثروة معقولة أهلته للسفر والخروج من الأردن ، والذهاب إلى اليمن ولبنان . الوجع كان يستمر والمحنة عبارة عن قطار طويل من الجوع والبرد والابتلاءات المستمرة . كان نصيف الناصري ، الوحيد الذي ضرب كل شيء بقندرة عتيقة . كان ذا مقدرة جهنمية على اختزال الألم ، لا أعرف كيف لم يشعر بالبرد والجوع والألم . كان يكتفي من كل العالم بكتابة قصيدة وكأس عرق . أما الطعام والبرد فهما شيء ثانوي تماما وليس لهما أهمية . الهم الأول لنصيف كان كيف يدبر عرق اليوم ويبقى مثل الملسوع حتى يجد بغيته ، وأحيانا صيده الثمين . حينها يكون قد شعر بالراحة والطمأنينة . في كثير من الأحيان كان نصيف يجد ملجأ له على طاولة عبدالوهاب البياتي في مقهى الفينيق . يجلس نصيف مثل تلميذ مهذب جدا ولا يتكلم عن قططه التي حبسها فوق سطح داره ، أو عن أمه المسكينة وأبيه . العالم يكون مختلفاً تماما . نصيف لا يتحدث إلا حينما يسأله عبد الوهاب البياتي . قضينا مع البياتي ساعات رائعة من الذكريات (ذكرياته) عن العراق وبغداد ، وكنا نقفز معه عبر الأمكنة والزمان بسرعة مذهلة وغريبة . شتاء عمان دائما هو شتاء قاس ، لم نعتد عليه . أتأمل ذلك البرد الآن وأشعر بمرارة قاتلة . كيف استطعت تحمله ؟ لم أكن أدري . في كثير من الأحيان كنت لا أنام من البرد ، بالرغم من أننا كنا نوقد حطبا للتدفئة . كانت الغرفة التي أسكنها عبارة عن مخزن طحين تابع لفرن خبز مهجور من سنوات طويلة . المخزن (الغرفة) كانت بلا إضاءة ، وكنت أستعين بقنينة أضع فيها النفط وأصنع من حشية الفراش فتيلة لإيقادها . أذكر أني لم أستحم في ذلك الشتاء إلا مرة واحدة . كيف كنت أبدو ؟ لم أعد أتذكر ، وحينما ألح على الذاكرة لتذكر تلك التفاصيل المؤلمة

كنت أشعر بانقباض صدري . حتى في أسوأ أيام الخدمة العسكرية في جبهات القتال مع الفرس لم نمر بهكذا مأساة وجوع . غالبا ما كنت أصحو في الليالي الباردة لأشاهد جرذاً كبيراً يلتهم قطع الفلافل والخبز . لم أكن أستطيع أن أرمي ما أكل الجرذ ، فالتهم فضلات ابن القحبة هذا . كل شيء تغير ، والعالم انقلب رأسا على عقب . كنا نلتقي أنا وعلي السوداني وفاضل الخياط وكاظم الحلاق وفاضل جواد وحميد المختار وصلاح حسن ، في مقهى العاصمة ، ويحدث أحيانا أن يزورنا من بغداد بعض الأدباء المرفهين ، أعضاء المجلس المركزي لاتحاد الأدباء . كانوا يعرفون أننا نلتقي في مقهى العاصمة ، وكانوا يزورننا للشماتة بنا واستقصاء حالتنا . البعض من هؤلاء الأدباء كان يحمل في ذهنه مشروع هجرة لترك الوطن ، لكنه يريد الاطمئنان إلى وضعه . أما الآخرون فكانوا يأتون للتجسس علينا ونقل أخبارنا للسلطة في بغداد ، وكانوا غالبا مايسألون إن كنا نفكر في العودة إلى بغداد أو البقاء في عمان . كانوا يريدون أن يعرفوا لينقلوا ما نقول إلى بغداد من أجل اتهامنا بالعمالة والارتداد . كانت هذه مشكلة عويصة لا يتفهمها أعضاء المجلس المركزي أو أنهم لا يريدون فعلا فهم الحقيقة ، وهي أننا نطلب الحرية . كنا نسير في شوارع عمان بغم الجوع ، لكننا كنا نقرأ الصحف المختلفة ، ونتكلم دون خوف بعيدا جدا عن قبضة عدي الماثلة أمامنا مثل صرخة قاتمة . هل إننا كنا على خطأ في خروجنا إلى عمان ؟ لا ليس خطأ طبعا وليس إثما بالتأكيد . أبناء القحبة الذين عملهم الأساسي ، الوشاية والمزايدة ، كانوا ينقلون إلى القيادة السياسية أننا خرجنا من العراق لأغراض اقتصادية وبسبب الجوع . كانوا يخدعون حتى الخديعة . فها نحن في عمان يسلقنا الجوع والعري والبرد لكننا نشعر بالحرية ، الحرية التي كنا بأمس الحاجة لها . كنا نريد أن نتحمل الحصار

كلنا ، أن يقسم الأذى على الجميع ، وأن لا تتحمل فئة وزر كل الوطن والعذاب . لكن هذا لم يحصل . أصبح الحصار على فئة معينة فيما فئة أخرى تنعم بما لذ وطاب . حزنا قليلا على بيع مكتباتنا وكتبنا التي جمعناها على مدى سنين طويلة . تخلينا عنها بوجع من أجل إطعام أطفالنا . وفي الجانب الآخر كان البعض يغرق في حفلات السكر والعربدة والنساء ، والطعام المبذول الذي يرمى للكلاب دون البشر . ليس عدلا إطلاقا أن يموت إنسان من الجوع ويموت الآخر من التخمة . كان البلد ينهار ، ينهار كليا ، والمجتمع يتفكك بشكل مريع ، وصدام حسين لم يكن يعرف بالذي يدور ، وكان أبناء القحبة ينقلون له التقارير الزائفة . كان لا بد من حل ولا بد من الحرية التي تداوي الجوع . لكن للأسف كان هناك تحالف شرير من الجوع والقمع والكبت . وكان صعبا جدا أن توائم بين الجميع . في عمان لم نجد الرفاهية ، بل العكس فقد قرضنا الجوع بشكل مخيف هو والبرد الكلب . لم نكن قادرين على شراء النفط لندفئ أنفسنا ، وكنا نهرب إلى مقهى العاصمة من أجل أن نجد لنا مكانا قرب المدفأة لنستعيد إنسانيتنا لو لبعض الوقت . الشيء العجيب في عمان أنه لم تنفع مع البرد كل الملابس التي نرتديها . لكن من الجدير بالملاحظة أن الملابس التي نلبسها كانت كلها صيفية ومن البالة ، أو ما يطلق عليه في بغداد (باللنكة) . الأشياء تدور في الذهن مثل إطار من المعدن لا يريد ان يغادرك فيالهذه الذاكرة التي تأبى نسيان كل شيء . منظر الخابور في تدفقه كان يوحي لي بكل حياتي التي صرمتها بين العمل الشعبي ومنظمات الكشافة والطلائع والفتوة ، ثم الجيش الشعبي بعد ذلك الجيش ، ولأنتقل في النهاية ، وبعد حربين وحصار ، أكل كل شيء إلى الغربة في عمان ثم العودة إلى بغداد ، بعد أن حطمتني الغربة إلى الأبد . ها أنا اليوم مثل

غجري لا يستقر في مكان معين . يا لهذا البؤس ويالهذا القدر التعيس الذي غرقنا فيه إلى النهاية . لماذا جرى كل هذا ، أية حكمة سماوية وراء كل هذه الأحداث . هل هي لعنة سماوية فعلا . هل للرب تصرف معين في مجرى الأحداث . لا أفهم حكمة الرب . لا أستطيع فهم الموت المجاني لآلاف البشر في محرقة مروعة . ثم هذا الحصار المدمر الذي مات فيه أكثر من مليون طفل . أية مأساة ونقمة . ألا يحزن الرب فعلا . وإذا لم يحزن فهذا يعني أنه خال من المشاعر . صندوق حديد لا يحس ولايتألم . في بعض الأحيان ، وحينما أشاهد حشرة صغيرة ، أتوقف كي لا أدوسها بأقدامي . أشعر بالحزن فعلا إن قتلتها . في ذهني لم تزل تشتعل حادثة صغيرة ، حينما ضربت قطة منزلنا . كانت القطة تتلوى من الألم . وبعد ثلاثين عاما لم يزل ذلك الألم ينخر في عقلي في أبدية لا تنتهي . وحتى في الأحلام ، كنت أشاهد الألم يكبر ويكبر لينفجر في وجهي وحياتي .

أنهيت شرب استكانة الشاي الرابعة . الجو البارد كان منعشا ، خاصة بعد أن وجدت في البالة قمصلة رائعة ، صحيح أنها عريضة إلا أنها دافئة جدا . هذه القمصلة منحتني مقاومة أفضل للبرد ، وجعلتني أستمتع بموجات البرودة وهي تنحدر من الجبال المحيطة بزاخو ، ولتصل إلى مجرى النهر الصخري ووجوهنا . أخذت أتردد على هذا المقهى الذي اكتشفته في وقت سابق ، وفي كثير من الأحيان كنت أصحب كتابي معي لأقوم بجولة قراءة باردة ومنعشة للذهن المتعب من التذكارات المتراكمة في العقل . بعد أن أنهيت فصلا في كتابي وانتهيت من استكانة الشاي ، خرجت إلى الشارع بانتشاء عارم . كنت أسير على مهل متأبطا كتابي وسيجارتي . في طريق العودة إلى الغرفة ، كان لا بد أن تمر بوسط المدينة وهو ما كنت أكرهه ، إذ سوف تلتقي حتما بأشخاص كريهين يخربون ذلك

المزاج الرائع الذي أنت فيه . سرت على عجل ، حينما وصلت مركز المدينة ، لم أفلت إذ سرعان ماسمعت صوتاً يناديني بإلحاح شديد . توقفت وأدرت رأسي فإذا بأبي فيصل ، طباخ أحمد الجلبي . كان هذا الرجل بدينا وكبيرا في السن نسبيا ، وهو من الأكراد الفيلية الذين تم تسفيرهم إلى ايران فاستردوا الجنسية الإيرانية بمجرد أن وطئت أقدامهم إيران . وقف أبو فيصل وهو يلهث ، وبعد أن استرد أنفاسه قال لي إنه يريد أن يعرفني على شخص محترم وصل حديثا إلى المنطقة . طلبت من أبي فيصل أن يؤجل الموضوع إلى وقت آخر ، إلا أنه ألح بشكل كبير . سرنا قليلا ثم دخلنا أحد المقاهي الصغيرة ، حيث كان يجلس شخص يبدو عليه العز والراحة . وقف أبو فيصل بيننا وعرفني على هذا الشخص ، واسمه عدنان ، ويعمل مقدما طيارا في الجيش العراقي . كان مقدم عدنان يعيش في أحد فنادق زاخو القريبة من المقهى الذي نجلس فيه . تبادلنا أنا وعدنان أطراف الحديث ، واستمر لقاؤنا وقتا طويلا ، تحدثنا فيه عن وصوله إلى شمال العراق ، والتحقيقات التي أجريت معه من قبل جهاز الباراستن التابع لجماعة مسعود ، وغيرها من الأمور ، من مثل اسم الفندق الذي يعيش فيه ، ووضعه العائلي ، والوضع في بغداد ، كذلك تبادلنا النكات ، أنا بالنكات القديمة وهو بنكاته الجديدة التي لم تزل طازجة وخارجة للتو من فرن بغداد . شعرت حينما تعرفت على مقدم عدنان ، أن العالم لم يزل فيه أناس يمكن للمرء أن يعدّهم أصدقاء . تكررت اللقاءات مع عدنان في المقهى الصغير القريب من محل سكنه . وكانت أحاديثنا تتناول كل ما يخطر في بالنا من ذكريات بغداد وأماكنها ، كان عدنان يتحدث لي عن غزواته النسائية والمواقف الصعبة التي واجهته كطيار أثناء واجباته العسكرية . بعد حديث طويل ، توقف عدنان عن الكلام ليفاجئَني بالقول

إنه يريد أن يسرد لي بعض وقائع التحقيق معه في جهاز الباراستن ، إنه يشعر بالخوف مما جرى له . لم أعترض على رغبته في الثرثرة والتخلص من شيء كان يؤرقه على مايبدو ، كذلك شغلني خوفه الذي أشار له . أشعلنا سجائرنا وطلب أن نذهب إلى غرفته في الفندق . . تمشينا قليلا ثم وصلنا الفندق الذي يقيم فيه . في الغرفة أسدل الستائر وأبقى انفراجا قليلاً ، كان يتطلع منه إلى ممر الفندق بين لحظة وأخرى . بدأ الحديث وكانت نظراته متعبة . ثمة شيء على الأرجح كان يثقل عليه . قال ، هل تتذكر حديثي السابق عن التحقيق معي في جهاز الباراستن . قلت له نعم ، أتذكر أنك قلت إنه أجري معك تحقيق عادي ثم أطلق سراحك . هز رأسه نافيا . تطلع إلى الممر ثم قال هل تدري من كان يجري معي التحقيق . وبدون استغراب قلت لا بد أحد ضباط الباراستن . أشار برأسه نافيا . قلت هل هذه أحجية . نعم ، قال بسرعة . ولمحت في عينه إشارة مبهمة أضاعت تخميني الذي توصلت له . أحسست بنوع من الخوف الذي لم أعرف كنهه . شيء ما تسرب إلى ذهني ببطء وشعرت بتنمل يدخل إلى ذراعي من أطراف أصابعي . قال عدنان بعد أن نظر إلى ممر الفندق ثم إلى علبة السجائر الموضوعة على منضدة صغيرة بجانب السرير . . كان ضابطا إسرائيليا .

لم أشعر بالمفاجأة التي أربكت عدنان ، وربما لأني أعرف أن الموساد الإسرائيلي يشرف على جهاز الباراستن التابع لمسعود . هل أنت قلق ؟ قلت . ودون أن يمنحني فرصة إكمال استفساري ، أجاب : جدا ، أشعر أني لست في أمان ويمكن أن أقتل . . لا قلت . لا اعتقد أن الأمور سوف تصل إلى هذا الحد . هم يريدون المعلومات فقط . عن ماذا سئلت ، عن المطارات السرية غرب العراق ، وعن التنسيق بين القوة الجوية العراقية وسلاح الجو

الأردني . كان ضابط الموساد مهتما بهذا بشكل كبير . قال لي إنه يعرف كل شيء ، لكنه يريد أن يقارن المعلومات التي لديه . استمر التحقيق معي أياما ، وبعد ذلك اعتقلوني فترة طويلة ، ثم أفرجوا عني . شعرت بالأسف الشديد لما حدث ، لكني لم أحدث عدنان عن هذا الأسف . كم هي الأعداد من العسكريين العراقيين الذين هربوا إلى شمال العراق نتيجة إغراءات المؤتمر الوطني ليصطدموا بعد أن يصلوا بالحقيقة كما هي ، والتي هي عبارة عن خطة إسرائيلية كردية ، وبالتعاون مع أحمد الجلبي ، لاصطياد الضباط العراقيين وتفريغهم من المعلومات الحساسة عن الوطن . من يحمل الرسالة إلى بغداد ، من سيقول للذين يتصورون أن شمال العراق واحة الحرية والديمقراطية ، ليس إلا فخا قذرا للموساد الإسرائيلي . الناس في داخل الوطن لا يصدقون ويعتبرون أن النظام حينما يحدثهم عن خيانة المؤتمر وغيره من الأحزاب العميلة ، فإنه يخدعهم . لكن هذه هي الحقيقة المرة . أتصور في كثير من الأحلام ، أني مثل أرميا النبي أدور في الأرجاء والحواري من أجل أن أنذر الآخرين ، لكن الآخرين يرون العكس ، إذ لست في نظرهم إلا مجنوناً يريد الهروب من الحلم إلى الدكتاتورية ، ومن الحياة إلى الموت . لكن هذا ليس صحيحا البتة ، .فأين يا ارميا تضع نفسك وروحك التي تتيه بحب الوطن ، وتموت من أجل أن لا يمس هذا الجسم الجميل والرائع . تموت من أجل أن تبقى معابد آلهتك يابابل مقامة وتفوح منها روائح المر والمسك واللبان والبخور ، المجلوب لك خصيصا من الجزر النائية عبر البحار السبعة . أخذتني أفكاري بعيدا . كنت صامتا أحلق في سماوات الله وكائناته الخرافية التي لا أعرف لماذا خلقها . أيقظني عدنان من الأفكار التي غرقت فيها عميقا . ماذا تقول؟ سأل وكان يختبئ خلف أفكار هي الأخرى تتداعى في ذهنه . لا أدري

قلت . لكن من الأفضل أن تخرج من هنا . إلى السليمانية مثلا ، قال . لا لا أقصد الطهارة هناك ؛ فكلاهما ينبع من الخراء نفسه . أعتقد أن من الأفضل أن تخرج إلى سوريا أو تركيا وتذهب مباشرة إلى مكتب الأمم المتحدة . هذا الشيء سيحميك . قلت . كان مشوشا وهو ينظر إلي ، لكن لمحت في لحظة خاطفة أنه ثمة نظرة غريبة في عينه . خرجنا من الغرفة إلى صالة الفندق حيث كان هناك جهاز تلفاز . تناولنا شايا وكنت أشعر بجفاف حلقي بشكل كبير . ماذا ستفعل . سألت . ليس لدي إمكانية السفر إلى تركيا ولا إلى سوريا التي تتطلب تصريحاً خاصاً بالعبور . شعرت بضيق يأكل قلبي من الحالة التي وضع نفسه فيها . لم أكن أمتلك حلولا لمشكلته ، ولم تكن هناك اقتراحات معينة . كل شيء يتطلب مالاً وهو الشيء الوحيد غير المتوافر هنا . حينما أردت أن أخرج قال لي إنه يفكر بالاتصال بجماعة إياد علاوي . لم أعرف لم لم تخطر على ذهني هذه الفكرة . كان هو عسكريا ، ومن المؤكد أنهم سيقبلونه في تنظيمهم . لم لا أعلق على فكرته . لم أقل له رأيا سلبا أم إيجابا رغم أني كنت أفضل أن يخرج إلى خارج العراق في مثل هذه الظروف . ربما كان انضمامه إلى الوفاق سوف يحسن من أمنه الشخصي وينهي الاستدعاءات المتتالية إلى جهاز الباراستن ، والتحقيقات المتتالية والأسئلة الغبية عن سبب وجوده في زاخو . استأذنت من عدنان للذهاب . وفي الطريق كانت تشغلني قضيته والقضايا المشابهة التي حصلت هنا . كنت أسير مثل المسرنم غارقا في تأويلات متعاكسة عن كل شيء ، عن قراري للهروب إلى شمال العراق ، وعن البرد والجوع ، وعن وقوفنا أياما امام السفارة المصرية من أجل الحصول على فيزة مرور فقط للوصول إلى ليبيا ، لكن الحكومة المصرية لم تساعدنا . كان ذلك مؤلما للغاية لنا ، إذ إننا استقبلنا المصريين في العراق

بالرغم من قطع العلاقات مع حكومة السادات . كان المصري له من الحقوق ما يفوق العراقي . كان مسؤول تأشيرات المرور يسلمنا الجوازات مع كلمة أسف شديد . كان يدرك أنها معاملة سيئة من حكومته لأهل العراق . لكنها الأوامر . شعرنا أن الجميع يغلق الأبواب بوجه العراقيين . وكأن هذا الجميع يقول لنا انتحروا وإلى الجحيم . شعرنا بالمرارة تقتلنا ، ولأول مرة أخذنا نشعر بأن لا معنى فعلا للعروبة ، نحن الذين تعلمنا منذ طفولتنا أن نعشق عروبتنا .كان هذا التباسا كبيرا في الذهن . اضطر بعض العراقيين في الأردن إلى الهروب إلى اسرائيل من أجل أن لا يموتوا جوعا أو أن يتم إرجاعهم إجباريا إلى العراق . كنا نفكر لماذا لا تمنحنا مصر حق العبور عبر أراضيها من أجل الوصول إلى ليبيا . أي حجة كانت مبررة لهذا التصرف . هل هي المؤامرة من أجل قتل العراقي . أم أنها أشياء أخرى لا نعرفها . كنا نشعر بالحزن العميق من موقف المصريين ، الذي كان في أذهاننا عبارة عن جرح لا يريد الالتئام ، إنما يختزن وجعا وقيحا . كنا نريد من السفارات العربية أن تتحسس وجعنا وتتحسس الآلام التي نرزح تحتها . كنا نريد أن تمسح تلك السفارات تلك الأوجاع بأيديها وتشعرنا أن للعراقي بيتا اخر إذا ما ضاقت الدنيا أمام عينيه . للأسف شيء من هذا لم يحدث ، باستثناء بعض الدول العربية التي ضمت أوجاعنا إلى أوجاعها في تلاحم مدهش للعروبة وللدم الواحد . لقد سقطت العروبة في روحنا . مات التجذر العميق في أرواحنا . الحزن الأبدي الذي صار خرائيا في متواليات تدور فيها أرواحنا إلى الأبد . لكن العروبة ليست حكاما أبدا وماكانت هي كذلك . اللعنة على الجوع والبرد . ما الذي يعني أن يضم جوعنا إلى جوع المصريين ، وبردنا إلى برد اللبنانيين أو برد التونسيين أو الجزائريين . كنا بجانب الكفر بالعروبة نكفكف جراحاتها . نسكر في

غرفنا الكئيبة ونمسح على الوجع . لا بد أن تشرق الشمس يوما . لا بد أن تموت الحيتان الكبيرة لنعيش فرحا أزليا مطردا بالنصر . بجانب الجوع والبرد والتشرد وملاحقات الشرطة ، والعمل بدون أجر بعد أن يبتلع صاحب المصنع رواتبك المتراكمة ، فيما أنت تموت من الحزن ، يشرق أمل حتما . ليس اليوم وليس غدا ، لكن بعد أعوام ربما لا نعرف إن كانت تطول أو تقصر . وصلت الغرفة وارتميت على الحشية الممزقة . كنت أشعر أنها أجمل حشية وأجمل فراش في العالم . في عمان كانت لنا حشية ممزقة أيضا . كنا ننام بالتقسيط مثل السجناء . لم تكن هي حشية أو فراشا بالمعنى الصحيح أو المتعارف عليه . إنما كومة من ملابس ممزقة جمعناها من الشوارع ، وغطاء لأحد الذين سافروا تركه إرثا للذين يأتون بعده . كان هذا نوعا من التضامن . في الغرفة المجاورة لنا يسكن مصريون كانوا يشربون الشاي ، ويتدفؤون بشكل جيد ، فيما نموت نحن من البرد . أحد أصدقائي الفلسطينيين عرض علي أن أذهب لمخزن فرن مهجور يمتلكه . ففعلت ونمت هناك مع الجرذان الكبيرة بجانب التواليت ، وكأننا في سجن . لم تكن هناك إضاءة في المكان . كان النور الوحيد هو فتيلة وحيدة أخشى لو أطفأتها فإن الجرذان سوف تلتهمني . الجوع عارم ووحشي وعميم . الغرفة الآن التي أسكن فيها مع عائلتي ، بالرغم من فقرها وبؤسها ، لكنها دافئة وتتوفر على الكتب و(جولة) للتدفئة والطبخ وسجادة صلاة لزوجتي فقط ، إذ إني هجرت الله منذ أن شاهدته يعذب مخلوقاته الحزينة والكئيبة والبائسة . كانت لدي مشكلة مع الله ، كانت لدي مشكلة مع الآلهة . لم أكن أعرف إن كان هناك الله أم آلهة . المعاني الحديثة لفكرة الإيمان هي ما تشغلني . أهو الله أم الآلهة . لكني في النتيجة كنت على عدم الوفاق مع الاثنين . فكرة الله وفكرة الآلهة واحدة . لا أعرف من الذي اقتبس من

الآخر ، لكن الاثنين يتفقان على أننا عبيد فقط ولسنا أحرارا . الآلهة خلقتنا من أجل خدمتها ، والله من أجل عبادته . شيء مضحك للغاية وفكرة تشبه أنك تنجب ابنا ليعبدك ، مستهينا بفكرة وجوده الإنسانية وشوقه إلى الحرية . لماذا إذن خلقتنا إذا لم تجعلنا سعداء . في الجنة ، هكذا تقول أنت ، لكني لا أفهمك يا سيدي ، لا أفهم جنتك وجحيمك ، نوع من اللعبة المأساوية تديرها من أجل التسلية وقضاء الوقت المتصرم دون عمل شيء مفيد . لم تقل للملائكة لماذا خلقتنا . هل كان الأمر مجرد مزحة مثلا أو أن خلقنا كان شيئا حتميا دون إرادتك ، فاستبقت الأمور لتقول إنك ستخلق من أجل أن تخدع الملائكة ، وتقول إنك أنت من تخلق ، فيما الأمر على خلاف ذلك . دعنا نناقش الأمر بشكل آخر ، بشكل مختلف دون أن تنهار أعصابك وأعصابي ، ذلك أن هذا الأمر جنوني فعلا . هناك علاقة خفية بيننا وبينك لم تشأ أن تقولها للآخرين ، وأعني ملائكتك الذين يمثلون في واقع الحال مجلس الآلهة في الميثالوجيا البابلية . ماهي العلاقة الحقيقية بيننا وبينك . ثم هل نمثل نحن تجسيدا لك ، هذا إذا افترضنا ماجاءت به كتبك صحيحا . هناك الكثير من الأشياء الغامضة في علاقتنا وتحتاج إلى تفسير ، لا بل إلى تصحيح في حقيقة الأمر . مسألة الأديان أنا أعرف أنها لعبة تخيلية ، وأن ليس هناك ديانة أنت أرسلتها . إنما في الواقع هي تخيلات لهؤلاء السادة ، حيث يتصورون أنهم مرسلون من قبلك ، وأن وحيا منك يوشوش في آذانهم . لكن الحقيقة هي شيء آخر . فالهنود يقولون أيضاً إنهم مرسلون من قبل براهما الذي يوشوش لهم أيضاً في آذانهم . ثم ماهذه الفوضى التي تجعل الآخرين يعيشون فيها ، حيث كل يوم ترسل نبيا أو رسولا ليؤسس لك ديناً جديداً . ثم يتعصب هؤلاء على أولئك ، وتقوم المذابح والخرائبات ، فيما

أنت تجلس لترى كما تقول تدافع الناس . أريد منك في الحقيقة أن تعترف بلا خجل ولا مواربة أن هناك نظاماً كونياً سببياً هو الذي يسير الأمور في الكون . أما أنت فلست أكثر من مطلع عليه . ثم من يقول إنك قد خلقت كل شيء . ربما تكون أنت أول شيء سيطر على الكون ، أو تكون أنت أيضاً مكوناً من هذا النظام الذي اطلعت وسيطرت عليه . مثلما نفعل نحن اليوم إذ نكتشف ذواتنا ونكتشف الكون لنسيطر عليه . نحن الآن نشبه الرب نفسه ، حينما نسيطر على الحيوانات بجبروتنا وقوتنا . ربما أنت مثلنا أيضا . أول من وعى ذاته والكون ، ومارست السيطرة أو الاستفادة الناتجة من الوعي للسيطرة علينا . نحن بحاجة أن نفهمك وهذا شيء ليس كثيراً علينا ، وإذا كنت صادقا فعلا معنا باعتبارك الهنا الواحد ، أن توضح لنا الكثير من الأشياء التي نجهلها عنك . ثم في النهاية نقول لك من أنت حقا ، وكيف شكلك ، وكيف تعيش أيامك وزمنك وكيف تكونت . هذه الأسئلة التي كانت تطاردني منذ الصغر حتى الآن لم أستطع الإجابة عنها ، بالرغم من أن الكثير من الكتب (السماوية) تحدثت عنها . لكني أشك في كل شيء . أبحث عن الحقيقة التائهة وغير المعروفة للآخرين . لكني لم أجد الأجوبة . إنما وجدت أشياء عديدة في حياتنا كانت عبارة عن وهم وأكاذيب كبيرة . كل الأشياء كانت وهماً كبيراً ، كذبة عارية من (الصحة) . آه لهذا الاضطراب المفجع واللانهائي الذي نعيش فيه من أجل انتظار الحقيقة التي لن تأتي ربما .

باراستن في كل مكان

كنت أحلق في هذا الناسوت المفجع ، استمرار الحلم المضطرب كان قد امتد إلى يومين لم أخرج فيهما من الغرفة . كنت أشبه بعنكبوت هرم ، خائر القوى . كنت أريد أن أفكر وأرتحل في مستويات غير معرفة في الذهن الذي يختزن كل خلاصة البشرية . لكن كانت هناك حدود خرقاء . بالرغم من أني لم أكن أعترف بها ، لكن محدودية التبصر وقراءات الكتب السابقة لم تمنحني خلاصا . في اليوم الثالث خرجت من شبكتي الخيطية ، خرجت إلى الفضاء المعقد للبشرية ، مررت في السوق وسرت بجانب العربات التي تحمل الخضروات ، ولم تكن تلك العربات تسحبها الحمير . إذ إن الأكراد لا يعرفون الحمير وليس ضمن ألف بائهم الحضاري والمجتمعي هذا الحيوان الذي يقترن دائما بالسهول ورحلات الأنبياء في الأراضي المقدسة . قبل أن أصل إلى مقهاي المفضل ، سمعت صوت أبي فيصل مرة أخرى وهو يطاردني لاهثا . امتدت يده سريعا للسلام . شعرت بوخزة في قلبي لهذه الملاحقة . لم يكن في الحقيقة سيئا لكنه كان إنسانا غريبا في تصرفاته . كنت أتساءل في سري حينما يخطر هو على الذهن ،

لماذا هجر هذا الرجل إيران وهو الذي يتمتع بجنسيتها ، باعتباره كرديا فيليا . ثم لماذا يستسيغ العيش هنا وفي هذه الظروف الملعونة هو وأولاده . ثم لماذا عاد إلى العراق أصلا؟ الكثير الكثير من الأسئلة التي حينما تحاول أن تسأله عن إحداها يجيبك بإجابات تنتهك ذكاءك بشكل صارخ . قال أبو فيصل وهو يلهث ، من حسن الحظ أني رأيتك .

خير أبو فيصل ، سألت . لم أكن أتوقع خيرا طبعا وهو يبحث عني مثل المجنون ، كما يقول ، في أزقة زاخو . انتظرتك ليومين كاملين ولم تحضر ، لا إلى مقهاك ولا إلى المقهى القريب من فندق المقدم عدنان . كنت معتكفا ، لم يكن لدي مزاج للخروج والتسكع . أجبت وأنا لم أزل اشعر بانقباض روحي . مقدم عدنان ، أخونا ، يمر في مأزق خطير . لماذا . قلت . مسح أبو فيصل شواربه بكفه وقال : سوف يسجن جراء الأجرة المتراكمة عليه في الفندق . عرفت الآن سر بحث أبي فيصل عني ، إنها النقود . لا أعرف أي ابن كلب في الوفاق سرب خبر استلامي المائة دولار من محمد خورشيد . ماذا ستفعل وأنت أبو الغيرة . أردف أبو فيصل . شعرت بالضيق يأكل قلبي من هذا الموضوع . فالمائة دولار ليست مبلغا كبيرا في زاخو . وهي بالكاد تكفيني أنا وعائلتي . لم أعلق بأي إجابة . لكن أبو فيصل قال : سيرمون عدنان في الحبس إن لم تفعل شيئاً . حزنت على المصير الذي بلغه ضباط الجيش العراقي ، وشعرت أني فعلا يجب أن أفعل شيئاً ، لكن إلى متى ؟ هذا السؤال بدأ يقلقني ، ذهبت مع أبو فيصل إلى الفندق ، ودفعت المتأخرات التي بذمة عدنان ، ثم أضفت عليها أجرة لعشرة أيام قادمة . في الغرفة وجدت عدنان مستلقيا على السرير ، وكأنه كان يحدث شيئا ما في السقف . قال له أبو فيصل إن صلاح دفع مابذمتك من أجور الغرفة وأجور عشرة أيام قادمة . شكرني عدنان كثيرا ،

وقال إنه يفكر بالعمل مع جماعة مسعود كمدرب عسكري حتى يتخلص من هذا الوضع . في اليوم التالي سافر عدنان إلى مصيف صلاح الدين لمقابلة المسؤولين هناك للحصول على عمل . مرت الأيام بطيئة ، كنت أخشى أبا فيصل وأنزعج كثيرا من تلميحاته إلى أني أملك النقود ، في إحدى الجلسات اقترح علي تأسيس حزب . ابتسمت وكنت أعرف ما يشغل باله . إنها النقود التي أخذ يدور مثل الذئب حولي للحصول عليها . اقترح أن أكون أنا رئيس الحزب . لكنني قلت له إني لا أفكر بهكذا مشروع ، الذي يتطلب إمكانيات كبيرة وأشياء عديدة . بسرعة أجاب أن الأشياء الكبيرة تبدأ صغيرة دائما ، حزب البعث بدأ هكذا من فكرة في مقهى . كنت أنظر إلى أبي فيصل باشفاق وحزن كبيرين ، إشفاق من وضعه الذي هو فيه ، والذي اختاره بنفسه . أما الحزن فهو لهذه الملاحقة لي في كل طرقات زاخو ، أضاف فيما كنت أفكر بحاله : إنه يستطيع الحصول على ترخيص من مسؤول الباراستن في زاخو وسوف نطبع هويات وننشر بيانات . قلت له : ألا يكفينا أبو تراب وحركته التي أنت أحد قياداتها . استفز جوابي الرجل ، وأخذ يلعن أبي تراب النصاب الذي يأكل السمك كل يوم ، ولا يرمي اليهم حتى بالعظام . لكنك عضو في هذه الحركة يا أبا فيصل ويجب أن لا تترك القيادة وأن تعترض على أبي تراب وتقف بوجهه . الكلب مسنود . قال أبو فيصل ثم أكمل ، انه مسنود من جماعة الباراستن . قال هذه الجملة بهمس ومقتربا أكثر من أذني . أنا لا أجيد السياسة ، إنها خراء يا أبا فيصل . على العكس ، قال بسرعة أذهلتني ، وكأنما كان ينتظر جوابي . أنت صحفي واديب وسوف تكون واجهة ممتازة ، وليس مثل الشحاذ أبو نعال . سأفكر إذن في الموضوع ، قلت هذا لأتخلص من إلحاحه . كان الليل يتمدد على الشاطئ الغارق

بالحصى ، وصوت الماء الذي نسيته أثناء الحديث عاد صاخبا وضاجا . عندما أردت أن أنهض دخل عدنان الذي وصل من المصيف الآن . كان مستبشرا ويحمل على ما يبدو أخبارا جيدة . جلس إلى الطاولة وتحلق حوله أبو فيصل مثل شمبازي قذر . أبشر ، قلت له . فأجاب حمامة وليس غرابا . لقد وعدوني خيرا . سوف أذهب غدا لإكمال الأوراق . خبر ممتاز . قلت . وطلب أبو فيصل شايا لعدنان الذي جلس وهو يشعر باطمئنان . عندما ذهب أبو فيصل لقضاء الحاجة ، قال عدنان إنه التقى في المصيف بضابط جديد وصل حديثا ، وهو من الصنف الكيمياوي . استمعت إلى عدنان بانتباه وهو يتحدث عن هذا الضابط الذي يسكن الآن في الفندق التابع لجهاز الباراستن في المصيف ، وهو على ضيافة الجهاز نفسه .ثم أخذ يتحدث عن الاهتمام الزائد بهذا الضابط والرعاية التي حظي بها . كان الخبر عاديا جدا ، لكن عدنان كان يتحدث باهتمام عنه ، وكأنه يريد أن يلفت نظري لأشياء لم أكن أعرفها . بعد جلسة قصيرة في المقهى ، وريثما أنهى عدنان شايه ، خرجنا من المقهى . ودعنا أبو فيصل حينما وصلنا الفندق الذي يسكن عدنان فيه . وطلب عدنان مني أن يحدثني بأمر خاص جدا . دخلنا غرفته وكنت متعبا للغاية . أخذ عدنان يوحي لي بالاستفادة من الضابط الكيمياوي . وطلب أن أكتب له رسالة خاصة . استغربت من الأمر وقلت له ، أن لا علاقة لي بهذا الشخص ، ثم اني لا أعرفه ولم ألتقيه . لم تنفع إجاباتي هذه عدنان ، الذي كان يصر على أن أكتب الرسالة . وأمام الحاحه ، كتبت أشياء مثل سلامي لهذا الضابط وأمنياتي الطيبة له . وحينما ختمت الرسالة ، وقعت باسم أبو أحمد ولم أوقع باسمي . ارتبك عدنان قليلا وطلب أن أذيل الرسالة بتوقيعي الصريح وباسمي . لكن شعورا قويا داهمني في تلك اللحظة أن شيئا ما غير

طبيعي كان يحدث . كانت جماعة الوفاق قد بدأت تسرب إلى الشارع بأني مسؤول تنظيم العميد نجيب الصالحي في المنطقة الشمالية ، ولا أدري لم كان هذا التصرف الغريب منهم ، إذ إنهم يعرفون أن مائة دولار لا تعني أن هناك تنظيما قطعا . لكن الشائعات بدأت تدور حول تنظيمنا وعملنا وأشياء أخرى كثيرة غير صحيحة ، ومن نسج الخيال . بعد أن وقعت الرسالة باسم أبو أحمد تلقفها عدنان بسرعة وضمها إلى حافظة ورقية بجانبه . لم أزل أشعر بالقلق مما حدث ، لكن ما طمأنني أن التوقيع لم يكن توقيعي ولا الاسم . غادرت الفندق يطاردني إحساس غير مفهوم وهمجي بأن شيئا غير طبيعي قد حدث ، لكني استنكرت هذا الشعور وسرت متباطئا إلى غرفتي عبر شوارع زاخو التي أظلمت الان . في غرفتي كنت لم أزل أفكر بالضابط الجديد في المصيف ، وفي عدنان والرسالة . لم أستطع في تلك الليلة أن أتناول طعام العشاء ، وذهبت من أجل قتل القلق إلى إسماعيل شاكر الذي يسكن هو الآخر في غرفة قريبة من المنزل الذي استأجر غرفة فيه . بعد وصولي إلى إسماعيل وجدته يعب الويسكي الذي جلبه الشحاذ أبو عماد الذي ينام مع إسماعيل في غرفته . أخذ إسماعيل يغني أما الشحاذ فكان يلتهم شرائح الليمون بسرعة بعد كل جرعة من الويسكي . لم أستطع الحديث مع إسماعيل فغادرت الغرفة عائدا إلى غرفتي لأنام بعد أن تناولت دواء لعلاج المعدة ، اكتشفت أنه ينفع في جلب النوم ، ولو كان هذا الأخير في جهنم .

القلق يستمر ، يتطاول ، يتبعثر ، هذا ماكنت أشعر به . عدنان تأخر وكان من المفترض أن يعود بعد يومين . كنت أريد أن أعرف ما جرى مع الضابط الكيمياوي . لكن عدنان لم يأت ، وقررت السفر إلى المصيف . لم أقل لزوجتي عن سبب رحلتي إلى المصيف ، ولم أخبر أي شخص أعرفه

حتى إسماعيل شاكر بالأمر . في فجر اليوم الرابع بعد سفر عدنان ، سافرت إلى المصيف ، وحينما وصلت لم أجد المقدم عدنان . كان وصولي إلى المصيف فرصة ثمينة جدا لتناول الكباب في المطعم الأشهر ، وكان فعلا كبابا رائعا لم أذق مثله إلا في أربيل . بعد تناولي الغداء وصلت إلى الفندق الذي يسكن فيه الضابط الكيمياوي ، وكانت مفاجأة مدوية لي إذ إن هذا الضابط كان صديقاً قديماً لي ، تعود العلاقة معه إلى أيام النشاط الكشفي في المرحلة الدراسية المتوسطة . جلسنا سويا وقتا طويلا لنتذكر الأيام الماضية الرائعة ، ثم عرجنا على أيام البؤس الحالي . بعد دقائق صمت ، انشغل فيها صديقي بإعداد قدح قهوة سريعة ، سألته عن الرسالة التي أرسلتها له . قال ، وهو يحمل أكواب القهوة ليضعها على طاولة صغيرة بجانبي ، هل أنت فعلا الذي أرسل الرسالة . قلت نعم أنا أرسلت الرسالة . فقال هل تدري أن عدنان قال لي إن هذه الرسالة من مسؤول تنظيم نجيب الصالحي . فاستغربت الأمر وقلت له ، إنه لا وجود لهكذا تنظيم . هز رأسه ثم أردف بعد دقائق قائلا ، إن عدنان سلم الرسالة إلى الباراستن على اعتبار أن هذه الرسالة من تنظيم نجيب الصالحي لكني كشفت اللعبة . كان يريد أن يقول للباراستن إنك تعمل على إنشاء تنظيم سري . لقد باعك لهم . شعرت بالغضب الشديد ، وبسطت لصاحبي الحكاية كلها . كنت حزينا جدا للجزاء الذي لقيته على يد ابن الكلب هذا ، الذي كان يعمل في جهاز الباراستن ، وكانت مهمته الإيقاع بي مقابل ثمن يقبضه . في تلك اللحظات عرفت لماذا رفض تنظيم الوفاق ضم عدنان إلى صفوفه . كانت وشاية عدنان وشاية خطيرة ، ويمكن أن تعرضني للاعتقال وربما التصفية ، كون أن عمل المعارضة ممنوع في منطقة سيطرة مسعود ، الذي يرتبط باتفاقيات مع صدام حسين والأجهزة الأمنية

الحكومية . شكرت صاحبي ، وبعد جلسة ذكريات جميلة عدت إلى زاخو وقلبي ينضح من جرح كبير . حينما وصلت إلى زاخو ، وبعد استراحة يوم واحد ، خرجت إلى المدينة متسللا إلى مقهاي . وحينما وصلت وهممت بالجلوس فإذا بعدنان وأبو فيصل يقدمان وهما يسيران بتمهل واطمئنان . استقبلت الاثنين ولم أحدث عدنان بشيء عن اللعبة القذرة التي لعبها واكتشفتها . ، تظاهرت بأن شيئا لم يحدث . قال عدنان إنه قدم طلب العمل وهو ينتظر الآن الإجابة . قلت له لماذا لا يقدم طلب الانتماء إلى الوفاق إذ إنهم يدفعون جيدا . فهر وأخذ يلعن الوفاق وأن أحدهم شوه صورته أمام محمد خورشيد . لم أعلق واكتفيت بالاستماع لما يقول وهو يهذر بأشياء كثيرة . في داخلي قررت أن لا أواجهه بأي شيء ، وأن أجعله يعتقد بأني لا أعرف شيئا . كانت لعبة جميلة قد أخذت تتشكل في ذهني ، وهي اللعب بأعصاب عدنان وتغذيته بمعلومات مضللة عن الوفاق ، وعما يجري في زاخو ، بأمل أن ينقل هذه المعلومات للباراستن . لا أدري لماذا اتخذت قرار اللعب هذا ، لكني اعتبرتها نوعا من التسلية وكرها للمخبرين ، ولكل الأجهزة الأمنية في العالم التي أمقتها دائما وأبدا . مرت أيام كثيرة لكنها كانت سريعة بفضل اللعبة الجديدة . وتعرفت على أحد أعضاء الوفاق من الذين يمدون محمد خورشيد بالمعلومات عن تحركات الجيش العراقي على الحدود الفاصلة بين دهوك والموصل . كان هذا الشخص يقوم ، قبل وصول محمد خورشيد ، بالسفر إلى القرى الواقعة بين دهوك والموصل ويلتقي بأكراد هذه القرى ، الذين يزودونه بتقارير عن تحركات الجيش ، وكل ماله علاقة بتنقلاته والخطط والأوامر المتسربة . كانت هذه في الحقيقة ، شبكة يديرها عضو الوفاق هذا لجمع المعلومات مقابل مبالغ نقدية ، وكان محمد خورشيد يدفع لصاحبنا هذا حسب كمية

المعلومات المكتوبة وأهميتها في التقرير . كانت هذه المعلومات ، وكما يقول صاحبنا ، يجمعها محمد خورشيد بدوره من أعضاء الوفاق الآخرين ، ثم يقوم بنقلها إلى إياد علاوي الذي يبيعها بدوره إلى من يحتاجها من الأجهزة المخابراتية . وحسب صاحبنا فإن إياد علاوي كون ثروة مهمة من هذا العمل ، أتاحت له شراء الكثير من الناس والقصور في لندن حيث مقر الحركة الرئيسي . كانت اجتماعات المكتب السياسي ، حسب ما يقول صاحبنا ، تجري في أحد ملاهي لندن ، حيث الأضواء الحمراء والجو الرومانسي الذي يساعد على اتخاذ القرارات المصيرية . كان صاحبنا ، بالرغم من أنه يقبض جيدا من الوفاق ، إلا أنه كان ناقما إذ يعتقد أنه يعمل أكثر من الآخرين ويقبض أقل . لم أكن أعرف الكثير من التفاصيل عن الحياة الداخلية للحركة ، إذ لم أكن مهتما بها في الحقيقة ، بالرغم من أنه كانت لي علاقات صداقة ببعض أعضائها ، بحكم وجودنا المشترك في زاخو . عرض محمد خورشيد أن أعمل في الحركة ، وأن أتسلم مهمات الإعلام في شمال العراق . لكني رفضت إذ لم أكن أريد أن أدخل تلك المزاريب الخفية ، والتي تضم أشياء كثيرة سيئة ، خاصة من مثل تعاملاتها مع أجهزة المخابرات الدولية وعلاقاتها المشبوهة بها . كنت أشعر أني بأمان أكثر في وضعي الحالي ، وهو أمان من الدخول في لعبة الأحزاب في شمال العراق ذات الارتباطات المشبوهة . لا أدري على وجه التحديد ، لكني كنت أشعر أني غير قادر عن التنازل عن وطنيتي وعن حريتي . أن تكون عميلا هو شيء مرعب ، ولا أعرف كيف تمكن الآخرون من الدخول في هذه اللعبة غير الشريفة والقذرة .

مرت أيام كثيرة لم أشاهد عدنان فيها ، وكان هذا شيئا جيدا ، وحتى أبو فيصل الذي أعتقد أنه هو الآخر كان يعمل بالتنسيق مع عدنان وجهاز

البـاراستن ، لم أشـاهده . كنت أعـرف أمـاكن وجـودهم والمقـهى الذي يجلسون فيه ، وكنت حينما أسير أتجنب الطرقات التي يسلكونها . لم أكن أحتاج إلى الكذب والمداهنة اللذين سأضطر للجوء إليهما فيما لو شاهدتهم بشكل عرضي . المكتبة التي عرفت طريقها كانت تشكل بالنسبة لي مخبأ سريا ، كنت أقضي فيها ساعات طويلة ثم أعود إلى الغرفة بصحبة كتاب لأكـمل قـراءته . المقـهى صـار مكانا مـعـروفـا لكل أبناء القـحـبـة ، الذين حـرمـوني من تلك المتـعـة الفـائرة ، والسكون المطبق والأزلي . القـوادون ينتشرون في كل زاخو مـثل النمـل ، أسـمع دبيـبـهم وأنام مـسـتلقـيـاً على ضـفدع الوقت ، أو على شجـرة أحلامي المتـهـرئة مثل قـميص بالة . يا لهذا الوجع المكتوم في القلب والعقل ، طائر العقعق لم يبال بجولاتي الكئيبة في بحار التسبيح السماوي . صارت الوحدة مطلبا أزليا في عصر مجلجل بالخراء ، خراء أصحابي وخراء الآخرين الذين يتسكعون في شوارع زاخو مـثل الدبيـب . مـرت أيام الشـتـاء طويلة ، مـقـسـاة بالطيـور الهـاربة نحـو مساحات هائلة وفارغة في الذهن . أخذت أموت في عزلتي . أنحدر دائما باتجـاه الفـيش خـابور ألوك الوحـدة بأقـدام الوقت المسلوب من نعـال تائه وجدته على الأرض بلا صاحب . زرت في أوقات القتل قبر رياض الذي لم يبن حتى الآن . كنت أجلس بجانب التراب أتخيل ميـلان كونديرا أو قصائد عريان السيد خلف بصوت رياض . الصوت الذي يلاحقني دائما مع الشعور بشـهوة الموت ، الموت الذي لم أكن اعرف أن له شـهوة سابقـا ، لكنني أكتـشـفـهـا متأخـرا جـدا وبعد ضيـاع الوقت . الضـيـاع ، اللاهدف ، الانتحال ، التـمرد ، الصحوة ، الجنون ، العار ، الخيانة ، الوطن ، المسـميـات المتوازية ، السلالم المستعرضة . شكل النهيق الحـماري ، وهو ينداح على نهدي أرملة متشائلة . بعوضة الخيانة الموصوفة في أسفار الفيدا المترنحة

بفعل مشروب مسكر عالي نسبة الكحول . أترنح في مزارات الأنبياء اليهود ، هذا عزرا وهذا ارميا ، الشبيه بروحي على أسوار سرمقند وزاخو ودهوك وأربيل ، أربيل أيتها المرأة البابلية الممسحة بعطر المسك والدهن السومري وهو يسيح على جسدك المتوامض . شكل الخيانة هو دائما شكل أرعن مسلوب النطفة المتوارثة من جيل لجيل . أغرق في قصائد نصيف الناصري والوحش الشعري الذي يدمره إلى النهاية . هذا التماوض في قصائد إبراهيم البهرزي ، عدو العصور المتحجرة النائمة على أمراض نفسية متجذرة . لماذا أرتجف أيتها النسانيس الغافية بفعل رائحة الفرج الرطب والهيولى . طبول الرب ومزاميره هنا ، في هذا الوقت القذر الملوث بخراء الأشياء المبعثرة . رؤوس طولانية الشكل وأذرع قصيرة المقبض وأكف بلا أصابع . كل الأشياء مشوهة ، حتى اسمك أيها الرب ضاع في مستنقع الكره هذا . في عربون الخائن وهو يخون ، وفي عربون الزمن وهو يتبولنا كأننا فضلات يجب التخلص منها . ماهذا الجسد المسجى أيها الرب ، الجسد الممسوح بالزيت الطيار وزيوت الخصية المستخلصة من حيوانات خرافية ليس لها وجود إلا في مملكتك الخيالية . أشحط أقدامي المتشققة . كعب الرجل الممزق من السير على الشوك يوم توهمتني أنني ظلك على الأرض . آه أيها الرب المسكون برغبة الانتحار الفيزيقي . أذوب مثل بولة في بحر التلاشي فلا أجد غيرك واقفا مثل أب رحيم يريد قتل ابنه بعصا التملق والجبروت . ها هي أوراقي كلها أكشفها بوجهك لتختار عقوبتي الجهنمية . العقوبة التي درجتها في شجرة الخلد ، كوني منذ الطفولة كافراً بالهجر واليتم واللا جدوى المحض ، ثم اللامعنى الكلي من الوجود لفيضي لروحك . أقرأ التراتيل على فرج امرأة عاهرة وأدنس روحي في طهرك أيتها الذات الكلية الله ، المتجبر ، الصمد ، المتكبر ، الوحشي في انتقامك من

المخلوقات العدمية الروح والإرادة . في نوبتي الصوفية أحلم أحلاماً ، وأهذر هذراً ، وأموت موتاً . أجعلك في القمة السفلى من مأساتي الحزينة . جوعي العرمرم وهو يدب على الأخيلة المدماة في عظام البقر ، والدواب السحرية الغريبة في موتي وأحلامي بخضر الياس تحت مسنايات النهر المتصالب . إيه يا أرميا الساحر وأنت تجوب على حمار الزمن والوقت أيامي كلها لتفتش عن القمل المتكاثر في فروة حزني . أيها البكاء المدوي على قبر رياض إبراهيم والأموات كلهم . ها أنا أموت موتاتي الجديدة بلا احتضار ، أموت واقفا مثل عنزة كردية فوق تلال الرب السماوي ، أو فوق الجبال الشاهقة بروحي . أنسلخ من اكتئابي المزمن ، أنسلخ من رغبتي الجنسية لأغدو ملاكا لله الوثني المتراقص في مكتب الاستشارات الهندسية الكوني . أغدو مثل قذع حابى خصمه ، او جأشة تطامن ظهري المكدود بسحر الاختلاق . أيها الكشح المائل لخضرة الدروب الكردية في نهد عارٍ من الصحة والموت . أسمع غطيطك يارياض فأقرا الصلوات المتيمة بالترابِ العفر لهذا الوطن الذي ضمك إلى النهاية . السمط هو روحي القتيلة ، هو مصاص التبتل المزدهر على الدغل المتنامي مثل عاقول شوكي في متاهة لانهائية . اين الوطن يارياض وقد زفرت روحك في أبديته . الجن في اختبائي . المشيمة في تغذيتي . ها إنك عدت لتمتص النهد ، الثدي ، الكاعب ، كأنه ترياق فارسي من مسلوخات المخلوقات . أيها الطهر المترامي الأطراف ، ها أنا أضيع في اشتهاء الخيانات ، في الكره المتكابر عن الوضاعة المزدرية . كالعلقم كانت حياتي . كالمرارة كانت نزواتي وأنا أحلق في توحد روحي معك يا أرميا الساحر . أعبر الفيش خابور مثلما يفعل موسى ، لكن البحر لا ينشق ولا السواحل تزفر روحي . أنا الضائع بعيدا عن الوطن وفي غربة الاشتهاء الخصي . لا أختزلك يا عيسى ولا

أتبعك ياموسى . إنما أتبع صلواتي على قبر رياض غير المزجج بالياقوت والمرايا . الكآبة تقتلني في اضطرام الغدو والإبعاد . في تلوث الفكرة ، الصحو ، الانزلاق ، نحو المهادنة العصية على الانغلاق . حبات أخرى من مرهم الدهن وهو يذوب في تقاطيع روحي السائحة مثل زبدة دنماركية على سفوح النجد . ماذا يقول القبر وهو يحتضن الرفات . أيقول إني أحوي لحماً وعظاماً ، أم يقول إني أحوي تراتيل الانثيالات الحزينة وبؤس الفكرة المضطربة . أهرب ياعيسى نحو تخوم الناصرة ، واهرب أنت إلى سفوح جبل بخير ، وأقم صلاتك الوترية في الأجمات المتشابكة . سأضع على الأفرع والأذرع ، خرق النزو على المخلوقات . سأضع دهن الثور السماوي المخصي على الوجوه لتلتمع . أنت أيها المقدس في تشابيه حسينية لا تنام حتى بعد ألف عام . دورة تموز الجديدة التي انقلبت إلى دورة الحسين ، حيث تبعث كل عام مثل تموز . أنت أيتها المرأة ، كم تشبهين عشتار يوم النحر المتتالي . وأنت أيها السيد المخبوء خلف مواجيد أمير الحلاج وهو يسقي العراة مرهم الحب النابت . قشعريرة الوطن مثل نزوح المعرفة عن العقل . أما الإضراب فهو كثرة اشتهائك للحم الطير المسنون على قارعة الوقت . أحلامي أيها السارق . لا تلتحف بالحب وأنت تسرق مناتي الذهبية . قال ديوجانس في كتاب الإمتاع والمؤانسة ، المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمحفوظ للعدو . لكني لم آكل منذ قرون الهجر الوحشي . ولا الموهوب عندي لاكتمال الوجع ، ولا المحفوظ عندي لعدو يتنمر كل يوم في خياناته . الخيانة هي الهوية الجديدة لعالم يتقشر مثل درنة البطاطا . والزبد البحري يرمي علينا كل يوم بأنواع شتى من القوادين . قوادون في شارع العهر ، وخونة في ملابس الرهبان ، ورجال دين في مسوح الوثنية . أكفر بكم أيها السادة وأكفر بمواريثكم وزناكم . العاهرة

أشـد شـرفا منكم ، إذ لا تمنح جسـدها إلا من أجل اتقاء العـوز ، لكنكم تزنون من أجل المزيد والمزيد من الأموال المحشورة حشرا في بنوك العـهر . أيها القوادون منذ الأزل ، حيث لم ترضعكم أمهاتكم غير حليب النيدو ممزوجا بالسفالة العظمى . أدور على قوادتكم أيها الزناة مثل راهب يريد من الله أن يسـحـقكم وأنتم تزنون بمحارم الوطن الجـمـيل ، ذي الرائحـة الأبنوسية . الوطن المطهم بأمثالكم من الرعاع ، القيظ المسنون من مارج من نار . من تهتككم في محراب الخزي . لوثتكم تعانق فم السماء والحقارة ، أشرف صفاتكم أيها العرافون في بلاط خمبابا . أنتم اللوثة المستحيلة والخصية الملتهبة شبقا من أجل مضاجعة الدولارات الوحشية . الخزي يرابط على مداركم والمزدكية عنوان تغوطكم . أنتم النازفون الفكر التائة بعد فقد المولى الروسي . آه منكم أيها الوثنيون الدعاة إلى عالم الفضيلة . كيف تصفون فضيلتكم وأنتم أوضع من قحبة شريفة باعت الثدي من أجل لقمة من طعام . لكنكم لستم الجوعى إنما المتخمون من الدولارات الشهية ، وهي تدفع إلى أياديكم من أجل الخيانة المستمرأة . اصعدني يا ارميا النبي ويا محمد على البغلة الذهبية التي تصعدني إلى السماء السابعة من أجل أن ألعن نيرانكم السفلى . بوابات السماء أغلقت وجفت الأقلام ونشرت الكتب . وقوادتكم مستمرة في انثيال رحب لا تموت . أواه أيتها الدولارات التي لم تبق للآخرين خيار الشرف ، فاستلتهم كما يستل الورم الخبث من الجسم إلى متاهات الرحب الفياض . أختزل الصحو عند ضريح روحك يارياض . أستلهم التعفير المترنح للدود وهو يأكل منساتك الجليلة وعصاك الأبدية . العناز في أعناقهم واللوثة الوحشية بادية في الوجوه . أغرق في أبدية الجبل . أتمسح بمسوح الرهبان . أرتفع كما يرتفع موسى . لو أن الجوع ضربني وهو ضربني فعلا ، فلن أهز للموت غصناً

وللخيانة فرعاً . فأنت الجليل ونحن العطايا السماوية . كلبك الدامي على القفار الوجد . الضباع تعلو في صمت الليل الأبدي وأنا لا أنام من الوجد ، مقتولا على قارعة الطريق ، ومنزوحا من الرغبة على مساحة الوجع . الجرح غصيص معقود في جنباتها الروض العامر بالمديح المحمدي . حتى أنت يا محمد . أواه لوجعي وهو يقتلني وأنا أشاهد رجال الدين الميت وهم يأكلون قذارات الخيانة . فمن بقي يامسك العود ومخيلة الابتهاج المر الملسوع على عاتق الروح . غادرت مكاني ، غادرت القبر سائحا مثل التائه في مغاور الأسى . لم يعد في تلك الهمجية أي صاحب . تتوحد أنت في الملكوت ويتوحد الملكوت فيك يا نبي العزلة السرمدية . أتضاءل حتى التلاشي وأتورم حد الانفجار . أنا عيسى الزمن الخرب ، هذا وأنا محمد الأوثان المتصالبة ، وأنا موسى البحرين . أشق بعصاي الأرض ، أبقر باطن الأرض بكفي وأستخرج الجوع المتوامض عليلا في ابتراد الحلمات المتوثبة . ليس للجنون من معنى إذ لم تكن أصلا مجنونا ، باكيا ، حزينا ، مدلهما من الكآبة العارمة حد الموت . هل سيحاسبهم الله . هل ستحاسبهم آلهتهم وهم يمزقون الكتاب المقدس على كاحل المرأة المفخذة هذه . لماذا أنام في بحر الطيش هذا وعلى مرساتي تنام العصافير . لا أثر للحب في زاخو ، لا أثر لمسوح المسيح والرهبان والقساوسة . كلهم رحلوا إلى بلاد الاضطراب الكوني إلا أنت أيها المجبول من معدن القصدير . جرجرت خطاي مثل جثة ، سحلت في طريقي الشوك والرارنج والعاكول ، وأنا أتيه تيهاتي الأبدية في دروب زاخو . محلة الكيستة تعرف خطاي ، تتلمظ أشاهدها كلما جرجرت أقدامي على تلالها الشوهاء . صرت لا أقطع المدينة عبر الشوارع العامة ، وإنما أختزل طريقي دائما في درابين الكيستة الملتوية . هكذا كنت أهرب من أبي فيصل وعدنان وباقي ثلة الشحاذين والمرتزقة .

المكتبة اكتشفت لها طريقا سريا ، والمقهى هجرته كما تهجر العصافير أعشاشها القديمة ،لكني كنت أحمل حنينا مضمخا بالحب لجلسات مقهاي الأثير . للوحدة والماء وقامات فتيات زاخو وهن يغسلن الثياب على ضفة النهر . أيامي من الوحدة الإجبارية أصبحت أكثر إعتاما ، وحتى إسماعيل شاكر ما عدت أراه بالرغم من أنه لا يبعد عني إلا أمتاراً حسب . مقر الحزب الشيوعي هو الآخر كنت أكتفي بزيارة مكتبته بين الحين والآخر . نجلس أنا والحارس القادم من أقاصي السليمانية لشرب الشاي والتنعم بدفء علبة الصفيح المشتعلة بالخشب . ليس هناك مايعكر هذه الألفة المسكينة أو الاستسلام لقدر لا يتحرك أبدا . هاقد انقضى عام كامل والأولاد بلا مدرسة . حاولت مع زوجتي أن نعلمهم الحروف والحساب . وضعنا من أجل هذا جدولا كبيرا وخطة للقادم من الأيام . لماذا هذا الموات ، لماذا هذه الوحدة والسكون المذهل والمرعب؟ لم أكن أعرف .

أوشفيتز كردي

قبل أيام شن الباراستن والأسايش حملة على العرب ، ووضعوهم في معسكر يشبه معسكر أوشوفتز قريبا من دهوك . كان المعسكر يسمى معسكر زاويته للمهاجرين العراقيين . عنوان مضحك للغاية ، كون الأكراد يخدعون أنفسهم دائما . الحملة على العرب جعلتني أعيش توحداً كبيراً وعزلة عن العالم ، عزلة قطعت عني مواردي من الكتب والوجوه التي تلاقيها ، مرة مكرها ومرة مستأنسا . أصبح المقهى ذكرى حسب ، ومخيلة تائهة بين النسيانات المتراكمة والمضرجة بالكبت . مقر الحزب الشيوعي كان الوحيد الذي أخرج فيه من عزلتي . كان قائما على طرف المدينة الشرقي ، منعزلا في صمت الشوارع . وفر لي هذا البعد ميزة عدم الذهاب إلى وسط المدينة ، حيث تقبع عناصر الباراستن والأسايش وباقي الأجهزة الأمنية . الوحدة والعزلة الإجبارية جعلتاني أعود مرة أخرى إلى التفكير بالكون والله . التصوف كسلم نحو رهبانية الجسد . الارتقاء المستحيل للروح في مدرجات تيه كامل . كلما كانت الوحدة أعمق كان الطريق أكثر إضاءة . لكن الله في خاتمة المطاف لم يظهر وهو غاية التصوف . هناك

إشارات تستلم بين الحين والآخر ، إنها تمثل إضاءات عاجية ، بلورية ، مفاجئة ، مليئة بالمعاني . كل إشارة تشكل رمزا تستطيع قراءته لأكثر من مرة ، وفي كل الأحوال ، سواء في العتمة أم الضوء أم الظلال . المكونات الحلمية للرمز تأتي غالبا في الأحلام التي تشكل جسرا ميتافيزيقيا للعبور إلى الآخر . لكن من هو الآخر ، أهو الله ، أم الملائكة أم شيئا غريبا آخر غير مفهوم . لماذا هذه الظلمة القاتمة وسط الانبهار الضوئي . بالرغم من أن التصوف والتفكير يمنحانك إشراقا ذاتيا واطمئنانا . إلا أن العتمة راسخة في هذا الضوء المبهر . ترديد اسم الله ، وحتى الذوبان ينقلك إلى عالم شاسع ومخيف ، عالم ليس له بداية ولا نهاية ، لكن ترديد اسم الله لا تعني أنك مع الله . فالهندي يغرق أيضاً في إلهه ، ويستطيع التحليق في أجواء لانهائية . إذن أين أنت . أيها الشكل غير المعروف أو العقل الكلي أو الكائنات الكونية التي نرتبط معها عبر التصوف . الأفكار تنهال مثل زخ مطر ، مثل نثار ناري مشبوب بالرغبة المقتطعة . كالخصية المدورة أو ككشح فتاة بلغت النضج الآن ، حلمة النهد عارمة متجبرة ، حينما تصطدم بك تحس بالوخز والاندفاع لتحطيمك إلى الأبد . في كثير من الأحيان ، وأنا أغرق في صوفية مجنونة ، أشاهد أناسا يطيرون في سماوات ممتدة ، أكوان دائرية منفلتة على غصن لطائر نائح . هل هؤلاء هم البدلاء الذين غرق عبد القادر الكيلاني في رمسهم . لم أكن أعرف ، حتى اليقين ضاع في اللجة المتهالكة لوحدتي . في أحيان ، وبعد افتراضات الخلود الروحي ، أخرج إلى حديقة المنزل ، اتأمل الحشرات والدبيب . ماالذي يحرك كل هذه الأشياء في دائية غريبة . جسد المرأة الكوني الذي يتلوى على طاولة أمامك ، يوعز لك بأبدية غريبة . ليست الرغبة فقط في التهام هذا الجسد . انما في سحره وجبروته المسلط على الكائنات . إذا جعت فكل ، لكن إذا

اشتهيت فذلك هو الكفر . أية مغالطات حقيرة تلك التي تأسرنا إلى مالانهاية . هل أعجب الرب بمريم ، ذلك أنها كانت رائعة الجمال ونظراتها تمتلك طاقة خارقة من الإبهام السلبي . لقد طوح الرب الذي تصرف كإله وثني هارب من مجلس الآلهة بعذرية المرأة . أو أن الحكاية كلها عبارة عن كذبة كبيرة لفت بعناية مركزة ومحترفة . كل الأشياء كاذبة ، كل الأشياء عارية من الصحة ، حتى يأتي الدليل . أنظر إلى النمل والدبيب . العالم الأكثر تماثلا معنا . ترى هل يعانون كما نحن من تسلط وعجرفة رجال الدين ، ظلال الله على أرضه . الله هو كلامهم والله هو ماتحركه نوازعهم . كنت ألتقي برجال دين ، كانوا يتصرفون وكأنهم الله . في أوامرهم ، في تفاهتهم ، في خرائهم . كل شيء لديهم هو الكفر أو الإيمان ، لكن المسافة بين الاثنين بعيدة جدا ومتطاولة . في كثير من الأحيان أحس أنهم براز ليس أكثر . أما كتابهم فهو يثير الغثيان حينما تكتشف أنه قائم على أعمدة وثنية صرفة ، وأساطير الشعوب البابلية والمصرية . لماذا كان يقول أنا رب الأرباب ؟ سيخرج لنا أحدهم ويؤول أن المقصود بالأرباب هم رب العائلة ورب الأسرة ورب البلد . لماذا نبرر له أفعاله وأحاديثة . يرتجف رجال الدين ويقولون سيميتك على فعلتك تلك . وماذا يعني أن يميتني . أهو عقاب حقا لو كانت هناك حياة أخرى . إني أدعوه بكل جرأة الأشياء أن يفصح عن نفسه ، أن يبطل أحاديث التلغيز والإشارات المبثوثة هنا وهناك . لندع النملة تسير مطمئنة ولنترك للأحلام فرصة مداعبة أجساد الجميلات بلا استحلام .

تركت النمل والدبيب يسيران الهوينا إلى حيثما يريدان . وحينما هممت بدخول الغرفة ، جاءت حليمة ربة المنزل مسرعة لتقول لي إن أحداً يريد أن يراك في الباب . استغربت الأمر كثيرا ، إذ لا أحد يعرف مكاني

حسب علمي . أخذت أتخيل أنهم ربما جماعة الباراستن أو الأسايش جاؤوا لإخراجي من زاخو ونقلي إلى معسكر الاعتقال . دارت الأشياء في ذهني سريعا . هل يمكن أن يكون أبو فيصل قد أبلغ عني وهاهم يشنون كبسة على البيت . أو يمكن أن يكون المنيوك عدنان فعلها وتتبع أثري ليعرف مكاني . بسرعة أخذت أتصور الأشياء التي يمكن نقلها ، ثم احترت بالوسيلة التي تمكنني بعد ذلك من لقاء محمد خورشيد لاستلام مايرسله نجيب الصالحي . أفكار قذرة دارت في رأسي المتعب . شعرت أن أقدامي لا تستطيعان حملي ولا السير باتجاه الباب ، حيث يقبع شيء أسوأ من الموت . عليك أن تتعامل مع أشياء لم تتطور بعد إلى الحالة الإنسانية . المصيبة الأكبر إذا كان لا أحد يتكلم العربية من مجموعة الأسايش . لقد فعلها ابن الزنا ، هكذا أخذت أردد في سري . مالذي سأقوله لهم ؟ كيف يمكن لي إقناعهم ؟ . . هل سيصبرون يوما أو يومين ريثما أرتب حالي ؟ لا أعتقد ، سوف يكون الوضع سيئا للغاية في المعسكر مع التحقيقات المستمرة وربما التعذيب ، معسكر المهاجرين العراقيين . ياللعنة . تحاملت على نفسي وسرت إلى الباب ، قبل فتحه اتخذت قرارا بأن أقول لهم إني سأذهب إلى أربيل إذا ما أصروا على أخذي إلى المعسكر . العودة إلى أربيل إذن . البقاء تحت سلطة الجيش الرابض على مشارف المدينة . الأجهزة الأمنية الكردية المتعاونة مع الأمن الحكومي . دوار ، دوار رهيب . هل أجلس وأقضم اظفاري . عليك الدفاع عن نفسك . هكذا قلت . ولكن ماذا لو أصروا على ذهابك إلى المعسكر ولم يدعوا لك فرصة الذهاب إلى أربيل . أغمضت عيني وثمة وجع مفاجئ أخذ يأكل معدتي . فتحت الباب بتمهل واضطراب فوجدت أحد العرب . تلفت يمينا ويسارا لكني لم أجد غير هذا الشخص . ظل قلقي يؤجج في نوعا من الريبة . بارتباك

واضح قلت لهذا الشخص : مرحبا ، اقترب الشخص مني وقال انه سأل عن عنواني لدى كل من يعرفني من أجل الوصول لي . شكرته على الاهتمام . قال إنه لم يشاهدني من فترة في الشارع أو المقاهي المعروفة للعرب . فاعتذرت عن أني مريض . قال بعد أن اقترب مني أكثر وهو يهمس : هل تريد السفر إلى سورية . أجبته سريعا بنعم ، ثم أضفت متسائلا : هل هو تهريب أم عن الطريق الرسمي . قال الشخص ، لا ، لا إنه تهريب لكنه مضمون مائة في المائة . لكني لا أمتلك نقودا تكفيني للدفع للمهرب . قال الشخص باندفاعة سريعة : لا نحتاج للدفع ، لن تدفع فلسا واحدا . كيف ، تساءلت باستغراب . هل تريد السفر أم لا ؟ نعم ، نعم أريد السفر ، لكن كيف يتم هذا بدون نقود ، هل من المعقول هذا . هناك من سيدفع عوضا عنك . قال الشخص بابتسامة وتوكيد على ماقاله . أنت أربكتني كثيرا ، من هذا الذي سوف يدفع عني أجور التهريب . هذه قصة كبيرة . أريد أن أعرفها ، قلت بإصرار . اقترب الشخص أكثر . كان هذا الشاب من العرب التقيته أكثر من مرة وأنا أسير مع أبي فيصل . كان برفقة عائلته المكونة من زوجة وطفل صغير جدا . كان معدما تماما ويلتقط طعامه مما يتساقط من الناس في السوق . كان ينام في مقبرة زاخو مع مجموعة من العوائل . لم ألتق به كثيرا لكني كنت أشاهده وهو يذرع سوق الخضرة جيئة وذهابا . . أشعل الشخص سيجارة ودعاني إلى التمشي قريبا من الباب . سرنا بضع خطوات وقال : أقول لك كل شيء بصراحة . هذا ما أريده ، قلت . . أخذ الشخص يتكلم وعيناه لا تكادان تثبتان على شيء . هذه الطريقة في الكلام كنت أكرهها ولا أعرف لماذا ، وأنصت بعمق لما يقوله . قال : إن هناك مهربين للسجائر استأجروا سيارة نقل عام (كوستر) وسوف ينقلون معهم من يريد دخول سورية تهريبا مع السجائر ،

إنها خدمة لوجه الله ، أحد أصدقائنا يعرف هؤلاء المهربين ، وهو الذي توسط معهم في هذه القضية . أخذت أنظر في عيني الشخص مباشرة لكي أعرف المزيد مما لا يقوله ، لكنه كان يتهرب من هذه النظرات . ولماذا اخترتني أنا ، قلت . أجاب الشخص إنه اختار فقط الذين لديهم عوائل . قلت للشخص إنه يجب أن يمنحني بعض الوقت للتفكير . ليس هناك مجال للتفكير ، إنها فرصة لن تتكرر ، قال . لكن يجب أن أفكر ويجب أن تمنحني بعض الوقت ، متى يكون موعد السفر ، تساءلت . لا أستطيع إعطاءك الموعد . إنه سري ، أنت تعرف أنها عملية تهريب وليس دخولا رسميا ، قال . سحبت نفسا عميقا مع حيرة كبيرة وارتباك . سأفكر في الأمر بسرعة ، وأعطيك النتيجة غدا . قلت . حسنا سوف نلتقي غدا قال . إنشاء الله . أجبت . مشى الشخص بضع خطوات ثم توقف قائلا : سوف أمر عليك غدا في هذا الوقت نفسه . اومأت برأسي بعلامة إيجاب . سار الشخص ثم اختفى في نهاية الزقاق . تطلعت إلى الساعة وكانت السابعة مساء . إسماعيل شاكر يسكر الآن لكن يجب أن أذهب إليه . أغلقت الباب وذهبت إلى غرفتي . استقبلتني زوجتي بقلق كبير وهي تتساءل عن الشخص الذي كنت أتحدث معه . سردت لها ما قاله الشخص . لكنها لم تقتنع . كان هناك شيء خفي ما لم أكن أعرفه ، لكنه مقلق في كل الأحوال . بدون ثمن . . شيء مغر للغاية للخروج من هذه المزبلة . فكرت في ارتباك محير . كان ثمة كرباج يسوطني بقوة . مالذي يجب أن أفعله ؟ قلت لزوجتي ، التي قالت إنها تشعر بالقلق من هذا العرض . قلبي يقول إن هذه كذبة وخديعة . لكن ممن؟ أخذت أفكر بصوت عال . ممن . من يريد خداعنا ولماذا . هل الأمر معد مسبقا . أو أنه حبل نجاة امتد إلينا لينتشلنا من هذه الجيفة ، إلى سوريا ، العملية لن تستغرق في كل الأحوال

يوما واحدا للعبور إلى الضفة الأخرى . لكن هناك شيء ضائع . لا أصدق أن المهربين أصحاب نخوة ، زمن النخوة ولّى من أمد بعيد . إنهم مهربون في كل الأحوال وما يهمهم هو البيع والشراء . هناك فجوة صغيرة في هذه الحكاية لا أستطيع التوصل لها ، لغز محير . أشعلت سيجارتي وطلبت من زوجتي أن تعد لي قدحا من الشاي . مع الشاي والسيجارة يمكن لي التفكير بصورة أوضح . لماذا اختارني هذا الرجل ، ولماذا هذا الاهتمام رغم أنه لايعرفني إلا بشكل سطحي . أسئلة عديدة أخذت تنهمر على ذهني المتعب . أخذت أشعر بالتعب الشديد ، ضغط كبير أخذ يتسلط على ذهني المتعب أصلا منذ حكاية إلقاء القبض على العرب وتسفيرهم إلى معسكر الاعتقال . لم أستطع النوم وذهبت إلى إسماعيل شاكر لأحدثه بالأمر . وصلت إلى غرفة إسماعيل الذي وجدته وهو يهيئ المزة وشرائح الليمون لأمسية سكر . من حسن الحظ أنه لم يشرب بعد ، رغم أنه حينما يكون سكرانا يكون أفضل من أن يكون صاحيا وبوعيه . سردت له الحكاية كلها . فكان جوابه أنه لا يهتم بالسفر إلى سوريا مع المهربين ، وذلك لأنه ينسق الآن لدخول سورية بشكل رسمي ، وبتزكية من أحد معارفه هناك . شعرت بالحيرة تزداد في عقلي . قبل أن أخرج قال إسماعيل إنه يشك في العملية كلها . توقفت وقلت له ، هذا ما أردت قوله لك ، وكنت أريد أن أسمع رأيا في شكوكي . تركت إسماعيل وذهبت إلى غرفتي وفي ذهني أنه من الأفضل أن أرفض هكذا سفر . حينما وصلت استقبلتني زوجتي لتقول لي إنها استخارت القرآن وإن من الأفضل أن لا نذهب معهم . هكذا أنا فكرت أيضا ، قلت لها لأن هناك شكوكاً وقلبي غير مرتاح البتة . شعرت براحة عميقة بعد أن أضيفت استخارة القران إلى ما اتخذته من قرار . تناولت عشائي بشهية كبيرة وقبلت الأطفال ، ثم تمددت على

الحشية ملاصقا الحائط ، وناظرا إلى الثقوب الدقيقة فيه ، وأنا أفكر في ما علي فعله في نهار اليوم التالي .

مر النهار طويلا ولم أخرج من الغرفة . في المساء جاء الشخص وسألني بلهفة عن قراري ، الذي كان متأكدا من أني سأذهب معهم . لكنني خيبت آماله عندما قلت له ، إني لن أذهب معهم . أسئلة كثيرة أخذ يطرحها وبشكل لحوح . لكنني لم أستسلم له . قال إنها فرصة لن تتكرر مرة أخرى ، وإني اتخذت بالتأكيد القرار الخطأ بحق نفسي وبحق عائلتي . كان يتوسل بشدة ويلح على تغيير قراري . شعرت بالقلق من هذا الإلحاح ، بل إن هذا الإلحاح زادني إصرارا على رفض العرض . تركني الشخص بعدما لاح له أني لن أرافقهم في مشروعهم هذا ، بالرغم من أنه عدد لي من وافق على السفر وبصحبة عائلاتهم . كان العدد كبيرا ، وهو في الحقيقة كل من تبقى من العائلات العربية في زاخو . الإصرار الغريب من الشخص لم أستطع تفسيره بالشكل الصحيح ، وفي الحقيقة أثار هذا الإلحاح شكوكا لم أعرف تفصيلا ماهي . تركني الشخص حينما وجدني صلبا أمامه وأنا أرفض كل تبريراته . غادرت بعد أن ذهب الشخص إلى دهوك لمقابلة أبي سيف وإطلاعه على الأمر ، وحينما وصلت دهوك التقيت بمحمد البدري الشاعر وهو عائد للتو من مصيف صلاح الدين . لم يعانقني محمد على غير عادته ، وحينما جلسنا لشرب استكانات الشاي أحسست أن ثمة تغييراً حدث لمحمد . كان يتحدث عن كردستان بقوة وهو ما لم ألاحظه حينما وصل للتو من الموصل قبل فترة . كانت العنصرية والشوفينية تقطران من فمه مثل دماء سائحة لا تتوقف . لعن العرب والقومية العربية والدين الاسلامي العربي . أخذ يثرثر بلا توقف عن الظلم الذي لحق بالكرد من جراء اعتناقهم الإسلام ، وأنه يجب إعادة النظر بكل

شيء الآن . بقيت مبهورا وأنا استمع لمحمد الذي ولد في الموصل العربية ، ولم نعرف أنه كردي أو أننا لم نسأله عن قوميته إطلاقا ، وكنا نتعامل معه باعتباره شاعرا حسب . لم أستطع تحمل السب واللعن والحقارة المنفجرة والشوفينية من فمه . وعرفت انهم قد غسلوا دماغه في المصيف . استأذنت من محمد وغادرت المقهى على عجل ، وأنا أتأسف للمصير الذي آل اليه . وصلت إلى فندق أبو سيف ، ومن حسن الحظ أنه كان موجودا . عرضت عليه موضوعة السفر المفاجئ وقلقي من الموضوع برمته ، فأيد شكوكي ، ثم دعاني إلى أن نتغدى سوية في الفندق . تناولنا قطعة جبن كانت محفوظة في علبة بلاستيكية مع شرائح من الخيار ، وكان ، بالإضافة إلى الجبن وقطع الخبز الساخن ، هناك شاي ساخن أعده أبي سيف في الغرفة نفسها . بعد تناول الغداء غادرت الفندق ولم ألبِّ دعوة أبو سيف إلى التمشي في شوارع دهوك . وصلت الكراج وأخذت أول سيارة إلى زاخو ، وأنا أشعر بالخوف من أن يلقى القبض علي في سيطرتها التي تبحث بشكل دقيق عن العرب القادمين إلى زاخو . عندما وصلنا السيطرة المشؤومة لم يصعد أي من رجال الأمن إلى السيارة ، اذ كان هناك حادث لإحدى الشاحنات التركية التي تنقل النفط إلى تركيا ، وقد شغل هذا الحرس فلم يفتشوا سيارتنا . اجتزت السيطرة بسلام ، ووصلت البيت بسرعة وارتميت على الحشية مثل قتيل . كان القلق من أني لن أمر من السيطرة بسلام قد حطم قواي ، وكنت أشعر برعشة في ساقي وتنمل يتسرب عميقا إلى باقي جسمي . بعد نصف ساعة من تمددي ، وفيما لم أزل أعاني من التوتر الشديد ، عاد الشخص الذي عرض علي السفر وأخذ يهتف باسمي بصوت عال . خرجت من الغرفة على عجل ، ووجدته واقفا أمام الباب وهو يتلوى من شيء ما . خير ، قلت له . بدا مضطربا ويتلعثم ،

وقال لي إنه يجب أن أسافر معهم ، وإن هذه فرصة لا تعوض . عرض علي أن يزودني بالنقود ولا أعرف من أين له . كنت مصراً على موقفي بالرغم من محاولاته العديدة اللحوحة والمتوسلة ، وأحيانا المهددة . صرت أشعر بقلق أكبر من هذهاالإصرار . وقال لي إن الجميع سوف يسافر في هذه الرحلة إلا أنت ، سوف تكون الخاسر الأكبر . الأسايش يبحثون عن كل العرب في زاخو . هناك قرار من مسعود بطردهم منها . ارتبكت اكثر لكني لم أوافق . أخذ الشخص يتحايل بشكل كبير ثم تبدلت لهجته إلى التهديد . لا أعرف من أين جاء بسلطة التهديد هذه . تركته وهو لم يزل يزبد بكلامه ودخلت إلى الغرفة . عرضت الأمر مرة أخرى على زوجتي ، وكانت تصر على عدم ذهابنا . كانت الاستخارة قاطعة في رفض السفر وشعرت باستسلام كبير . كل أحاديث الشخص أخذت تمر أمام ذهني في اضطراب وتبعثر . كان من المفروض أن أشعر بالاطمئنان الآن وخاصة بعد أن تبين لي أن هناك شيئا ما غريبا يحدث وأني اتخذت القرار الصحيح ، لكني لم أشعر بهذه الراحة ، إنما أخذ قلقي يزداد ، وكنت أشعر أن قلبي سوف ينفجر إلى قطع سريعة بسبب النبض السريع والمتدفق . لم أخرج من البيت في ذلك اليوم ولا في اليوم الثاني والثالث ، حتى مقر الحزب الشيوعي الكردستاني لم أصله ، مما دفع الحارس الذي كان يعرف منزلي إلى القدوم للاطمئنان علي . شكرته كثيرا وقال إن حملة مطاردة العرب انتهت الآن خاصة بعد أن ألقوا القبض على الكثير من العرب ، وتم تسفيرهم إلى معسكر زاويته . أما الذين لم يذهبوا إلى المعسكر فقد سافروا إلى سوريا . التقطت ما قاله عن سفر المجموعة إلى سوريا ، وعرفت منه أن سيارة نقل عام (كوستر) قد غادرت زاخو وهي تحمل عوائل عربية . سألت الحارس إن كان يعرف إلى أين اتجهت تلك السيارة ، لكنه اعتذر إذ إنه لا

يعرف . كل الذي يعرفه قاله لي . بعد اليوم الخامس خرجت إلى شوارع زاخو ، التي كانت خالية تقريبا ممن أعرفهم من العرب . التقيت بأبي فيصل وهو يحمل كمية من العظام المقشوطة اللحم . كانت مفاجأة له أنه شاهدني . فتوقف مندهشا فيما أكياس العظام معلقة بكلتا يديه . لم يستطع أن يفتح فمه من هول الصدمة . يا للعنة ، كان يتصورني أني قد ذهبت معهم . قال بعد أن استيقظ من الصدمة : ماذا تفعل هنا . أعني لم نركَ منذ أيام ؟ كنت مشغولا . قلت وابتسامة كانت تتسرب إلى وجهي . بدا أبو فيصل وهو يحمل أكياس العظام ، أشبه بسعلوة خرافية . لم أشأ أن أفتح معه حديثا طويلا . قلت له إني ذاهب الآن إلى مقهاي المفضل ، وغادرت بسرعة فيما هو أخذ يسير متأرجحا بفعل الأكياس الكبيرة . لم أذهب إلى مقهاي ، وإنما فضلت مقهى آخر يقع مقابل الأول ، كي يمكنني رؤية رجال الأسايش فيما إذا أبلغ عني أبو فيصل . كان المقهى الجديد عبارة عن دكان صغير فيه أريكة واحدة قديمة جدا . بدا المشهد من هذا المقهى منفتحا على الشارع وحركة المارة . وبالرغم من أني كنت أرتشف الشاي بسرعة ، ألا أني كنت أراقب مدخل المقهى القديم . مرت ساعة كاملة ولم يأت أحد من رجال الأسايش . فشعرت باطمئنان ، لكن هذا لم يمنعني من مراقبة بوابة المقهى . الحرية رائعة حقا ولا يدركها إلا الذي يمر في فترة السجن أو الإقامة الإجبارية مثلما كنت قبل أيام . عيناي كانتا بالإضافة إلى مراقبة المقهى المقديم ، تتأملان أو تنتظران مرور أي عربي ممن أفلت من قبضة الأسايش للاستفسار منه عن الحال . مرت ساعات أخرى طويلة . ولم أشاهد أي عربي في الشارع . في النهاية قررت أن أعود إلى الغرفة خالي الوفاض من أي أخبار يمكن التقاطها هنا أو هناك . في طريق العودة ، سلكت الطرق الجانبية التي اعتدت على السير فيها ، وتذكرت أن

سامي قبوط يسكن في إحدى الغرف في منطقة الكيستة . كانت الكيستة هي زاخو القديمة ويسكنها الكلدان والآشوريون ، وبعض العرب ، وهي أصل مدينة زاخو قبل أن يغزوها الكرد ويتم تكريدها ودفع الأشوريين والكلدان إلى الهجرة خارج العراق ، أو النزوح إلى الموصل أو بغداد . تضم الكيستة ، بالإضافة إلى البيوت ، كنائس صغيرة وشوارع ملتوية ، أما البيوت فمبنية بشكل مدهش من الحصى الكبير الحجم ، والمأخوذ من الخابور . بيوت زاخو الأخرى والواقعة في الأحياء الجديدة ، مبنية كالعادة من الاسمنت والطابوق أو الحجر ، ويسكنها الأكراد الذين زحفوا على المدينة من جنوب وشرق تركيا . لم أكن أتذكر ، على نحو واضح ، أين يقيم سامي قبوط ، لكنه ، وحسبما أتذكر ، كان يقيم في حي الكيستة . وبالرغم من أن الكيستة كبيرة ، إلا أنه يمكنني تذكر بعض الفروع أو الدرابين التي وصفها لي في مرة سابقة ، وأثناء ما كان يبيع السجائر المفرد على جنبر صغير . درت في كلالكيستة ، وفتشت كل الشوارع ، وفي النهاية بدأت ذاكرتي تشكل المكان عبر نتف الأحاديث والإشارات والرموز ، التي وصفها لي سامي سابقا . توقفت أمام أحد البيوت ، وطرقت الباب مرات عدة ، وفيما كنت أهم بالمغادرة صدر صوت من نافذة علوية يطلب مني الانتظار . كان هذا سامي بشحمه ولحمه . شعرت بالسرور حينما شاهدته وهو يفتح لي الباب لأنزلق بعد ذلك في متاهة مظلمة . حييته ثم دلفنا إلى الداخل المظلم حيث تقع غرفة سامي في الطابق العلوي . كان سامي جائعا ومتعبا ويبدو أنه لم يأكل منذ أيام .

- سعيد جدا أني شاهدتك . قلت .

- أنا أيضاً سعيد برؤيتك وسلامتك . أنت لم تذهب مع الجماعة وإلا لن تكون هنا طبعا .

- أي جماعة .!
- جماعة السيارة .
- لا . طلبوا مني مرارا لكني رفضت . كانوا يلحون بشكل غريب .
- هل تدري ماذا حدث ؟
- لا . . خير . أشعلت سيجارة وناولتها له . لكنه رفض التدخين قائلا إنه أقلع عنه .
- لقد سلمهم مسعود إلى النظام . النساء والأطفال . . كلهم ، كلهم .
- معقول . أية كارثة . من قال لك .
- هل تعرف عبد الستار ؟
- الشاب الأعرج .
- نعم هو . لم تكن لديه عائلة . استطاع النجاة بأعجوبة . أخذ يتحدث بالكردية مع ضابط المخابرات الحكومي ، فأنقذه هذا بعد أن قال إنه ليس عربيا إنما كرديا .

لم أصدق ما حدث . الصدمة أخرستني . . سحبت أنفاسا عميقة من سيجارتي ، وأصابعي كانت ترتجف . وهل ستار جاء إلى زاخو ؟ قلت .
- هو الذي نقل الحكاية لنا وفضح أبناء القحبة .
- المناويك فعلوها .
- كان الأطفال يبكون والنساء يتوسلن ، لكن أعقاب البنادق كانت بانتظارهم . لقد سلمهم مسعود مثلما سلم العرب والتركمان في أربيل ، حيث تم إعدامهم وقتها على الفور .

شعرت أن الدنيا ضيقة للغاية ، وأخذت أحس بالقيء يندفع إلى فمي .
- كانت خطة محكمة .

- شعرت بأن شيئا غير عادي وراء هذه الحكاية ، لذلك رفضت السفر معهم .

- لقد أنجاك الله . يجب أن تشكره ليلا ونهاراً .

لم أكن أستطيع التصديق . أخذت أتصور النساء والأطفال وصراخهم وتوسلاتهم ، فيما الرجال يقتلون رمياً بالرصاص . كنت أعرف مسعود جيداً وأعرف أنه قاتل محترف ، وقاطع طريق ، لكنني لم أعتقد أنه بهذه النذالة . هؤلاء كانوا لاجئين عنده . كيف سولت له نفسه بيعهم . كانت الطبول قد بدأت تقرع في رأسي . أحسست أن أقدامي قد أصابها الخدر . كان بيني وبين الموت كلمة ، كلمة فقط وأنحدر أنا وعائلتي إلى الجحيم . ليست هناك مشكلة أن أموت ، لكن زوجتي وأطفالي سيضيعون وسط الذئاب هذه ، ولأول مرة شعرت أن الخوف يسلب الإرادة بهذا الشكل . نوع من الانجماد أخذ يدب في أوصالي مع قشعريرة عارمة تضرب قفاي . لم أستطع النهوض . لم أكن قادرا على الحركة ، وكأنما نوعا من الشلل ضرب ساقي . التنمل يجتاح ساقي ثم يتمدد ليصل إلى أطرافي كلها .

- لهذا السبب إذن كانوا يلحون علي بالسفر .

- كانوا يريدونك بأي ثمن . في الحقيقة كانوا يريدون الجميع . تف عليهم وعلى ماعزهم .

- هل عبد الستار موجود في زاخو الآن؟

- لا . . لقد هرب إلى أربيل . كانوا يبحثون عنه بجنون . لا تقل لأحد إنه هرب .

- سأفعل هذا رغم أني لا ألتقي بأحد . صرت أشم رائحة الأسايش والباراستن من عشرات الأمتار .

- الله يوفقك ، دير بالك على نفسك وعائلتك . إذا استطعت الهرب

إلى أربيل أو السليمانية فافعل .

أجبته باستنكار : لا لن أسلم ظهري إلى إيران ، وفي أربيل الوضع لم يزل خطرا ، لا أريد العودة إلى أربيل . لا أستطيع تخيل نفسي أعيش فيها من جديد . لقد نجوت بأعجوبة من قبضة عصابات مسعود والمخابرات الحكومية . هنا أستطيع الفرار إلى تركيا إذا ما حدث شيء ، هناك لن أفلت ثانية .

– لكن الحياة هنا صعبة للغاية مع القمع المسلط على رؤوسنا من قبل مخابرات مسعود ، إضافة لارتفاع الأسعار هنا .

– صحيح ، لكن الهرب أسهل . حتى دهوك ليست آمنة . أبو سيف قال لي إن مخابرات صدام تسرح وتمرح وتأمر هناك .

– وماذا هنا . تساءل سامي باستهجان .

– أعرف كل شيء . لكن ما العمل . أطفأت سيجارتي وأشعلت أخرى .

– أنا لم أشاهد قواداً أكثر من صاحبنا . لقد كرهته منذ أن سلم العرب والتركمان في أربيل ، وهنا فعلها مرة أخرى .

– يفعلون أكثر من هذا .

– وماذا يفعلون أكثر من القتل .

– الخيانة للوطن .

هز سامي رأسه بالإيجاب ، فيما نهضت أنا لكي أغادر . عند الباب توقفت ودسست بضعة دنانير في جيبه . لكنه رفضها وقال إن أطفالي أولى بها . لم أسترجع الدنانير ، وتوسلت به أن يقبلها حتى وإن كانت كدين . شكرني كثيرا وودعته قائلا له إن الحملة على العرب قد انتهت ، وإن بإمكانه الخروج من هذا القفص .

الظلام كان يلف طرقات الكيسته . شيء مهول كان يلعلع في هذا الصمت . هل كان خوفي ؟ ربما ، فأنا لم أزل أسير قرب الحيطان ، وفي الطرقات المظلمة ، رغم أن الحملة انتهت . تفو على ابن القحبة الذي يشرب الآن بكل برود لبن أربيل فيما أجهزته القمعية تطاردنا ، أسايش ، باراستن ، صخلستان ، خرائستان . معزسستان ، يرّيد أن يكون دولة برؤوسنا فتحول إلى شرطي مرور . تفو . .

خيانات.. خيانات

الأيام تمضي باشتهاء الوقت . الزمن ، ذلك الشيء الداعر والخرافي يموت على الأوردة وحيطان المدينة الجفولة . ماذا تخبئ لك الأيام . لا شك ، النكران والأباطيل ، وحيل القوادين ، وسماسرة الجنس الرقيق والأبيض . ثمة أخبار كانت تصل إلى مسامعنا عن الانتهاكات الصارخة بحق المعتقلين في معسكر الاعتقال في زاويته . كنت أتخيل صرخاتهم في هذا البرد . لم تبق عوائل كثيرة بعد الحملتين . حملة معسكر الاعتقال وحملة التسليم إلى المخابرات الحكومية . اختفى عبد الستار ولم نعد نسمع بأخباره ، أقاويل وإشاعات تقول إنه شوهد مقتولا عند مضيق زاخو ، فيما حكايا أخرى تتحدث عن اغتياله في دهوك أثناء الهرب منها . في كل الأحوال ، كانت مخابرات مسعود تطارده لتنتقم منه على فعلته بكشف تآمرهم . اغتيالات ، إطلاق رصاص . الوردة لم تعد تتمدد على الظل ، ولا طائر العقعق يتنسم ثراء الهواء . أحدهم استطاع الهرب من معسكر (اوشفيتز الكردي) كاوه ، أحد مقاتلي الحزب الشيوعي العراقي ، والذي كان يعمل نادلا في أحد فنادق شقلاوة حيث تعرفت عليه . استطاع أن يخبئ نفسه جيدا في زاخو .

لم يستطع اقتحام المدينة المدججة بالسلاح والحرس والسيطرات ، إنما عبر الجبال ، وهو المقاتل أصلا ، واستطاع دخول المدينة . قال لي سامي إن كاوه يريد أن يراني . هرعت وقلت له بسرعة : خذني إليه الآن . كان كاوه مريضا للغاية . استطاع سامي أن يمده ببطانيات إضافية وموقد صغير (جولة) للتدفئة . استطاعت البطانيات أن تمتص بعض أوجاع كاوه ، فأخذ يروي لي حكايات الألم وجولات التعذيب في معسكر الاعتقال . ثم بحزن كبير ، تحدث عن اغتصابات النساء في ذلك المعسكر . الاضطراب كان يهز كاوه من الجذر . يقول انه لم ير تعذيبا وحشيا مماثلا إلا في معتقلات الحكومة . أصغيت بانتباه دون أن أتكلم . تركت محدثي ينثال في حكاياته الاسطورية . جولات التعذيب ، حسبما يقول ، تبدأ كل ساعة وكل يوم ، ليست هناك ساعات محددة أو أيام . القمل كان ينهشنا ، والتحقيق كان يدمرنا ، بالرغم من أنه كشف للمحققين أنه كردي فيلي . فازداد التعذيب أكثر . كان المحقق يقول له ولماذا تعمل في المعارضة العراقية وأنت كردي . الكلاب جزء من المشهد الدامي للتعذيب . هذا الابتكار الكردي هو منحة من الإسرائيليين ، وهو جزء من برنامج التدريب الذي قدمه الإسرائيليون للأكراد من أجل انتزاع المعلومات من العرب . كان معهم في المعتقل ضباط ومهندسون من التصنيع العسكري ، وكانت جولات التحقيق تجري من أجل انتزاع المعلومات عن الدولة العراقية . الجميع كان يعرف أبو داود ، وهو المحقق الإسرائيلي المرافق للمحقق الكردي شاخوان . نزع كاوه قميصه وأراني ندوب أعقاب السجائر والكيبلات المرسومة في لوحة سريالية على ظهره . لم يكن يعرف لماذا يعذب ، إذ إنه غادر بغداد من أمد بعيد وماعاد يتذكرها ، إلا كشكل حلمي . لم يكن يمتلك معلومات ليقدمها إلى المحقق . لكن الإصرار على تعذيبه كان يستمر بوتائر متصاعدة . الجوع كان شيئا مرافقا للتعذيب

الوحشي . كانت إحدى المنظمات (الإنسانية) تشرف على إطعام نزلاء المعسكر . لكن مؤامرة كانت تحدث ، فيأخذ مسؤول المعسكر الأطعمة ليبيعها في السوق . الجوع كان كافرا ويترافق مع برد قارس . مسكت يد كاوه واعتصرتها برفق . قلت له إنه في أمان نسبي الآن ، لكن يجب أن تفكر في مخرج . لن تستطيع البقاء هنا إلى الأبد . هز رأسه وعيناه تحدقان في وجهي بثبات . سأسافر ، قال ، إلى تركيا تهريبا . أستطيع السير أياما فلم تزل فيّ قوة المقاتل رغم أن أبناء القحبة أرادوا تحطيمها . أستطيع عبور الأسلاك الشائكة والمضائق مثل شبح ، يجب أن أصل إلى وان حيث معسكر الأمم المتحدة . ابتسمت . وكان ثمة أمل في وجهه تعكسه الأضواء المنبعثة من الجولة . أخرجت صمونا دافئا وأعد هو شايا وتناولنا وجبة شهية .

ماتت زاخو . هكذا كنت أفكر وأنا اسير في الشوارع الملتوية ، أو حينما أنظر إلى الحوانيت العاجة بجبن الماعز وعشرات طاسات اللبن . مدينة تتكون من المطاعم ومحلات اللبن والجبن والخبز . لم تعد في المدينة بهجة . أكثر الأشياء التي كنت أحياها ماتت الآن . العرب هم القلة بحيث لا تلتقي بإنسان منهم إلا فيما ندر . أضاف العرب ، برغم البؤس الذي عاشوه ، نوعا من الحيوية على المدينة . اتصلت بنجيب الصالحي وطلب مني أن نلتقي في تركيا بأسرع وقت . (الريح تمحو والعاصفة تتذكر) اسم هذا الكتاب لا ينمحي من ذهني . دائما أشعر بالخوف منه . لا أدري على وجه التحديد لم كنت أخافه بالرغم من أن كاتبه حسب الشيخ جعفر كان إنسانا رائعا وخجولا . الكثير من أسماء قصص عبد الستار ناصر تمر في ذهني أيضا . في بعض الحالات كنت أعيش أجواء تلك القصص على نحو مدهش ، أو مخيف هو الآخر . «تلك الشمس» كنت أحبها لعبد الستار ناصر . كانت تجعلني على سبيل المثال ، أفكر في مسميات جديدة للعاصفة التي تقتلع

كل شيء . لكن أين أنت الآن . عدت إلى مقهاي الذي هجرته مجبرا . مقهاي لم يتغير برغم البرد ، فكنت أسحب كرسيا من الداخل وأجلس في توحد غريب . كنت أريد أن أقول لنجيب الصالحي أن لا يفكر بالعمل وسط هذا الخراء المدهش والمتألق . لكن لم تكن لدي الجرأة . ربما ساقول هذا له حينما نلتقي في تركيا . فكرت أن أبلغ بالمغامرة حدودها القصوى ، وأن أهرب أنا وعائلتي بالمبلغ الذي سيرسله الصالحي للقائه ، إنها الفرصة الذهبية حقا والتي لن تتكرر . مر في ذهني ، وأنا امخمخ الفكرة في ذهني ، أبو وأم آية اللذان اختفيا من زاخو لكنهما ليسا في المعسكر ، ولم يكونا ضمن سفرة الموت . أين ذهبا إذن . سألت عنهما من تبقى في زاخو . وعرفت أنهما قد رحلا إلى السليمانية . إذن استطاع مسؤول الباراستن في زاخو تجنيدهم للتجسس على جماعة جلال . كل عاصفة كانت تكتسح شوارع زاخو كانت تحمل معها أحلامي إلى الموت واللامكان . اللامكان شيء غريب ويشعرني بالخوف والارتعاش . في بعض الأحيان كنت أبكي بصوت مدو إلى الله ، الذي كنت أحتاجه في بعض الأحيان بشكل مرعب . كلمة الله أو فكرة الله فكرة رائعة جدا ، لولا الحمير من رجال الدين الذين نصبوا أنفسهم خلفاء له . بكيت على مصير أبي وأم آية وطفلتهم . هاقد ضاعوا في حريق العصابات الكردية إلى الأبد . لكنني كنت أبكي حالي أنا أيضا . عامان والأطفال بلا مدارس . أين سنتجه الآن؟ العالم يتغير في كل لحظة . لكن في زاخو الزمن ينام . وكلنا ننام في هذا السبات العجيب . ترى هل سيقدر كاوه على اختراق الجبال والوصول إلى تركيا ؟ كاوه هذا المقاتل الذي عشق حزبه الشيوعي ، ثم هرب من هذا الحزب حينما شاهد الرفاق المسؤولين وهم يغتصبون الرفيقات في مقرات كان يفترض ، حسب كاوة ، أن تكون أماكن للطهر . كانت قوادة واضحة وعارية . إذا كانت لك اخت أو أم جميلة فيعني

هذا واجبات أقل وسفرة إلى الخارج وامتيازات جليلة . كره كاوه الحزب الذي لم يعد حزبا إنما مبغى عاما . هل الخطأ في النظرية أم في التطبيق . كان يقول متسائلا . لكن أيا كانت النتيجة وأيا كان التحليل ، فما شاهده أمام عينه كان يندى له جبين أي مثقف ثوري وأي مقاتل . كان انهيارا كبيرا . ما يأسف له هو أرواح الرفاق التي ذهبت هدرا . يمتص سيجارته بقوة وحزن عميقين ، ثم يبصق على الجنب . عالم مليء بالخراء . كل شيء كان يمكن أن يتحول نحو الأسوأ ، لكن أن ينحدر حزب العمال والفلاحين إلى هذا الدرك من الخيانات والدعارة واللصوصية والمحسوبية والعنصرية ، شي غير معقول وغير عادل البتة . كنت أقول لكاوه : إن حل مشكلتك لا يكمن عميقا في الهرب . إنما في الدفاع عن مثلك العليا . لكن كل السمكة جائفة وليس الرأس فقط . لو كان الرأس فقط ، كان بالإمكان قطعه . لكن الجيفة انتشرت مثل السرطان في كل مكان . الحل الأمثل أن تحافظ على إنسانيتك وتهرب من هذه القذارة . هل تعلم ، كان يقول في جلسات تالية سبقت هروبه إلى الجبال والوديان من أجل الوصول إلى تركيا ، إن كل الذين استشهدوا من مقاتلي الحزب قتلوا بأيدي جماعة مسعود وجلال . الرفاق المسؤولون شمال العراق مثل كيس القواد مليئ بالحكايات العجيبة والغريبة . لكنها تشترك كلها في شيء واحد هو ممارسة خيانة الوطن . هل تتذكر الدكتور البصري ، لا أظنك قد نسيته . وكيف أنساه ، قلت . هل حدثك عما حدث في حلبجة ؟ نعم حدثني . . ماالذي قاله لك ؟ . . أشياء كثيرة . منها أنه كان ضمن مقاتلي البيشمركة حينما أُمروا بالتقدم لاحتلال حلبجة كتهيئة للقوات الإيرانية . يعني أدلاء . . وماذا قال لك أيضا . . قال ، إنهم احتلوا حلبجة بمساعدة الجيش الإيراني ، وحينما حررها الجيش العراقي قصفها الإيرانيون بالأسلحة الكيمياوية . إنها شهادة حقيقية ومن موقع

الحدث . هل قال لك إن الحزب الشيوعي اشترك فيها . . لا لم يقل لي . حسنا ، قال ، كان الحزب الشيوعي يعلم مسبقا بأن قوات البيشمركة والإيرانيين سوف يحتلون أرضا عراقية ، ولم يدافع ولم يستنكر ، بل اشتركت بعض عناصره ضمن الهجوم الإيراني . ما الذي تريدني أن أقوله ، قلت . . لا ، لا ، أجاب ، لا تقل شيئا إنهم خونة ، هكذا هو حزبنا دائما . في السابق كان يتلقى التوجيهات من موسكو ، واليوم يتلقاها ليس من أمريكا إنما من كلابهم الصغيرة كمسعود وجلال . هل تعلم أن المخابرات الاسرائيلية والإيرانية زودت الحزب بالكثير من الأسلحة والمعدات لمحاربة صدام حسين . شيء كارثي ، كنا نقاتل بالنيابة عن الامبريالية والصهيونية والإيرانيين . كانت هناك الكثير من الاعتراضات والمساءلة ، لكن القيادة قمعت هؤلاء ، بل قتلت البعض منهم تحت حجج واهية مثل الخيانة ، أو علاقتهم بالنظام أو أية مسوغات وتبريرات أخرى ، إني أتحداهم أن يعترفوا بخياناتهم ، كلهم ملوثون بالأموال الأمريكية والإسرائيلية . بقيت أنظر إلى وجهه وهو يتلوى من الوجع والألم! وجع الخيانة وألم السنين التي صرمها في خدمة الحزب ، وليكتشف في النهاية أن تلك السنين من عمره لم تكن إلا هباء . ما يحز في نفسي ، يقول ، أني كنت أقاتل أبناء وطني بأسلحة قذرة . لقد صنفت خائنا في ضمير الوطن . ترى هل سيغفر لي هذا الوطن . على ضوء الجولة كانت عيناه تبكيان الألم . ليس ألم الجوع أو البرد ، لكن أن تكتشف بعد كل عمرك أنك لم تكن أكثر من خائن . قلت له ، لم ينته كل شيء حتما . روح الوطن كبيرة . إفضح أبناء القحبة . إفضح المناويك الذين يطعنون في ظهر الوطن . لا تبقَ هنا أكثر من أن تدبر أمر هروبك . كان يومئ برأسه . يومئ وهو غير قادر على كتمان غيظه من جبل الخيانات والدعارة الذي تكشف له .

موات.. موات

لم أزل أسير في زاخو وحيدا . في بعض الأحيان أزور سامي وهو يقتعد بداية شارع ، وأمام جنبره لبيع السجائر . أشتري علبتين من أردأ الأنواع ثم ندردش قليلا ، وبعد ذلك أتركه . اكتشفت في ترحالاتي المريرة منطقة رائعة قريبة من سلسلة الجبال التركية . كان هناك الخابور بالتواءاته ، والثلج على القمم ، وفي مكاني أجمات متبعثرة من الشجيرات والعليقات . المشهد السماوي في تلك المنطقة كان رائعا مذهلا ومخيفا في آن واحد . يمنحك هذا المنظر نوعا من الانفناء في الذات السماوية . اكتشفت أيضاً جذوعا لأشجار مقطوعة فاتخذتها كنوع من الكراسي . أمامي كان الخابور يتدفق بشدة وتجبر ، وأمامي أيضاً الجبال التركية الهائلة مع الثلج ، وقربي سماء مترعة بالغيوم الشديدة البياض . كنت أحس أنه لو استطعت العيش في تلك البقعة إلى الأبد فإن عملية نزول جبرائيل ليست مستحيلة ليقرؤني السلام من رب الأرباب . . ماهذا الهدوء الغريب . لم أكن أسمع حتى أصوات تدفق النهر . كنت أغرق في تأويلات المتاهة . ثم أقرأ تعاويذي الملائكية على السماء . وجوه بغداد

كانت مثل وجوه جبرائيل حينما أنزل رسالته الأولى إلى محمد . حيثما أدير صفحة وجهي ، كانت بغداد تتشدق بالحب المائت إلى النهاية . عربون محبتك كان غاليا ياسيدة المدن التائهة في مرابض الموت .

لم أشاهد إسماعيل شاكر منذ فترة طويلة ، قفز وجهه إلى مخيلتي فقررت زيارته . غابت الشمس خلف الجبال ، فانحدرت إلى المدينة . اضواء المقاهي تتلألأ . أصوات مولدات الكهرباء تزمجر وها أنا أهبط لمسراي الأليم . كانت المسافة بعيدة بين مكاني الجديد الواقع خارج المدينة وبين غرفة إسماعيل شاكر . لم أنتبه إلى أني لم أشاهد إسماعيل أو أزوره طيلة الفترة الماضية . كان ثمة شعور ينتابني بضرورة رؤيته ، الآن وليس غدا . حاولت أن أفكر أن الوقت متأخر ربما . لكن ثمة إحساس بشوق أو لهفة له كانت تنتابني . في الطريق أيضاً كانت رؤى الأحلام لا تزايلني . متى سوف أهرب إلى تلك الجبال التركية وأفارق هذا المستنقع الذي أغرق فيه ببطء وأحيانا بسرعة . نجيب الصالحي قال في آخر اتصال معه أنه يجب أن أحضر جوازي للسفر ، ومحمد خورشيد سوف يأتيني بالمال من نجيب الصالحي . كلفة السفر مرتفعة ، تكلف الفيزة ست أوراق ، وهو مبلغ مخيف في وضعنا الحالي . لكن نجيب الصالحي سوف يدفعها . ومحمد خورشيد سوف يأتي قريبا جدا . اللحظة الحاسمة تقترب أكثر ، هكذا فكرت . مررت في طريقي على مجموعة مقاه ، كان صوت الرواد يرتفع في فوضى مضطربة . أصوات الدومنة هو الآخر كان يقرقع حينما يضرب اللاعبون بالأحجار على الطاولات . مناظر كئيبة تلوح في وجهي . بعض الطرقات تضيؤها مصابيح المقاهي ، أما الأخرى فمطفأة . كانت رائحة الكباب تنبعث من بعض المطاعم ، وأدخنة الشوي تعربد في سماء الشارع . شعرت بالجوع ، لكني لم أدخل المطاعم الباهظة ، وفضلت

صاحبي ، صاحب المطعم الذي يفرم كل شيء دون غسله ، ويعد لك أقذر صحن كباب في العالم . وصلت مطعمي وتناولت وجبة مع احساس بالألم لا أعرف ما هو . كان شعوراً غريباً بفقدان شيء ، لكني لم أكن أعرف هذا الشيء . إلى حد ما كان يشابه الإحساس بفقدان رياض إبراهيم في تلك الليلة الغريبة ، التي نقل فيها إلى المستشفى ليموت إلى الأبد . بعدما خرجت من المطعم الحقير ، التقيت بأبي عماد الشحاذ على غير العادة في هذا الوقت ، إذ إنه من المفروض أن يكون الآن بصحبة إسماعيل لشرب العرق والسك . قلت له إني ذاهب الآن لرؤية إسماعيل ، فاستغرب الامر قائلا إن إسماعيل سافر منذ يومين إلى سوريا . انبهات قفز إلى وجهي الذي احتار في إيجاد معاني الكلمات . كيف ، متى ، ماذا ، قلت باضطراب . قبل يومين سافر وأنا أوصلته إلى نقطة المعبر بين العراق وسوريا ، أحد الأقرباء ساعده في الحصول على الموافقة السورية (التزكية) قال . . هكذا إذن يا إسماعيل تسافر دون أن تخبرني أو تودعني . لم أعلق أكثر ولم أستفسر عن أشياء أخرى في ذهني . هكذا إذن ، أخذت أردد وكيف يخفي الأمر عني . على أية حال فهذه مشكلته . كتب كثيرا لجريدة الحزب الشيوعي لكنهم لم يخرجوه . واستطاع إيجاد الوسيلة بأي ثمن للهروب من هذا الجحيم والموت البطيء .

بقي الشحاذ ينظر في وجهي ، وكأنما ينتظر أسئلة اخرى للإجابة عنها ، لكني لم أسأل عن المزيد الذي لا فائدة منه حتما . انسل أبو عماد بعدما ودعته ودخل هو أرقى مطعم كباب ليتعشى . شعرت بارتخاء عارم يضرب ساقي ، ارتخاء يشبه الشعور باليأس الشامل والكلي . كل قوة في جسمي كانت تتسرب إلى لا مكان ، لكنها تضيع في المدى المظلم . الظلام . الظلام . كل شيء مظلم الآن . أضافت المصابيح المطفأة للشوارع

ظلاماً على الانطفاء الروحي لي ، فغدا كل شيء عبارة عن لوحة مهولة من السواد . اقتعدت الرصيف ، دخنت سيجارة ثم أتبعتها بأخرى ، وأنا أعاني من الذبول المتوحش . كانت السماء عميقة ، ثمة غيوم مكللة بالسواد تعبر القمر ثم تتأجج في خفوت مشوب بالخدر . الشوارع فارغة لا أثر للدبيب النهاري . أخذت أنظر إلى الغيوم وهي تعبر بحار الضوء الأبيض . في السماء أيضاً كانت نجمات ملونة تستعر . أحسست بارتخاء كل عضلة من جسمي . تأمل السماء كان يغرقني هو الآخر بمسميات مجهولة الأشياء . أين أنت أيها الرب ، كنت أتساءل عن عرشه الشبيه بحارات الضوء المتلألىء . بقيت أوقاتاً طويلة أتأمل السماء العميقة ، أتأمل اللوحة المزدوجة للغيم والنور والنجوم وهي تبتلع إحداهما الأخرى في صمت شفيف . اقتربت إحدى النجمات أكثر ثم أحسست بنور يتوهج تدريجيا ، كانت نجمة تقترب بسرعة ، عيون مدمعة ونهود عارية تتوشح البرد اللذيذ ، الذي كان يتسرب من كل الأماكن إلى جسدي ، الذي غدا شيئا هيوليا بغير ذي معنى . كنت أشاهد في الغيوم ترحالاتي العميقة والموخزة ، ترحالاتي في أراض الرب شمالا وجنوبا ، كنت مثل أرميا وأنا أنفخ في بوق النهاية ، لكن النهاية ماكانت نهاية الأشياء إنما نهايتي أنا أيضا . يقترب النجم أكثر ويصبح قريبا في تماس مع الغيوم ، فيغمرني ضوء مبهر . ضوء وكأنه مصنوع من الألماس والزبرجد ، تنتشر الشجون المثلى على الأرض فتغدو الشوارع غارقة في محلول طباشيري مهيب . كانت الغيوم قد توقفت فحجبت نصف القمر ، ثم هبط ملاك الرب ، أصبت بارتعاش شديد ، ارتعاش ورعب تمددا خارج جسمي الذي أصيب بالحمى . ملاك الرب كان يمتطي صهوة الغيوم ، وحينما اهتز جسدي بالكامل أحسست أني أستيقظ من نوم طويل وإلى الأبد . شعرت بعد أن هبت نسمات باردة

أن جسمي قد استعاد حيويته بشكل مفاجئ ، لكن صورة الملاك لم تزل عالقة في ذهني . نهضت وسرت سريعا إلى غرفتي ، فيما العرق يتفصد من صدغي . لم أستطع النوم ، كانت صورة الملاك الغارق في الضوء النجمي والقمري تسحرني . هل هذه رؤيا ؟ لم أكن أعرف ، أردت أن أحدث زوجتي لكنني اكتشفتها غارقة في نوم عميق . استسلمت إلى قدري ، أخذت أعيد ترتيب المشاهد من جديد وأفكر إن كان هذا مشهدا سماويا صرفا أو أن الرب أراد أن يقول لي شيئا محددا أو الأمر كله لا يعدو أن يكون خدعة بصرية . لم أكن أفهم ، وماكنت قادرا على إيجاد أجوبة شافية . كانت صورة الملاك حزينة وهي تحمل عشرات المعاني غير المفهومة ، فم الملاك ، قبضته الماسكة شيئا وهميا ، عينه المبتلتان باللوعة ، الدموع الهاربة نحو متاهات الزمن ، اليد الماسكة لعرجون الزمن المتقلب ، السحنة الوضاءة وهي تندثر خلف غلالة الغيوم . لم أكن أفهم ، لم أفهم الإشارات ولا استنباطاتها الكثيفة الحس واللوعة والحزن والتأسي . ماذا أقول لك أيها الملاك ، ماذا أقول لك أيها الرسول الآتي من خلف أعوام الهزيمة والسماوات السبع . أأقول إني لم أعرفك ، أأقول إني نكرتك منذ اللحظة الأولى ، أم أني لست أهلا لتلقي الوحي المبثوث الذي بعثته لي . أشياء كثيفة تسد الأفق ، أشياء متعددة تحجب الرؤية الغامضة فتزيدها هلعا ورعبا . آهات طويلة كنت أزفرها ، لكن الاكتئاب المر كان ينزاح وأنا أفكر في هذا الملاك الذي برز فجأة ثم انمحى أثره في دروب السماء العميقة الأثر والمتطاولة بلا نهاية ، وحينما استسلمت للنوم هدرت أصوات مرعبة وصرخات مجلجلة من كل الأماكن ، قفزت من حشيتي وأصخت السمع ، فكانت الصرخات تزداد اقترابا ، وثمة هدير تنقل الأرض صداه . خرجت من الغرفة هلعا نحو بوابة المنزل ، وحينما فتحت الباب كانت

الدبابات التركية قد أحاطت بالمشهد الأرضي ، فيما الجنود يتصارخون وأضواء السيارات العسكرية تكتسح الشوارع . ماهذا . ما هذا ، كنت أصرخ ، أهمس ، أتورد . خرجت إلى الشارع . البيشمركة أمام الدبابات التركية . الضباط الأتراك يلعنون البيشمركة . البيشمركة يتراكضون مثل الكلاب أمام سيدها . الطائرات السمتية في السماء . ماذا فعلت يا مسعود؟ ماذا فعلت مرة أخرى . هل بعت الوطن من جديد . ارتبكت ، اضطربت ، شعرت بالتوهان وعدم فهم ما يجري . كانت الدبابات التركية تندفع سريعا بتوحش تقطع المسافات ، فيما أضواؤها تنير السماء . لقد فعلها مسعود مرة أخرى ، أخذت أردد بلا نهاية وبلا توقف .

عراجين الرب

الانبهات السرمدي طوح بي وأنا أشاهد الاجتياح التركي لأرض الوطن . ماذا في قرائينك الجديدة أيها الرب المتشح بالسواد الليلكي . هاذي الدبابات التركية تهدر في صمت صخاب . ما الذي يحدث بحق السماء . كانت الجلجلة تشبه جلجلة الحساب الأخير ، فيما المسيح تحت عاهرة الزمن الاسفنيكي . شفتاك أيها الرب مزمومتان وأنت تنظر إلى أوقات الاجتياح غير الملائم . رأسي كان يتفجر من قنابل وهمية تطوح بي إلى أقاصي المجرات المزمجرة . حديد ، حديد في كل الأمكنة والمتاهات المنغلقة ، ماكنات الجر للمدافع العملاقة تحرث الأرض حرثا ، فيما حديد الدبابات المصطلية تهز الأرض هزا . حتى أنت أيها الرب المسكين غير قادر على محو صفة الغزو عن أرضنا الوسنانة والملهمة . بعدك أيها الإله التموزي يطرق أبواب الجحيم المفتوح على خاصرة الزمن ، فيما الطعنة النجلاء تستبق العاصفة لتزيد الألم بعدا رابعا في متاهات الانغلاق الفجيعة . ما هذا أيها المسكون بحجر الابتلاءات والصرخة الصموتة . أيها الرب المتنائي بعيدا عن أرض الميزوبوتيميا . دلائل عشق أيها الرب ذاوية

مثل سنابل القحاب المرتمية على أرض معبدك المحطم . هاهي الدبابات ، عشق مجنون للدسيسة والطعم الغريب في حلاوة الرب . ماذا تخبئ قرائينك لنا أيها المتربع على عرش الماء اللازوردي . هاهي قبائل البرصان والعرجان تكتسح طهارتك أيها الجسد المدمى بالخيانات . فعلها الكردي الشائخ في الزمن المر فيما أنصبة الآلهة لم تزل معلقة في المذابح . روح عقلك أيها الله تائهة في مدافن اللهفة ، وأنت تضاجع الولدان المخلدين فيما ارض خليلك يأكلها مسعود وباقي ثلة القوادين . اهرب من ضرب نعلك المقدس إلى المساحات المزروعة بالظروق ، فيما عصافير وحدتك الأبدية تزقزق من البكاء . ها هو معبدك يا الله حيث الماعز يمزق مصاحفك والدودة الجهنمية تغتزل الأشياء لصنع برق الخطيئة . أواه يا أرميا . أواه ياعيسى وهذه خلائق المعبودات تنطرح قدام المواكب التموزية في مهرجان اللعن . صوتك يادبابات ويامدافع ويامجنزرات ، يحطمني ، يطرحني أرضا مثل ذبيحة المطران على باب كنيستك المدوي . ماذا تفعل أيها الرب فيما قبائل الأناضول تحوم خلف الطريدة مثل طفل يتعلق بلعبة محبوبة . فعلها القواد لاكتساح البراءة الأرضية . قواد الأزمنة الغابرة يتربع في صفة الهية ، يشرب الماستاو فيما عراجين السماء تبكي الانفلات الحديدي في أرض الرب . القواد لا يعرف أن هذه أرض المقدسين ، لا يعرف قيمة الأرض فهو التائه في أبدية بلا أرض ، وبلا شكيمة غير شكيمة الخيانة . . وحش يسري بين الجبال ، تائه أسطوري يتلصص على ديانات الآخرين وحينما يستقر بأرض الرعي يقتل المسالمين . المسيحيون الحفاة ، الآشوريون الضائعون في عرجون القتل . المهابط السماوية لعيسى المهزوم أمام التوحش الفيزيقي . اللعنة ، كاضطراب منتشر مثل الجدري على الأرض المكبوتة وهي تبتلع الدم المسيحي . رحماك يا ابن الرب ، تتوسلك الجموع الهادرة

وهي تهرب من أمام الهمجية لتستقر على ضفاف الدجلة نازحة الألم . يشرب الأغا الكردي الدم ممزوجا مع الماستاو . عرق العصور السحرية والابتلاءات المتتالية . ماذا أقول لك أيها المهزوم من أمام الجموع المشردة . فوق ، في الأعلى ، صورتك ياعيسى المهزوم باستمرار أمام الوحشية . كانوا يوقدون الشموع لك . يشعلون الأصابع المدماة بفعل الانتقام الوحشي للكرد .كل مساحات ومعابد اينانا يكتسحها هؤلاء الرعاة إلى الأبد . مدنيتك والابتلاءات تندحر أمام التوحش الفيزيائي . عثوق الألم تعتصر القلوب المهجرة ، فيما الكردي من فوق حصانه يرى ذلك الدم النقي لأتباع الله ، وهو يشرب الماستاو ويأكل الكباب مغمسا بدموع الثكالى . ها أنت تفعلها مرة ثالثة ورابعة وخامسة وبلا أعداد للمرات . تفعلها مثلما تفعلها في كل مرة حينما تخون الأرض التي استقبلتك لتخونها . ما هذه اللعنة الأبدية التي تغرق فيها . ما هذا التوحش المطارد الذي تغرق فيه . ألا يمكن أن تحب يوما ، أن تعشق الإنسانية ، ولو على سبيل التذكار . لكنك وحش كاسر ، ضبع مسلوخ من النوازع الإنسانية ، لا تفهم من حياتك غير الخيانة والقتل وتحطيم معابد الآلهة . كنت تضحك وأنت تشاهد قبائل الأناضول وهي تكتسح الأرض . كنت مثل كلب أجرب تلحق القوافل المحاربة تلك لتنتقم من الأرض ، الأرض التي آوتك من ترحالاتك الدائمة والمستمرة . جعلتك شيئاً شبيهاً بالإنسان إذ منحتك صيرورة الاستيطان . لكنك لم تحفظ الأمانة . فكل شيء بالنسبة لك هو ثمن ؛ لأنك مشرد أصلا فلا قيمة عندك للأرض . زعامتك المتوحشة هي كل شي في عقلك المتسخ بالقتل . هكذا استخدمك الإيرانيون والإسرائيليون والأتراك والأمريكان . كنت مثل العاهرة كل يوم تنام في حضن وما أكثر الأحضان . شهواتك البرية كنت توزعها ، هنا وهناك . بين

الأيائل والحباري والضباع . أنت الذي رفضتك حتى حيوانات البرية حينما اكتشفت خيانتك ، وحش متنمر ، ضبع كالح ، حية رقطاء ، أفعوان الالتهامات المتجذرة في وحيك البري . ستموت كما هي ميتاتك السابقة ، كما مات أبوك الملعون في عهره المتبل باليقطين . الزهرة البرية والأقحوانة وشقائق النعمان سوف ترفضك مثلما رفضتك الآلهة في مدن ميزيوبوتيما . أيها الخائن المتشرد ، الضليع في حبك المؤامرات للسناجب البرية والقطط الأليفة والعصافير الهاشة . قمعك ، جبروتك ، خرائياتك ، كلها إلى الجحيم ، حيث سيشمر بعد الآن أبناء الأرض الطيبة عن سواعدهم الذهب ليلقوا بك خارج الحدود ، خارج مملكة الرب الذي تجلى لماني في أماسي الصيف المجهول . هذه الأرض ليست أرضك وأنت تسير عليها في ضبعيتك المريرة . فاخرج منا مدحورا مذموما إلى جبالك في أرمينيا ، والى حيث إخوانك الفرس الدهاء في الزمن المر الذي أدخلك الأرض المقدسة . هنا مملكة الرب ، هنا مملكة تموز ، هنا مملكة اينانا التي لا تقبل الروابض ولا الخونة للمقدس المكتوب والمحكي . عهرك أيها المكروه طال كل الأزمنة بما فيها أزمنتك التالفة . الأزمنة المرة التي ابتليت بك وقومك الملعونين من الآلهة . قومك الخارجون من التاريخ بقبعة الساحر وأضواء العهر الأرضي ، ها هم الآن ينامون مثل السكارى في أرض المعبد بعد أن طردت المراهقات الجميلات لينام ماعزك البري فيه . أنت غير المتحضر واللاإنساني الذي لم يعرف الآلهة ولم تعرفه هي أيضاً ، وحينما تعرفت عليه طردته من فراديسها الحب . الآلهة لا تنام أيها المسعود بالرجز الآثم . الآلهة لا تموت أيها الشمر المذهب الأطراف بعمامتك المدوية وأسنانك الصفراء مثل مخبول بحب القتل . ها هي الآلهة تنساح عميقا ، تتركك إلى حين حتى إذا ما اكتمل موعد قمرك شرحتك المناجل المدماة

باللوثة ذاتها ، لوثة قتلك ، ولوثة عهرك ، ولوثة اشتراعك على الآلهة . أنت لا تعرف من كل حياتك غير لبن الماعز والخيام الوبرية ، لا تعرف ما الذي تعنيه الأرض والنهر والفرات والدجلة . سرك غير المقدس لا يكشف لك الالتفاعات الدميمة في وجهك المتعب والمضرج بالدماء . فأنانيتك اللئيمة هي عنوان ترحالاتك . حيث تقتل كل شيء في طريقك ، وكأن هذه الأرض موعودة بالقتلة دائما . هذه الأرض ضمت الكثير من الزناة ، والكثير من العتاة ، والكثير من القتلة ، لكنهم كلهم ذهبوا فهل تساءلت في سرك أي مصير بانتظارك . لن تستطيع السؤال حتما ، فشخص بمثل إليتك المطهمة لا يستطيع اكتشاف اللعنة المخبوءة للقتلة ومحتلي الأرض . إنه نوع من العماء أصاب كل الذين قبلك وسيصيب الذين بعدك ، إذ مكتوب على هذه الأرض أن تزيل وجه الطغاة في كل مرة وفي كل الأزمنة . وقتها أيها الراعي القميء لن ينفعك الفرس ، ولن تنفعك دعاوى الحاخامات ، ولن ينفعك أيضاً تذللك الرتيب على بوابات واشنطن . أيها العقور والغارق في الدم ، إحذر السيل القادم ، إحذر الزبد المشرئب في مواجد الزمن المر . إحذر من غضبة الأرض ولعنتها الأبدية . في الزمن القادم ، حينما يشلحونك من عقابيلك ويدفعونك الثمن غاليا جدا ، وقتها لن ينفعك الصراخ . لن تنفعك ابتهالاتك المدوية على عرجون الوقت ، حيث الألسن كلها تطالب بقطعك الزمن والوقت واللحظة المتأسية . دمك الأزرق سوف تشربه البغال ، ورأسك سوف يكون مذاقا رائعا لنسور ايناننا البهية . في معبد الزمن ، سوف تشلحك الطيور الضاجة من فروة الرأس ، وسوف تجتمع الذئاب المقدسة لنبش تربتك الآيلة إلى المحيض . مخاض عسير ، لكنه حتمي أيها الغارق في الماستاو والحروب والخاوات . شفق روحك المبتئس ، عصارات الألم الممخض ، كلها تصرخ في الوديان

الحجرية . ألقموا هذا السفيه حصى المهانة . الآلهة الوثنية ومجلس اللوردات الإلهي يجعلونك في آخر ركب الإنسانية . ولم في الأخير فيما مقعدك محجوز في الزمن العاري . أيها الخرتيت الضاج في بحيرات القتل المجاني ، كم سفكت أصابعك من دماء المسيحيين . كم سفحت أدرانك اللوثة من دماء التركمان . كم غرقت في بحيرات الدم العربي المقدس . أحضان أسيادك تناديك فاهرب اليها قبل أن تنهار قمم الجبال الأشم فوق رأسك . احمل ماعزك وارحل من أرض ميزبوتيميا . فهذه الأرض وقف للطيبين ، وقف للمسرنمة أرواحهم في الحب . ليس لك مكان أنت وماعزك في أرض الحب الإلهي . الأرض المغبشة دائما بلوحة سومرية وبابلية وآشورية ، هذه الأرض المجروحة من خطاك ، هذه الأرض السنبلة المطحونة في أجران اللوعة الكبيرة .

الأقحوانة العارية على الصدر المضرج بالدماء تلعنك . الطيور المتعالية فوق الأجمات تزدريك . كل الأرض الطباشيرية اللون تكرهك . أنت التائه الذي اقتحمت أرض الثبات الأسطوري لتصنع من خرائك عناوين مبرزة للخيانة . ماالذي تريده بعد أن أطعمتك الأرض من قثائها وفومها . ماالذي تريده بعد أن تبرزت على وجه الأرض المقدس . ما الذي تريده بعد أن قطفت الوجوه العائمة في بحر السكون الأبدي . الأرض أمامك والجبال أمامك فاهرب قبل سقوطك التالي ، سقوطك المدوي وأنت تستبيح عرائس الغد المضرج بالدماء . أقنومك أيها الوحشي يضارع الأقانيم المتوحشة . صوت جلجلتك يشبه صوت اجترار الشيطان للأجساد الطاهرة . في وحي عريك الروحي تذوب المسلمات العشر . كنت مثل زوبعة تطارد الريح فاكتشفت أن ريحك ليست إلا هباء . ها هم ضحاياك أيها الوثني ، أيها المتعبد في غار زرادشت . ثنايا روحك الغر وحش

يصطفق في أعالي الفرات ، لكن الصياد لم يزل هناك . أهرب بقطيعك أيها الوحشي . عد إلى منابت الشر في إقليم التوحش المطرد ؟ في أرمينيا أو سواحل البحر الأسود أو أي ريح حملتك مثل هولاكو إلى أرض ميزوبيتميا ، أخرج من قائمة المطهرين واغرق إلى الأبد في دماء أصحابك . الضحايا لم أزل أسمع أصواتهم خارجة إلى من عمق الأرض ، ملائكتي المثمنون يلعنونك وأنت خلف ماعزك البري اللئيم . لقد أخطأت أيها الوثني حينما أردت خلقك مثل الآخرين ، وكان جديراً بي أن أخلقك من مارد اللهب المسود . كتلة من الخراء كنت وكتلة من الزرجين كانت عيناك اللاهبتان من مص الدماء . أنت لست إلا قرادة كلبية في جسد آدمي ، أو خرقة متسخة بدورات النساء الشهرية . فاخرج منها إلى فلواتك القديمة والطرق البرية التي قدمت منها ملعونا مدحورا إلى أبد الآبدين .

هاهو صوت الدبابات يرعد . أصوات المدرعات يزمجر ، وأصوات صراخ الجنود مثل أبواق على أبواب أريحا . ها أنت أيها الوطن تقف مرة أخرى في محراب الغزو . استباحك القوادون واستباحتك القبائل الوحشية . ابن العلقمي فتح بوابات القلاع فاندفع القيظ يشمر عن ساعده الملتهب . إنه الغزو المرير . لأول مرة أشاهد وطني تغزوه الرياح ، تغزوه الجنود . لم أستطع التخيل . ماتت لدي أعاصير الحب وبدا العقل أشبه بألة قديمة غير قابلة للسير والدوران . أكل هذا يحدث وأنت على أبواب غرفتك الهرمة تراقب استباحة الأرض . لقد فعلها الملعون ، وها هم بغاله الوحشية - البيشمركة - يتقدمون الجنود الأتراك في اقتحام حصن الأرض وعرض الوطن . كان قوادا كبيرا ، وكان بغياً نامت تحت كل الرجال إلا رجال الوطن . اهتز جسمي ، ارتعش في محراب الاحتلال . لم أستطع التصور أني أعيش الاحتلال . هنا بدأت منظومة فكرية أخرى بالعمل ،

منظومة أني أعيش الآن تحت سلطة الاحتلال . بوهن ، بهروب كلي للذهن ، انسحبت من بوابة الدار إلى غرفتي . وجدت زوجتي وقد استيقظت من أحلامها المريرة لتسألني . لم أكن أستطيع أن أقول لها قد نفشت الذئاب في حملاننا . أنا وهي لم نعش الاحتلال . لم أستطع التكلم ، كان جسمي يهتز للواقعة المدوية . للألم الممض الذي غرقت فيه . أشرقت الشمس فحملت نفسي بارتعاشها وذهبت إلى مقر الحزب الشيوعي القريب من غرفتي . وجدت الحارس يصنع له شايا دون اهتمام ، قلت له إن الأتراك احتلوا زاخو ، لكنه لم يعرني اهتماما . الدبابات كانت تسير من أمام المقر لتطوق المدينة . قدم لي الحارس قدحا من الشاي المحروق ، لكنني لم أشربه . لم يزل جسدي يرتعش . إنها المرة الأولى في حياتي أكون فيها تحت الاحتلال . كنت أفكر بأن حارس المقر سوف يشاركني الآلام التي تشبه آلام المخاض ، لكنه أخذ يشرب الشاي ببرود ويقرأ في كتاب رأس المال . انتظرت في المقر وقتا طويلا عسى أن يأتي شخص آخر غير الحارس ، لكن لم يأت أحد باستثناء مسؤول المقر المناوب وهو كردي من كركوك . كان العاهر يبتسم حينما رآني ودعاني هو الآخر إلى شرب الشاي . أخرج صمونا من جيب معطفه وجبنا متصلبا من خزانة أوراق وراح يأكل . قلت له ألم تشاهد الاحتلال . فضحك ضحكة قصيرة واستمر بتقطيع الجبنة . قلت له إن من المؤكد أن حزبكم سوف يكون ضد الاحتلال ، وسوف يرفع السلاح . قال كاكه لاح لماذا أنت عصبي المزاج اليوم . بهت من أجابته المريرة . واستمر هو بنشر جريدة طريق الشعب ليضع عليها الصمون والجبنة . أعتقد أن الحزب سوف يقاتل الاحتلال . فاستغرب إجابتي وقال مستفسرا لماذا ؟ الأتراك احتلوا الأرض . أجبت وأنا أشير بيدي إلى خارج المقر . شنو يعني ، أجاب بدون

اهتمام . . صعقني جوابه ، كان أشبه بطن من الحديد المصهور سقط على رأسي . تركت المقر ورأس المال وخرجت إلى الشارع دون هدف . كنت أسير بصعوبة بين الجنود الأتراك وكلابهم من البيشمركة . وبصعوبة كنت أقفز من هذا الجانب من الشارع إلى الجانب الآخر خوفا من أن تدهسني العربات المدرعة والدبابات . كانت هناك غصص ترتفع إلى الحلقوم . شيء مدو كان يتفجر في . سرت مثل المجنون في الشوارع . ذهبت إلى المقاهي ووجدت الأكراد يأكلون الماستاو بالخبز ، ويشربون الشاي بكل برود . بصقت على الأرض وثمة شعور بالتقيؤ يداهمني . أطفال الأكراد في الشوارع فرحين ويحملون الصمون إلى الجنود الأتراك مهللين ومرحبين . كنت الوحيد الحزين في هذا المشهد المؤسف . شعور الانفراد بالحزن أخذ يضرب رأسي بمطارق كبيرة . بالكاد كنت أسحب أقدامي المرتبكة . التقيت بأبي عماد الشحاذ وهو يتكئ على عكازة قديمة . كان هو الآخر حزينا ومبهوتا . الدهشة عقدت لسانه . شعرت بنوع من التضامن معه ، بل التضامن الكلي . قال لي بحزن وبعصبية إن المنيوك عملها كما عملها مع الإيرانيين سابقا . وجدت شخصا يعلن التضامن معي ضد هذه التفاهة . كنت أريد أن أحارب بكل شيء ، بكل شيء ، لا أستطيع أن أقف صامتا فيما أرضي تحتل تحت كل المبررات . أين سامي قبوط ؟ قلت . فأشار أبو عماد أنه لا يعرف . قلت فلنذهب إليه في البيت . سرنا في الشوارع مثل التائهين . كان أبو عماد عصبيا للغاية وهو يرمق الجنود الأتراك والكلاب المتمسحة بهم ، وهم ينظمون حركة السير للمركبات العسكرية ، ويبعدون المارة عن النزول إلى الشوارع من أجل إعطاء الجنود باقات ورد الوطن . روحي في تلك اللحظة كانت تريد أن تبصق على الجميع . على الكلاب المتشحة بالخيانة والأتراك والمارة . كنت أشعر أنهم يطعنون الوطن ،

يمزقونه . أنا أمام وطني للمرة الأولى في حياتي ، فأي مسؤولية خطيرة وأي رعب . وصلنا الكيستة ودخلنا الحواري الضيقة . وعند البيت الذي يسكن فيه سامي قبوط توقفنا . لاحظنا سامي قبل أن نطرق الباب فأومأ لنا أن ننتظر . مرت الدقائق فائرة ملتهبة ، متماوضة . كان لا بد من عمل شيء ، أي شيء حتى وإن كان كلمة . فتح سامي الباب وانزلقنا إلى الداخل ثم إلى غرفته في الطابق الأعلى . كان سامي هو الآخر مذهولا من مرأى الجنود الأتراك وهم يقتحمون الحدود وينتشرون في المدينة . ماذا سنفعل ، أو يجب أن نفعل شيئا . قال سامي انتبه إلى نفسك جيدا . أنا قبلك في شمال العراق ، ولو فعلت شيئا فسوف يقتلك البيشمركة وتذهب بول بشط . لكن هذا كثير ، كثير وأعصابي ستنفجر ، من يدري ، ربما سأحمل رشاشا وأنزل إلى الشارع لأقضي على كل شيء . مرة أخرى طلب مني سامي الهدوء ، وأن أريح أعصابي قليلا . لن نستطيع أن نفعل شيئا . لن نستطيع صدقني . إنها لعبة قذرة .

إنهم يريدون احتلال كل المنطقة الشمالية للقضاء على جماعة عبدالله أوجلان وبالتعاون مع مسعود . لقد دفعوا لمسعود أموالا كثيرة لقاء هذا العمل ، ضمنها عشر شاحنات من الأسلحة . تركنا سامي ونزلنا إلى الشارع ثم ذهب أبو عماد في اتجاه معاكس لاتجاهي . بقيت وحيدا في الشارع . الصبية الأكراد يركضون خلف السيارات العسكرية ويرشقونها بالزهور ، أما الكبار فكانوا يلعبون الدومينو والطاولي في المقاهي . قررت أنه من التعس جدا أن أبقى في الشارع لأشاهد هذا المشهد المؤلم ، وقررت الذهاب إلى الغرفة . في الطريق شاهدت أبا فيصل يتمشى مع عدنان فانحرفت إلى جهة الشارع الأخرى كي لا ألتقيهم . كان أبو فيصل يبدو سعيدا وهو يسير بجانب عدنان ، ويتجهان لسوق الدولار وسط البلد ، لم

يستطيعا أن يلمحاني ، وشعرت بأن هما تجاوزته بمرارة . وصلت الغرفة وجلست أدخن بشراهة ، كنت مضطربا ومشوشا ، عشرات الأحاسيس المتداخلة كانت تنقض على قلبي وروحي . لم أكن أستطيع البقاء في الغرفة جالسا فقط لأدخن . كان شيئا مريرا أنك لا تستطيع أن تفعل شيئا أو أن تتكلم حتى على سبيل الرفض ، إذا ماسمعك أحد التابعين لجماعة مسعود فإنه يمكن أن يلقي بك إلى الأبد في السجون السرية الكثيرة والمتعددة . حادثة مرت قبل أيام حيث اختفى محسن مسؤول جماعة الجبور ، وبالرغم من أن زوجته أخذت تبحث عنه في كل مكان متوقع من سجون مسعود ، إلا أنها لم تستطع إيجاد أثر له ، الشيء الوحيد الذي كان يقوله لها المسؤولون من جماعة مسعود إنه هرب إلى الحكومة ، وكان هذا شيئا غبيا جدا ومضحكا للغاية ، إذ يتصورون أن العرب أغبياء مثل . . . . . خطرت في ذهني أنه يجب أن أخبر نجيب الصالحي بأمر الاحتلال التركي ، خاصة أن الإذاعات لم تأت على ذكر الأحداث هنا حتى الآن . ذهبت إلى السوق مرة أخرى ودخلت محلاً للاتصالات التلفونية . كان صاحب المكتب صديقي ، وطلبت منه أن يتصل على الرقم الذي أعطيته له . جلست وأنا لم أزل أشعر بالاضطراب والتشوش . لمحت أبا فيصل وعدنان وهما يتجهان بعد أن خرجا من سوق الدولار إلى مكتب مخابرات مسعود (الباراستن) . مرت عشر دقائق ثم استطاع صاحب المكتب تأمين الاتصال . كان نجيب الصالحي على الطرف الآخر . قلت بسرعة له حتى أختصر من كلفة المكالمة أن الجيش التركي دخل . وإذا بيد تخطف سماعة التلفون بقوة . ارتبكت ورفعت رأسي ، كان هذا صاحب المحل الذي قطع الاتصال بسرعة وغضب . ماذا تفعل كاكه ، لو لم تكن صديقي لأخبرت الباراستن عنك . لماذا ؟ قلت . ممنوع نقل الأخبار . قال بتوتر شديد ووجه

متعصب . حاولت تطييب خاطره واعتذرت منه ، لكنه بقي خائفا ومتوترا . غادرت المكتب ولم أحاول أن أكرر الاتصال مرة أخرى . من حسن الحظ أن أحدا لم يكن في المكتب ساعتئذ . بقيت تائها في الشوارع دون أن أعرف ما الذي سأفعله على وجه التحديد . لم تكن لدي رغبة في البقاء دون أن أفعل شيئا ، أي شيء . فقررت الذهاب لرؤية أبي سيف في دهوك . في الطريق إلى دهوك كانت الدبابات التركية تتدفق بسرعة كبيرة ، أما المدافع الكثيرة العدد فاستقرت في المنطقة الواقعة بين دهوك وزاخو . كان العلم التركي يغطي كل الدبابات ، ولاحظت أن الأتراك قد أقاموا معسكرات مرتجلة في سهل دهوك . وصلت ، وبعجالة كبيرة ذهبت إلى حيث يقيم أبو سيف في أحد الفنادق الواقعة بمحاذاة الشارع الرئيسي . لم يكن أبو سيف موجودا فاضطررت إلى الانتظار حتى عاد وهو يحمل معه مجموعة من الجرائد . جلسنا في صالة الفندق الفارغة ، وطلبنا من النادل أن يأتينا بالشاي . قلت لأبي سيف ، هل علمت با الذي يجري . هز رأسه وقال إنه علم به منذ منتصف الليلة الماضية ، أي ساعة الشروع . ما العمل . قلت . لم يجب أبو سيف وتنحنح وبصق بلغما تجمع في حلقه . لا أستطيع الصبر ، جسمي يحترق وأعصابي مشدودة للغاية . سوف أكتب بيانا وأرسله إلى الصحف العربية . هب أبو سيف فجأة وقال لا ، لا تفعل أي شيء لخاطر النبي . دعنا ننتظر ما سيحدث . ماالذي ننتظره ، إنه عار . قلت . أبناء القحبة كانوا في مقدمة الجيش التركي في احتلال الوطن . وهل هذا شيء غريب بالنسبة لهم . أتعرف مكتب اتصالات موثوقاً لإرسال بيان ، قلت . . هز أبو سيف نافيا ، لا أعرف مع الأسف ، كلهم يعملون لصالح الباراستن ، إنه نظام دكتاتوري أخو قحبة ، قال . يقولون إنهم ديمقراطيون أبناء النعال ، وحدثته عما جرى لي في مكتب الاتصالات في

زاخو . كان هذا متوقعا ، ومن حسن حظك أنه صديقك وإلا لاختفيت إلى الأبد ، قال . ذهبت إلى الشيوعيين في مقر زاخو ، ولم أجد غير الحارس وأحد الأعضاء ، لم يهتموا بأي شيء ، مثلهم مثل قيادتهم ، شيء عجيب وملفت للنظر . ضحك أبو سيف ، وما الذي ستتوقعه من حزب يستلم أموالا وأسلحة من الاسرائيليين . على أية حال البيهم مكفيهم ، قال . لكنه شيء غير عادي ، شيء مخيف ، احتلال الوطن . نعم ، أجاب أبو سيف . الأطفال يركضون خلف العربات العسكرية ويقدمون الزهور إلى الأتراك ، تصور ، هذا الجيش التركي الذي جاء لقتل إخوتهم من أكراد تركيا ، قلت . إنهم بلا وازع وطني ، ليس لديهم شعور بالوطن ، إنه ملغى تماما من قاموسهم ، قال . حتى الكبار في السن لم يهتموا بما يحدث ، قلت . لقد تعودوا على حياة أحزابهم ، بالنسبة لهم مايحدث شيء طبيعي ، عندما يخون الإنسان مرة يستطيع أن يخون مائة مرة ، الشعور بالوطنية مثل الغيرة ، والغيرة مثل الشعرة عندما تنقطع تسقط كل المقدسات ، هم ليس لديهم شعور بالوطن ولذلك ليس لديهم إحساس بالاحتلال ، لقد تعودوا على هذه الحالة ، قال . مؤسف جدا ما يحدث لهم ، قلت . لا تهتم بهم فهم يسيرون مثل القطيع خلف قياداتهم . جاءت استكانات الشاي وشربنا على مهل . قال أبو سيف إن هناك أمراً يريد أن يحدثني به ، ماهو قلت . أحد الأغوات يريد تأسيس حزب سياسي يريد الالتقاء بك وبي في منزله . قلت باستغراب : ومن أين يعرفني . أنا حدثته عنك . قال أبو سيف بتردد . أنت تعرف أن لي وجهة نظر بهذه الأحزاب ، قلت . أعرف ولكن الرجل يريد أن يراك ولن نخسر شيئاً ، فلنذهب ونرى . لا بأس أنا أثق برأيك ، متى الموعد؟ تساءلت . اليوم إذا شئت ، قال . لكن لن نتأخر زوجتي سوف تقلق ، قلت . اتفقنا . أجاب أبو

سيف . لكن هذه ليست موافقة . قلت بعجالة . أفهم ما تريد قوله والمكان ليس بعيداً من هنا إنه في سميل ، قال أبو سيف . نزلنا من الفندق واستأجرنا سيارة إلى سميل ، على الطريق كانت الدبابات التركية رابضة فيما بيشمركة مسعود يحرسونها . وصلنا بعد نصف ساعة وسرنا إلى بيت الآغا الذي كان يقع في أطراف سميل . كان البيت عاديا جدا ، وقرب البوابة ثمة ماعز يلتهم أكياس النايلون . قلت لأبي سيف إن الموضوع كله لايستحق المجيء ، أنظر إلى القذارة التي تحيط بالمنزل والماعز المتوحش هذا . ابتسم أبو سيف ابتسامة صغيرة ودخلنا مباشرة إلى المنزل ، دون أن نطرق الباب كالعادة هنا . بعد الطارمة استقبلتنا بوابة خشبية مفتوحة ، فدلفنا إلى الداخل وانتهى بنا الممر القصير إلى غرفة الضيوف . كانت الغرفة بائسة تماما ، وحشيات للجلوس تحيط بالجدران الأربعة ، وثمة بندقية كلاشنكوف تستقر في أحد الأركان . لم يكن أحد في الغرفة - المضيف - بعد نصف ساعة كاملة جاء شاب كردي ينتعل حذاء رياضيا ممزقاً ورحب بنا . وقال إن الآغا سوف يأتي بعد قليل . لم يضيفنا أحد ، وبقيت أنظر إلى الغرفة والفرش الممدود بتبعثر واضح . كنت أريد أن أستجلي الأمر وأخرج بانطباعات عن هذا الآغا . انقضت النصف ساعة ودخل شخص تصورته الآغا ، لكنه لم يكن هو . دخل هذا الشخص وجلس بدون سلام على إحدى الفرش الممدوة ، وأخذ يدخن بلا اهتمام معين . قلت لأبي سيف يبدو أن صاحبك هذا غير جدير بتجشمنا عناء السفر إليه . استغرب أبو سيف كلامي وهو يتساءل عن السبب في حكمي هذا . قلت ، كل شيء يوحي بذلك ، الموضوع لا يعدو أن يكون إلا نكتة سمجة . صاحبك هذا عضروط ليس أكثر ، إذ لا أثر يوحي بأنه آغا . ابتسم أبو سيف . بعد ذلك بدقائق جاء الآغا . كنت أتصوره كما هو

معروف عن الأغوات أنهم ضخام الجثة وأصحاب كروش مرتفعة . لكن هذا لم يكن مثلهم ، إذ كان ضئيلا وبلا كرش . رحب بنا الآغا وطلب أن يتم تكريمنا . وبالفعل جاء الشاي ودارت السجائر علينا حسب الطريقة الكردية ، بأن يرمي صاحب الجلسة السجائر على الحاضرين وهو في مكانه ، وعليك أنت أو الآخرين تلقف السيجارة مثل كلب سلوقي .

بعد التحيات وأحاديث المجاملة والزمط من قبل الآغا . عرف أبو سيف كلينا على الآخر . كان الآغا اسمه أبو حاجي ، أما ابنه حاجي ، فكان يسير بنصف نعال . قال أبو حاجي بدون مقدمات إنه يريدنا أن نكون بحزبه الجديد ، وأخذ يشرح لنا نظرية حزبه المضحكة ، والتطورات في الأقليم الكردي والتطورات العالمية . كنت أشعر بالابتسام اللاارادي وأنا أتابع أبا حاجي وهو ينتقل من موضوع إلى آخر دون مقدمات وفواصل ، مما أضاع علي الخيط والعصفور ، ولم أعرف بداية الموضوع من نهايته . قلت لأبي حاجي إن الحزب الذي أنتمي اليه يجب أن يكون حزبا وطنيا ، فقفز من مكانه وقال إن هذا هو مايريده أيضا ، ثم أخذ يسترسل في الحديث عن الحزب ، وأنه سوف يقوم بحملة دعائية كبيرة لصالح الحزب ، وسوف يأخذ ترخيصا من جماعة مسعود . بعد دقائق دخلت مجموعة من الأكراد إلى (المضيف) وعرفنا عليهم قائلا إنهم كوادر الحزب . جلست الكوادر على الأرض مثلنا ولم يتكلم منهم أحد ، أما أبو حاجي فبقي يتحدث عن المشاكل التي يواجهها من قبل جماعة مسعود ، والمتعلقة به كسياسي عراقي وأنه يدعو إلى الوطنية العراقية وضرورة نشوء أحزاب وطنية حقيقية . كان كلامه لطيفا ، خاصة عندما أخذ يبرز الوطنية العراقية على حساب القومية والفئوية . بعد الحديث الطويل ، مد السماط وجاءت الصحون المعدنية الكبيرة وهي مملوءة بالبرغل واللحوم . واقتربنا ، وكان من

المثير للدهشة حقا أنني كلما أمسكت بقطعة لحم يتبين لي أنها ليست إلا عظماً . أخذ أبو سيف يتابعني وأنا أقلب العظام دون أن أجد أثرا للحم ، ثم استسلمت في النهاية لأكل البرغل وحده . بعد وجبة الغداء وشرب الشاي ، تركنا أبو حاجي لنعود إلى دهوك ، وفي الطريق قلت لأبي سيف لاأدري إلا أني أشعر أن أبا حاجي هذا ليس إلا نصابا . لا ، لا أعتقد . قال أبو سيف ، ولم أعلق بدوري . وصلنا إلى دهوك ، ومن هناك أخذت سيارة أخرى للوصول إلى زاخو . عندما وصلت البيت قالت زوجتي إن أحد عناصر الوفاق جاء وترك لك هذه الرسالة . استغربت الأمر وفتحت الرسالة لأجد فيها أن محمد خورشيد سوف يصل بعد غد إلى زاخو ، وأنه يحمل لي أمانة من نجيب الصالحي . سألتني زوجتي عن الرسالة ، فقلت لها ما هو موجود فيها ، وأن الأمانة في الغالب هي ثمن فيزة السفر لتركيا ، عرضت عليها ما فكرت فيه من أمر السفر بالمبلغ الذي سيرسله الصالحي ، وأن هذا هو أملنا الوحيد ، فاستحسنت الفكرة ، وقالت إنها ستأخذ استخارة في القرآن . في اليوم التالي وفيما أنا أسير في السوق ، التقيت بأبي سيف ، الذي قال إنه جاء ليقابلني بشكل مستعجل ، وإنه يحمل لي رسالة شفهية من أبي حاجي . ضحكت وقلت هات ما عندك . قال إن أبا حاجي يطلب مساعدتك للقاء محمد خورشيد لأمر ضروري . ترى ماذا يريد من محمد خورشيد ، قلت لأبو سيف الذي قال إنه هو الآخر لا يعرف ، إلا أن أبواحاجي قال إنه يريد ومعه أعضاء المكتب السياسي للحركة ، مقابلة محمد . مكتب سياسي . قلت باستغراب ودهشة : أي مكتب سياسي . قال أبو سيف نحن . ولكننا لم نتفق معه على شيء ، قلت باستغراب أكثر ، أشعر أن هذا الرجل سوف يورطنا بما لا تحمد عقباه . ليس هذا مهما . قال أبو سيف . كيف لا يا أبا سيف ، وها أنت تسمع

ماقال ، أي مكتب سياسي ، إنه ينصب علينا ويريد أن ينصب على محمد أيضا . اعتبرني منسحبا من هذه اللعبة ، قلت . لماذا الاستعجال ، ليس هناك نصب ولا من يحزنون . قال أبو سيف وهو يشاهد أعصابي التي بدأت بالانفعال . كيف يا أبو سيف إنه يستغلنا . لنجتمع مع محمد خورشيد ونرى ماذا وراء هذا الرجل ، صدقني ليس هناك شيء سيىء في الموضوع . بقي أبو سيف يتحدث عن أبي حاجي ومساعدته في اللقاء مع محمد . وفي النهاية وافقت أن أكون معهم . في اليوم التالي جاء أبو حاجي الذي التقيناه أنا وأبو سيف في فندق وسط البلدة ، يستعمله أعضاء الوفاق كمقر مؤقت لمبيت أعضائهم . كان مع أبي حاجي الذي جاء وهو يرتدي بذلة جديدة ابنه حاجي ، وكان ينتعل نعالا مقصوص الطرف ، ومعه أيضاً بعض الكوادر . في الاجتماع جلسنا أنا وأبو سيف بعيدا عن أبي حاجي وجماعته ، وبشكل يوحي للمقابل أننا لسنا معه . جاء محمد خورشيد ، وقام أبو حاجي ليعرفه بنفسه وبالرفاق أعضاء المكتب السياسي ، وبنائب الأمين العام للحزب - حاجي ابنه . أردت أن أضحك لكن أبا سيف قرص ذراعي ، وبقينا نستمع إلى ما يقوله الأمين العام . في البداية استعرض أبو حاجي تأريخ الحزب الذي تبين أنه حزب قديم جدا ، وهذا ما لم نعرفه نحن لسوء الحظ . ثم عرج على التهديدات التي يتعرض لها من قبل جماعة مسعود والحكومة على حد سواء ، وبعد طول شرح فإذا بأبي حاجي يطلب من محمد خورشيد فجأة ، أن يسهل له ولحزبه خروجهم من العراق . كان محمد خورشيد يستمع فقط ، أما أنا وأبو سيف فقد تلبسنا العجب لهذه الاستدارة العجيبة ، وهذا اللف والدوران الطويل لينتهي كل شيء إلى طلب الخروج . انتهى الاجتماع وكان محمد قد وعد أبا حاجي أن ينقل طلبه إلى إياد علاوي . خرجنا من الاجتماع ونحن

مبهورين من طلب الأمين العام ، الذي أخذ كوادره ونائب الأمين العام ونزل من سلالم الفندق دون أن يودعنا . في اليوم التالي جاء أبو سيف إلى زاخو ، ليقول لي بقلق إن أبا حاجي اعتبر مسألة السفر بواسطة حركة الوفاق مضمونة ، وأنه لهذا السبب أخذ يسجل في قوائم خاصة كل الأكراد الذين يريدون الخروج إلى خارج العراق مقابل مبلغ محترم . ضحكنا أنا وأبو سيف طويلا ، واعتبرنا كل الأمر لا يعدو أن يكون نكتة كبيرة أضحكتنا في هذا الزمن الأسود الحقير . وفي الواقع كان لهذه النكتة وقع طيب على أنفسنا إذ أنستنا لبعض الوقت الاحتلال التركي للأرض العراقية . ودعت أبا سيف الذي عاد إلى دهوك ، ورجعت إلى غرفتي عبر الطرق المزدحمة بحيوات الناس . وفي المساء اتصلت بنجيب الصالحي الذي حدد لي موعدا للقاء في أنقرة . سلمني محمد المبلغ الذي أرسله نجيب الصالحي لي ، وذهبت إلى سوق الدولار حيث اشتريت جوازا بحالة جيدة ومرتفع الثمن ؛ لتلافي الإشكالات على الحدود التركية . كانت دبابات الاحتلال قد تموضعت في أماكنها ، وكذلك الجنود الأتراك الذين أتخموا المدينة بأجسادهم . كانت الدبابات والمدرعات التركية قد احتلت كل زاخو ، ولم يبق شارع دون أن ترى فيه أسلحتهم الموجهة نحو اللامكان ، خوفا من مقاتلي عبد الله أوجلان . الدم يحترق والروح متأججة ، لكن الأكراد كانوا مطمئنين تماما إلى هذه القوات . كان ثمة شعور يدمرني ، وهو أن كيف أسير وآكل وأقبل أطفالي فيما الاحتلال على الأرض . لم أستطع ، بالرغم من أنه مضت على الاحتلال أيام ، أن اسيّر حياتي بدون اضطراب ، وبدون حقد مقدس على مسعود وعلى الاحزاب الكردية التي جعلت من شمال العراق ساحة مفتوحة لكل من هب ودب . كنت أتمنى أن يدخل الجيش العراقي ليزيح كل هذه الترهات

والأحلام السيئة والواقع القذر ، لكن الجيش العراقي لم يتقدم ، بالرغم من أننا سمعنا أنه قد أعلن الإنذار ، وأن القوات الآن في حالة تأهب كبير . ترى ماذا يخبئ القدر ؟ ماذا تخبئ الأحلام المتورمة لهذه السفالة والخيانة التي تجري على الأرض . بالرغم من أن الاحتلال قد مضت عليه أيام ، وبالرغم من أن كل شيء يسير على الأرض بشكل طبيعي ، إلا أن روحي لم تستطع التأقلم ، لم تستطع هضم كل هذا السفلس والزهري المنتشر بلا هوادة . من غرفتي انظر إلى مقام رياض إبراهيم . ها أنت ترقد في الأرض في اتحاد مذهل وحميمية كبيرة ، لماذا تتركنا لنواجه الأقدار والاحتلال ونحن بلا سلاح . وإذا مافكرنا بمقاومة فإن أول يد ستقتلنا هي يد هؤلاء الأكراد وقادتهم المرتزقة . لماذا الارتزاق ولماذا الخيانة . ما هو التركيب الكيمياوي للخيانة والعهر السياسي والوطني . كيف يمكن أن يخون الإنسان وطنه . سؤال محير والإجابة أصعب من التساؤل . هؤلاء الأكراد من الذي زرع في قيمهم الروحية كل هذا الحقد على العراق ، بالرغم من أننا سمحنا لهم بالتحدث بلغتهم ، وبممارسة شعائرهم الزرادشتية ، ومنحناهم كل شيء إلا تشطير الوطن . لكن للأسف ذهب كل شيء هباء ؛ فالعقول متسخة بلوثة الخيانة ، والكردي لن يستطيع الذهاب بعيدا عن قدريته السماوية .

زاخو ، بالرغم من امتلائها بالناس ، فارغة . الشوارع عارية ، فكرت أن أذهب إلى مقر الحزب الشيوعي لاستجلاء ماهو جديد قد يبدر من هذا الحزب عن الاحتلال ، لكنني لم أجد شيئاً جديدا في المقر سوى معزة أضيفت إلى كادر الحزب ، لتزويد الرفيق الحارس بالحليب ، كل شيء على حاله إذن . الحارس يتدفأ بالقرب من المدفئة ، والعاصفة تنوح في الخارج ، أما كتب لينين فهي مرمية على جوانب الغرفة بعد وجبة قراءة على

مايبدو . سافرت إلى دهوك من أجل الحصول على الموافقات الرسمية لسفري ، والتقيت بأبي سيف الذي قال لي إن أبا حاجي وجد مقتولا بالقرب من بيته ، ولم نعرف من الذي قتله ، وإن كنا نتوقع أن جماعة مسعود هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، بناء على ديمقراطية أثيرة يتبجح بها مسعود وجلال ، لكن بمجرد أن ترفع رأسك أو صوتك بأي شيء يخالف آراءهم توجه إلى رأسك فوهة البندقية ، وتلقى إلى أقرب مزبلة أو رصيف . والتبرير جاهز من قبلهم ، وهو أن النظام هو الذي قتلهم . وجوم كبير يلف المدينة ، كل شيء غائص في الضباب الكثيف الذي يلف أرواحنا . أنهيت إجراءات السفر سريعا ، وبعد أن قدمت الكثير من الرشاوى ، بعد ذلك عدت إلى زاخو التي كان مدخلها يزداد كآبة ، ولم أكن أعرف إن كانت هذه الكآبة هي كآبة روحي أم كآبة المدينة التي تمتلئ بالديدان السامة والعقارب المذهلة اللسع . جهزنا حقيبتنا الوحيدة أنا وزوجتي ، ثم أخذنا سيارة إلى نقطة الحدود ، يشيعني مشهد الاحتلال الرابض على الأرض وأصوات الجنود الهستيرية ، وقفزات البيشمركة وهم يبعدون المارة من أمام دبابات الاحتلال .

الموت . . موت . . الأغنيات . . أغنيات . صوت الجوع يتغير إلى نواح رافديني طويل . تسير السيارة بنا بسرعة ، وعيناي ترمقان كل شيء وكأني أسجل للذاكرة انتهاء زمن وبداية أزمان أخرى . وحينما وصلت نقطة الحدود ، تركت العالم الأثيري الموغل في حقارته ، ولأدخل عالماً جديداً مليئاً باللاحرب واللاحزن ، أما الوطن فبقي خلفي يئن من الجراح لمديات غير معرفة وكأنما إلى الأبد .

سلاماً عليك يارياض إبراهيم . سلاما أيها الوطن ونحن نفر منك إلى المجهول الآخر ، سلاماً ياجبال بخير وشقلاوة . سلاما لمكتبات الجوع المزمن

والكتب المصادرة . البيشمركة ينتشرون على الطرقات . البيشمركة ينامون تحت كل المسميات . شعرت بالاختناق وأنا أقدم أوراقي لمكتب الحدود ، أطفالي صامتون ، أما زوجتي فكانت مثل حجر الصوان القاسي وهي تضع آخر الشهادات عن الزمن المر . سلاما أيتها الروح ، والبهاء المتطاول لك أيها العراق ، لم أكن أدري ولا في علم الغيب هل سأقبلك مرة أخرى أيها الوطن ، أم أني سأضيع من جديد في طرقات السفر الملتوية والهائمة . هذه هيماناتنا الجديدة . مسلخ الدروب المتعرجة ، ونحن مثل غجر الجبال العارمة ، سوف نتوه في المؤانى والطرقات ودروب المهربين المتشحة بالألم . أنظر إلى زاخو بوجع الأوجاع . أنظر إلى زاخو فأتمثل كل الوطن المعذب . سلاماً يا رياض إبراهيم . سلاماً أيتها الأرض المقدسة ، سلاما ووداعاً ياعشتار الجميلة وأنت ياتموز الأزل ، البهاء ، الروح ، المهدي ، الوجود ، العدم . التمظهر ، الانحلال ، وداعا يا أم آية وقصائد حسن النواب . وداعا لكل شيء جميل ، ولكل الخيانات التي كنت شاهدا عليها وأنت في غفواتك الكبيرة . سار الزمن . واستلمنا الجواز ثم ارتحلنا فوق جسر الآلام ، وحينما أصبحنا على الجانب التركي من الجسر ، شعرت بالغصص تخنق روحي وأنا أنظر إلى الوطن لآخر مرة ، كنت أختنق ، أتمرد ، أنفعل ، أدور ، أتمظهر ، أنزوي ، أذبح ولم أستطع التحمل ، فبكيت مثل طفل أضاع كل ألعابه . مسكت زوجتي أصابعي ثم قبلتني على رأسي ، أما أطفالي فلم يكونوا يعرفون لذة عذاب الوطن بعد ، فبقوا ينظرون إلى عيوني بقلق شائه ، وهي تذرف الدموع في أبدية طويلة .

صلاح صلاح

أديب عراقي من مواليد بغداد ١٩٦٢

العنوان الالكتروني

Salah352@hotmail.com

إصدارات للمؤلف

١) «تحت ظل المطر» قصص قصيرة ، بغداد ١٩٩٦ .

٢) «مكان لممارسة الحلم» قصص قصيرة ، كندا ٢٠٠٣ .

UNDER THE SKY OF DOGS

رواية
NOVEL

تحت سماء الكلاب



إنّه عمل أدبيّ مميّز يسرد فيه صلاح صلاح حكايات الألم العراقيّ وتغلغل المخابرات الإسرائيليّة في الأحزاب العراقيّة وشمال العراق. تلك المنطقة الّتي اقتطعت من البلد الأمّ لتقام عليها أوكار الخيانة والعمالة بحجّة حماية الأكراد الّذين جنّدتهم المخابرات الإسرائيليّة للعمل ضدّ العراق وسوريّة إنّه عمل أدبيّ وتوثيقيّ مهمّ في عصر انقلبت فيه مفاهيم الوطنيّة، لتوضع بدلاً عنها مفاهيم وقيم جديدة هي قيم التعامل مع الأجنبيّ باعتبارها الوطنيّة والبطولة الجديدة.

عمل روائيّ شفّاف يستحقّ القراءة بجدارة، حيث يضيف المؤلّف لبنة جديدة في صرح الرواية العراقيّة الحديثة.

جريدة المغترب العربيّ / كندا

ISBN 9953-36-781-7

منشورات 2005
Prince Claus Award MAHMOUD DARWEESH
جائزة الأمير كلاوس، هولندة
محمود درويش فلسطين 2005

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨